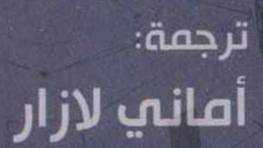
جائزة بوليتزر
عن فئة الأعمال
الخيالية 2015

كل الضوء الذي لا يمكننا رؤيته



أنثوني دور



أنثوني دور

كل الضوء الذي لا يمكننا رؤيته

رواية

ترجمتها عن الإنكليزية:
أماني لازار



كل الضوء الذي لا يمكننا رؤيته



كل الضوء الذي لا يمكننا رؤيته
All the Light We Cannot See

رواية

تأليف: أنثوني دور
Anthony Doerr

ترجمتها عن الإنكليزية: أماني لازار

رسوم الغلاف: منيف عجاج

تصميم الغلاف: فادي العساف

ISBN: 8 - 54 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2018

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا – دمشق – ص ب: / 9838/

هاتف–فاكس: / 6133856/ 11 00963

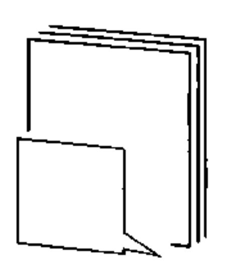
جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق.



منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

إلى ويندي ويل

1940 - 2012

في شهر آب من العام 1944 كانت النَّار قد أتت بالكامل تقريباً على مدينة «سان مالو» التَّاريخية المحاطة بالأسوار، أكثر جواهر السَّاحل الزمردي سطوعاً في بريتاني، فرنسا... من بين 865 مبنى ضمن الأسوار، ظلَّ فقط 182 مبنى منها صامداً وجميعها كانت متضررة إلى حدٍّ ما.

- فيليب بِك

ما كان ليكون ممكناً لنا تولِّي السُّلطة، أو استعمالها بالسُّبل التي نمتلكها، من دونِ الراديو.

- جوزف غوبلز

صفر

7 آب 1944

مناشير

تنهمر عند الغسق من السَّماء. ترتطم بالأسوار، تتشقلب فوق السُّطوح، ترفرف نحو الوهاد بين المنازل. شوارع بأكملها تدوِّم بها، تومض بيض اللون على الحصى.

تقول: رسالة عاجلة إلى أهالي هذه البلدة، ارحلوا في الحال إلى أرض عراء.

يرتفع المدّ. يتدلَّى القمر صغيراً وأصفرَ ومحدَّباً. على سطوح الفنادق المواجهة للبحر نحو الشَّرق، وفي الحدائق من خلفها، ستُّ وحدات من سلاح المدفعية الأميركي تلقِّم فوَّهات مدافع الهاون بقنابل حارقة.

قاذفات القنابل

تعبر القنال عند منتصف الليل. عددها اثنتا عشرة قاذفة، أسماؤها مستوحاة من أسماء الأغاني: «ستار دَست»، «ستورمي ويذر»، «إن ذا مود»، و«بيستول باكين ماما». قُدماً ينزلق البحر بعيداً نحو الأسفل، تبلِّله موجات مزبدة لا تعد ولا تحصى، تتخذ شكل شارات الرتب العسكرية. وبالسرعة الكافية، يستطيع الملاحون تمييز كتل الجزر المنخفضة المقمرة المنبسطة على خط الأفق.

فرنسا.

أصوات متداخلة للهواتف الداخلية. تقلِّل قاذفات القنابل من ارتفاعها، بتأنٍّ، يكاد يكون تكاسلاً. ترتفع خطوط ضوء حمراء من استحكامات المدافع المضادة للطيران، جيئة وذهاباً، على طول السَّاحل. تظهر سفن معتمة محطَّمة، مخروقة أو مدمَّرة، إحداها مجزوزة المقدمة، وأخرى تومض وهي تحترق. على جزيرة أبعد، تهرع سفينة فزعة، بشكل متعرج، بين الصُّخور.

في داخل كلِّ طائرة، يحدِّق رامٍ عبر كوَّة للتسديد ويعد حتى العشرين. أربعة خمسة ستة سبعة. بالنسبة إلى الرماة، تقترب المدينة المسورة بالغرانيت والممتدة على رأس، باطِّراد، تبدو مثل سنٍّ شريرة، شيء أسود ومؤذٍ، خُراج في مراحله الأخيرة جاهزٌ كي يُفرّغ.

الفتاة

في ركن من أركان المدينة، داخل منزل مرتفع وضيّق، رقمه 4، في شارع فوبوريل، في الطَّابق السَّادس والأخير، فتاة ضريرة تبلغ من العمر ستة عشر عاماً تدعى ماري لور لو بلان تركع أمام طاولة منخفضة مكسوة تماماً بمجسَّم. المجسَّم عبارة عن صورة مصغَّرة للمدينة التي تركع فيها، ويحتوي نسخاً مطابقة لمئات المنازل والمتاجر والفنادق ضمن أسوارها. هناك الكاتدرائية ببرجها المستدق المخرَّم، وقصر سان مالو القديم الضَّخم، وصفوف متتابعة من صروح بحرية مرصَّعة بالمداخن. رصيف ميناء خشبي ضيق يتَّخذ مساراً ملتوياً من شاطئ يدعى «بلاج دو مول»، تتحدَّب فسحة سماوية دقيقة متشابكة فوق سوق ثمار البحر، كراسٍ صغيرة، لا يزيد حجم أصغرها عن حجم بذرة تفَّاحة، تتناثر في السَّاحات العامَّة الصَّغيرة.

تمرر ماري لور أناملها على طول المتراس البالغ عرضه سنتمتراً واحداً متوِّجاً الأسوار، ترسم شكل نجمة غير منتظمة من حول المجسَّم بكامله. تعثر على الكوَّة أعلى الجدران، حيث أربعة مدافع احتفالات موجَّهة نحو البحر.

تهمس: «معقل هولندا»، وتهبط أصابعها درجاً صغيراً. «شارع دي كورديه. شارع جاك كارتييه».

في زاوية من زوايا الغرفة ينتصب دلوان مطليّان بالزنك، مترعان بالماء. كان عمُّ والدها قد علَّمها: املأيهما كلما استطعت، المغطس في الطابق الثالث أيضاً. لا أحد يعلم متى تنقطع المياه مجدداً.

عادت أصابعها إلى برج الكاتدرائية. جنوباً نحو بوَّابة «دينان». كانت طوال مساء تمرِّر أصابعها حول المجسَّم، تنتظر عمَّ والدها «إيتيين»، صاحب هذا المنزل، الذي خرج الليلة السَّابقة فيما كانت نائمة، ولم يعد.

والآن حلَّ الليل من جديد، دورة أخرى للساعة، والهدوء يعمُّ الحي بأكمله، ولا تستطيع إلى النَّوم سبيلاً.

يمكنها سماع صوت قاذفات القنابل لأنها على مسافة ثلاثة أميال. تشويش متنامٍ. أصوات الهمهمة داخل صدفة.

عندما تفتح نافذة غرفة النَّوم، يعلو صخب الطَّائرات. بخلاف ذلك، الليل صامت بشكل مريع: لا محركات، لا أصوات، لا قعقعة. ما من صفَّارات إنذار. ما من وقع أقدام على الأرصفة. ما من نوارس أيضاً. فقط مدٌّ مرتفع، على مسافة شارع واحد وستة طوابق نزولاً، تحتضنه قاعدة جدران المدينة.

وشيء آخر.

شيء ما قريب جداً يخشخش بهدوء. تفتح درفة الشُّبَّاك اليسرى وتمرر أصابعها على خشب الدَّرفة إلى اليمين. ورقة أودعت هناك.

تقرِّبها من أنفها. تفوح منها رائحة حبر طازج. ربما بنزين. الورقة نضرة، لم يطل بقاؤها في الخارج.

تقف ماري لور مترددة عند النافذة، حافية إلا من جوربيها، غرفة نومها من خلفها، أصداف مرتَّبة على امتداد قمَّة الخزانة الكبيرة، حصى على طول إزار الحائط. عصاها موضوعة في الزاوية، روايتها الضَّخمة المكتوبة بطريقة بريل مقلوبة على السَّرير. دندنة الطائرات تتصاعد.

الفتى

خمسة شوارع باتجاه الشَّمال، يستيقظ جندي ألماني يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، أبيض الشَّعر، يدعى فرنر بفينغ، على همهمة ضعيفة متقطِّعة. أكثر من خرخرة بقليل. ينقر ذباب على لوح النافذة البعيدة. أين هو؟ رائحة زيت السِّلاح الحلوة، الكيميائية بعض الشّيء، خشب صناديق القنابل المصنَّعة حديثاً القاسي، رائحة النفتالين المنبعثة من مفارش الأسرَّة القديمة - هو في الفندق. بالتأكيد، «لوتيل ديزآبيي»، فندق النَّحل.

الليل لم ينقضِ، لا يزال الوقت مبكراً.

يُسمع من جهة البحر صوت صفَّارات وهدير، تتصاعد نيران المدفعية.

يهرع عريف من فرقة الدِّفاع المضاد للطيران في الممر، متوجِّهاً نحو بيت الدَّرج. يناديه من دون أن يلتفت لمواجهته: «اذهب إلى القبو»، يضيء فرنر كشَّافه، يلفُّ غطاءه ويضعه في كيس عدَّته، ويبدأ باجتياز القاعة.

منذ زمن ليس ببعيد، كان فندق النَّحل وجهة مبهجة، بمصاريع النوافذ الزَّرقاء زَّاهية اللون على واجهته، والمحار على الثَّلج في مقهاه، وندلٌ من «بريتاني» يرتدون ربطات عنق على شكل فراشة، يلمِّعون الكؤوس خلف البار. كان يضمُّ 21 غرفة، تشرف على البحر، وموقداً ضخماً في البهو بحجم شاحنة. كان الباريسيون يحتسون المشروبات الفاتحة للشهية هنا في العطل الأسبوعية، ومن قبلهم مبعوثو الجمهورية، في بعض الأحيان

- وزراء ونوَّاب وزراء ورؤساء أديرة وأميرالات - وقبلهم بقرون، قراصنة مسفوعون: قتلة، نهّابون، غزاة، بحارة.

قبل ذلك، قبل أن يكون فندقاً على الإطلاق، قبل خمسة قرون، كان بيتاً لقبطان سفينة قرصنة ثري، تخلّى عن قيادة السُّفن ليتفرَّغ لدراسة النَّحل في مروج ضواحي سان مالو، يخربش في كراريس، ويأكل العسل مباشرة من أقراصه. لا تزال صور لنحل طنَّان منقوشة في خشب البلوط، على شارات فوق عتبات الباب، للنافورة المكسوَّة باللبلاب في الحوش شكل خليَّة نحل. المفضل لدى فرنر هو خمس لوحات فريسكو ناصلة اللون، على أسقف الغرف العلوية الفسيحة، حيث تعوم نحلات كل واحدة بحجم طفل قرب ستائر خلفية زرقاء اللون، ذكور نحل كبار الحجم متكاسلين، وعاملات ذات أجنحة شفَّافة - تتمدد فوق المغطس السُّداسي الشَّكل. عبر السَّقف، ملكة يبلغ طولها تسع أقدام، بعيون مركَّبة وبطن من الفراء الذَّهبي.

خلال الأسابيع الأربعة المنصرمة، تحوَّل الفندق إلى أمر آخر: حصناً. كسا أفراد كتيبة نمساوية من مضادات الطيران جميع النوافذ بألواح خشبية، وقلبوا جميع الأسرَّة. حصّنوا المدخل، ملأوا بيوت السلالم بصناديق تحتوي قنابل المدفعية. أصبح الطابق الرابع في الفندق، حيث غرف الحديقة بشرفاتها الفرنسية، مكشوفة على الأسوار مباشرة، مأوىً لمدفع مضاد للطيران، سريع، قديم، يدعى 88، يستطيع أن يطلق 21 رطلاً ونصفاً من القنابل حتى مسافة تسعة أميال.

يطلق النمساويون على مدفعيتهم اسم «صاحبة الجلالة»، وخلال الأسبوع الماضي اعتنى هؤلاء الرجال بها كما تعتني عاملات النَّحل بالملكة. غذُّوها بالوقود، أعادوا طلاء مواسيرها، زيَّتوا عجلاتها، ورتَّبوا أكياس رمل عند قدميها، مثل قرابين.

سلاح «آخت آخت» الملكي، ملك مميت غُني بحمايتهم جميعاً. فرنر في بيت الدَّرج، في منتصف المسافة مع الطابق الأرضي، عندما أُطلق مدفع الـ88 مرتين على التَّوالي في تعاقب سريع. فإنها كانت المرة الأولى التي يسمع فيها صوت المدفع من هذه المسافة القريبة، وبدا كما لو أن نصف سقف الفندق قد تشقق. يتعثَّر ويقذف ذراعيه على أذنيه. اهتزت الجدران وصولاً حتى الأساسات، ثم ثبتت.

يستطيع فرنر سماع أصوات النمساويين في الطَّابق الذي يعلوه بطابقين، يتدافعون، يعيدون التَّلقيم، والصُّراخ المرتد من قذيفتين تندفعان بعنف فوق المحيط، على الرغم من أنهما على بعد ميلين أو ثلاثة أميال. يدرك أن أحد الجنود يغني. أو ربما أكثر من واحد. ربما جميعهم يفعلون. ثمانية رجال من القوى الجوية، لن ينجو منهم واحد، ينشدون أغنية حب لملكتهم.

يتعقَّب فرنر شعاع مصباحه عبر البهو. يطلق المدفع الكبير للمرة الثَّالثة، والزجاج يتحطَّم في مكان قريب، ووابل من سخام يجلجل من المدخنة، وجدران الفندق تقرع مثل جرس مضروب. يخشى فرنر أن الصَّوت سوف يخلع أسنانه عن لثته.

يسحب باب القبو ويتوقف للحظة، سابح البصيرة.

يسأل: «هذا هو؟ هل هم قادمون حقاً؟».

لكن من هناك ليجيب؟

سان مالو

على طول الأزقّة، استيقظ آخر من بقي من سكان المدينة، تأوهوا، تنهّدوا. عوانس، مومسات، رجال تجاوز عمرهم السّتين. مماطلون، عملاء، ملحدون، سكيرون. راهبات من كل رهبنة. الفقراء. العنيد. الأعمى.

يسرع البعض إلى الملاجئ. يحدِّث البعض أنفسهم قائلين إنه مجرد تدريب عسكري. البعض يتريث ليتناول غطاء أو كتاب صلاة أو مجموعة أوراق اللعب.

مرَّ شهران على إنزال النورماندي. تمَّ تحرير تشيربورغ، تشين، رين أيضاً. نصف مساحة فرنسا الغربية حر. استرد السُّوفييت «مينسك» في الشَّرق، الجيش البولندي يتمرَّد في وارسو، تملك بعض الصُّحف الجرأة الكافية لتلمح إلى أن الحال قد انقلب.

لكن ليس هنا. ليس هذه القلعة الأخيرة عند طرف القارَّة، آخر النقاط الألمانية القوية على ساحل بروتون.

يتهامس النَّاس: هنا، رمم الألمان ممرات تحت أرضية تحت الجدران القروسطية مسافة كيلومترين، شيَّدوا دفاعات جديدة، أقنية جديدة، ودروباً جديدة للهرب، ومجمَّعات تحت أرضية مربكة في التعقيد. تحت حصن شبه جزيرة «لا سيتيه»، في الجهة الأخرى من النَّهر من المدينة القديمة،

هناك غرف للضمادات، وأخرى للذَّخيرة الحربية، ومستشفى تحت الأرض، أو هكذا يُعتقد. هنا مكيِّف هواء، خزَّان ماء يتَّسع لمئتي ألف ليتر، خط مباشر إلى برلين. هناك مفخخات تقذف اللهب، شبكة مواقع دفاعية صغيرة مع موجِّهات كاشفة، لقد خزنوا ما يكفي من الذَّخائر ليرشوا البحر بالقنابل طوال النهار يومياً، لسنة.

يهمسون: هنا، يوجد ألف ألماني على أهبة الاستعداد للموت، أو خمسة آلاف، ربما أكثر؟

سان مالو: ماء يحيط بالمدينة من الجهات الأربع. تتصل بصعوبة ببقية أجزاء فرنسا: ممر مرتفع، جسر، قليل من الرمل. يقول أهل سان مالو: نحن مالويون أولاً. ثم بريتونيون. فرنسيون إن لم يبقَ أي شيء آخر.

في ضوء عاصف، يتوهَّج الغرانيت أزرق اللون. عند أعلى المد، يزحف البحر نحو الأقبية في مركز البلدة. عند أخفض نقطة للمد، تبرز الأضلاع الدبقة لحطام ألف سفينة على سطح البحر. لثلاثة آلاف سنة، شهد هذا الجرف البحري الصَّغير الحصار تلو الحصار.

لكنه لم يكن يوماً كهذا.

ترفع جدة رضيعاً متطلباً إلى صدرها. يبول سكِّير في زقاق خارج سان سيرفان، على بعد ميل، يقتلع ورقة من سياج. تقول: رسالة عاجلة إلى سكَّان هذه البلدة: ارحلوا في الحال، إلى أرض عراء.

تومض مدفعيات مضادة للطائرات على الجزر الخارجية، والمدافع الألمانية الكبيرة داخل المدينة القديمة ترمي دفعة أخرى من قنابل تولول فوق البحر، ويحتشد ثلاثمئة وثمانون سجيناً فرنسياً على حصن جزيرة يدعى «ناسيونال»، تبعد مسافة ربع ميل عن الشَّاطئ، في ميدان مقمر، يحدقون.

أربع سنوات من الاحتلال، وهدير القنابل المقبلة هو هدير ماذا؟ إنقاذ؟ إفناء؟

طقطقة الأسلحة الخفيفة. نيران المدفعية المضادة للطائرات. سرب حمام جاثم على برج الكاتدرائية ينحدر على امتداده، ويدور فوق البحر.

الرقم 4 شارع فوبوريل

تقف ماري لور لو بلان وحيدة في غرفة نومها، تشم وريقة صغيرة لا تستطيع قراءتها. تدوِّي صفَّارة إنذار. تغلق المصاريع وتعيد إقفال النَّافذة. تزداد الطائرات اقتراباً مع كلِّ ثانية، كل ثانية هي ثانية مهدرة. يجب أن تهرع إلى الأسفل. يجب أن تتوجه نحو زاوية المطبخ، حيث ينفتح باب أرضي صغير على قبو مليء بالغبار والفئران - سجاجيد علكتها الفئران، وصناديق قديمة لم تفتح منذ وقت طويل.

عوضاً عن ذلك، تعود إلى الطاولة عند قدم السَّرير وتركع بجانب مجسَّم المدينة.

ثانية تعثر أصابعها على الأسوار الخارجية، معقل «دو لا هولاند»، الدَّرج الصَّغير الذي يفضي إلى الأسفل. في هذه النافذة، هنا تماماً، في المدينة الحقيقية، تنفض امرأة سجاجيدها كل يوم أحد. من هذه النافذة هنا، صرخ فتى مرة: «انظري إلى أين أنت ذاهبة، هل أنت عمياء؟» تجلجل ألواح النَّوافذ في أطرها. تطلق الأسلحة المضادة للطائرات وابلاً آخر من القذائف. تدور الأرض أبعد قليلاً فقط.

تحت أطراف أصابعها، يتقاطع مصغَّر شارع «دبستريه» مع مصغَّر شارع فوبوريل. تدور أصابعها يمنة، تمر بخفَّة على المداخل. واحد اثنان ثلاثة. أربعة. كم مرة فعلت هذا؟

الرقم أربعة: عش الطائر المرتفع المهجور هو منزل يملكه عمها إيتيين. حيث عاشت مدة أربع سنوات. بينما هي راكعة هناك على أرضية الطابق السَّادس وحيدة، عشرات من قاذفات القنابل الأمريكية تهدر نحوها.

تضغط الباب الصَّغير الأمامي نحو الدَّاخل، ويتحرَّر مزلاج مخفي، والمنزل الصَّغير يرتفع ويخرج من المجسَّم. في يديها، إنه تقريباً بحجم إحدى علب سجائر والدها.

قاذفات القنابل الآن قريبة جداً، حتى أن الأرض تبدأ بالارتجاف تحت ركبتيها. في القاعة، ترنُّ قلائد الثُّريا الكريستالية المعلَّقة فوق الدَّرج. ماري لور تلوي مدخنة المنزل المصغَّر 90 درجة، ثم تزلق الألواح الخشبية الثلاثة التي تشكل سقفه وتقلبها.

يقع حجر في راحة يدها.

إنه بارد. بحجم بيضة حمام. له شكل دمعة.

تطبق ماري لور على المنزل الصَّغير بيد، والحجر في اليد الأخرى. تبدو الغرفة رثَّة، هشَّة. تبدو أنامل ضخمة على وشك أن تخرق جدرانها.

تهمس: «أبي؟».

قبو

تحت بهو فندق النَّحل، خرقت ضربات متكررة قبو القرصان وصولاً إلى صخر الأديم. خلف الصَّناديق والخزائن وألواح المعدَّات، الجدران من حجر الغرانيت العاري. تسند السَّقف ثلاث روافد خشبية ضخمة منحوتة يدوياً، جُرت إلى هنا من غابة بريتونية قديمة، ورفعتها مجموعة من الأحصنة إلى هذا المكان قبل قرون.

يكسو مصباح وحيد كل شيء بظلال متحركة.

يجلس فرنر بفينغ على كرسي قابل للطي إلى منضدة عمل، يفحص مستوى بطاريته، ويضع سماعتي الرأس. الراديو عبارة عن جهاز مرسل/ مستقبل في صندوق فولاذي مع هوائي بطول 1. 6 متر. يسمح له بالاتصال مع مرسل/ مستقبل مطابق في الأعلى، ومع مدفعيتين من مضادات الطائرات ضمن أسوار المدينة، ومع قائد الحامية تحت الأرض في الجهة الأخرى من مصبِّ النهر.

يهمهم الراديو عندما يسخن. يقرأ مراقبُ الإحداثيات عبر الجهاز الموضوع على رأسه، يرددها جندي من سلاح المدفعية. يفرك فرنر عينيه. خلفه، ثروات مصادرة متكدسة حتى السَّقف: لفائف قماش، ساعات قديمة، خزائن كبيرة، ولوحات ضخمة لمناظر طبيعية تتخللها الشُّقوق.

على رفٍّ مقابلَ فرنر، يوجد ثمانية أو تسعة رؤوس مصنوعة من الجبس، لا يعرف ما الغرض منها.

يهبط الرقيب الأول الضَّخم فرانك فولكهايمر الدَّرج الخشبي الضَّيق، ويحني رأسه تحت الروافد. يبتسم بلطف لفرنر، ويجلس في كرسي طويل منجَّد بحرير ذهبي، وبندقيته على فخذيه الضَّخمين حيث تبدو أكبر بقليل من هراوة شرطي.

يسأل فرنر: «هل يعمل؟».

يومئ فولكهايمر. يزيح كشَّافه ويطرف بأهدابه الدَّقيقة على نحو غريب في الظلام.

- كم سيصمد من وقت؟

- ليس طويلاً. سوف نكون في أمان هنا في الأسفل.

جاء المهندس، بيرند، أخيراً. هو رجل ضئيل الحجم، شعره بني اللون، وفي عينيه انحراف. يغلق باب القبو من خلفه ويقفله ويجلس في منتصف الدَّرج الخشبي، تعلو وجهه نظرة كئيبة، خوف أو صلابة. من الصَّعب معرفة ذلك.

مع إغلاق الباب، يهدأ صوت صفارات الإنذار. يومض فوقهما مصباح السَّقف.

يفكِّر فرنر: الماء، نسيتُ الماء.

تطلق مدفعية ثانية مضادة للطائرات النَّار من زاوية بعيدة في المدينة، من ثم ينطلق الـ88 في الأعلى ثانية، جهير، مهلك، وفرنر يصغي إلى صراخ القنبلة في السَّماء. تنهمر شلالات من غبار من السقف. يمكن لفرنر، عبر سماعتي الرأس، سماع النمساويين في الأعلى يواصلون الغناء:

«على نهر المولداو، على نهر المولداو، تشرق الشَّمس ذهبية أيضاً».

يضرب فولكهايمر بنعاس بقعة على سرواله. يخبط بيرند بيديه المجوفتين. يطقطق جهاز الإرسال مع سرعة الرياح، ضغط الهواء، المسارات. يفكر فرنر في البيت: السَّيدة إلينا محنيَّة على حذائه الصَّغير، تعقد كل شريطة عقدة مزدوجة. تدور النجوم مارة بنافذة غرفته. أخته الصَّغيرة يوتا، ولحاف حول كتفيها وسماعة راديو تتدلى من أذنها اليسرى.

أربعة طوابق نحو الأعلى، يضع النمساويون قنبلة أخرى في المدفع الـ88 المدخِّنة، ويتحققون جيداً من المسار ويصمون آذانهم عندما يقذف المدفع، لكن هنا في الأسفل لا يسمع فرنر سوى أصوات الراديو من طفولته. نظرت إلهة التَّاريخ نحو الأرض. لا يمكن للتطهير أن يتحقق إلا بواسطة أكثر النيران سخونة. يرى غابة من زهور عبَّاد الشَّمس الذَّابلة. يرى سرباً من الشَّحارير ترفرف من شجرة.

القصف

سبعة عشر ثمانية عشر تسعة عشر عشرون. الآن يحتدم البحر تحت كوى التَّسديد. الآن سقوف البيوت. تخط طائرتان صغيرتان الممر بالدُّخان، وقاذفة القنابل تصلي حمولتها الصَّافية دفعة واحدة، وإحدى عشرة قاذفة أخرى تحذو حذوها. تسقط القنابل قطرياً، تعلو القاذفات وتتدافع.

سطح السَّماء السُّفلي مرقَّط بالسَّواد. عم والد ماري لور، محبوس مع بضع مئات من أناس آخرين داخل بوابات حصن ناسيونال، يبعد ربع ميل عن الشَّاطئ، تنظر عالياً مغمضة العينين نصف إغماضة وتفكِّر: جراد، ومقولة من العهد القديم تعود إليها من ساعة فاترة في مدرسة أبرشية: «الجراد ليس له ملك، ولكنه يخرج كله فرقاً فرقاً».

جحفل شيطاني. أكياس فول مقلوبة. مئة سبحة منفرطة. هناك ألف استعارة وجميعها غير وافية: أربعون قنبلة في كل طائرة، المجموع: أربعمئة وثمانون، اثنان وسبعون ألف رطل من المتفجرات.

انهيار ثلجي ينحدر باتجاه المدينة. إعصار. تنجرف فناجين الشَّاي عن الرفوف. تنزلق لوحات عن مساميرها. في جزء من الثانية، صفَّارات الإنذار غير مسموعة. كلُّ شيء غير مسموع. يعلو صوت الهدير إلى حد يكفي لفصل الأغشية في الأذن الوسطى.

أطلقت الأسلحة المضادة للطائرات قذائفها الأخيرة. تراجعت اثنتا عشرة قاذفة غير مصابة بأذى في الليل الأزرق.

في الطَّابق السَّادس من المنزل رقم 4 من شارع فوبوريل، تزحف ماري لور تحت سريرها وتثبِّت الحجر ومجسم المنزل الصَّغير إلى صدرها.

في القبو تحت فندقِ النَّحل، يومض مصباح وحيد في السَّقف.

واحد

1934

المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي

ماري لور لو بلان فتاة في السَّادسة من عمرها طويلة القامة ومنمَّشة الوجه، في باريس، مصابة بضعف متزايد في البصر، يرسلها والدها في جولة للأطفال إلى المتحف الذي يعمل فيه. المرشد حارس مسن محدودب الظَّهر، بالكاد أطول قامة من الطفلة نفسها. يقرع الأرض بطرف عصاه للفت الانتباه، ثم يقود الأطفال عبر الحدائق إلى صالات العرض.

يشاهد الأطفال المهندسين يستعملون بكرات لرفع عظام فخذ ديناصور متحجِّر. يرون زرافة محشورة في خزانة، رقع جلدية تكسو ظهرها. يحدقون في جوارير المحنطات المليئة بالريش ومخالب ومقل زجاجية، يقلبون عبر صحائف معشبة عمرها مئتا سنة مزخرفة بزهور الأوركيد والأقحوان والعشب.

أخيراً يصعدون ست عشرة درجة نحو معرض علم المعادن. يريهم المرشد عقيقاً من البرازيل وأحجار الجمست وحجراً نيزكياً على قاعدة يدعي أنه قديم قدم النِّظام الشَّمسي نفسه. ثم يقودهم صفاً واحداً نحو درج مكون من سلمتين وعلى طول عدة ممرات ويتوقف عند باب حديدي له ثقب مفتاح واحد.

يقول: «انتهت الجولة».

تسأل فتاة: «لكن ماذا يوجد خلفه هناك؟».

•

- خلف هذا الباب هناك باب مقفل آخر، أصغر بقليل.

- وماذا خلفه؟

- باب ثالث مقفل، أصغر أيضاً.

- وماذا خلفه؟

- باب رابع، وخامس، وهكذا حتى تصلي إلى الباب الثَّالث عشر، باب صغير مقفل لا يزيد حجمه عن فردة حذاء.

ينحني الأطفال إلى الأمام.

- ثمَّ؟

يلوح المرشد بإحدى يديه المجعدتين: «خلف الباب الثالث عشر. بحر اللهب».

حيرة وتململ.

- هيا! ألم تسمعوا يوماً ببحر اللهب؟

يهزُّ الأطفال رؤوسهم. ترفع ماري لور بصرها نحو المصابيح العارية المنظومة على فواصل من ثلاث ياردات على طول السَّقف، حول كل واحد هالة بألوان قوس قزح تتناوب في بصرها.

يعلق المرشد عصاه على معصمه ويفرك يديه معاً.

- إنها قصة طويلة. هل تودون سماع قصة طويلة؟

يومئون.

ينظف حنجرته.

- منذ قرون، في المكان الذي ندعوه اليوم «بورنيو»، اقتلع أمير حجراً أزرق اللون من مجرى نهر جاف، لأنه رآه جميلاً. لكن في طريق عودته إلى قصره، هاجم الأمير خيالة وطعنوه في قلبه.

- طعن في القلب؟

- هل هذا حقيقي؟

يقول فتى: «صَه».

- سرق اللصوص خواتمه، حصانه، كل شيء. لكن لأنه كان يقبض بقوة على الحجر الأزرق الصَّغير، لم يكتشفوه. وتمكَّن الأمير المحتضر من الزحف إلى بيته. ثم غاب عن الوعي طوال عشرة أيام. نهض في اليوم العاشر وفتح يده وهناك كان الحجر، ما أثار عجب ممرضيه.

قال أطباء السُّلطان إنها أعجوبة، لأن الأمير لم يكن لينجو من هذا الجرح البليغ. قال الأطباء إن الحجر لا بد من أنه يمتلك قوى شفائية. قال صُياغ السُّلطان شيئاً آخر، قالوا إن الحجر كان أكبر ألماسة رآها بشري على الإطلاق. أمضى أكثر الحجَّارين موهبة بينهم ثمانية عشر يوماً في صقله، وعندما انتهى كان أزرق براقاً، أزرق البحار الاستوائية، لكن كان في مركزه لمسة من لون أحمر، مثل لهب في نقطة ماء. صنع السُّلطان تاجاً للأمير ثبتت عليه الماسة، وقيل إنه عندما جلس الأمير الشَّاب على عرشه وسطعت عليه الشَّمس صار شديد الإبهار، حتى أن الزوار لم يتمكنوا من تفريقه عن النُّور نفسه.

تسأل فتاة: «هل أنت واثق من أن هذا حقيقي؟».

يقول الفتى: «صَه».

- عُرف الحجر باسم بحر اللهب. آمن البعض أن الأمير أصبح إلهاً، وأنه طالما احتفظ بالحجر فلا يمكن أن يُقتل. لكن شيئاً غريباً بدأ بالحدوث: كلما طال ارتداء الأمير لتاجه كلما ساء حظه. خلال شهر، فقد أخاً غرقاً، وثانياً بلدغة أفعى. خلال ستة أشهر توفي والده إثر إصابته بمرض. وكي تزداد الأحوال سوءاً أعلن كشافة السُّلطان أن جيشاً عرمرماً يتجمع في الشَّرق. دعا الأمير جميع مستشاري والده إلى اجتماع. قالوا جميعهم إن عليه الاستعداد للحرب، جميعهم باستثناء واحد، كاهن، قال

إنه رأى حلماً. في الحلم قالت له آلهة الأرض إنها صنعت بحر اللهب هدية لحبيبها، إله البحر، وكانت ترسل الجواهر له عبر النهر. لكن عندما جفَّ النهر، والأمير اقتلعه، غضبت الآلهة. لعنت الحجر وكل من يمتلكه.

ينحني الأطفال، ماري لور معهم.

- كانت اللعنة هذه: سوف يعيش مالك الحجر إلى الأبد، لكن طالما يحتفظ به، سوف تحل الويلات على جميع الذين يحبهم واحداً تلو آخر ويتساقطون بشكل لا ينتهي.

- يعيش إلى الأبد؟

- لكن إذا رمى المالك الماسة في البحر، مرسلاً إياها بذلك إلى صاحب الحق بها، سوف ترفع الآلهة اللعنة. لذا فكَّر الأمير، وقد أصبح الآن سلطاناً، لثلاثة أيام وثلاث ليال، وأخيراً عقد العزم على الاحتفاظ بالحجر. لقد أنقذ حياته، يؤمن أنه جعله لا يقهر. فما كان منه إلا أن قطع لسان الكاهن.

يقول أصغر الفتيان: «أوه».

تقول أطول الفتيات: «خطأ لا يغتفر».

«أتى الغزاة»، يقول المرشد: «دمَّروا القصر، وقتلوا جميع من وجدوهم، ولم يُرَ الأمير ثانية. طوال متي سنة لم يسمع أحد عن بحر اللهب. قال البعض إن الحجر قد تشظَّى إلى عدد من أحجار صغيرة، قال آخرون إن الأمير لا يزال يحمل الحجر، وأنه في اليابان أو بلاد فارس، وأنه أصبح مزارعاً بائساً، ولم يبدُ عليه يوماً أنه شاخ.

وهكذا انقطعت سيرة الحجر من التاريخ. إلى أن ذات يوم، عُرض على تاجر ألماس فرنسي، كان في رحلة إلى المناجم الغنية في الهند، ماسة ضخمة على شكل إجاصة. تزن مئة وثلاثة وثلاثين قيراطاً. خالصة النقاء

تقريباً. كتب يقول إنها بحجم بيضة حمام، وزرقاء كالبحر، لكن هناك وهج أحمر في قلبها. صنع صورة للحجر وأرسلها إلى دوق مهووس بالجواهر في «الورين»، محذراً إياه من الشَّائعات عن اللعنة. لكن الدوق أراد الماسة بشدة. لذا جلبها التَّاجر إلى أوروبا، ووضعها الدَّوق في نهاية عصا المشي وحملها أينما حل».

- أوه، أوه.

- خلال شهر، أصيبت الدوقة بمرض في الحنجرة. وقع اثنان من خدمه المفضلين عن السَّطح وانكسر عنقاهما. ثم توفي ابن الدُّوق الوحيد بحادثة عندما كان يركب حصانه. ومع ذلك قال الجميع إن الدوق نفسه لم يبدُ يوماً أفضل مما يبدو عليه الآن، أصبح يخاف من الخروج، من استقبال الضُّيوف، أخيراً كان على قناعة تامة من أن حجره هو بحر اللهب الملعون حتى أنه طلب من الملك أن يخفيه في متحفه على شرط أن يقفل عليه عميقاً داخل قبو شيد خصيصاً، والقبو لن يفتح قبل مئتي عام.

- ثم؟

- ومر مئة عام وست وتسعون.

لبث جميع الأطفال صامتين للحظة. بعض منهم عدوا على أصابعهم. ثم رفعوا أيديهم معاً.

- هل يمكننا أن نراه؟

- لا.

- لا يمكننا حتى فتح الباب الأول؟

- لا.

- هل رأيته؟

- لا.

- إذاً كيف تعرف أنه موجود هناك حقاً؟
- عليك أن تصدق القصَّة.
- بكم يقدر ثمنه يا سيد؟ هل يمكنه أن يشتري برج إيفل؟
- ماسة بذلك الحجم ونادرة يمكنها على الأرجح أن تشتري خمسة من برج إيفل.

لهاث.

- هل جميع هذه الأبواب لمنع اللصوص من الوصول إليه؟

يقول المرشد غامزاً: «ربما هي موجودة لتمنع اللعنة من الخروج».

ران الصَّمت على الأطفال. تراجع اثنان أو ثلاثة خطوة إلى الوراء.

تخلع ماري لور نظارتها، ويصبح العالم من حولها بلا شكل واضح.

تسأل: «لم لا؟ فقط خذ الماسة وارمها في البحر؟».

ينظر المرشد إليها. وينظر الأطفال الآخرون إليها.

يقول واحد من الفتية الأكبر سناً: «متى كانت آخر مرة رأيت فيها شخصاً يرمي خمساً من برج إيفل في البحر؟».

عمَّ الضحك. ماري لور تقطب. إنه فقط باب حديدي وثقب مفتاح نحاسي.

تنتهي الجولة ويتفرق شمل الأطفال وأعيدت ماري لور إلى «الجراند جاليري» مع والدها. يسوي نظارتها على أنفها وينزع ورقة نباتية من شعرها. «هل استمتعت يا عزيزتي؟».

يرتدُّ عصفور دوري صغير بني اللون عن الروافد، ويحط على البلاط أمامها. تمد ماري لور راحة يد مفتوحة. يميل العصفور برأسه، مفكراً. ثم يرفرف بعيداً.

بعد شهر، تفقد بصرها.

زولفرين

نشأ فرنر بفينغ في مكان يدعى زولفرين، يبعد عن باريس مسافة ثلاثمئة ميل شمالاً: مجمع مناجم، تبلغ مساحته أربعة آلاف آكر في ضواحي إيسين، ألمانيا. إنها بلد الفولاذ، بلد الفحم الصُّلب، مكان مليء بالفجوات. يتدحرج دخان المداخن والقاطرات، جيئة وذهاباً على مجارٍ مرتفعة، وتنتصب أشجار عارية على قمم أكوام من الخبَث، مثل أيدي هيكل عظمي مقحمة من العالم السفلي.

عاش فرنر وأخته الصُّغرى، يوتا، في «منزل الأطفال»، دار للأيتام مؤلفة من طابقين من الآجر الشديد القساوة في شارع «فيكتوريا»، غرفه مأهولة بسعال الأطفال المرضى، وبكاء المواليد الجدد، والصناديق البالية التي تغفو في داخلها آخر ممتلكات الأهل الراحلين: فساتين مرقَّعة، فضيات مائدة أعتم لونها، صور مطبوعة على الزجاج «أمبروتايب» باهتة، لآباء ابتلعتهم المناجم.

سنوات فرنر المبكِّرة هي الأكثر صعوبة. رجال يتشاجرون على أعمال خارج بوابات «زولفرين»، وبيض دجاج يباع مقابل مليوني مارك للبيضة الواحدة، وحمى الروماتيزم تطوف في «منزل الأطفال» خلسةً، مثل ذئب. ليس هناك زبدة ولا لحم. ليست الفاكهة سوى ذكرى. في بعض

الأمسيات، خلال أسوأ الشُّهور، كان على جميع مدراء المنزل أن يقدموا للعنابر العديدة الكعك المصنوع من مسحوق الخردل والماء.

لكن يبدو على فرنر البالغ من العمر سبع سنوات. هو أصغر من الحجم العادي، وأذناه بارزتان، ويتحدث بصوت مرتفع وعذب، يبهر بياض شعره النَّاس، ثلجي، حليبي، طباشيري، لون لا لون له. كل صباح يربط شرائط حذائه، ويضع صحيفة داخل معطفه كمادة تعزل البرد، ويبدأ باستنطاق العالم. يمسك بندف الثلج، الشَّراغيف، الضَّفادع النائمة في سباتها الشَّتوي، يحصل على الخبز مجاناً بملاطفة الخبازين، يظهر بانتظام في المطبخ حاملاً الحليب الطازج للرضع. هو يصنع أشياء أيضاً: صناديق ورقية، طائرات ذات جناحين غير متقنة الصنع، مراكب بموجِّهات.

كل بضعة أيام سوف يجفل المديرة بسؤال لا جواب له: «لماذا نحزق يا سيدة إلينا؟».

أو: «إذا كان القمر كبير جداً، يا سيدة إلينا، لماذا يبدو صغيراً جداً؟».

أو: «سيدة إلينا، هل تعرف النَّحلة أنها سوف تموت إذا ما لسعت أحداً؟».

السَّيدة إلينا راهبة بروتستانتية من الألزاس، مولعة بالأطفال أكثر من الإشراف عليهم. تغني أغنياتٍ فلكلورية فرنسية بصوت صارخ، عالي الطبقة، تضمر ضعفاً إزاء الخمر، وبانتظام تغط في النوم وهي واقفة. بعض الليالي تترك الأطفال ساهرين حتى وقت متأخر، بينما تروي لهم قصصاً بالفرنسية عن صباها المريح في الجبال، حيث يبلغ ارتفاع الثلج ستة أقدام على الأسطح، منادو البلدة وجداول ينبعث منها الدخان في البرد والكروم المكسوة بالصقيع: عالم ترنيمة عيد الميلاد.

- «هل يستطيع الصُّم سماع دقات قلوبهم، يا سيدة إلينا؟».

- «لماذا لا يعلق الغراء داخل الزجاجة، يا سيدة إلينا؟».

تضحك. تعبث بشعر فرنر، وتهمس: «سيقولون إنك صغير جداً، يا فرنر، وإن المكان الذي أتيت منه غير معروف، وإنه ليس عليك أن تحلم كثيراً. لكني أؤمن بك. أظن أنك سوف تصنع عملاً عظيماً».

ثم سوف ترسله إلى المهد الصَّغير الذي ادعاه لنفسه في العلية، محشوراً تحت نافذة غرفة النَّوم.

أحياناً هو ويوتا يرسمان. تتسلل أخته إلى مهد فرنر، ومعاً يتمددان على بطنيهما ويمرران قلماً جيئة وذهاباً. يوتا هي الموهوبة بينهما، ولو أنها تصغره بعامين. هي تحب أن ترسم باريس أكثر من أي شيء آخر، مدينة رأتها في صورة فوتوغرافية، على غلاف خلفي لإحدى روايات السَّيدة إلينا الرومانسية: سقوف مزدوجة الانحدار، مبانٍ سكنية مبهمة، الشَّبكة الحديدية لبرج بعيد. ترسم ناطحات سحاب بيضاء ملتوية، وجسوراً متشابكة، وحشداً من الناس على ضفة نهر.

في أيام أخرى، في السَّاعات التي تلي الدُّروس، يجر فرنر أخته الصُّغرى عبر مجمع المناجم، في عربة ركبها من أجزاء منبوذة. يجلجلان في الأزقة الطويلة المفروشة بالحصى، مروراً بأكواخ الصِّيانة ونيران براميل القمامة، مروراً بعمال المنجم المطرودين المقرفصين طوال اليوم على صناديق مقلوبة، من دون حراك كالتماثيل. دولاب يطقطق بانتظام وفرنر يجثم قربه بأناة، يعيد نظم البراغي. من حولهما، هيئات عمال النوبة الثانية وهم يمشون متثاقلين نحو العنابر بينما عمال الوردية الأولى يذهبون إلى بيوتهم، محدبين، جوعى، أنوفهم مزرقة، وجوههم مثل جماجم سوداء تحت خوذاتهم.

سوف يسقسق فرنر قائلاً: «مرحباً، عمتم مساءً».

لكن العمال عادة يتجاوزونه من دون إجابة، ربما من دون أن يروه، أنظارهم مركزة على الوحل، الانهيار الاقتصادي لألمانيا يلوح عليهم مثل بنية المطاحن القاسية.

ينقِّب فرنر ويوتا عبر أكوام لامعة من الهباب الأسود، يتسلقان جبال من آلات صدئة. ينتزعان التوت من العليق والهندباء من الحقول. يتمكنان أحياناً من العثور على قشور بطاطا أو أوراق الجزر في سلال القمامة، في أصائل أخرى يجمعان الورق ليرسما عليه، أو معجون أسنان قديماً، يمكن أن يعصر ويجفف آخر ما بقي فيه ليصبح طبشوراً. مرة كل حين، يجر فرنر يوتا بعيداً حتى مدخل «بيت ناين»، أكبر المناجم، يلفُّه الضَّجيج، يضيء مثل اللهب الصغير في مركز فرن للغاز، يجثم فوقه مصعد لخمسة طوابق، حبال تتأرجح، مطارق تقرع، رجال يصرخون، خارطة كاملة من صناعة مطوية ومموجة تمتد بعيداً في كل صوب، ويراقبان سيارات الفحم تتدحرج من الأرض والعمال يخرجون من العنابر مع دلاء غدائهم نحو فم المصعد مثل حشرات نحو فخ منار.

يهمس فرنر لأخته: «هناك في الأسفل. هناك توفي أبي».

ومع حلول الظَّلام، يسحب فرنر يوتا الصَّغيرة بصمت عبر الأحياء القريبة من زولفرين، طفلان بشعر أبيض في قعر السُّخام، يحملان ثروتهما التافهة إلى 3 شارع «فيكتوريا»، حيث تحدق السَّيدة إلينا في فرن الفحم، تغني بصوت متعب تهويدة بالفرنسية، طفل يشد خيوط مئزرها بينما آخر يعول بين ذراعيها.

مكتب حفظ المفاتيح

إظلام خلقي لعدسة العين. ثنائي الطرف. لا يمكن إصلاحه. يسأل الأطباء: «هل يمكنك أن تري هذا؟»، «هل يمكنك أن تري هذا؟». لن ترى ماري لور شيئاً بقية أيام حياتها. أماكن ألفتها سابقاً - الشّقة المؤلفة من أربع غرف تتقاسمها مع والدها، السّاحة والشّجرة الصّغيرة في آخر الشارع الذي يسكنانه - أصبحت متاهات مدججة بالمخاطر. الجوارير ليست في مكانها المفترض. المرحاض هاوية. كأس الماء قريب جداً، بعيد جداً، أصابعها كبيرة جداً، دوماً كبيرة جداً.

ما هو العمى؟ أين يجب أن يكون الجدار، لا تعثر يداها على شيء. حيث يجب ألا يكون هناك شيء، قائمة طاولة تصدع قصبة ساقها. سيارات تهدر في الشّوارع، أوراق تهمس في السّماء، دم يصلصل عبر أذنيها الداخليتين. في بيت الدرج، في المطبخ، حتى قرب سريرها، أصوات كبار يتحدثون عن اليأس.

- طفلة مسكينة!

- مسكين السّيد لو بلان!

- لم يكن طريقه سهلاً، كما تعلم. قتل والده في الحرب، زوجته فارقت الحياة في أثناء الولادة. والآن هذا؟

- كما لو أنهما ملعونان.

- انظر إليها. انظر إليه.

- ينبغي له أن يرسلها بعيداً.

شهور من الكدمات والشَّقاء: غرف تغوص مثل مراكب شراعية، أبواب مواربة تخبط وجه ماري لور. ملجؤها الوحيد هو سريرها، حافَّة لحافها عند ذقنها، بينما يدخن والدها سيجارة أخرى على الكرسي بجانبها، ينحت واحداً من مجسماته الصَّغيرة، مطرقته الصغيرة تواصل الطرق، يصدر مربع ورق السَّنفرة الصغير صوتاً إيقاعياً مسكناً.

•

اليأس لا يدوم. ماري لور صغيرة جداً ووالدها صبور للغاية. يؤكد لها، أنه ليس هناك من لعنات. ربما يوجد حظ سيئ أو حظ جيد. انحراف طفيف كل يوم نحو النجاح أو الفشل. لكن ما من لعنات.

يوقظها قبل الفجر ستة أيام في الأسبوع، وهي ترفع ذراعيها في الهواء بينما يلبسها. جواربها، فستانها، سترتها. إذا كان هناك وقت، يجعلها تجرب عقد شرائط حذائها بنفسها. ثم يشربان كوباً من القهوة معاً في المطبخ: ساخناً وقوي المفعول، وتضع قدر ما تشاء من السُّكر.

عند السَّاعة السَّادسة وأربعين دقيقة، تتناول عصاها البيضاء من الزاوية، تثني إصبعاً عبر ظهر حزام والدها، وتتبعه نحو المتحف، عبر ثلاث مجموعات من الأدراج، وستة شوارع.

يفتح قفل المدخل 2# عند الطقة السابعة. في الداخل الروائح المألوفة: شرائط الآلة الكاتبة، أرضيات مشمعة، غبار الصُّخور. هناك الصدى المألوف لوقع أقدامهم يعبران «الغراند غاليري». هو يحيي حارساً ليلياً، ثم خفير، دوماً الكلمتين المكررتين نفسهما: صباح الخير، صباح الخير.

مرتين إلى اليسار، مرة إلى اليمين. تخشخش حلقة مفاتيح والدها. مغلاق ينزاح، بوابة تنفتح.

داخل مكتب حفظ المفاتيح، داخل ست خزائن مزججة، يتدلى ألف مفتاح حديدي من مسامير. هناك مفاتيح تفتح جميع الأقفال، ومفاتيح بسيطة، مفاتيح قصيرة ومفاتيح قوس زحل، مفاتيح مصعد ومفاتيح خزانة. مفاتيح طويلة بطول ذراع ماري لور ومفاتيح أقصر من طول إبهامها.

والد ماري لور هو صانع أقفال الأساسي في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي. بين المختبرات، المستودعات، أربعة متاحف عامَّة منفصلة، معرض الحيوانات، البيوت الزجاجية، أراضي الحدائق الشُّفائية والتزينية في حديقة النباتات، ودستة من بوابات وأجنحة، يقدِّر والدها وجود اثني عشر ألف قفل في كامل مجمع المتحف. لا يملك أحد المعرفة الكافية كي يخالفه الرأي.

يقف كل صباح أمام خزانة المفاتيح ويوزِّع المفاتيح على الموظفين: يأتي حراس حديقة الحيوان أولاً، يصل موظفو المكتب متأخرين نحو السَّاعة الثَّامنة، يحتشد التقنيون وأمناء المكتبة والمساعدون العلميون بعدهم، وأخيراً يدلف العلماء. كل شيء مرقَّم ومرمَّز بلون. كل موظف، من الحراس إلى المدير يجب أن يحملوا مفاتيحهم طوال الوقت. لا يسمح لأحد بمغادرة مبناه الخاص به مع المفاتيح، ولا يسمح لأحد أن يترك المفاتيح على المكتب. فالمتحف في نهاية الأمر يحوي حجراً كريماً بالغ النفاسة من القرن الثالث عشر، والكفانسيت من الهند والرودوكروزيت من كولورادو، وخلف قفل صممه والدها يجلس طبق صيدلية فلورنسي منحوت من اللازورد، يقطع متخصصون آلاف الأميال كل سنة ليتفحصوه.

يمتحنها والدها. هذا مفتاح مخزن أرضي أو مفتاح قفل بحلقة، يا ماري؟ مفتاح خزانة أو قفل الباب؟ هو يختبرها في مواقع العرض، في

محتويات الخزائن. يضع باستمرار بعض الأشياء غير المتوقعة في يديها: مصباح، سمكة متحجرة، ريشة طائر فلامينجو. لساعة كل صباح - حتى أيام السَّبت - يجعلها تعمل على دفتر عمل بلغة بريل. حرف الألف نقطة واحدة على الزاوية العلوية. حرف الباء نقطتين في خط عمودي. جين. تذهب. إلى. المخبز. جين. تذهب. إلى. صانع. الجبن.

يصحبها في الأصائل في جولاته. يزيِّت الأقفال، يصلح الخزائن، يطلي أغطية ثقوب المفاتيح. يقودها من ممر إلى آخر، معرض تلو المعرض. ممرات ضيقة تنفتح على مكتبات هائلة، أبواب زجاجية تفضي إلى بيوت بلاستيكية تفيض بروائح الدبال[1]، الصُّحف الرطبة، وزهور اللوبيليا. هناك ورشات نجارة، معارض التحنيط، مساحات كبيرة من الرفوف وجوارير العينات، متاحف كاملة ضمن المتحف.

في بعض الأصائل، يستودع ماري لور في مختبر الدكتور جيفار، وهو رجل مسنٌّ خبير بالرخويَّات، تفوح من لحيته رائحة الصُّوف الرطب باستمرار. وأياً كان نوع العمل الذي يشغل الدكتور جيفار حينذاك فإنه يتركه ويفتح زجاجة من مشروب الـ«مالبك» ويحدِّث ماري لور، بصوته الهامس، عن سلاسل الصخور البحرية التي زارها في صباه: جزر السيشل، بِليز، زنجبار. يدعوها لوريت، يتناول بطاً مقلياً كل يوم عند السَّاعة الثالثة من بعد الظهر، يتسع عقله لفهرس لا ينضب معينه فيما يبدو، من التسميات اللاتينية الثنائية.

على الجدار الخلفي لمختبر الدكتور جيفار هناك خزائن تحتوي على أدراج يتجاوز عددها قدرتها على العد، يدعها تفتحها واحداً بعد الآخر، وتمسك الأصداف بين يديها - حلزونات كبيرة، زيتون، حليات حلزونية

---

(1) الدبال: مادة سمراء أو سوداء تنشأ من تحلل المواد النباتية و الحيوانية. (المترجِمة).

إمبراطورية من تايلاند، محار العنكبوت من بولنيزيا - يمتلك المتحف أكثر من عشرة آلاف عينة، ما يزيد عن نصف العينات المعروفة في العالم، وقد أمكن لماري لور أن تمسك بمعظمها.

«الآن تلك الصَّدفة، يا لوريت، كانت لحلزون بحري بنفسجي اللون، حلزون أعمى يعيش طوال حياته على سطح البحر. حالما يتم إطلاقه في المحيط، يقلقل المياه ليصنع فقاعات، ويحزم هذه الفقاعات بالمخاط، ويبني طوفاً. ثم يتخبط هنا وهناك، يتغذى على اللافقاريات المائية العائمة التي يصادفها. لكن إذا ما فقد طوفه سوف يغرق ويموت...».

قوقعة «كاريناريا» خفيفة وثقيلة في آن، قاسية وناعمة، ملساء وخشنة. صدفة الموريكس التي يضعها الدكتور جيفار على مكتبه دوماً، يمكن أن تروح عنها مدة نصف ساعة، العمود الفقري الأجوف، اللوالب ذات القمم، المدخل العميق، إنها غابة من مسامير وكهوف ونسيج، إنها مملكة.

تتحرك يداها بدأب، تجمع، تجس، وتختبر. ريش صدر عصفور القرقف المحشو والمنصوب، ناعم للغاية، منقاره حاد كالإبر. غبار الطلع عند رؤوس مئابر التوليب ليس مسحوقاً، بقدر ما هو كرات زيت صغيرة. أن تتعلم -أن تلمس شيئاً، لحاء شجرة دلب في الحدائق، خنفساء أيل مثبتة في قسم «الإتيمولوجيا»، باطن صدفة محار مصقول بشكل رائع في ورشة عمل الدكتور جيفار- هو أن تحبه.

في البيت، في الأمسيات، يرتِّب والدها أحذيتهما في الحجرة الصغيرة نفسها، يعلق معطفيهما على العلاقات ذاتها. تجتاز ماري لور ست شرائط احتكاك تفصل فيما بينها مسافات متساوية على بلاط المطبخ لتصل إلى الطاولة، تتبع حبلاً مفتولاً كان قد نظمه من الطاولة حتى المرحاض. يقدم العشاء على صحن مدور ويشرح أمكنة الأطعمة المختلفة بحسب عقارب

الساعة. البطاطا عند الساعة السادسة، يا عزيزتي. الفطر عند الثالثة. ثم يشعل سيجارة ويذهب ليعمل على منمنماته إلى طاولة الحرفي في زاوية المطبخ. يصنع مجسماً موسعاً لحيهم كاملاً، المنازل بنوافذها الطويلة، الميازيب، المغسل، المخبز، والمكان الصغير عند نهاية الشَّارع بمقاعده الأربعة وشجراته العشر. في ليال دافئة تفتح ماري لور نافذة غرفة نومها وتصغي إلى المساء عندما يستقر على الشُّرفات والجملونات والمداخن، كسولاً ومسالماً، إلى أن يمتزج الحي الحقيقي والمجسم في عقلها.

يغلق المتحف أبوابه أيام الثلاثاء. تنام ماري لور ووالدها حتى وقت متأخر، يشربان القهوة ثقيلة ومحلاة بالسُّكر. يسيران إلى «البانثيون»، أو إلى محل بيع الزهور، أو نحو نهر السين. يزوران بين الحين والآخر متجراً للكتب. يناولها قاموساً، صحيفة، مجلَّة حافلة بالصُّور. «كم عدد الصَّفحات يا ماري لور؟».

تمرر ظفراً على طول الحافَّة. «اثنتان وخمسون؟» «سبعمئة وخمسة؟» «مئة وتسعة وثلاثون؟».

يرفع شعرها عن أذنيها ويؤرجحها فوق رأسه. يقول إنها أعجوبته. يقول إنه لن يتركها يوماً، ليس حتى بعد مليون عام.

راديو

يبلغ فرنر من العمر ثمانية أعوام، ينقّب في النُّفايات خلف سقيفة مخزن فيكتشف ما يبدو مثل وشيعة كبيرة من الأسلاك. تتكون من أسطوانة من أسلاك ملفوفة موضوعة بين قرصين من خشب الصَّنوبر. تبرز ثلاثة أسلاك كهربائية مهترئة من الأعلى. تتدلى سماعة صغيرة من طرف أحدها. تجثم يوتا قرب أخيها، وهي تبلغ من العمر ست سنوات، مدورة الوجه وركام شعرها الأبيض أشبه بسحب ركامية مهروسة.

– ما ذلك؟

يقول فرنر وهو يشعر كما لو أن خزانة في السَّماء انفتحت للتو:

– أعتقد أننا عثرنا على راديو.

لغاية الآن لم يكن قد رأى أي راديو إلا من خلال نظرات خاطفة: صندوق جهاز لاسلكي كبير رآه عبر السَّتائر المخرمة في منزل أحد المسؤولين، وحدة محمولة في مهجع عمال المنجم، أخرى في حجرة طعام الكنيسة. لم يمس واحداً منها يوماً.

يعيد هو ويوتا الجهاز خفية إلى 3 شارع «فيكتوريا» ويثمنانه في ضوء مصباح كهربائي. يمسحانه وينظفانه، يفكان عقدة الأسلاك، ويزيلان الطين عن السماعة.

لا يعمل. يأتي أطفال آخرون ويقفون حولهما ويندهشون، ثم يفقدون الاهتمام تدريجياً ويستنتجون أنه ميؤوس منه. لكن فرنر يحمل جهاز الاستقبال إلى عليته ويتفحصه لساعات. يفصل كل ما يمكن أن ينقطع، يضع أجزاءه على الأرض ويرفعها واحداً واحداً نحو الضوء.

بعد ثلاثة أسابيع من عثوره على الجهاز، في أصيل مذهب بالشَّمس عندما كل طفل آخر في زولفرين ربما في الخارج، يلاحظ وجود انقطاعات عديدة في أطول الأسلاك، وهو خيط رفيع ملفوف مئات المرات حول الأسطوانة المركزية. ببطء، بدقة، يفض اللفة، يحمل اللفة غير المنتظمة كلها إلى الأسفل، وينادي يوتا إلى الداخل لتمسك القطع من أجله بينما يصل الانقطاعات ثم يعيد لفه.

يهمس: «الآن لنجرب»، ويضغط السَّماعة على أذنه ويمرر ما قرر أنه لا بد من أن يكون مؤشر الضبط، جيئة وذهاباً، على طول البكرة.

يسمع أزيز تشويش. ثم من مكان عميق داخل السَّماعة، يتقدم تيار أصوات ساكنة. يتوقف قلب فرنر، يبدو أن الصَّوت يتردد في هيكل رأسه.

يتلاشى الصَّوت سريعاً مثلما جاء. يزيح المؤشر مسافة ربع بوصة. المزيد من التشويش. ربع بوصة آخر. لا شيء. في المطبخ، تعجن السَّيدة إلينا الخبز. الأولاد يصرخون في الزقاق. فرنر يوجه مؤشر الضبط جيئة وذهاباً. تشويش، تشويش.

وفيما هو على وشك أن يناول السَّماعة ليوتا عندما - بشكل واضح لا عيب فيه، نحو منتصف الملف - يسمع الضربات السَّريعة والعنيفة لقوس يجري على أوتار كمان. يحاول أن يثبت المسمار تماماً. ينضم كمان ثان إلى الأول. تقترب يوتا أكثر، تشاهد أخاها وعيناه مفتوحتان باتساع.

يتعقب بيانو الكمانين. ثم آلات نفخ خشبية. الأوتار تعدو، آلات النفخ

ترفرف من خلفها. ينضم عدد آخر من الآلات. فلوت؟ قيثارات؟ الأغنية تسرع، تبدو أنها تدور على ذاتها.

تهمس يوتا: «فرنر؟».

يطرف بعينيه، كان عليه أن يبتلع دموعه. تبدو الردهة كما عهدها دوماً: مهدان تحت صليبين لاتينيين، غبار سابح في فم الموقد المفتوح، العديد من طبقات الطلاء المتقشر عن إزار الحائط. صورة مطرزة بالإبرة لقرية السَّيدة إلينا المثلجة معلَّقة فوق المغسلة. لكن الآن هناك موسيقى. كما لو أنَّ الحياة انبعثت في فرقة موسيقية متناهية في الصِّغر داخل رأس فرنر.

يبدو كما لو أن الغرفة تقع في دوامة بطيئة. تردد أخته اسمه بإلحاح أكبر، ويضغط السماعة على أذنها.

تقول: «موسيقى».

يمسك المسمار بثبات شديد قدر الإمكان. الإشارة ضعيفة بما فيه الكفاية ولو أن السماعة تبعد ست بوصات لا يمكنه سماع أي أثر للأغنية. لكنه يراقب وجه أخته، جامد ما عدا جفنيها، وفي المطبخ ترفع السَّيدة إلينا يديها المبيضتان من الطحين في الهواء وتميل برأسها، تتفحص فرنر، ويهرع اثنان من الفتية الأكبر سناً ويتوقفان، يستشعران تغيراً في الهواء والراديو الصغير بأطرافه الأربعة والهوائي اللاحق هامد على الأرض بينهم أشبه بمعجزة.

خذينا إلى البيت

تستطيع لماري لور عادة أن تحل ألغاز صناديق الأحاجي الخشبية التي يبتكرها والدها في أعياد ميلادها. غالباً هي مكونة على هيئة منازل وتحتوي على بعض الحلي الصَّغيرة المخفية. فتحها ينطوي على سلاسل بارعة من الخطوات: جدي ثقباً بأظافرك، ازلقي القعر إلى اليمين، فكي حاجزاً جانبياً، أزيلي مفتاحاً مخفياً من داخل الحاجز، افتحي القمة، واكتشفي الإسورة في الداخل.

في عيد ميلادها السَّابع: شاليه خشبي متناه في الصغر موضوع وسط طاولة المطبخ حيث يكون طبق السكر عادة. تزلق درجاً مخفياً وتخرجه من القاعدة، تجد حجرة صغيرة مخفية تحت الدُّرج، تخرج مفتاحاً خشبياً، وتدخل المفتاح داخل المدخنة. في الداخل توجد قطعة من الشوكولا السويسرية.

يقول والدها ضاحكاً: «أربع دقائق. عليَّ أن أبذل جهداً أكبر السَّنة المقبلة».

لوقت طويل، بخلاف صناديق أحاجيه، تجد المجسم الذي صنعه لحيهما معقولاً بعض الشيء. إنه ليس مثل العالم الحقيقي. التقاطع المصغر لشارع «دو ميربل» مع شارع «مونج»، على سبيل المثال، فقط على بعد كتلة سكنية من شقتهما، لا يشبه التقاطع الحقيقي في شيء. الحقيقي

يبدي مدرجاً من الضوضاء والعطر: في الخريف تفوح منه رائحة حركة المرور وزيت الخروع، خبز من المخبز، كافور من صيدلية «آفين»، زهور الدلفينيون وبازلاء حلوة وورد من بسطة الزهور. تغمره في أيام الشتاء شذى الكستناء المشوية، يصبح في أمسيات الصيف بطيئاً ووسنان، مفعماً بالمحادثات الناعسة واحتكاك الكراسي الحديدية الثقيلة.

لكن مجسم والدها للتقاطع نفسه لا يفوح سوى برائحة غراء جاف ونشارة. شوارعه فارغة، أرصفته ساكنة، بالنسبة إلى أصابعها. بأفضل حال، ليس سوى نسخة ناقصة وصغيرة. يصر على ماري لور طالباً منها أن تمرر أصابعها عليه، لتتعرف على المنازل المختلفة، زوايا الشَّوارع. ذات يوم ثلاثاء بارد في شهر كانون الأول، وكان قد مر على فقدان ماري لور البصر أكثر من سنة، مشى والدها معها في شارع «كوفيه» نحو حافَّة حديقة النباتات.

- هنا، عزيزتي، الدَّرب الذي نسلكه كل صباح. عبر أشجار الأرز قدماً يقع الغراند غاليري.

- أعرف أبي.

يحملها ويدورها ثلاث مرات.

يقول: «الآن سوف تأخذيننا إلى البيت».

تفتح فمها مذهولة.

- أريدك أن تفكري في المجسم ماري.

- لكن من المحتمل أني لا أستطيع!

- أنا خلفك بخطوة واحدة. لن أدع أي شيء يحدث. لديك عصاك، أنت تعرفين أين أنت.

- لا أعرف!

- تعرفين.

سخط. هي لا تستطيع حتى أن تعرف إذا كانت الحدائق قدماً أو إلى الخلف.

- هوني عليك ماري، سنتيمتر واحد بكل خطوة.

- إنه بعيد أبي، ستة تقاطعات على الأقل.

- ستة تقاطعات صحيح بالضبط. استعملي المنطق، أي اتجاه يجب أن نسلك أولاً؟

يدور العالم ويدمدم. غربان تصيح، فرامل تهسهس، شخص إلى يسارها يضرب شيئاً حديدياً بما قد يكون مطرقة. تمشي بتثاقل إلى الأمام حتى تعوم رأس عصاها في الفراغ. حافّة الرصيف؟ بركة، درج، جرف صخري؟ تستدير تسعين درجة. ثلاث خطوات إلى الأمام. الآن تعثر عصاها على قاعدة جدار.

- أبي؟

- أنا هنا.

ست خطوات سبع خطوات ثمانية. هدير ضوضاء - مبيد يغادر منزلاً للتو، مضخة تنعر - يستبد بهما. اثنتا عشر خطوة قدماً، يرن الجرس المعلق حول مقبض باب متجر، وتخرج امرأتان، تدفعانها عندما تعبران.

ترمي ماري لور عصاها، تبدأ بالبكاء.

يرفعها والدها ويضمها إلى صدره الضيق.

تهمس:

- إنها كبيرة جداً.

- يمكنك أن تفعلي هذا ماري.

لا تستطيع.

شيء يظهر

بينما يلعب الأطفال الآخرون لعبة الحجلة في الزقاق، أو يسبحون في القنال، يجلس فرنر وحيداً في غرفة نومه العلوية، يجرب جهاز الراديو. في غضون أسبوع أصبح في استطاعته فكَّه وإعادة تركيبه مغمض العينين. مكثِّف كهربائي، مستحث كهربائي، مفتاح توليف الإذاعة، سمَّاعة. أحد السلكين يذهب إلى الأرض، الآخر نحو السَّماء. لم يصادف شيئاً كان له مثل هذا الأثر من قبل.

يجمع الأجزاء من سقيفة المعدَّات: قصاصات من سلك نحاسي، براغي، مفك مقوس. يقنع زوجة الصَّيدلي أن تعطيه سماعة معطلة، ينقذ ملفاً لولبياً من جرس باب مرمي، يلحمه إلى المقاومة الكهربائية، ويصنع مكبراً للصوت. خلال شهر يتمكَّن من إعادة تصميم المستقبِل كلياً، بإضافة أجزاء جديدة هنا وهناك وبوصله بمصدر للطاقة.

يحمل الراديو إلى الطابق الأرضي كل مساء، والسَّيدة إلينا تسمح لمن هم تحت وصايتها بالاستماع مدة ساعة. يستمعون إلى نشرات الأخبار، الحفلات الموسيقية، الأوبرا، الجوقة الوطنية، البرامج الفلكلورية. دزينة من الأطفال يشكلون نصف دائرة على الأثاث، السَّيدة إلينا بينهم، بالكاد تبدو أكثر وقاراً من الأطفال.

يقول الراديو: نعيش في أزمنة مثيرة. لا نتذمر. سوف نغرس أقدامنا بحزم في تربة أرضنا، ولن يزعزعنا أي هجوم.

تحب الفتيات الأكبر سناً المسابقات الموسيقية، التمارين الرياضية الإذاعية، فقرة منتظمة تدعى ملاحظات موسمية لأولئك الواقعين في الحب تجعل أصغر الأطفال سناً يصرخ. يحب الفتيان التمثيليات، نشرات الأخبار، الأناشيد العسكرية. تحب يوتا موسيقى الجاز. يحب فرنر كل شيء. الكمنجات، الأبواق، الطُّبول، الخطابات - فم أمام مكبر صوت في مساء بعيد ولكنه معاصر - سحره يجعله سابحاً في عالم آخر.

يسأل الراديو: هل من عجب، أن الشَّجاعة، والثقة، والتفاؤل تملأ الشعب الألماني بازدياد؟ أليست هي شعلة إيمان جديد ترتقي من هذا التأهُّب للتضحية بالنفس؟

حقاً يبدو لفرنر، مع مضي أيام الأسبوع، أن شيئاً جيداً يحدث. يزداد إنتاج المنجم، تنخفض البطالة.

يظهر اللحم على وجبة عشاء يوم الأحد. لحم ضأن، خنزير، نقانق - إسراف لم يعهده منذ سنة. تشتري السَّيدة إلينا أريكة جديدة منجَّدة بقماش قطني برتقالي اللون، وفرن بمواقد في حلقات سوداء، تصل ثلاث نسخ جديدة من الكتاب المقدس من المجلس الكنسي في برلين، مرجل للغسيل أرسل إلى الباب الخلفي. فرنر يحصل على سروال جديد: يوتا تحصل على حذاء. هواتف سليمة ترن في منازل الجيران.

ذات أصيل، يتوقَّف فرنر في طريق العودة من المدرسة، عند الصَّيدلية ويضغط أنفه على واجهة طويلة: خمس دستات من جنود القوَّات الخاصَّة النَّازية، كل واحد بطول بوصة واحدة، يزحفون هناك، يرتدي كل جندي قميصاً بنياً وعلى ذراعه شارة حمراء صغيرة، يحمل البعض منهم آلات

الفلوت، والبعض الطبول، يمتطي عدد قليل من الضُّباط أحصنة صغيرة سوداء اللون. فوقهم يتدلى من سلك لوحٌ حركة ساعية مائي من الصَّفيح مع زوارق خشبية ومروحة دوَّارة تصنع مداراً كهربائياً منوماً. يمعن فرنر النظر فيها لوقت طويل عبر الزجاج، محاولاً أن يفهم كيفية عملها.

يهبط الليل، خريف عام 1936، يحمل فرنر الراديو إلى الطابق الأرضي ويضعه على صوان السُّفرة، يتململ الأطفال الآخرون مترقبين. يدندن جهاز الاستقبال عندما يسخن. يتراجع فرنر ويداه في جيبيه. يسمع من مكبر الصَّوت غناء جوقة أطفال: نسعى إلى أن نعمل، أن نعمل ونعمل، أن نذهب إلى عمل مجيد من أجل البلاد. ثم تبدأ مسرحية عن برلين مدعومة من قبل الدَّولة: قصَّة غزاة يتسللون إلى قرية ليلاً.

يجلس جميع الأطفال البالغ عددهم اثني عشر طفلاً مأسورين. في المسرحية، يعرض الغزاة على أنهم أصحاب متاجر كبيرة معقوفي الأنوف، صاغة لا يمكن ائتمانهم، مصرفيين غير شرفاء، يبيعون نفايات براقة، يفقدون أهل القرية الأصلاء أعمالهم. يتآمرون سريعاً لقتل الأطفال الألمان في أسرَّتهم. أخيراً، أحد الجيران، بسيط ويقظ فهم الأمر. تم استدعاء الشُّرطة: رجال شرطة وسيمون ضخام ذوو أصوات رائعة. يكسرون الأبواب. يدحرون الغزاة. يعزف مارش وطني. تغمر السَّعادة الجميع من جديد.

ضوء

يتكرر فشلها كل ثلاثاء. تقود والدها على انعطافات ست كتل سكنية تجعلها غاضبة ومحبطة ويبعدان عن البيت مسافة أطول من تلك التي كانت عندما بدآ. لكن ماري لور تفاجئ نفسها عندما تبدأ بإتقانه في شتاء عامها الثَّامن. تمرر أصابعها على المجسَّم في المطبخ، تعد مقاعد المجسم، الأشجار، أعمدة الإنارة، العتبات. كل يوم ينبثق تفصيل جديد - كل مصرف، مقعد في الحديقة، وصنبور في المجسم له نظيره في العالم الحقيقي.

تقود ماري لور والدها مسافة أقرب إلى البيت من دون أن ترتكب خطأً. أربعة مفارق ثلاثة مفارق مفرقان. وذات يوم ثلاثاء مثلج في آذار، عندما يسير معها إلى بقعة جديدة أيضاً، قريبة جداً من ضفاف نهر السين، يدومها ثلاث مرات ويقول: «خذينا إلى البيت»، تدرك للمرة الأولى منذ أن بدآ هذا التمرين أنها لا تشعر بالوجل.

بدلاً من ذلك تقرفص على كعبيها على الرصيف.

تكتنفها رائحة الثلج المنهمر المعدنية على نحو ضعيف. «هدِّئي من روعك. أصغِ».

سيارات ترش الماء على طول الشَّوارع، وذوبان الثلوج يقرع عبر

السواقي، يمكنها أن تسمع ندف الثلج تتكتك وتدمدم عبر الأشجار. يمكنها أن تشم رائحة شجر الأرز في حديقة النباتات على بعد ربع ميل. هنا المترو يندفع بعنف تحت الرصيف: ذلك رصيف سان برنار. هنا السماء تنكشف، وتسمع طقطقة الأغصان: ذلك شريط الحدائق الضيق خلف صالة عرض «علم المتحجرات». تدرك أن هذه لا بد من أن تكون زاوية رصيف الميناء وشارع كوفييه.

ستة مفارق، أربعون مبنى، عشر شجيرات في ساحة. هذا شارع يتقاطع مع هذا الشارع والذي يتقاطع مع ذلك الشارع... سنتيمتر واحد في كل مرة. يخشخش والدها المفاتيح في جيبه. قُدماً تتضح المنازل الطويلة الكبيرة التي تحيط بالحدائق من كل جانب، عاكسة الصَّوت.

تقول: «نذهب إلى اليسار».

ينطلقان على امتداد شارع كوفييه. ينتظم ثلاثي من طيور البط الصَّاعد في الهواء نحوهما، يرفرفون بأجنحتهم في تزامن، متَّجهين نحو نهر السِّين، وعندما تندفع الطيور عالياً، تتخيل أنها تستطيع أن تشعر بالضوء يرسو على أجنحتها، يضرب كل ريشة مفردة. يساراً نحو شارع «لينيه». يمنة نحو شارع «دوبنتون». ثلاثة مصارف أربعة مصارف خمسة مصارف. قريباً إلى اليسار سيكون سياج حديقة النباتات الحديدي المفتوح، قضبانه الرفيعة مثل قضبان قفص عصافير كبير.

في الجهة المقابلة لها الآن: المخبز، الجزَّار، بائع الأطعمة المعلَّبة.

- هل يمكنني عبور الطريق بأمان يا أبي؟

- نعم.

إلى اليمين، ثم باتجاه مستقيم. يصعدان شارعهما الآن، هي واثقة. خطوة واحدة خلفها، يسدِّد والدها رأسه نحو الأعلى ويبتسم للسَّماء

ابتسامة عريضة. تعرف ماري لور هذا حتى لو أنها تدير ظهرها له، حتى لو أنه لا يقول شيئاً، حتى لو أنها كفيفة البصر - شعر أبي الكثيف بلّله الثّلج وينتصب في رأسه، ووشاحه ملقىً بشكل متناظر على كتفيه، وهو يبتسم للثلج المنهمر.

هما في منتصف شارع «دي باتريرش». هما أمام مبناهما. تجد ماري لور جذع شجرة الكستناء التي تنمو بمحاذاة نافذتها في الطابق الثّالث، لحاؤها تحت أصابعها.

صديقة قديمة.

في نصف ثانية أخرى يدا والدها تحت إبطيها، يؤرجحها عالياً، تبتسم ماري لور ويضحك هو ضحكة نقية معدية، ضحكة سوف تحاول أن تتذكرها طوال حياتها، والد وابنة يدوران في حلقات على الرصيف أمام شقتهما، يضحكان معاً بينما الثلج يتنخل عبر الأغصان في الأعلى.

علمنا يرفرف قبالتنا

في زولفرين، في ربيع سنة فرنر العاشرة، الفتيان الأكبر سناً في منزل الأطفال - هانز شيلزر البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً وهيربرت بومزيل البالغ من العمر أربع عشرة عاماً - يضعان على كتفيهما حقائب مستعملة ويسيران بخطى عسكرية نحو الغابة. عندما يعودان يكونان قد أصبحا عضوين في منظمة شباب هتلر.

يحملان مقاليع، يبتدعان رماح، يتمرنان على الكمائن من خلف ركام الثُّلوج. ينضمان إلى عصابة عدوانية مكوَّنة من أبناء عمَّال المناجم الذين يجلسون في ساحة السُّوق، أكمامهم مثنية للأعلى، بنطاليهم القصيرة مرفوعة حتى الأوراك.

يصرخون على العابرين: «مساء الخير. أو هايل هتلر إذا كنت تفضِّل ذلك!».

يقصَّ كل واحد منهما شعر الآخر بتسريحتين متطابقتين، ويتصارعان في الردهة، ويتشدقان حول التدريب على البندقية الذي يستعدان له، الطائرات الشِّراعية التي سيطيِّرانها، وأبراج الدبابات الصَّغيرة التي سوف يديرانها. يغنِّي هانز وهيربرت: يمثِّل علمنا العصر الجديد، علمنا سيقودنا إلى الخلود. في أثناء تناول الوجبات، يؤنِّبان الأطفال الأصغر سناً إذا ما

أبدوا إعجابهم بأي شيء أجنبي: إعلان سيارة بريطانية، كتاب فرنسي مصوَّر.

تحياتهما مضحكة، ثيابهما تكاد تكون سخيفة. لكن السَّيدة «إلينا» تراقبهما بعينين يقظتين: منذ أمد ليس ببعيد كانا رضيعين مشردين يتواريان في مهديهما ويبكيان من أجل والدتيهما. الآن أصبحا متنمرين يافعين ببراجم متشققة، يطويان بطاقات بريدية عن الفوهرر في جيوب قمصانهما.

يقلُّ تحدُّث السَّيدة «إلينا» بالفرنسية شيئاً فشيئاً، في حضور هانز وهيربرت. تجد نفسها واعية للكنتها.

أدنى إيماءة من أحد الجيران قد تثير قلقها.

يتجنَّب فرنر لفت الانتباه. قافزاً فوق النيران المضرمة، فاركاً الرماد تحت عينيك، متنمراً على صغار الأطفال؟ مغضِّناً رسومات يوتا؟ يقرر أنه من الأفضل أن يحتفظ المرء بحضور ضئيل، غير بارز. كان فرنر يقرأ المجلات الشَّهيرة العلمية في الصَّيدلية، هو مهتم بالحركات الموجية -أنفاق نحو مركز الأرض، الطريقة النيجيرية في نقل الأخبار عبر المسافات بواسطة الطبول. يشتري دفتراً ويرسم مخططات للغرف السَّحابية، كاشفات أيونية، مناظير لأشعة إكس. ماذا عن محرِّك صغير موصول بمراجيح لهدهدة الرُّضع كي يناموا؟ ماذا عن نوابض تمتد على طول محاور عربته لتساعده في جرها على التلال؟

يزور مسؤولٌ من وزارة العمل منزل الأطفال ليتحدَّث عن فرص العمل في المناجم. يجلس الأطفال عند قدميه مرتدين أكثر ملابسهم نظافة. يشرح الرجل إن كلَّ الفتيان من دون استثناء سيذهبون إلى العمل في المناجم عندما يبلغون سن الخامسة عشرة. يتحدَّث عن الأمجاد والانتصارات، وكيف سيكونون محظوظين في الحصول على عمل ثابت.

عندما يلتقط راديو فرنر ويضعه من دون تعليق، يشعر فرنر بأن السَّقف ينخفض والجدران تتقلص.

والده هناك على مسافة ميل تحت المنزل. جسد لم يتعافَ يوماً. لا يزال يسكن الأنفاق.

يقول الموظف: «من حيِّنا. من تربتنا، تأتي عظمة أمتنا. الفولاذ، الفحم، فحم الكوك. برلين، فرانكفورت، ميونخ - لا يمكن له أن توجد من دون هذا المكان. أنتم تزودون النظام الجديد باحتياجاته، الرصاص في بنادقه، الدرع على مركبته الحربية».

يعاين كل من هانز وهيربرت حزام مسدس الرجل الجلدي بعينين مبهورتين. على صوان السُّفرة، راديو فرنر الصَّغير يثرثر. يقول: «خلال هذه السَّنوات الثلاث، كانت لقائدنا الشجاعة على مواجهة أوروبا التي كانت مهددة بالانهيار...».

يقول: «هو بمفرده يستحق الشُّكر على واقعة أنه، من أجل الأطفال الألمان، أصبحت الحياة الألمانية من جديد تستحق العيش».

حول العالم في ثمانين يوماً

ست عشرة خطوة نحو نافورة المياه، ست عشرة خطوة للعودة. اثنتان وأربعون نحو بيت الدَّرج، اثنتان وأربعون للعودة. ترسم ماري لور خرائط في رأسها، تكر مئة ياردة من الفتائل المتخيلة، من ثم تلتفت وتلفها من جديد. تفوح من «بوتاني» روائح تشبه رائحة الغراء وورق النُّشاف وزهور مضغوطة.

يفوح «علم المتحجِّرات» برائحة تشبه غبار الصُّخور، غبار العظام. «علم الأحياء» له رائحة تشبه مادة الفورمالين وفاكهة قديمة، إنه مثقل بجرار باردة ثقيلة تعوم فيها الأشياء التي وصفت لها فحسب: حبال الأفاعي ذات الأجراس الملفوفة الباهتة، أيدي غوريلا مقطوعة. «علم الحشرات» له رائحة تشبه كرات العث والزيت: مادة حافظة يشرح الدكتور جيفار أنها تدعى النفتالين. للمكاتب رائحة ورق الكربون، أو دخان السِّيجار، أو البراندي، أو العطر، أو الأربعة معاً.

تتبع الأسلاك والأنابيب، الدرابزينات والحبال، الأسيجة والأرصفة. تجفل الناس. هي لم تعرف أبداً إذا ما كانت المصابيح مضاءة.

الأطفال الذين تلتقيهم يطفحون بالأسئلة: هل يؤلم؟ هل تغمضين عينيك كي تنامي؟ كيف تعرفين كم السَّاعة؟

تشرح قائلة: إنه لا يتسبب بالألم. وليس هناك عتمة، ليست من النوع

الذي يتخيلونه. كلُّ شيء مؤلَّف من شباك وشبكيات ومجسمات من صوت ونسيج. تدور حول «الغراند غالوري»، تطوف بين ألواح الأرضيات التي تصدر صريراً، تسمع وقع أقدام تجول جيئة وذهاباً على أدراج المتحف، صراخ طفل، أنين جدَّة متعبة ترخي نفسها على مقعد.

اللون - هذا أمر آخر لا يتوقَّعه النَّاس. لكل شيء لون في تخيلاتها وفي أحلامها. لمباني المتحف لون بني فاتح، كستنائي، بندقي. لعلمائه لون الليلك والأصفر الليموني وبني الثَّعالب. تتراخى أوتار بيانو في سمَّاعة اللاسلكي في محطة الحراسة، فترمي بأسود كثيف وأزرق معقَّد في القاعة باتجاه مكتب حفظ المفاتيح. ترسل أجراس الكنيسة أقواساً برونزية تميل عن النوافذ. النَّحل فضي، الحمام بلون الزنجبيل وخرنوبي، ذهبي أحياناً. تومض أشجار السَّرو الهائلة التي يمران بها هي ووالدها كل صباح بمشكال وامض، كل إبرة مضلَّع من النُّور.

هي لا تملك أية ذكريات عن أمها سوى أنها تتخيلها، مثل ألق أبيض عديم الصَّوت. يشعُّ والدها بآلاف الألوان، الأوبَّال، الفريز الأحمر، اللون الخمري الدَّاكن، الأخضر البري، رائحة تشبه رائحة الزيت والمعدن، ملمس ريشة قفل تنزلق في مكانها، صوت حلقات مفاتيحه تخشخش وهو يسير. هو أخضر مثل الزيتون عندما يتحدَّث إلى رئيس القسم، سلاسل متالية من اللون البرتقالي عندما يتحدَّث مع الآنسة فلوري من البيوت الزجاجية، أحمر مشرق عندما يحاول أن يطهو. يشع بالياقوت الأزرق عندما يجلس إلى طاولة الحرفي في الأمسيات، يدندن بصوت يكاد لا يكون مسموعاً وهو يعمل، طرف سيجارته يتوهج بلون بأزرق لماع.

تاهت. أعادتها السكرتيرات أو علماء نبات، ومرة مساعد المدير، إلى مكتب حفظ المفاتيح. هي فضولية، تريد أن تعرف الفرق بين الطحالب والأشنيات، بين محار «ديبلودون شاروبناس» ومحار «ديبلودون

ديلودونتس». رجال مشهورون يمسكون بها من مرفقها ويواكبونها عبر الحدائق، أو يرشدونها لتصعد الدرج.

قد يقولون: «لدي ابنة أيضاً». أو: «وجدتها بين الطيور الطنانة».

يقول والدها: «أستميحكم عذراً».

يشعل سيجارة. ينتزع مفتاحاً بعد آخر من جيوبه. يهمس: «ماذا سأفعل معك؟».

عندما تستيقظ صباح عيد ميلادها التَّاسع، تجد هديتين. الأولى عبارة عن صندوق خشبي لا تتمكن من اكتشاف مكان لفتحه. تقلبه ذات اليمين وذات الشِّمال. وسرعان ما تدرك أن أحد جوانبه يحتوي على نابض، تضغطه فينفتح الصُّندوق. في الدَّاخل يوجد مكعَّب من الجبن القشدي، تضعه مباشرة في فمها.

يقول والدها ضاحكاً: «أسهل من اللازم!».

الهدية الثانية ثقيلة، ملفوفة في ورق وفتيل. في الداخل كتاب ضخم ملزَّم بسلك لولبي. بلغة البريل.

«يقولون إنه للفتيان. أو لكل فتاة مغامرة». في وسعها سماع ابتسامته.

تزلق أطراف أصابعها عبر صفحة العنوان البارزة. «حول. العالم. في. ثمانين. يوماً».

– أبي، إنه باهظ الثَّمن.

– هذا أمر أنا أهتم بشأنه.

ذلك الصَّباح تدبُّ ماري لور تحت نضد مكتب حفظ المفاتيح، وتستلقي على بطنها، وتضع أناملها العشرة في سطر على صفحة. تبدو الفرنسية عتيقة الطراز، النقاط المطبوعة متقاربة من بعضها البعض أكثر

من المعتاد. لكنها تصبح سهلة بعد أسبوع. تجد الشَّريط الذي تستعمله كمؤشر، تفتح الكتاب ويتلاشى المتحف.

يعيش السَّيد فوغ الغامض حياته مثل الآلة. «جين باسبارتو» هو خادمه المطيع. عندما تصل بعد شهرين إلى سطور الرواية الأخيرة، تعود إلى الصَّفحة الأولى وتبدأ مجدداً. ليلاً تمرر أطراف أصابعها على المجسَّم الذي صنعه والدها: برج الجرس، نوافذ الواجهات. تتخيل شخصيات «جول فيرن» تسير في الشَّوارع، تثرثر في المتاجر، يزلق فرَّان بطول نصف بوصة أرغفة بحجم بقعة دخولاً وخروجاً من أفرانه، يتآمر ثلاثة لصوص صغار وهم يقودون ببطء مروراً ببائع المجوهرات، تحتشد سيارات صغيرة هادرة في شارع «دي ميربل»، مماسح تنزلق جيئة وذهاباً.

خلف نافذة الطَّابق الرابع المطل على شارع «دي باتريرش»، نسخة مصغَّرة من والدها جالس إلى طاولة حرفي مصغَّرة في مصغَّر شقتهما، تماماً كما يفعل في الحياة الواقعية، يصقل بالرمل قطعة خشب متناهية في الصِّغر، في الجهة الأخرى من الغرفة مصغَّر لفتاة، نحيلة، حاضرة البديهة، كتاب مفتوح في حجرها، في صدرها ينبض شيء كبير، شيء مفعم بالتَّوق، شيء لا يعرف الخوف.

البروفسور

تقول يوتا: «عليك أن تقسم، هل تقسم؟». وسط طبول صدئة وأنابيب داخلية ممزَّقة وطين قاع الجدول كثير الديدان، اكتشفت سلكاً نحاسياً بطول عشر ياردات. تصبح عيناها كنفقين لامعين.

يرمق فرنر الأشجار، والجدول، ثم يعود إلى أخته: «أقسم».

يهربان السِّلك إلى البيت معاً ويعقدانه جيئة وذهاباً عبر ثغرات المسامير في السَّقف خارج نافذة العليَّة. ثم يصلانه بمذياعهما. في الحال تقريباً، يمكنهما، على الموجة القصيرة، سماع شخص يتحدث بلغة غريبة حافلة بحرفي الزاي والسِّين.

- هل هي الروسية؟

يعتقد فرنر إنها الهنغارية.

يوتا يقظة للغاية في الظلام والحرارة.

- كم تبعد هنغاريا؟

- ألف كيلومتر؟

تتثاءب.

تبيَّن أن الأصوات تندفع نحو زولفرين من شتَّى أنحاء القارَّة، عبر السُّحب، هباب الفحم، السَّطح. يعجُّ بها الهواء. تعدُّ يوتا سجلاً يضارع

المقياس الذي يسحب عليه فرنر ملفَّ التوليف، تتهجّى بعناية اسم كل مدينة يستطيعان استقبالها. فيرونا 65، درسدن 88، لندن 100، روما، باريس، ليون. الموجة القصيرة في آخر الليل: ميدان المتسكعين والحالمين، المجانين والمتشدِّقين. بعد الصَّلوات وإطفاء الأنوار، تتسلل يوتا إلى غرفة أخيها، بدلاً من أن يرسما معاً، يستلقيان جنباً إلى جنب ليتسمعا حتى منتصف الليل، حتى السَّاعة الواحدة، الثَّانية صباحاً. يستمعان إلى تقارير إخبارية بريطانية لا يسعهما فهمها، يسمعان امرأة برلينية تعظ حول الزينة المناسبة لحضور حفل كوكتيل.

ذات ليلة يستمع كل من فرنر ويوتا إلى بثٍّ إذاعي مشوَّش، يتحدَّث فيه شاب بنبرة فرنسية ناعمة عن الضُّوء.

يقول الصَّوت: الدِّماغ محتجز في ظلمة تامَّة، بالتأكيد، أيها الأطفال. إنه يعوم في سائل صاف داخل الجمجمة، لا ضوء أبداً. ومع ذلك فإن العالم الذي يبنيه العقل مفعم بالضوء. إنه يفيض باللون والحركة. إذاً كيف، أيها الأطفال، يبني الدِّماغ، وهو يعيش من دون بريق نور، من أجلنا، عالماً مفعماً بالضوء؟

يهسهس البث ويفرقع...

تهمس يوتا: «ما هذا؟».

لا يجيب فرنر. صوت الرجل الفرنسي مخملي. لكنته مختلفة للغاية عن لكنة السَّيدة إلينا، ومع ذلك صوته شديد الحماس، منوِّم مغنطيسياً، حتى أن فرنر يجد أن في وسعه فهم كل كلمة. يتحدَّث الرجل الفرنسي عن الخداع البصري، الكهرومغناطيسية، هناك وقفة ورنين كهرباء ساكنة، كما لو أن شريطاً قُلِب، من ثمَّ يتحدَّث بحماس عن الفحم.

تأملوا قطعة واحدة تتوهج في موقد عائلتكم. انظروا إليها، أيها

الأطفال؟ كانت قطعة الفحم تلك يوماً نبتة خضراء، سرخساً أو قصباً عاش قبل مليون عام، أو ربما قبل مليوني عام، أو ربما مئة مليون. هل في وسعكم أن تتخيلوا مئة مليون عام؟ في كل فصول الصَّيف التي عاشها ذلك النبات، التقطت أوراقه ما أمكنها من الضَّوء، وحوَّلت طاقة الشَّمس في ذاتها. إلى لحاء، أفانين، جذوع. لأن النباتات تأكل الضُّوء كما نحن نأكل الطَّعام. لكن بعديئذ يذوي النبات ويسقط، ربما في الماء، ويتعفَّن ليصير نسيجاً نباتياً متفحِّماً، والنبات المتفحِّم ووري في الأرض لسنوات وسنوات – دهر، الذي لا يربو فيه الشَّهر أو العقد أو حتى حياتكم كلها عن مجرد نسمة هواء، فرقعة إصبعين. وأخيراً جفَّ النسيج المتفحم وتحجَّر، واقتلعه شخص ما، ورجل الفحم جلبه إلى منزلكم، وربما وضعتموه بأنفسكم في الموقد، والآن ضوء الشَّمس – ضوء عمره مئة مليون سنة – يشيع الدِّفء في بيتكم الليلة...

يتباطأ الوقت. تختفي العليَّة. تختفي يوتا. هل سبق لأحد أن تحدَّث بمثل هذه الحميمية عن كل ما يثير فضول فرنر؟

يختتم الرجل كلامه قائلاً: افتحوا أعينكم، وانظروا ماذا يسعكم أن تروا بواسطتها قبل أن تنغلق إلى الأبد. ومن ثم ينبعث صوت بيانو لأغنية تُشعر بالوحدة، تبدو لفرنر مثل مركب ذهبي يبحر في نهر قاتم، متتالية من التناغمات تغيِّر هيئة زولفرين: تحولت المنازل إلى غشاوة، ردمت حفر المناجم، تهاوت المداخن، بحر عتيق ينصبُّ عبر الشَّوارع، والهواء يفيض بالإمكانية.

بحر اللهب

تنتشر شائعات في متحف باريس، تتمدد سريعاً، بخفَّة أوشحة زاهية الألوان. يفكر المتحف في عرض حجر كريم، جوهرة نفيسة تتفوَّق على كل ما عداها في جميع المجموعات.

تسمع ماري لور مصادفةً محنِّطاً يخبر زميله: «يقول النبأ ما مفاده إنَّ الحجر من اليابان، إنه مغرق في القدم، خصَّ أحد الحكام العسكريين الشوغون من القرن الحادي عشر».

يقول الآخر: «سمعت أنه أُخرج من خزنتنا. وأنه لطالما كان هنا، لكن لسبب قانوني ما، لم يكن مسموحاً لنا عرضه». في يوم هو عنقود من كربونات هيدروكسيل المغنيزيوم النَّادر، في اليوم التالي هو نجم ياقوت أزرق يحرق يد من يمسَّه. ثم يصبح ألماسة، قطعاً ألماسة. يدعوه البعض حجر الراعي، آخرون يدعونه «خون - ما»، لكن سرعان ما يدعوه الجميع «بحر اللهب».

تفكِّر ماري لور: مرت أربع سنوات.

يقول حارس من محطة الحراسة: «شرّ، يجلب الحزن لكل من يحمله. سمعت أن جميع المالكين التسعة السَّابقين انتحروا».

يقول صوت ثانٍ: «سمعت أن كل من يحمله في يده من دون أن يرتدي قفازاً، يلقى حتفه خلال أسبوع».

يقول آخر: «لا، لا، إذا أمسكت به، لا يمكن أن تموت، لكن المحيطين بك يموتون خلال شهر. أو ربما هي سنة».

يقول ثالث ضاحكاً: «حريٌّ بي أن أضع يدي على ذاك!».

تتسارع دقّات قلب ماري لور البالغة من العمر عشر سنوات، وعلى شاشة خيالها السَّوداء لا يمكنها أن تستعرض شيئاً: يخت مبحر، مبارزة بالسَّيف، مسرح كبير يتأجج باللون. لقد قرأت حول العالم في ثمانين يوماً إلى أن امَّحت حروف البريل واهترأت، لعيد ميلاد هذه السَّنة اشترى لها والدها كتاباً أكبر حجماً: الفرسان الثلاثة لدوماس.

تسمع ماري لور أن لون الماسة أخضر باهت، وهي بحجم زر معطف. ثم تسمع أنها بحجم علبة كبريت. في اليوم التَّالي هي زرقاء، وبحجم قبضة طفل رضيع. تتصور ربَّة غاضبة تختال في القاعات، ترجمُ اللعنات عبر صالات العرض مثل سحب مسمومة. يقول والدها كي يخمد تخيلاتها: الأحجار مجرد أحجار، والمطر مجرد مطر، وسوء الطالع هو مجرد حظ سيئ. بعض الأشياء هي ببساطة أكثر ندرة من الأخرى ولهذا هناك أقفال.

- لكن، أبي هل تؤمن بأنها حقيقية؟

- الماسة أم اللعنة؟

- كلاهما، أي منهما.

- إنها مجرد قصص يا ماري.

ومع ذلك، كلما حدث خطب ما، يهمس العاملون أن الماسة تسببت به. تنقطع الكهرباء مدة ساعة: إنها الماسة. يدمر أنبوب راشح رفاً كاملاً من عينات نباتية مضغوطة: إنها الماسة. عندما تتزحلق زوجة المدير على الجليد في قصر «دي فوزيه» وينكسر معصمها كسراً مزدوجاً، تنفجر آلة الثرثرة الخاصَّة بالمتحف.

زهاء هذا الوقت، استدعي والد ماري لور إلى الأعلى، إلى مكتب المدير. هو هناك منذ ساعتين. متى تم استدعاء والدها إلى مكتب المدير لاجتماع دام ساعتين؟ لا تتذكر أن هذا حدث سابقاً.

تقريباً على الفور بعدئذٍ، يبدأ والدها بالعمل في عمق صالة عرض علم المعادن. لأسابيع يجر صناديق محمَّلة بقطع مختلفة من المعدات دخولاً وخروجاً من مكتب حفظ المفاتيح، يستمر بالعمل طويلاً بعد أن يغلق المتحف أبوابه، وكل ليلة يعود إلى مكتب حفظ المفاتيح، تفوح منه رائحة سبيكة من النُّحاس الأصفر والنشارة. كلما طلبت مرافقته اعترض. يقول إنه قد يكون من الأفضل إذا بقيت في مكتب حفظ المفاتيح مع كتبها المكتوبة بلغة بريل، أو في الأعلى في مختبر الرخويات.

تزعجه في أثناء تناول وجبة الفطور: «أنت تشيِّد خزنة خاصة لعرض تلك الماسة. خزنة شفَّافة بشكل ما».

يشعل والدها سيجارة: «من فضلك خذي كتابك ماري، حان وقت الذَّهاب».

ليست أجوبة الدكتور جيفار بأفضل حالاً، إلا بالكاد.

- هل تعرفين كيف يتكوَّن الماس - وكل أنواع الكريستال - يا لوريت؟ بإضافة طبقات بالغة الصِّغر، بضع آلاف من الذَّرات كل شهر، واحدة فوق الأخرى. ألفية بعد ألفية. هكذا تتراكم القصص أيضاً. كل الأحجار العتيقة تكنز القصص. تلك الصَّخرة الصَّغيرة التي تثير غاية فضولك رأت الملك «آلاريك» الذي نهب روما، ربما لمعت في عيني الفراعنة. ربما رقصت الملكات السكيثيات طوال الليل وهنَّ يرتدينه. ربما شُنت الحروب بسببه.

- يقول أبي إنَّ اللعنات هي مجرد حكايات تم تلفيقها لردع اللصوص.

يقول إن هناك خمسة وستين مليون عيِّنة في هذا المكان، وإذا حظيتَ بالمعلم الملائم، يمكن لكل واحدة أن تكون مشوِّقة للغاية.

يقول: «مع ذلك، أمور بعينها تقهر النَّاس. اللآلئ على سبيل المثال، والأصداف العسراء، الأصداف التي تفتح باليد اليسرى. حتى أفضل العلماء تنتابهم الرغبة بين الحين والآخر في أن يدسوا شيئاً في جيبهم. ذلك أن شيئاً متناهياً في الصِّغر يمكن أن يكون فائق الجمال. يساوي الكثير. فقط البشر ذوو الإرادة القوية يمكن أن يترفعوا عن مشاعر مثل تلك».

يصمتان لبرهة. تقول ماري لور: «سمعت أن الماسة تشبه قطعة نور من العالم الأصيل. قبل سقوطها. قطعة من نور أنزلها الله إلى الأرض».

- أنت تريدين أن تعرفي كيف يكون شكلها. لهذا السَّبب أنت شديدة الفضول.

تقلب محارة بين يديها. ترفعها إلى أذنها. عشرة آلاف درج، عشرة آلاف همسة، داخل عشرة آلاف صدفة.

- لا، أريد فقط أن أصدِّق أنَّ أبي لم يقترب منها.

افتحوا أعينكم

يعثر فرنر ويوتا على برامج الرجل الفرنسي مراراً وتكراراً. دوماً عند موعد النَّوم تقريباً، دوماً عند منتصف بعض النُّصوص التي تصبح مألوفة بازدياد.

لنتناول اليوم آلات الدَّوران السَّريع، أيها الأطفال، تلك التي لا بد تعمل داخل رأسكم لتحكُّوا حاجبكم... يسمعان برنامجاً عن المخلوقات البحرية، وآخر عن القطب الشَّمالي. تحب يوتا برنامجاً عن المغناطيسات. برنامج فرنر الأثير هو عن الضوء: كسوف الشَّمس والسَّاعات الشَّمسية، الشَّفق القطبي والطول الموجي. ماذا نسمي الضوء المرئي، نسميه لوناً. لكن الطَّيف الكهرومغنطيسي يسعى نحو الصِّفر في اتجاه ونحو اللانهاية في الاتجاه الآخر، لذا في الواقع، أيها الأطفال، رياضياً، الضُّوء ليس مرئياً بالكامل.

يحلو لفرنر أن يجثم في غرفة نومه ويتخيَّل موجات الراديو مثل أوتار قيثار بطول ميل، تنعقف وتتذبذب فوق زولفرين، تحلّق عبر الغابات والمدن، عبر الجدران. في منتصف الليل، هو ويوتا، يجوسان الغلاف الأيوني باحثين عن ذلك الصَّوت الباذخ الثَّاقب. عندما يجدانه، يشعر فرنر كما لو أنه كان مقذوفاً في كيان مختلف، مكان سري، حيث الاكتشافات

العظيمة ممكنة، حيث يمكن ليتيم من بلدة الفحم أن يحلّ بعض الغموض الحيوي المخفي في العالم المادي.

يحاكي هو وأخته تجارب الرجل الفرنسي، فيصنعان زوارق بخارية من أعواد الثَّقاب، والمغناطيسات من إبر الخياطة.

- لماذا لا يفصح عن مكانه، يا فرنر؟

- ربما لأنه لا يريدنا أن نعرف؟

- يبدو ثرياً ووحيداً. أراهن أن هذه البرامج تبثُّ من قصر ضخم يساوي حجمه حجم هذه المستعمرة بكاملها، منزل يحتوي على آلاف الغرف وآلاف الخدم.

يبتسم فرنر: «ربَّما».

الصَّوت، البيانو مجدداً. ربَّما فرنر يتخيَّل، لكن كلَّ مرة يسمع فيها أحد البرامج، يبدو له أن الجودة تنخفض قليلاً، يزداد الصَّوت خفوتاً: كما لو أنَّ برامج الرجل الفرنسي تبثُّ من سفينة تبتعد مبحرة ببطء.

مع مرور الأسابيع، يتطلَّع فرنر نحو سماء الليل ويوتا نائمة بجانبه، والضَّجر يجيش بداخله. الحياة: إنها تحدث خلف المصانع والبوابات. هناك أناس في الخارج يطرحون أسئلة على قدر كبير من الأهمية. يتخيَّل نفسه مهندساً طويل القامة يرتدي معطفاً أبيض، يدخل مختبراً: بخار يتصاعد من مراجل، آلة تدمدم، مخططات ورقية معقدة ملصقة على الجدران. يحمل فانوساً ويصعد درجاً حلزونياً إلى مرصد مضاء بالنُّجوم وينظر من خلال عينيه تلسكوب كبير، فوَّهته موجَّهة نحو الظلمة المدلهمَّة.

تلاشي

ربما كان الدَّليل السِّياحي المسن فاقداً لعقله. ربما لم يكن لبحر اللهب أي وجود، ربما اللعنات ليست حقيقية، ربما والدها على صواب: الأرض مكوَّنة من الماغما[1] والقشرة القارية ومحيط. الجاذبية والزمن. الأحجار هي مجرد أحجار، والمطر مجرد مطر، وسوء الطالع هو مجرد حظ سيئ.

يعود والدها إلى مكتب حفظ المفاتيح باكراً في الأمسيات. وسريعاً يصحب ماري لور في رحلات قصيرة متعددة ثانية، ممازحاً إياها حول جبال السُّكر التي تغرفها لتحلي قهوتها، أو يداعب الحراس حول أفضلية نوع السَّجائر التي يدخنها. ما من حجر كريم جديد مبهر يعرض. ما من مصائب تمطر موظفي المتحف، ما من حيَّة سامة تلدغ ماري لور، ولا هي تسقط في مجرور وتكسر ظهرها.

تستيقظ صباح عيد ميلادها الحادي عشر، لتجد حزمتين جديدتين في مكان سلطانية السُّكر. الأولى عبارة عن مكعَّب خشبي مورنش مركب كلياً من ألواح منزلقة. يستغرقها ثلاث عشرة خطوة لفتحه، وتكتشف المتالية خلال أقل من خمس دقائق.

---

(1) كلمة يونانية، وتسمى بالعربية الصهارة، وهي مواد سيليكانية مصهورة وموجودة تحت سطح الأرض. وتحتوي الصهارة على كميات من الغازات المذابة، وبعض المواد الصلبة. المواد السيليكانية هي مواد تحتوي على عنصر السيليكون والأكسجين. (م).

يقول والدها: «يا إلهي، أنت لصة خزائن!».

داخل المكعَّب: قطعتين من سكاكر البارنييه. تفتحهما وتضعهما معاً في فمها.

داخل الحزمة الثَّانية: كومة سميكة من الصَّفحات مكتوب على الغلاف بلغة بريل «عشرون. ألف. فرسخ. تحت. البحر».

«قال بائع الكتب إنه مؤلف من جزءين، وهذا هو الأول. فكَّرت أننا إذا ثابرنا على الادخار يمكننا في السَّنة المقبلة الحصول على الثَّاني».

تبدأ من فورها. الراوي، عالم أحياء بحرية شهير يدعى «بيير آروناكس»، يعمل في المتحف نفسه الذي يعمل فيه والدها! يتناهى إلى علمه أن السُّفن حول العالم، تصادمت واحدة تلو الأخرى. بعد بعثة علمية إلى أميركا، يتأمل آروناكس في الطبيعة الحقيقية للحوادث. هل تسببت عن حيِّد بحري متحرك؟ حوت ضخم أقرن؟ كراكن خرافي؟

يكتب آروناكس: «لكنني أستسلم للأفكار الخيالية التي ينبغي لي الآن تنحيتها. حسبي من هذه الأوهام».

طوال النهار تستلقي ماري لور على بطنها وتقرأ. منطق، عقلانية، علم بحث: يصر آروناكس على أن هذه هي الطرق المناسبة لحل غموض لغز. ليست أساطير وحكايات خيالية. تمرر أصابعها على العبارات بدقَّة كما يسير بهلوان على الحبال، تتخيل أنها تمشي على ظهر فرقاطة سريعة ذات مدخنتين تدعى أبراهام لنكولن. تشاهد مدينة نيويورك تنسحب، حصون نيوجرسي تحيي رحيلها بالمدافع، شارات قناة تتمايل في العباب. منارة عائمة بفنارين تنزلق بينما أميركا تنسحب، قدماً تنتظر براري الأطلسي العظيمة المتألِّقة.

مبادئ الميكانيك

يزور نائب الوزير وزوجته منزل الأطفال. تقول السَّيدة إلينا إنهما يزوران دور الأيتام.

يغتسلون جميعاً، ويحسنون التَّصرف. يتهامس الأطفال: ربما هما يفكران في التبنِّي. تقدِّم الفتيات الأكبر سناً خبز الأرز وكبد الإوز على آخر ما بقي من أطباق صحيحة في المنزل، بينما يعاين نائب الوزير البدين وزوجته قاسية المظهر الردهة، مثل اثنين من اللوردات يحضران لزيارة كوخ عفريتي كريه. عندما يجهز العشاء، يجلس فرنر إلى الجهة المخصَّصة للفتيان من الطاولة وكتاب في حجره. تجلس يوتا مع الفتيات إلى الطرف المقابل، شعرها مجعَّد ومتشابك وأبيض ساطع، لذا تبدو كما لو أن تياراً كهربائياً يسري عبرها.

باركنا أيها الرب وبارك عطاياك هذه. تضيف السَّيدة إلينا صلاة ثانية على شرف نائب الوزير. يهمُّ الجميع بتناول الطعام.

الأطفال متوترون، حتى هانز شيلزر وهربرت بومزيل يجلسان بهدوء في قميصيهما بنيي اللون. تجلس زوجة نائب الوزير باستقامة شديدة حتى يبدو كما لو أن عمودها الفقري منحوت من بلُّوط.

يقول زوجها:

- وكل واحد من الأطفال يساهم؟

- بالتأكيد. صنعت كلاوديا، على سبيل المثال، سلّة الخبز. والتّوأم حضّرتا الكبد.

تتورد كلاوديا فورتسر الضّخمة خجلاً، ترمش التوأم بأهدابهما.

ينجرف عقل فرنر، هو يفكّر في الكتاب الذي في حجره، «مبادئ الميكانيك» تأليف «هاينريش هيرتز». اكتشفه في قبو الكنيسة، منسي وملطخ بالماء، يعود إلى عقود مضت، والقسيس سمح له أن يحمله إلى البيت، والسّيدة إلينا سمحت له بالاحتفاظ به، ولعدة أسابيع كان فرنر يكافح عبر الرياضيات الشّائكة. يتعلم فرنر أن الكهرباء يمكن تكون ساكنة بحدٍّ ذاتها. لكن صلها بالمغناطيسية وفجأة ستحصل على حركة - موجات. حقول ودوائر، توصيل وتحريض. فراغ، زمن، كتلة. يعجُّ الهواء بالكثير من الأشياء غير المرئية! كم يتمنى لو أن له عينين تريان الأشعة فوق البنفسجية، وعينين تريان الأشعة تحت الحمراء، وعينين ليرى موجات الراديو تحتشد في السّماء المظلمة، تومض عبر جدران المنزل.

عندما يرفع بصره يحدِّق الجميع فيه. عينا السّيدة إلينا مرعوبتان.

يعلن هانز شيلزر: «إنه كتاب، سيدي». يسحبه من حجر فرنر. المجلد ثقيل بما فيه الكفاية حتى أنه يحتاج لرفعه إلى كلتي يديه.

انبرت عدة تغضنات في جبهة زوجة نائب الوزير. يشعر فرنر بتورد خديه.

يمدُّ نائب الوزير يداً سمينة: «هاته».

يقول هربرت بومزيل: «هل هو كتاب يهودي؟ إنه كتاب يهودي، أليس كذلك؟».

تبدو السّيدة إلينا كما لو أنها على وشك أن تتكلم، ثم تعيد النّظر.

يقول فرنر: «ولد هيرتز في هامبورغ».

تعلن يوتا فجأة: «أخي سريع البديهة في الرياضيات. إنه أسرع من جميع المدرسين. يوماً ما سوف يفوز بجائزة كبيرة. يقول إنه سوف يذهب إلى برلين ويدرس تحت إشراف أعظم العلماء».

يتثاءب الأطفال الأصغر سناً، يضحك الأكبر سناً في فتور. يحدِّق فرنر بشدة في طبقه. يقطِّب نائب الوزير وهو يقلِّب الصَّفحات. يركل هانز شيلزر قصبة ساق فرنر ويسعل.

تقول السَّيدة إلينا: «يوتا، يكفي».

تتناول زوجة نائب الوزير ملء شوكة من الكبد وتمضغ وتبتلع وتمس بمنديلها زاويتي فمها. يضع نائب الوزير كتاب «مبادئ الميكانيك» ويدفعه بعيداً، ثم يرمق راحتي يديه كما لو أن الكتاب جعلهما تتسخان.

يقول: «المكان الوحيد الذي سيذهب إليه أخوك، أيتها الفتاة الصَّغيرة، هو المناجم. حالما يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، وهذا يسري على كل فتى في هذا المنزل».

تتجهَّم يوتا، يحدِّق فرنر في الكبد المتجمِّد في طبقه وعيناه تتقدان وشيء في صدره يضغط أكثر فأكثر، وطوال وقت العشاء الصَّوت الوحيد هو صوت الأطفال، يقطعون ويمضغون ويبتلعون.

شائعات

تفدُ شائعات جديدة. تندفع بعزم على امتداد ممرات حديقة النباتات وتنتشر عبر أروقة المتحف، يتردد صداها في معاقل مغبرَّة عالية حيث يدرس علماء نبات مسنون منكمشون الطحالب الغريبة. تقول إن الألمان قادمون.

يدَّعي بستاني إن الألمان يملكون ستين ألف طائرة شراعية، يمكنهم أن يسيروا لأيام من دون طعام، يحبِّلون كل تلميذة يلتقون بها. تقول امرأة خلف نضد بيع التذاكر إن الألمان يحملون حبوب دواء تسبب فقدان الذَّاكرة، ويرتدون أحزمة ناسفة، وتهمس قائلة إن زيهم الرسمي مصنوع من قماش خاص، أشد صلابة من الفولاذ.

تجلس ماري لور على مقعد قرب معرض الرخويات، وتدرب أذنيها على المجموعات العابرة. يندفع فتى بالقول: «لديهم قنبلة تدعى الإشارة السِّرية. إنها تصدر صوتاً وجميع من يسمعه يبول في بنطاله!».

ضحك.

– سمعت أنهم يوزعون شوكولا مسمومة.

– سمعت أنهم يحبسون الكسحاء والبلهاء أينما اتجهوا.

كلما نقلت ماري لور إشاعة أخرى إلى والدها، يكرر: «ألمانيا» وتتلوها إشارة استفهام، كما لو أنه يقولها للمرة الأولى. يقول إن احتلال النمسا لا

يمثل شيئاً يستحق القلق بشأنه. يقول إن الجميع يتذكّر الحرب الأخيرة، ولا يوجد أحد فاقد العقل إلى درجة تجعله يعاني ذلك مجدداً. يقول إن المدير ليس قلقاً، ولا مدراء الأقسام، لذا لا ينبغي ذلك للفتيات الصّغيرات اللواتي عليهن الاهتمام بدروسهن.

يبدو صحيحاً: لا شيء يتغير سوى اسم اليوم. كل صباح تستيقظ ماري لور وترتدي ثيابها وتتبع والدها عبر المدخل رقم 2 وتصغي إليه وهو يلقي التحية على الحارس الليلي والخفير.

«صباح الخير، صباح الخير. صباح الخير، صباح الخير». العلماء وأمناء المكتبة لا يزالون يتسلمون مفاتيحهم في الصّباحات، لا يزالون يدرسون أسنان أفيالهم الأثرية، قنديل البحر الغريب، طبقات العشب. لا يزال أمناء السّر يتحدثون عن الموضة، لا يزال المدير يصل في سيارة «دولاج ليموزين» التي يبلغ وزنها طنين، وكل ظهيرة لا يزال الباعة الأفارقة يجرون عرباتهم بهدوء عبر القاعات وهم يهمسون: خبز الجاودار والبيض، خبز الجاودار والبيض.

تقرأ ماري لور كتاب «جول فيرن» في مكتب حفظ المفاتيح، في المرحاض، في الممرات، تقرأ على مقاعد الجراند غالوري، وفي الخارج على طول دروب الحدائق المئة المفروشة بالحصى. تقرأ الجزء الأول من كتاب عشرون ألف فرسخ تحت البحر مرات كثيرة، إنها تحفظه عن ظهر قلب عملياً.

البحر هو كلُّ شيء. إنه يغطي مساحة سبعة أعشار من مساحة الكوكب... البحر هو مجرد وعاء لكل العجائب، والأمور الخارقة التي يحتويها. إنه فقط حركة وحب، إنه اللانهاية الحيةّ. ليلاً في سريرها، تركب في جوف غواصة القبطان «نيمو» تحت العواصف، بينما ظلال المرجان تنجرف في الأعلى.

يعلمها الدكتور جيفار أسماء الأصداف - لامبيس لامبيس، سيريا مونيتا، لوفيوتوما أكوتا - ويسمح لها بلمس السَّلاسل الفقرية والثُّقوب وأفلاك كل واحدة بدورها. هو يشرح تشعبات نظرية النشوء البحرية وتسلسل الفترات الجيولوجية، في أفضل أيامها، تلمح الامتداد اللا محدود لعشرات القرون خلفها: ملايين السِّنين، عشرات الملايين.

«جميع الأنواع انقرضت تقريباً، يا لوريت. لا داعٍ للتفكير في أننا نحن البشر سنكون مختلفين!». ينطق دكتور جيفار هذا بامتنان إلى حدٍّ ما، ويصب النبيذ في كأسه، وهي تتخيل رأسه مثل خزانة مملوءة بعشرة آلاف درج صغير.

طوال فصل الصَّيف تفوح روائح القرَّاص والأقحوان، وتخرخر مياه المطر عبر الحدائق. تعدُّ هي ووالدها فطيرة الإجاص فتحترق بمحض الصُّدفة، يفتح والدها جميع النَّوافذ ليخرج الدُّخان، وهي تسمع موسيقى آلة كمان تصعد من الشَّارع في الأسفل. ومع ذلك مع بداية فصل الخريف، مرة أو مرتين في الأسبوع، في لحظات معينة من اليوم، إما جالسة في حدائق النباتات تحت الأسيجة الضَّخمة، أو تقرأ قرب منضدة عمل والدها، ترفع ماري لور بصرها عن كتابها، وتخال أن في وسعها أن تشم رائحة بنزين تحت الريح. كما لو أن نهراً كبيراً من الآلات يجري ببطء، بغير رجعة، نحوها.

أكبر أسرع أسطع

يصبح الانتساب إلى شبيبة الدَّولة إلزامياً. تعلَّم زملاء فرنر المناورات العسكرية وامتحنوا في معايير اللياقة وطلب إليهم أن يركضوا ستين متراً في اثنتي عشرة ثانية. كل شيء أصبح المجد والوطن والمنافسة والتضحية.

يغني الفتيان وهم يتجمعون بحذاء أسيجة المستعمرة: عش بإخلاص، قاتل بشجاعة ومت ضاحكاً.

عمل مدرسي، عمل منزلي، تمرين. يسهر فرنر ويصغي إلى مذياعه أو يرغم نفسه على حلِّ مسائل الرياضيات المعقَّدة التي نسخها من كتاب «مبادئ الميكانيك» قبل أن يُصادر. يتثاءب في أثناء الوجبات، سريع الغضب مع الأطفال الأصغر سناً.

تسأل السَّيدة إلينا وهي تحدق في وجهه: «هل أنت بخير؟».

يشيح فرنر ببصره قائلاً: «بخير».

نظريات «هرتز» مثيرة للاهتمام لكن ما يحبه أكثر هو تركيب الأشياء، العمل بيديه، ربط أصابعه مع محرِّك عقله. يصلح فرنر ماكينة خياطة أحد الجيران، ساعة الجدّ في منزل الأطفال. هو يشيِّد نظام بكرات ليسحب الغسيل من الشَّمس السَّاطعة نحو الداخل، ومنبِّهاً بسيطاً صنع من بطارية، جرساً، وسلكاً؛ لذا سوف تعرف السَّيدة إلينا إذا ما شرد طفل في الخارج.

هو يخترع آلة لتقطيع الجزر: يرفع عتلة، تسقط تسع عشرة شفرة، والجزرة تتقطع إلى عشرين أسطوانة متقنة.

ذات يوم يتعطَّل جهاز راديو أحد الجيران، فتقترح السَّيدة إلينا أن يلقي فرنر عليه بنظرة. يفك براغي اللوح الخلفي، يهز الصَّمامات جيئة وذهاباً. أحدها ليس مركباً كما يجب، فيعيده إلى حالته الأصلية. يعود الراديو إلى الحياة، ويصرخ الجار مبتهجاً. وسرعان ما يبدأ الناس بالتوقف عند منزل الأطفال كل أسبوع، ليسألوا عن مصلِّح جهاز الراديو. عندما يرون فرنر بعمر ثلاثة عشر عاماً نازلاً من العلية، يفرك عينيه، أكوام من شعر أبيض ملبَّدة على رأسه، صندوق عدَّة منزلي الصُّنع يتدلى من قبضته، يحدقون فيه بالابتسامة الشكوكية المتكلِّفة ذاتها.

أجهزة الراديو الأقدم عمراً يتم تصليحها بسهولة أكبر: دوائر كهربية أكثر بساطة، صمَّامات موحَّدة. ربما شمعها يتقطَّر من المكثِّف أو فحم مركب على مقاومة. حتى في الأجهزة الأحدث، يستطيع فرنر عادة التَّوصل إلى حل. يفكك الآلة، يحدِّق في داراتها، يتتبع بأصابعه رحلات الإلكترونات. مصدر الطاقة، صمَّام ثلاثي، مقاومة، ملف، مكبِّر صوت. يحيط عقله بالمشكلة، تتحول الفوضى إلى نظام، تكشف العقبة عن ذاتها وسرعان ما يعود الراديو صالحاً للاستعمال.

أحياناً ينفحوه بعض النقود. إحدى الأمهات تطهو له السُّجق أحياناً أو تلف البسكويت في منديل ليأخذه إلى أخته. وسرعان ما يستطيع فرنر أن يرسم خارطة في رأسه لموضع كل جهاز راديو في حيهم تقريباً: راديو مصنَّع منزلياً من الكريستال في مطبخ العطَّار، جهاز راديو وسجل جميل بعشرة صمامات في بيت رئيس الدائرة الذي كانت تمس الكهرباء أصابعه كل ما حاول تغيير القناة. حتى أكثر العائلات فقراً امتلكت جهاز «مذياع الشَّعب» VE301 المدعوم من الدولة، مذياع أنتج بكميات كبيرة،

مدموغ برسم النَّسر والصَّليب المعقوف، غير مناسب للموجات القصيرة، مخصَّص فقط للترددات الألمانية.

راديو: إنه يربط مليون أذن إلى فم واحد. من مكبرات صوت في جميع أنحاء زولفرين، ينمو صوت الرايخ المتقطِّع مثل شجرة رابطة الجأش، يميل رعاياها نحو أغصانها كما لو نحو شفاه الإله. وعندما يتوقَّف الإله عن الهمس يصبحون مستميتين على شخص يستطيع تصويب الأشياء.

سبعة أيام في الأسبوع يجرُّ عمَّال المناجم الفحم نحو الضوء، ويسحق الفحم ليلقّم أفران فحم الكوك، والكوك يبرّد في أبراج تبريد ضخمة ويرسل إلى أفران الصَّهر لتذويب الحديد الخام، والحديد يصفّى ليصبح فولاذاً صبَّ على شكل قضبان ويحمل على البوارج ليطفو في فم البلد الجائع العظيم. يهمس الراديو: فقط من خلال أكثر النيران سخونة، يمكن للتطهير أن يتم. فقط من خلال أقسى الامتحانات، يمكن للمختار من الله أن يظهر. تهمس يوتا: «طُردت فتاة من بركة السِّباحة اليوم. انجي هاكمان. يقولون إنهم لن يسمحوا لنا بالسِّباحة مع من هم من سلالة هجينة. غير صحي. نصف سلالة، فرنر. ألسنا نصف سلالة أيضاً؟ ألسنا جميعاً نصفاً من أمنا ونصفاً من أبينا؟».

- يقصدون أنهم نصف يهود. أخفضي صوتك. نحن لسنا نصف يهود.

- لا بد من أن نكون نصف شيء ما.

- نحن ألمان بالكامل. نحن لسنا نصفاً من أي شيء.

يبلغ هربرت بومزيل من العمر خمسة عشر عاماً الآن، يعمل بعيداً في مهجع لعمَّال المناجم، مخمداً للنيران النوبة الثَّانية، وأصبح هانز شيلزر أكبر الفتيان سناً في المنزل. يؤدي هانز تمارين الضَّغط مئات المرات هو يخطط لحضور تجمُّع في إيسن. هناك شجار بالأيدي في الأزقَّة، شائعات

عن أن هانز أحرق سيارة. ذات ليلة يسمع فرنر صوته في الطابق السُّفلي، يصرخ على السَّيدة إلينا. ينصفق الباب الأمامي، يتقلب الأطفال في أسرتهم، تذرع السَّيدة إلينا الردهة، يهمس خفُّها يسرة ويمنة. سيارات فحم تمر في الظلمة الرطبة. آلة تدمدم في البعيد: مكابس تخفق، أحزمة تنقلب بلين، بجنون.

علامة الوحش

نوفمبر عام 1939. تقذف رياح باردة أوراق أشجار الدُّلب الكبيرة الجافَّة لتتدحرج على طول الدروب الضَّيقة المفروشة بالحصى في حديقة النباتات. تعيد ماري لور قراءة «عشرون ألف فرسخ» - يمكنني أن أميِّز شرائط طويلة من الحشائش البحرية، بعض منها مكورة الشَّكل والأخرى أنبوبية، طحالب لاورنسيا eaicnerual، كلادوستيفا eahpetsodalc البحرية، بمجموعها الورقي الهزيل - ليس بعيداً عن بوابة شارع كوفيِّه عندما تصل مجموعة من الأطفال يتسكعون عبر الأوراق.

صوت فتى يقول شيئاً، يضحك عدة فتية آخرين. ترفع ماري لور أصابعها عن روايتها. الضَّحك يدور، ينقلب. الصَّوت الأول فجأة تماماً قرب أذنها: «هم يحبون الفتيات الكفيفات، كما تعلمين».

أنفاسه لاهثة. تمد ذراعها في الفراغ بجانبها، لكنها لا تمس شيئاً.

لا يمكنها تحديد عدد الفتيان الذين بصحبته. ربما ثلاثة أو أربعة. صوته أشبه بصوت فتى يبلغ من العمر اثني عشر عاماً أو ثلاثة عشر عاماً. تقف وتضم كتابها الضَّخم إلى صدرها، ويمكنها سماع صوت عصاها تتدحرج على طول حافَّة المقعد وتقرقع على الأرض.

يقول شخص آخر: «ربما سوف يأخذون الضريرات قبل أن يأخذوا العُرج».

يتأوّه الفتى الأول بطريقة غريبة. ترفع ماري لور كتابها كما لو لتحمي ذاتها.

يقول الفتى الثاني: «ويجعلونهن يفعلن أموراً».

- أموراً بذيئة.

ينادي صوت شخص بالغ في البعيد: «لويس، بيتر؟».

تهمس ماري لور: «من أنتم؟».

- وداعاً أيتها الفتاة العمياء.

ثم: هدوء. تستمع ماري لور إلى حفيف الأشجار، يغلي دمها. تزحف لفترة طويلة مذعورة بين الأوراق عند قدم المقعد حتى تجد عصاها. متاجر تبيع أقنعة الغاز. جيران يحجبون نوافذهم بالورق المقوى. كل أسبوع يقل عدد زوار المتحف.

تسأل ماري لور: «أبي؟ ما الذي سوف يحدث لنا إذا اندلعت الحرب؟».

- لن يكون هناك حرب.

- لكن ماذا لو حدث ذلك؟

يده على كتفها، خشخشة المفاتيح المألوفة على حزامه.

- حينئذٍ سوف نكون بخير يا عزيزتي. توصَّل المدير إلى حل لإعفائي من الخدمة الاحتياطية. لن أذهب إلى أي مكان.

لكنها تسمع كيف يقلِّب صفحات الصَّحيفة، ينترها بإلحاح. يشعل سيجارة تلو أخرى، بالكاد يتوقف عن العمل. تمر أسابيع والأشجار تتعرى ووالدها لا يطلب منها أن تمشي في الحدائق ولو لمرة. لو كان لديهما غواصة منيعة مثل النوتيلوس.

تدوِّم أصوات فتيات المكتب المبحوحة، مارة بنافذة مكتب حفظ المفاتيح المفتوحة.

- هم يزحفون إلى الشُّقق ليلاً. يفخخون خزائن المطبخ، أحواض المراحيض، مشدات الصَّدر. اذهبي لتفتحي جارور ثيابك الداخلية وسوف تخسرين أصابعك.

ترى كوابيس. ألمان صامتون يجدفون في نهر السِّين بحركة متزامنة، تنزلق زوارقهم الصغيرة كما لو على الزيت. يطيرون بصمت تحت حوامل الجسر، في حوزتهم حيوانات مربوطة بسلاسل، وحوشهم تثب من المراكب وتعدو مروراً بهضاب صخرية مزهرة، نحو صفوف من أسيجة الأشجار. يتنشقون الهواء على درج الغراند غاليري. تجَّار رقيق. مفترسون. يندفعون نحو المتحف، ينتشرون في الأقسام. النوافذ يسوِّدها الدم.

عزيزي البروفسور، لا أعرف إذا كنت تستلم هذه الرسائل، أو إذا كانت محطة الإذاعة سوف توصلها لك، أو إذا هناك محطة إذاعة أصلاً؟ لم نسمعك منذ شهرين على الأقل. هل توقفت عن البث أو ربما المشكلة هي من عندنا؟ هناك برج إرسال جديد في «برنديبنبرغ» تدعى مرسل ألمانيا3، يقول أخي إنه بطول ثلاثمئة وثلاثين متراً، ثاني أطول بناء من صنع الإنسان في العالم.

إنها تحتل مكان كل شيء آخر على قرص المذياع. تقول السَّيدة العجوز ستريسمان، وهي إحدى جاراتنا، إنه يمكنها أن تسمع برامج هذه الإذاعة الألمانية في حشوات أسنانها. قال أخي إنه ممكن إذا كان لديك هوائي ومقوم للتيار الكهربائي وشيء يقوم مقام مكبر للصوت. قال إنه يمكنك استعمال جزء من سلك سياج لالتقاط إشارات الراديو، لذا ربما الفضة في السِّن يمكنها أن تفعل أيضاً. يحلو لي التفكير في ذلك. ألا تفعل أيها البروفسور؟ أغنيات داخل سنك؟ تقول السَّيدة إلينا إن علينا أن نعود مباشرة إلى البيت من المدرسة الآن. تقول إننا لسنا يهوداً، لكن كنا فقراء، وذلك يكاد يكون مساوياً في درجة الخطورة. إنها تعتبر جريمة الآن أن تستمع إلى برامج أجنبية. يمكن أن يحكم عليك بالأعمال الشَّاقة جراء ذلك، أشياء من قبيل كسر الصخور مدة خمس عشرة ساعة في اليوم، أو صنع جوارب النايلون أو النزول في الحفر. لن يساعدني أحد في إرسال هذه الرسالة، حتى أخي، لذا سأفعل ذلك بنفسي.

عمت مساءً. أو هايل هتلر إذا كنت تفضِّل ذلك

يحلُّ عيد ميلادها الرابع عشر في شهر أيار. إنه العام 1940 ولا أحد يسخر من شبيبة هتلر الآن. تحضِّر السَّيدة إلينا حلوى البودنج، ويوتا تلفُّ قطعة من الكوارتز في صحيفة، والتَّوأم: هانا وسوزان جيرليتز، تسيران حول الغرفة تتظاهران بأنهما جنديان.

يجلس «رولف هوبفاور»، البالغ من العمر خمس سنوات، في زاوية الأريكة، ينطبق جفناه بشدة على عينيه. قادم جديد - فتاة رضيعة - تجلس في حضن يوتا وتمضغ أصابعها. خارج النافذة، خلف الستائر، يرفرف اللهب أعلى كومة القمامة عالياً في البعيد ويرتجف.

يغني الأطفال ويلتهمون حلوى البودنج، تقول السَّيدة إلينا: «انتهى الوقت». وفرنر يطفئ جهاز الاستقبال خاصته. الجميع يصلي. يبدو جسده بكليته ثقيلاً وهو يحمل الراديو إلى غرفة نومه. في الأزقة، فتيان يبلغون من العمر خمسة عشر عاماً، يشقون طريقهم نحو مصاعد المنجم، يصطفون بخوذهم ومصابيحهم خارج البوابات. يحاول أن يتخيل مصابيحهم الصامتة المتفرقة والهابطة تمر وتنسحب، حبال تجلجل، صمت يرين على الجميع، يغرق نحو تلك الظلمة الدائمة حيث يتشبث الرجال بالأرض ومسافة نصف ميل من الصخر تتحدب فوقهم.

سنة أخرى. ثم سيعطونه خوذة ومصباحاً ويقذفونه في قفص مع الآخرين.

مرت أشهر منذ أن سمع آخر مرة الفرنسي على الموجة القصيرة. سنة منذ أن أمسك بتلك النسخة الملطخة بالمياه من كتاب «مبادئ الميكانيك». ليس منذ وقت طويل استسلم للأحلام ببرلين وعلمائها العظماء: فرتز هابر، مخترع السَّماد؛ وهيرمان ستاودينغر، مخترع البلاستيك؛ هرتز الذي جعل غير المرئي مرئياً.

يقدم جميع الرجال العظماء على فعل أمورٍ هناك. اعتادت السَّيدة إلينا أن تقول: أؤمن بك. أظن أنك ستفعل أمراً عظيماً. الآن، يمشي في كوابيسه عبر أنفاق المناجم. السَّقف أملس وأسود، تنزل ألواح منه عليه وهو يخطو. تتشظى الجدران، ينحني، يزحف. وعاجلاً لا يستطيع رفع رأسه أو تحريك ذراعيه. يزن السَّقف 10 تريليون طن، يسبب برودة تتغلغل إلى عظامه، ويجبره على الانحناء. يشعر بتشظٍّ في قفا جمجمته قبل أن يستيقظ تماماً.

مياه المطر تخرخر من غيمة نحو سطح فمزراب. يضغط فرنر جبهته على نافذة الغرفة ويحدق عبر القطرات، السطح في الأسفل هو واحد من مجموعة من سطوح البيوت المبللة، محاط بجدران مصنع فحم الكوك الفسيحة والمصهر ومصانع الغاز، البرج اللولبي الذي يرسم صورة ظلية على السَّماء، منجم ومطحنة تدور وتدور، اكر تلو آخر، ما يتجاوز مدى رؤيته نحو القرى، المدن، الآلة المتسارعة والممتدة أبداً التي هي ألمانيا. ومليون رجل مستعدين ليفتدوها بحياتهم.

يفكر: عمت مساء، أو هايل هتلر. الجميع يختار الثانية.

وداعاً أيتها الفتاة العمياء

تطرح الحرب علامات استفهام. وزعت المذكرات. يجب أن تكون المجموعات محميَّة. بدأت هيئة صغيرة من السُّعاة بنقل الأشياء إلى عِزب الريف. هناك طلب كبير على الأقفال والمفاتيح أكثر بكثير من ذي قبل. يعمل والد ماري لور حتى منتصف الليل، حتى السَّاعة الواحدة صباحاً. كل صندوق يجب أن يغلق بقفل، كل بيانٍ نقلَ محفوظ في مكان آمن. شاحنات مدرعة تقعقع عند أرصفة التحميل. هناك أحفوريات تجب وقايتها، مخطوطات قديمة، هناك حجر اليشم من القرن الثالث عشر وحجر الكافانسيت من الهند ورودوكروزيت من كولورادو، هناك لآلئ وكتل ذهبية وزفير بحجم فأر. تفكر ماري لور: قد يكون هناك بحر اللهب.

من زاوية معينة، يبدو الربيع هادئاً للغاية: دافئاً، رؤوماً، كل ليلة عابقة ومتزنة. ومع ذلك كل شيء يشع بالتوتر، كما لو أن المدينة بنيت على سطح بالون وشخص ما ينفخه حدَّ الانفجار.

النحل يعمل في ممرات حديقة النباتات المزهرة. أشجار الدلب ترمي بذارها وأكوام ضخمة من الزغب تتجمع على المماشي. إذا هجموا، لماذا قد يفعلون؟ سيكون جنوناً لو فعلوا. أن تنسحب يعني أن تنقذ الأرواح.

تتوقف عمليات التوصيل. تظهر أكياس رمل حول بوابات المتحف. جنديان اثنان على سطح معرض علم الحفريات يحدقان في الحدائق

بمنظار مزدوج. لكن طبق السَّماء الكبير يظل بلا علامات: ما من مناطيد، ما من قاذفات، ما من مظليين متفوقين، فقط آخر الطيور المغردة تؤوب من بيوتها الشتوية، وتتحول رياح الربيع الزئبقية إلى نسائم الصيف الأثقل والأكثر خضرة.

شائعة، ضوء، هواء. قد يبدو ذلك أكثر جمالاً من أي شيء يمكن لماري لور أن تتذكره. في صباح عيد ميلادها الثاني عشر، ما من صندوق ملغز مكان سلطانية السُّكر عندما تستيقظ، والدها مشغول للغاية. لكن هناك كتاب: الجزء الثاني من رواية «عشرون ألف فرسخ تحت البحر» بلغة البريل، سميك مثل مخدة الأريكة.

تسري رعشة نحو أطراف أصابعها. «كيف...؟».

«أنت على الرحب، ماري».

ترتجف جدران شقتهما إثر جر الأثاث، حزم الصَّناديق، تسمير النَّوافذ. يسيران إلى المتحف، ووالدها يقول بشرود ذهن للحارس الذي يلتقيهما عند الباب: «يقولون إننا صامدون عند النهر».

تجلس ماري لور على أرض مكتب حفظ المفاتيح وتفتح كتابها.

في نهاية الجزء الأول، كان البروفسور آروناكس قد اجتاز فقط ستة آلاف فرسخ. لذا لا يزال أمامه الكثير. لكن شيئاً غريباً يجري: الكلمات لا تترابط. تقرأ، طوال النهار، سرب مهول من سمك القرش تبع السَّفينة، لكن المنطق الذي يفترض به أن يصل كل كلمة مع الأخرى يحبطها.

يقول أحدهم: «هل غادر المدير؟».

يقول شخص آخر: «قبل نهاية الأسبوع».

تفوح ملابس والدها برائحة القش، تنبعث من أصابعه رائحة الزيت. عمل، المزيد من العمل، ثم بعض ساعات من النَّوم المنهك قبل العودة

إلى المتحف عند الفجر. شاحنات تحمل هياكل عظيمة وأحجاراً نيزكية وأخطبوطاً في جرار، وصحفاً معشبة، وذهباً مصرياً، وعاجاً جنوب إفريقي، ومستحاثاتٍ من العصر البرمي.

في بداية شهر حزيران، تحلق طائرات فوق المدينة، مرتفعة إلى أقصى حد، تزحف عبر السُّحب الطباقية. عندما تكون الريح منخفضة ولا أحد يشغِّل محركاً في القرب، يمكن لماري لور أن تقف عند باب معرض علم الحيوان وتسمعها: خرخرة على علو ميل. في اليوم التالي، تبدأ محطات الراديو بالاختفاء. الحراس في محطة الحراسة يخبطون على جانب أجهزتهم اللاسلكية ويميلونها في هذا الاتجاه وذاك، لكن لا يخرج من مكبرات الصَّوت سوى التشويش. كما لو أن كل هوائي كان لهب شمعة فأتى زوج من الأصابع وأطفأه.

تلك الليالي الأخيرة في باريس، السَّير إلى البيت مع والدها عند منتصف الليل، الكتاب الضَّخم مضموم إلى صدرها، تظن ماري لور إنها تستطيع أن تحس برعدة تتخلل الهواء، في الوقفات بين صرصرة الحشرات، مثل خطوط تشقق الجليد عندما يثقل عليه الكثير من الوزن. كما لو أن كل هذا الوقت لم تكن المدينة سوى مجسَّم شيده والدها، وظلّ يد هائلة سقط عليه.

ألم تحسب أنها قد تعيش مع والدها في باريس لبقية حياتها؟ وأنها دوماً قد تجلس مع الدكتور جيفار في الأصائل؟ وأن والدها، في كل عام في عيد ميلادها، سيقدم لها لغزاً جديداً ورواية جديدة، وقد تقرأ كل روايات جول فيرن وكل كتب دوماس وربما حتى بلزاك وبروست؟

وأن والدها دوماً سوف يدندن وهو يصمم المباني الصغيرة في الأمسيات، وستعرف دوماً كم عدد الخطوات التي تؤدي من الباب الرئيس

إلى المخبز: (أربعون). وكم عدد الخطوات إلى بائع المشروبات: (اثنتان وثلاثون)، وسيكون هناك دوماً سكر لتضع منه الكثير في قهوتها عندما تستيقظ؟

صباح الخير، صباح الخير.

البطاطا عند السَّاعة السَّادسة ماري. الفطر عند الثالثة.

الآن؟ ما الذي سيحدث الآن؟

صناعة الجوارب

أفاق فرنر بعد منتصف الليل ليجد يوتا البالغة من العمر أحد عشر عاماً راكعة على الأرض بجانب سريره. راديو الموجة القصيرة في حجرها وصفحة من ورق الرسم على الأرض بجانبها، مدينة كثيرة النوافذ من خيالها شبه واضحة على الصَّفحة.

ترفع يوتا سماعة الراديو عن أذنها وتنظر شزراً. في الشَّفق، نوابض شعرها الجامحة تبدو أكثر إشعاعاً من أي وقت مضى: شرارة عود ثقاب.

تهمس: «في رابطة الفتيات الشَّابات، جعلونا نصنع جوارب. لماذا الكثير من الجوارب؟».

- لا بد من أن الرايخ يحتاج إلى جوارب.

- لماذا؟

- للأقدام، يوتا. للجنود. دعيني أنام.

كما لو أنه على الإيعاز، يصرخ فتى صغير - زيغفريد فيشر - في الأسفل مرة، ثم مرتين، وفرنر ويوتا ينتظران أن يسمعا وقع أقدام السَّيدة إلينا على الدرج ومواساتها الرفيقة، والمنزل يعود إلى هدوئه من جديد.

تهمس يوتا: «كل ما تريد فعله هو حل المسائل الرياضية واللعب بأجهزة الراديو. ألا تريد أن تفهم ما الذي يجري؟».

•

- إلامَ تستمعين؟

تصالب ذراعيها وتضع السَّماعة ولا تجيب.

- هل تستمعين إلى شيء ليس من المفترض أن تستمعي إليه؟

- ما الذي يهمك؟

- إنه خطر، ولهذا السَّبب أنا أهتم.

تضع إصبعها في أذنها الأخرى.

يهمس:

- لا يبدو أن الفتيات الأخريات يمانعن. صنع الجوارب، جمع الصُّحف وكل ذلك.

- نحن نرمي باريس بالقذائف.

تقول بصوت مرتفع وهو يقاوم ويلح أن يضع يده على فمها. تحدق يوتا متجاسرة. تبدو كما لو أن ثمة ريحاً قطبية غير مرئية جرفتها. «هذا ما أصغي إليه فرنر، طائراتنا تقصف باريس».

فرار

في جميع أنحاء باريس، يوضِّب النَّاس الأواني الصِّينية في الأقبية، يخيطون اللؤلؤ داخل الحواشي، يخفون الخواتم الذهبية في أغلفة الكتب. مساحات عمل المتحف جُردت من الآلات الكاتبة. القاعات تصبح باحات للتوضيب، أراضيها مفروشة بالقش والنشارة وخيوط القنب.

عند الظهر استدعي صانع الأقفال إلى مكتب المدير. تجلس ماري لور مصالبة ساقيها على أرض مكتب حفظ المفاتيح وتحاول أن تقرأ روايتها. القبطان «نيمو» على وشك أن يصحب البروفسور آروناكس ورفاقه في نزهة تحت مائية عبر قيعان المحار لصيد اللؤلؤ، لكن آروناكس يخشى من احتمال ظهور أسماك القرش، ولو أنها تتشوق لتعرف ما الذي سيحدث، تتحلل العبارات عبر الصَّفحة. تؤول الكلمات إلى أحرف، الأحرف إلى ضربات غامضة. تشعر كما لو أن قفازات كبيرة رسمت على كل يد.

في القاعة، عند محطة الحراسة، يحرك خفير مقابض جهاز اللاسلكي جيئة وذهاباً لكنه لا يعثر سوى على هسيس وطقطقة. عندما يغلقه، يستولي الهدوء على المتحف.

من فضلك دع هذا يكون لغزاً، لعبة متقنة قد شيدها أبي، أحجية ينبغي لها أن تحلها. الباب الأول، قفل مركَّب. الثاني، مزلاج. الثالث سيفتح إذا

همست بكلمة سحرية عبر ثقب المفتاح. زحف عبر ثلاثة عشر باباً، وكل شيء سوف يعود إلى طبيعته.

في المدينة، تدق أجراس الكنيسة معلنة السَّاعة الواحدة. الواحدة والنصف. لم يعد والدها بعد. إلى حدا ما، يدخل عدد من الزوار بشكل منفصل إلى المتحف من الحدائق أو الشَّوارع الخلفية، كما لو أن شخصاً يرمي أكياس الإسمنت الممزوجة من الغيوم. مع كل تصادم، ترتعش آلاف المفاتيح في خزائنها على أوتادها.

لا أحد يذرع المكان لا جيئة ولا ذهاباً. تصل سلسلة أخرى من الارتجاجات - أقرب وأوسع. المفاتيح ترن والأرض تصرصر وهي تفكر في أنه يمكنها أن تشم خيوط الغبار تتساقط من السقف.

- أبي؟

لا شيء. ما من حراس، ما من حجَّاب، ما من نجارين، ما من طقطقة كعب السكرتيرة تعبر القاعة.

يمكنهم أن يسيروا لأيام من دون طعام. يغتصبون كل فتاة يلتقون بها.

«مرحباً؟». سرعة اختفاء صوتها، فراغ القاعة، يرعبها.

بعد لحظة، جلجلة مفاتيح ووقع أقدام وصوت والدها ينادي باسمها. كل شيء يجري بسرعة. يجر جوارير كبيرة مفتوحة منخفضة، يخشخش بعشرات من حلقات المفاتيح.

- أبي، سمعت...

- أسرعي.

- كتابي...

- من الأفضل أن تتركيه؛ إنه ثقيل جداً.

- أترك كتابي؟

يشدها إلى الخارج ويقفل مكتب حفظ المفاتيح. في الخارج موجات من الذعر تبدو أنها تطوف عبر صفوف الأشجار مثل هزات زلزال ارتدادية.

يقول والدها: «أين الحارس؟».

أصوات قرب الحاجز: جنود.

تبدو أحاسيس ماري لور مشوشة. هل هذا هدير طائرات؟ هل هذه رائحة دخان؟ هل يتحدَّث أحدهم بالألمانية؟

يمكنها أن تسمع والدها يتبادل بضع كلمات مع غريب ويناوله عدداً من المفاتيح. ثم يمرون بالبوابة نحو شارع «كورفيه»، يحفَّان بما قد تكون أكياس رمل أو رجال شرطة صامتين أو شيئاً آخر زرع حديثاً في وسط الرصيف.

ستة مفارق، ثمانية وثلاثون فتحة تصريف. تعدها جميعاً. شقتهما خانقة وحارة بسبب صفائح من قشر الخشب ثبتها والدها فوق نوافذها. «سوف يستغرق الأمر فقط دقيقة ماري لور. ثم سوف أشرح». يقحم والدها أشياء فيما قد تكون حقيبة ظهره. تفكِّر: طعام. تحاول أن تتعرف إلى كل شيء من صوته. قهوة، سجائر، خبز؟

شيء يخبط ثانيةً وألواح النَّوافذ ترتعد. أطباقهما تخشخش في الخزائن. يثغو زمور سيارة. تذهب ماري لور إلى المجسَّم وتمرر أصابعها على المنازل. لا تزال هناك. لا تزال هناك. لا تزال هناك.

- اذهبي إلى الحمام ماري.

- لا أشعر برغبة في ذلك.

- قد تمر فترة قبل أن تتمكني من دخوله ثانية.

يلبسها معطفها الشَّتوي، ولو أنهما في منتصف شهر حزيران، وينطلقان بسرعة إلى الطابق السُّفلي. في شارع «دي باتريرش»، تسمع خبطات بعيدة

كما لو أن آلاف الأشخاص يتحركون. تمشي بجانب والدها وعصاها في إحدى قبضتيها، يدها الأخرى على حقيبة ظهره، كل شيء مجافٍ للمنطق كما لو في كوابيس.

يمين، يسار. بين المنعطفات تجري امتدادات طويلة من أحجار الرصيف. سريعاً يجتازان شوارعاً تثق من أنها لم تمشِ عليها سابقاً، شوارع خلف حدود مجسَّم والدها. كان قد مرَّ وقت طويل على ماري لور منذ أن توقَّفت عن عدِّ خطواتها عندما وصلا إلى حشد كبير بما فيه الكفاية، حتى أنها تستطيع أن تشعر بالحرارة تنسكب منه.

- سيكون الجو أكثر برودة على متن القطار ماري، المدير حجز لنا البطاقات.

- هل يمكننا الصعود؟

- البوابات مقفلة.

ينبعث من الحشد توتر مغثٍ.

- أنا خائفة أبي.

- تمسكي بي.

يقودها في اتجاه جديد. يعبران شارعاً مضطرباً، ثم يصعدان زقاقاً تفوح منه رائحة مثل مصرف موحل. دوماً هناك القعقعة المكتومة لأدوات والدها داخل حقيبته والصَّوت البعيد والمتواصل لزمور سيارة.

خلال دقيقة يجدان نفسيهما وسط ازدحام جديد. تتردد أصوات عن جدار مرتفع، تزخم أنفها رائحة ثياب رطبة. في مكان ما شخص يصرخ بأسماء عبر مكبر للصوت.

- أين نحن أبي؟

- محطة سان لازار.

طفل يبكي. تشم رائحة بول.

- هل هناك ألمان أبي؟

- لا عزيزتي.

- لكن قريباً؟

- هكذا يقولون.

- ماذا سنفعل عندما يصلون؟

- سوف نكون على متن القطار عندئذٍ.

في الفراغ إلى يمينها، طفل يصرخ. يطلب رجل يشوب صوته الذعر من الحشد أن يفسحوا له طريقاً. امرأة بالقرب تتأوه: «سباستيان؟ سباستيان؟» مراراً وتكراراً.

- هل حلَّ الليل؟

- الآن فقط بدأت تظلم. لنسترح للحظة. نلتقط أنفاسنا.

يقول أحدهم: «الجيش الثاني تمزق، التاسع معزول. ضاعت أفضل أساطيل فرنسا».

أحدهم يقول: «سوف يجتاحوننا».

تنزلق صناديق على البلاط وكلب صغير ينبح وصفَّارة قائد تهب ونوع ما من آلة كبيرة تكح عند أول دورانها ثم تخمد. تحاول ماري لور أن تهدِّئ معدتها.

يصرخ شخص من خلفها: «لكن لدينا تذاكر، بحق الله!». هناك شجار. هستيريا تموج عبر الحشد.

- كيف تبدو أبي؟

- ماذا ماري؟

- المحطة. الليل.

تسمع صوت شرارة ولّاعته، الشّفط واحتراق التّبغ عندما تشتعل سيجارته.

- لنرَ. المدينة برمتها مظلمة. ما من مصابيح في الشّارع، ما من أضواء في النّوافذ. هناك أضواء كشّافات تتحرك عبر السّماء بين الحين والآخر. تبحث عن طائرات. هناك امرأة ترتدي قميص النّوم وأخرى تحمل كومة من الصُّحون.

- والجنود؟

- ما من جنود ماري.

تجد يده يدها. خوفها يخفت قليلاً. يتقطر المطر في الميزاب.

- ماذا نحن فاعلان الآن أبي؟

- نأمل أن يأتي قطار.

- ما الذي يفعله الآخرون؟

- يأملون أيضاً.

هير سيدلر

قرع على الباب بعد حظر التَّجوال. فرنر ويوتا يؤديان وظائفهما المنزلية مع نصف دستة من الأطفال الآخرين إلى الطّاولة الخشبية الطويلة. تثبت السَّيدة إلينا شارتها الحزبية عبر طية صدر سترتها قبل أن تفتح.

يدخل من تحت المطر جندي برتبة نائب عريف، على حزامه مسدس وصليب معقوف على ذراعه اليسرى. تحت سقف الغرفة الواطئ، يبدو الرجل طويلاً بشكل غير معقول. يفكّر فرنر بداديو الموجات القصيرة المخبأ في خزانة الإسعافات الأولية الخشبية القديمة تحت سريره. يفكر: يعرفون.

يوزع الجندي بصره في أرجاء الغرفة - موقد الفحم، الغسيل المنشور، الأطفال الصّغار - بقدر متساوٍ من الازدراء والعدائية. مسدسه أسود، يبدو أنه يجذب كل الضوء في الغرفة نحوه.

يجازف فرنر بإلقاء نظرة على أخته. يظل انتباهها مركزاً على الزائر. يلتقط الجندي كتاباً عن طاولة الردهة - كتاب للأطفال عن قطار متكلم - ويقلب كل صفحة من صفحاته قبل أن يرميه. ثم يقول شيئاً لا يمكن لفرنر سماعه. تطوي السَّيدة إلينا يديها فوق مئزرها، ويستطيع فرنر أن يرى أنها فعلت ذلك لتمنعهما من الارتجاف.

تنادي بصوت بطيء كالحلم من دون أن ترفع عينيها عن الجندي: «فرنر، هذا الرجل يقول إن لديه جهاز لاسلكي في حاجة إلى...».

يقول الرجل: «اجلب عدتك».

في طريقه إلى الخارج، يلتفت فرنر إلى الوراء مرة واحدة: جبهة يوتا وراحتاها مضغوطين على زجاج نافذة غرفة الجلوس. هي في الخلف ونائية جداً ولا يمكنه أن يقرأ ملامح وجهها. ثم يحجب المطر صورتها.

يبلغ طول قامة فرنر نصف طول قامة الجندي، وتوجَّب عليه أن يمشي خطوتين مقابل كل خطوة يخطوها الرجل. يتبعه ماراً بمنازل الشَّركة والحارس عند أسفل التلة إلى حيث يسكن المسؤولون عن المنجم. ينهمر المطر مائلاً عبر الأضواء. يبتعد القلة من الناس الذين يمرون بهما عن الجندي مسافة كبيرة.

لا يجازف فرنر بطرح أي سؤال. مع كل دقَّة قلب ينتابه توق حاد إلى الهرب.

يقتربان من بوابة أكبر المنازل في المستعمرة، منزل رآه آلاف المرات، لكن ليس عن قرب.

علم قرمزي عريض، مثقل بمياه المطر، يتدلى من عتبة نافذة الطابق العلوي. ينقر الجندي على باب خلفي. تأخذ خادمة ترتدي فستاناً عالي الخصر معطفيهما، تنفض المياه ببراعة عنهما وتعلقهما على مشجب ذي قاعدة نحاسية. تفوح من المطبخ رائحة الكعك.

يقود الجندي فرنر إلى غرفة الطعام، حيث تجلس على كرسي امرأة ضيقة الوجه وثلاث أقحوانات نضرات معلقات في شعرها، تقلب صفحات مجلة.

تقول: «بطتان مبللتان». وتعود إلى مجلتها. لم تطلب منهما أن يجلسا.

تتشرب سجادة سميكة حمراء نعلا حذاء فرنر، تتوقَّد مصابيح كهربائية في ثريا فوق الطاولة، تنجدل زهور عبر ورق الجدران.

نار خامدة في الموقد. معلقة على الجدران الأربعة جميعها صور مؤطرة لأسلاف عابسين. هل هذا هو المكان حيث يحتجزون الفتية الذين تستمع أخواتهم إلى محطات إذاعية أجنبية؟ تقلب المرأة صفحات مجلتها، واحدة تلو الأخرى. أظافرها مطلية باللون الزهري الفاقع. يهبط رجل الدرج يرتدي قميصاً ناصع البياض.

يقول لنائب العريف: «يا إلهي، إنه صغير، أليس كذلك؟ هل أنت مصلح الراديوهات الشهير؟».

يبدو شعر الرجل الكثيف الأسود ملتصقاً بجمجمته.

يقول: «رودولف سيدلر». يصرف الجندي بحركة خفيفة من ذقنه.

يحاول فرنر أن يزفر. يزرر السَّيد سيدلر أزرار كميه ويتفحَّص نفسه في مرآة دخانية. عيناه شديدتا الزرقة. «حسناً. لست فتى محباً للحديث، هل أنت كذلك؟ هناك جهاز معطل» ويشير إلى جهاز «فيلكو» أميركي ضخم في الغرفة المحاذية. «اثنان ألقيا بنظرة عليه حتى الآن. ثم سمعنا عنك. يستحق المحاولة، صحيح؟ هي» - يومئ إلى المرأة - «مستميتة لسماع برنامجها. نشرات الأخبار أيضاً، بالتأكيد».

يقولها بطريقة يفهم منها فرنر أن المرأة لا ترغب حقيقة في الاستماع إلى نشرات الأخبار. لا ترفع بصرها. يبتسم السَّيد سيدلر كما لو ليقول: أنت وأنا، يا بني، نعرف أن التاريخ يستغرق دورة أطول، ألسنا كذلك؟ أسنانه صغيرة جداً. «خذ وقتك في إصلاحه».

يقرفص فرنر أمام الجهاز ويحاول أن يهدئ أعصابه. يشغله، ينتظر حتى تسخن الصَّمامات، ثم يدير القرص بحذر على النطاق، من اليمين إلى اليسار. هو يعيد المقبض نحو اليمين ثانية. لا شيء.

إنه أفضل راديو وضع يده عليه على الإطلاق: لوحة تحكم مائلة، توليف مغناطيسي، بحجم صندوق ثلج. عشرة صمامات، مستقبل لكل الموجات بالفعل المتغاير الفوقي، مزين بحلي زخرفية فاخرة مستديرة الشكل، وصندوقه مصنوع من خشب الجوز بدرجتين من الألوان. فيه موجة قصيرة، نطاق ترددي عريض، جهاز كبير للتقليل من قوة الإشارة - يفوق ثمن هذا الراديو ثمن كل شيء في منزل الأطفال جملة. ربما استطاع السَّيد سيدلر الاستماع إلى أفريقيا إذا أراد ذلك. تصطف سلاسل حمراء وخضراء من الكتب على الجدران. نائب العريف رحل. في الغرفة المجاورة، يقف السَّيد سيدلر في بركة ضوء المصباح، يتحدث في هاتف أسود.

هم لا يحتجزونه. هم يريدون منه أن يصلح هذا الراديو فحسب.

يفك فرنر اللوح الخلفي ويلقي بنظرة على الداخل. جميع الصمامات سليمة ولا يبدو أي شيء مفقوداً. يدمدم بينه وبينه نفسه: «لا بأس. فكِّر». يجلس مصالباً ساقيه، يتفحص الدَّارة الكهربائية. ينحسر الرجل والمرأة والكتب والمطر حتى لا يبقى هناك سوى الراديو ومجموعة الأسلاك المتشابكة. يحاول أن يتصور طرق الإلكترونات النَّشطة، سلسلة الإشارة مثل درب عبر مدينة مزدحمة، إشارة التردد الراديوي تدخل من هنا، مارة عبر شبكة من المضخمات، ثم إلى مكثفات متبدلة، ثم موصلات محول التيار...

يراه. هناك انقطاعان في واحد من الأسلاك المقاومة. يلقي فرنر بنظرة من فوق الجهاز: إلى يساره، المرأة تقرأ مجلتها، إلى يمينه، يتحدث السَّيد سيدلر في الهاتف. بين الحين والآخر يمرر السَّيد سيدلر إبهامه وإصبعاً على طول ثنية بنطاله المقلم شاحذاً إياها.

هل يمكن لرجلين أن يفوتا شيئاً بغاية البساطة؟ يبدو مثل هدية. سهل

للغاية! يلفُّ فرنر شريط المقاومة إلى أوله ويصل الأسلاك ويصل الراديو بالتيار الكهربائي. عندما يشغِّله، يكاد يتوقع أن ناراً ستندفع من الآلة. لكن بدلاً من ذلك: الدمدمة الدخانية لساكسفون.

تضع المرأة جانباً مجلتها على الطاولة، وأصابعها العشرة على خديها. يقفز فرنر من خلف الراديو. للحظة عقله خالٍ من كل المشاعر، ما عدا الانتصار.

تصيح المرأة: «أصلحه فقط بالتفكير!». يغطي السَّيد سيدلر سماعة الهاتف ويرفع بصره. «جلس هناك مثل فأر صغير وفكَّر، وخلال نصف دقيقة أصلحه!». لوَّحت بأظافرها الرائعة وانفجرت بضحك طفولي.

ينهي السَّيد سيدلر المكالمة الهاتفية. تعبر المرأة نحو غرفة الجلوس وتركع أمام الراديو - حافية، وبطتا ساقيها البيضاوين النَّاعمتين ظاهرتان من تحت حاشية تنورتها. تدير المقبض. تنبعث بقبقة، ثم سيل من موسيقى مبهجة. يصدر الراديو صوتاً مشرقاً تاماً: لم يسمع فرنر له مثيلاً.

«أوه!» تضحك ثانية.

يجمع فرنر عدته. يقف السَّيد سيدلر أمام الراديو ويبدو على وشك أن يربت على رأسه.

يقول: «مدهش». يرافق فرنر إلى طاولة الطعام وينادي على الخادمة لتجلب كعكة. تظهر في الحال: أربع قطع على طبق أبيض عادي. كل واحدة منثور عليها مسحوق السُّكر ويعلوها مقدار من القشدة المخفوقة. يتثاءب فرنر. يضحك السَّيد سيدلر. «القشدة ممنوعة. أعرف. لكن» -يضع سبابته على شفتيه - «هناك استثناءات. امضِ».

يأخذ فرنر قطعة. يتناثر مسحوق السُّكر على ذقنه. في الغرفة الأخرى تقلب المرأة القرص، وتندفع أصوات من السَّماعة. تستمع إلى حين، ثم

تصفّق، راكعة هناك بقدميها الحافيتين. تخفض الوجوه الصّارمة في الصُّور الفوتوغرافية بصرها.

يأكل فرنر قطعة من الكعك، ثم أخرى، ثم يأخذ ثالثة. يراقبه السَّيد سيدلر ورأسه مائل قليلاً، مستمتع، يفكر في شيء.

- لديك شكل مميز، ألست كذلك؟ وذلك الشَّعر. كما لو أنك تلقيت صدمة رهيبة. من هو والدك؟

يهزُّ فرنر رأسه.

- صحيح. منزل الأطفال. يا لحماقتي! خذ قطعة أخرى، ضع المزيد من القشدة عليها الآن.

تصفق المرأة ثانية. تطلق معدة فرنر صوت قرقعة. يمكنه أن يشعر بأن الرجل ينظر إليه.

يقول السَّيد سيدلر: «يقول النَّاس إنه يجب ألا يكون هناك ترحيل كبير هنا في المناجم. «يقولون، أما كنت لتفضل أن تكون في برلين؟ أو فرنسا؟ أما كنت لتفضِّل أن تكون بالأحرى قبطاناً في الجبهة، تراقب الخطوط المتقدمة، بعيداً عن كل هذا». يلوح بيده نحو النافذة - «سخام؟ لكني أقول لهم إني أعيش في مركز هذا كله. أقول لهم إنه من هذا المكان يأتي الوقود والفولاذ أيضاً. هذا فرن البلاد».

ينظف فرنر حنجرته: «نحن نعمل من أجل السَّلام». إنها حرفياً جملة سمعها هو ويوتا عبر الإذاعة الألمانية منذ ثلاثة أيام. «من أجل العالم».

يضحك السَّيد سيدلر. ثانية فرنر مأخوذاً بعدد أسنانه الكبير وصغر حجمها.

- هل تعلم ماهي أعظم دروس التاريخ؟ إن التاريخ هو ما يقوله المنتصرون. هذ هو الدَّرس. أي من يكسب هو من يقرر التاريخ. نحن

نعمل في صالحنا. بالتأكيد نفعل. سمِّ لي شخصاً أو أمة لم تفعل. البراعة هي معرفة أين تكون مصلحتك.

تبقى قطعة واحدة من الكعك. يصدر الراديو صوتاً خفيضاً والمرأة تضحك، يقرر فرنر أن السَّيد سيدلر لا يبدو شبيهاً بالجيران، بحذرهم، بوجوههم القلقة - وجوه أناس اعتادوا مشاهدة أحبابهم يختفون كل صباح في الحفر. وجهه نظيف وواعد، هو رجل واثق للغاية من امتيازاته. وعلى بعد خمس ياردات تركع هذه المرأة بأظافر مطلية وبطني ساقين حليقتين - امرأة نائية كلياً عن خبرات فرنر السَّابقة، كما لو أنها من كوكب مختلف. كما لو أنها خرجت من جهاز الراديو الفيلكو الكبير نفسه.

يقول السَّيد سيدلر: «تجيد استخدام الأدوات. ذكاؤك يفوق عمرك. هناك أمكنة لفتى مثلك. مدارس الجنرال هايسماير. خيرة المدارس. تدرس العلوم الميكانيكية أيضاً. فك الشِّيفرة، تسيير الصَّواريخ، الأكثر حداثة».

لا يعرف فرنر إلى أين عليه أن ينظر:

- لا نملك المال.

- هنا تكمن عبقرية هذه المعاهد. هم يريدون الطبقات الكادحة، العمال. فتياناً ليسوا موسومين (يقطب السَّيد سيدلر) بتوافه الطبقة المتوسطة، السِّينما وما إلى هنالك. هم يريدون فتياناً مجتهدين. فتياناً استثنائيين.

- نعم، سيدي.

يكرر مومئاً: «استثنائيون». يتحدَّث كما لو لنفسه فقط. يصدر صفيراً ويعود الجندي والخوذة في يده. ترفرف عينا الجندي نحو آخر قطعة من الكعك ثم يشيح.

يقول السَّيد سيدلر: «هناك مكتب تجنيد في إيسن. سأكتب لك رسالة. وخذ هذه». يناول فرنر خمساً وسبعين ماركاً. يدس فرنر الأوراق في جيبه بأسرع ما يمكن.

يضحك الجندي: «تبدو كما لو أنها أحرقت أصابعه!».

انتباه السَّيد سيدلر في مكان آخر. يكرر: «سوف أرسل رسالة إلى هايسماير. جيد من أجلنا، ومن أجلك. نحن نعمل لصالح العالم، ها؟» يغمز. ثم يفسح الجندي المجال لفرنر ليمر ويريه الطريق إلى الخارج.

يسير فرنر إلى البيت غافلاً عن المطر، محاولاً أن يستوعب جسامة ما حدث. تسعة من طيور البلشون يقفون مثل زهور في القنال بجانب وحدة تصنيع فحم الكوك. يدوِّي زمور عبَّارة بصوت مرتفع، وعربات فحم تتدحرج جيئة وذهاباً، وصوت الارتطام الدَّوري لآلة النَّقل يتردَّد عبر العتمة.

في منزل الأطفال، أوى الجميع إلى أسرتهم. تجلس السَّيدة إلينا في المدخل تماماً وكومة هائلة من الجوارب المغسولة في حجرها وزجاجة خمر الطهو بين قدميها. خلفها إلى الطاولة تشاهد يوتا فرنر بتوتر شديد.

تقول السَّيدة إلينا: «ما الذي أراده؟».

– أراد أن أصلح راديو.

– لا شيء أكثر؟

– لا.

– هل طرحوا أسئلة؟ عنك؟ عن الأطفال؟

– لا، سيدة إلينا.

تطلق السَّيدة إلينا نفساً هائلاً كما لو أنها كانت تحبسه منذ ساعتين.

تفرك صدغيها بكلتا يديها وتقول: «حمداً لله، يمكنك الذَّهاب إلى النوم الآن يوتا». تتردد يوتا.

يقول فرنر: «أصلحته».

«هذا فتى جيد، فرنر». تشرب السَّيدة إلينا جرعة طويلة من نبيذ الشيري، وتنغلق عيناها ورأسها يميل إلى الخلف. «لقد استبقينا لك بعض العشاء». تسير يوتا إلى الدَّرج والريبة في عينيها.

يبدو كل شيء في المطبخ سيئاً، ومبقَّعاً بالفحم. تجلب السَّيدة إلينا طبقاً يحتوي على حبة بطاطا مسلوقة مقسومة نصفين.

يقول فرنر وطعم الكعك لا يزال في فمه: «شكراً لكِ». يتأرجح رقَّاص السَّاعة مراراً وتكراراً في ساعة الجد القديمة. الكعكة، القشدة المخفوقة، السَّجادة السَّميكة، الأظافر الزهرية والبطات الطويلة للسيدة سيدلر - هذه أحاسيس تدوِّم عبر رأس فرنر كما لو عبر لعبة دوَّامة الخيل. يتذكَّر اصطحابه يوتا إلى «بيت ناين» حيث اختفى والدهما، مساءً تلو آخر كما لو أن والدهما ربما قد يخرج متثاقلاً من المصاعد.

ضوء، كهرباء، أثير. مكان، زمن، كتلة. مبادئ الميكانيك لمؤلفه «هاينريش هرتز». مدارس «هايسماير» الشَّهيرة. فك الشِّيفرة، تسيير الصَّواريخ، أحدث الأمور. كان الفرنسي يقول على الراديو: افتحوا أعينكم، وانظروا ماذا يسعكم أن تروا بواسطتها قبل أن تنغلق إلى الأبد.

- فرنر؟

- نعم، سيدتي؟

- ألستَ جائعاً؟

السَّيدة إلينا: تكاد تكون أماً لم يحظَ بها في أي وقت. فرنر يأكل، على الرغم من أنه ليس جائعاً. ثم يعطيها الماركات الخمسة وسبعين، وتطرف على المبلغ وتعيد إليه خمسين.

في الأعلى، بعد أن سمع السَّيدة إلينا تذهب إلى الحمام وتصعد إلى سريرها وران على المنزل هدوء تام، يعدُّ فرنر إلى المئة. ثم ينهض من سريره ويخرج الراديو الصَّغير من صندوق الإسعافات الأولية - البالغ من العمر الآن ست سنوات وينتصب بما أجري عليه من التعديلات، بأسلاكه المستبدلة، الملف اللولبي الجديد، تدوينات يوتا تدور حول بكرة التوليف - ويحمله إلى الزقاق خلف المنزل ويحطمه بقرميدة.

رحيل

يواصل الباريسيون الضَّغط عبر البوابات. بحلول السَّاعة الواحدة صباحاً، فقدت الشُّرطة السَّيطرة، وما من قطارات وصلت أو غادرت خلال أربع ساعات. تغفو ماري لور على كتف والدها. لا يسمع صانع الأقفال صوت صفارات، ولا خشخشة تعشيق: ما من قطارات. عند الفجر يقرر أنه من الأفضل الذَّهاب سيراً على الأقدام.

واصلا السَّير طوال فترة الصَّباح. بثبات، تتقلص باريس لتصبح منازل منخفضة ومتاجر مفردة تفصل ما بينها صفوف طويلة من الأشجار. عند الظُّهر يشقَّان طريقهما عبر حركة السَّير الراكدة على طريق سريع جديد قرب «فوكريسون»، عشرة أميال غرب شقتهما، لم يسبق لماري لور أن ابتعدت عن البيت هذه المسافة يوماً.

عند ذروة تلَّة خفيضة، ينظر والدها من فوق كتفه: عربات معززة على مدِّ عينه والنَّظر، مركبات مقفلة وشاحنات، غطاء جديد أملس ملفوف حول محرك ف 12 مثبَّت بين عربتين يجرهما بغل، بعض السَّيارات بمحاور خشبية، البعض نفد منها البنزين، البعض ربط أثاث عائلته إلى السَّقف، البعض مع أثاث مزرعة كامل محشور على المقطورات، دجاج وخنازير وأقفاص، أبقار تسير متثاقلة جنباً على جنب، كلاب تلهث على الحواجب الزجاجية.

الموكب كله يمشي مجهداً أسرع بقليل من سرعة المشي العادي. كلا الممران مسدودان - الجميع يترنّح نحو الغرب بعيداً. تقود امرأة درّاجة هوائية مرتدية عشرات القلائد. يجر رجل كرسياً جلدياً ذا ذراعين على عربة تدفع باليد، قطّة سوداء تنظّف جسدها على الوسادة الوسطى. نساء يدفعن عربات أطفال محشوة بالأواني الصينية، أقفاص الطيور، أوان من الكريستال. رجل يرتدي بزة رسمية يمشي منادياً: «حباً بالله دعوني أمر». ولو أنه ما من أحد يتنحى جانباً، ولا يزيد سرعته عن أي شخص آخر.

تتمسك ماري لور بورك والدها وعصاها في قبضتها. مع كل خطوة، يحوم سؤال آخر منفصل من حولها: كم تبلغ المسافة إلى «سان جيرمان»؟ هل هناك طعام عمتي؟ من لديه وقود؟ تسمع رجالاً يصرخون على زوجاتهم، تسمع أن طفلاً دهسته شاحنة على الطريق قدماً. في الأصيل تمر ثلاث طائرات سريعاً، مدوّية وسريعة ومنخفضة، والناس يجثمون في مكانهم والبعض يصرخ والآخرون ينزلون في الخندق ويضعون وجوههم في الأعشاب.

مع غروب الشّمس يصلان غرب فرساي. كعبا ماري لور ينزفان وجواربها ممزقة وتتعثر كل مئة خطوة. عندما أعلنت أنها لم تعد تستطيع السّير، يحملها والدها، ويرتحل على طريق صاعد عبر زهور الخردل إلى أن يصلا إلى حقلٍ على بعد بضع مئات من الياردات من بيت مزرعة صغير. الحقل تم حصاده حتى المنتصف فقط، الحشيش المجزوز ترك غير مكوَّم وغير مرزَّم. كما لو أن المزارع هرب في غمرة عمله.

يخرج صانع الأقفال من حقيبة ظهره رغيف خبز وعدداً من مقانق السُّجق الأبيض ويتناولها بهدوء ثم يرفع قدميها على حجره. في العتمة نحو الشّرق، يمكنه أن يتبين خطاً رمادياً من الحشود المزدحمة بين حواف

الطريق. الثغاء الخفيف والذَّاهل لزمامير السَّيارات. شخص ما ينادي كما لو على طفل ضائع والريح تحمل الصَّوت بعيداً.

- هل من شيء يحترق أبي؟

- لا شيء يحترق.

- أشم رائحة دخان.

يخلع جواربها ليتفحص كعبيها. قدماها في يديه، خفيفتان كالطيور.

- ما هذه الضَّجة؟

- جنادب.

- هل حلَّ الظلام؟

- يهبط الآن.

- أين سننام؟

- هنا.

- هل من أسرَّة؟

- لا عزيزتي.

- إلى أين نحن ذاهبان يا أبي؟

- المدير أعطاني عنوان شخص سيساعدنا.

- أين؟

- بلدة تدعى إيفرو. نحن ذاهبان للقاء رجل يدعى السَّيد جيانو. هو صديق مدير المتحف.

- كم تبعد إيفرو؟

- سيتوجَّب علينا أن نمشي سنتين لنصل إلى هناك.

تقبض على ذراعه.

- أنا أمزح، ماري. إيفرو ليست بعيدة كثيراً. إذا وجدنا وسيلة نقل سنكون هناك غداً، سترين.

تتمكن من المحافظة على هدوئها طيلة عشرات دقات القلب. ثم تقول: «لكن الآن؟».

- الآن سوف ننام.

- من دون أسرَّة؟

- سيكون العشب سريرنا. قد تحبينه.

- في إيفرو سيكون لدينا أسرَّة، أبي؟

- أتوقَّع ذلك.

- ماذا لو لم يكن راغباً في أن نقيم هناك؟

- سوف يرغب في ذلك.

- ماذا لو لم يفعل؟

- حينها سوف نذهب لنزور عمي. جدُّك في سان مالو.

- العم إيتيين؟ لقد قلت إنه كان مجنوناً.

- هو مجنون إلى حدٍّ ما، نعم. هو ربما مجنون بنسبة ٪76.

لم تضحك.

- كم تبعد سان مالو؟

- يكفي أسئلة ماري. سوف يستقبلنا السَّيد جيانو في إيفرو في أسرَّة كبيرة مريحة.

- كم لدينا من الطعام، أبي؟

- القليل، ألا تزالين جائعة؟

- أنا لست جائعة. أريد أن أوفِّر الطعام.

- حسناً، لنؤخر الطعام. لنصمت الآن ونرتاح.

تستلقي على ظهرها. ويشعل سيجارة أخرى. بقي لديه ست سجائر. خفافيش تغوص وتنقض عبر غيوم من البعوض، والحشرات تتشتت وتتشكل مرة أخرى. هو يفكر: نحن فئران، والسَّماء تدوِّم بالصقور.

- أنت شجاعة جداً يا ماري لور.

غطَّت الفتاة الآن في النوم. الليل يدلهمّ. عندما انتهت سيجارته، يريح قدمي ماري لور على الأرض ويغطيها بمعطفها ويفتح حقيبة الظهر. باللمس يجد علبته المملوءة بمعدات النجارة. مناشير صغيرة، مسامير، أزاميل، مناقيش للنحت، وورق السَّنفرة. الكثير من هذه الأدوات كان يعود إلى جدِّه. من تحت بطانة العلبة، يسحب كيساً صغيراً من القماش السَّميك موثَّقاً برباط. طوال اليوم منع نفسه عن تفحصه. الآن هو يفتح الكيس ويقلب محتوياته على راحته.

في يده، الحجر بحجم حبَّة كستناء تقريباً. حتى في هذه السَّاعة المتأخرة، بواسطة الضَّوء المتسرِّب من النافذة يتوهَّج بلون أزرق فخم. بارد على نحو غريب. قال المدير إنه قد يكون هناك ثلاثة أحجار أخرى زائفة. بالإضافة إلى الألماسة الحقيقية، فيكون المجموع بالتالي أربعة. واحد قد يبقى في المتحف. ثلاثة سواه قد ترسل في اتجاهات مختلفة. واحد جنوباً مع عالم أحياء شاب، وآخر شمالاً مع مدير الأمن. وواحد هنا، في حقل غرب فرساي، داخل كيس معدات دانيل لو بلان، صانع الأقفال في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي.

ثلاثة مزيفة وواحد حقيقي. قال المدير: هذا أفضل، ما من رجل يعرف ما إذا كان يحمل الماسة الحقيقية أو المستنسخة. وأضاف وهو يرنو إليهم بنظرة رزينة: يجب أن يتصرَّف الجميع كما لو أن كل واحد منهم يحمل الحجر الحقيقي.

يقول صانع الأقفال لنفسه إن الماسة التي يحملها ليست حقيقية. فمن غير الممكن أبداً أن يعطي المدير لحرفيٍّ، عن قصد، ماسة تزن مئة وثلاثة وثلاثين قيراطاً، ويدعه يخرج من باريس حاملاً إياها. ومع ذلك، عندما يحدق فيها، لا يستطيع أن يمتنع عن طرح السؤال: هل يمكن أن تكون؟

يجيل بصره في الحقل. أشجار، سماء، حشيش. تهبط الظلمة مثل قماش مخملي. الآن بعض النجوم الشَّاحبة. تتنفس ماري لور أنفاس النوم الموزونة. ينبغي للجميع أن يتصرفوا كما لو أنهم يحملون الحجر الحقيقي. يعيد صانع الأقفال الحجر إلى الكيس ويدسه في الحقيبة. يمكنه أن يشعر بوزنه الخفيف هناك، كما لو أنه زلقه داخل عقله: أنشوطة.

•

بعد ساعات، يستيقظ ليرى ظلَّ طيارة يلطخ النجوم عندما تندفع شرقاً. تصدر صوت تمزق خافت لدى مرورها في الأعلى ثم تختفي. ترتج الأرض بعد لحظة.

تشع زاوية من سماء الليل حمراء، خلف جدار من الأشجار. في الضوء الوامض المتوهج، يرى أن الطيارة لم تكن بمفردها، وأن السَّماء تعج بالعشرات، تتهافت جيئة وذهاباً، تسرع في كل اتجاه، وفي لحظة تشوش، يشعر أنه لا ينظر أعلى بل أسفل، كما لو أن ضوءاً كاشفاً كان يلمع في وتد من مياه محتقنة بالدَّم، وأصبحت السَّماء البحر، والطائرات سمك جائع، ينهب فريسته في الظلمة.

اثنان

8 آب 1944

سان مالو

تحلّق أبواب بعيداً عن أطرها. يتحوّل القرميد إلى مسحوق. تتدفق سحب ضخمة منتفخة من الكلس والتراب والغرانيت في السَّماء. أديرت قاذفات القنابل الاثنتي عشرة جميعها وارتفعت وانتظمت عالياً فوق القنال، قبل أن تنهي ألواح السُّقوف الإردوازية المنفجرة في الهواء تساقطها على الشَّوارع.

تعدو ألسنة نار على الجدران. سيارات مركونة تحترق، وكذلك السَّتائر وأغطية المصابيح والأرائك والمفارش ومعظم المجلَّدات البالغ عددها ألفي مجلد في المكتبة العامة. تجتمع ألسنة النار وتنتفخ، تجري على جوانب الأسوار مثل مد وجزر، تطرطش الأزقة، فوق سقوف المنازل، عبر ساحة انتظار السَّيارات. دخان يطارد غبار، رماد يطارد دخان. يعوم كشك لبيع الصُّحف محترقاً.

يرفع المالويون دعواتهم من الأقبية والسَّراديب في طول المدينة وعرضها: يا رب نسألك باسمك من فضلك أن تحمي هذه البلدة وأهلها ولا تغفل عنّاً آمين! يتشبث رجال مسنون بالقناديل، أطفال يصرخون، كلاب تنبح. وفي لمح البصر، تشتعل روافد يبلغ عمرها أربعمئة عام في المنازل المتجاورة. يصبح قسم من المدينة القديمة، المخفي إزاء الجدران الغربية، عاصفة من النيران، تصل ذرا اللهب في أقصى علو لها

حتى ارتفاع ثلاثمئة قدم. الشَّهية إلى الأوكسجين كبيرة، إلى درجة أن أشياء أثقل من القطط الأليفة أقحمت في اللهب. لافتات المتاجر تتأرجح نحو الحرارة من دعاماتها، أصص نباتات تنزلق وتصطدم بالأنقاض وتنقلب. خطاطيف، طارت من المداخن، تضطرم وتهوي مثل شرارات منسوفة نحو الأسوار وتخمد نفسها في البحر.

في شارع «دو لا كروس»، يكاد يصبح فندق النحل عديم الوزن إلى حين، محمولاً على لولب من نار، قبل أن يبدأ بالتهاوي قطعاً نحو الأرض.

الرقم 4 شارع فوبوريل

تتكوَّر ماري لور تحت سريرها والحجر في قبضتها اليسرى، والمنزل الصَّغير في يمناها. تزعق مسامير الدَّعامات الخشبية وتتنهد. تنهمر قطع من جبس وقرميد وزجاج على الأرض، على مجسَّم المدينة، على الطاولة، وعلى المفرش فوق رأسها.

تنادي ماري لور: «أبي، أبي». لكن يبدو أن جسدها انفصل عن صوتها، وكلماتها تحدث لحناً نائياً منعزلاً. يخطر لها أن الأرض تحت سان مالو محبوكة مع بنية جذور شجرة هائلة، تقع في مركز المدينة، في ساحة لم يصحبها إليها أحد يوماً، والشَّجرة الضَّخمة اجتثتها يد الله من جذورها واقتلعت الجرانيت معها، ركام وكتل وتراب من أحجار تنسحب مبتعدة عندما يبرز الجذع متبوعاً بمحاليق الجذور السَّميكة - البنية الجذرية مثل شجرة أخرى انقلبت رأساً على عقب وأقحمت في التراب، أليس هذا ما قد يقوله الدكتور جيفار؟ - الأسوار تنهار، الشَّوارع ترشح، تتهاوى قصور كبيرة كالدمى.

يستقر العالم ببطء وامتنان. ينبعث رنين خفيف من الخارج، ربما شظايا زجاج تتساقط في الشَّوارع. يبدو جميلاً وغريباً في آن، كما لو أن السَّماء تمطر أحجاراً كريمة.

أينما كان عمها، هل أمكنه أن ينجو من هذا؟

هل يمكن لأحد أن ينجو؟

هل نجت؟

المنزل يصرصر، يتقطَّر، يئن. ثم يسمع مثل صوت الريح تهب في العشب الطويل غير أنها تبدو أكثر جوعاً. تهب عند السَّتائر، في الأجزاء الحساسة داخل أذنيها.

تشم رائحة دخان وتدرك. النار. تناثر الزجاج من نافذة غرفة نومها، وما تسمعه هو صوت شيء يحترق خلف المصاريع، شيء ضخم. الحي. البلدة برمتها.

يبقى الجدار، الأرض، والجانب السفلي من سريرها باردين. لم يحترق المنزل بعد. لكن إلى متى؟

تفكِّر: هدِّئي من روعك، ركِّزي على ملء رئتيك وإفراغهما. املئيهما ثانية. تبقى تحت سريرها. تقول: «هذا ليس حقيقياً».

فندق النحل

ما الذي يتذكره؟ رأى المهندس بيرند يغلق باب القبو ويجلس على الدَّرج. رأى العملاق فرانك فولكهايمر في الكرسي الذهبي يلتقط شيئاً عن بنطاله. ثم انطفأ مصباح السَّقف وفولكهايمر أضاء كشّافه وهدير انقضَّ عليهم، صوت مرتفع جداً كأنه سلاح بحد ذاته، يستنفد كل شيء، يرج قشرة الأرض نفسها، وللحظة كل ما تمكَّن فرنر من رؤيته كان ضوء فولكهايمر يعدو برشاقة مثل خنفساء هلعة.

كانوا مرميين، للحظة أو لساعة أو ليوم - من في وسعه أن يخمِّن؟ كان فرنر في زولفرين، واقفاً عند قبر سبق أن حفره عامل منجم لبغلين عند طرف حقل، وكان الفصل شتاء ولم يكن عمر فرنر يتجاوز خمس سنوات، وجلد البغال أصبح شبه شفاف، لذا كانت عظامها مرئية في الداخل على نحو مبهم، وكتل تراب صغيرة كانت عالقة في عيونها المفتوحة، وكان جائعاً بما فيه الكفاية ليتساءل إذا ما بقي من لحم عليهما يستحق أن يؤكل.

سمع صوت شفرة الرفش تدقُّ الحصى.

سمع أخته تلتقط نفساً.

ثم، كما لو أن سلسلة الذكريات بلغت نهايتها، شيء اقتلعه معيداً إياه إلى القبو تحت فندق النحل. توقَّفت الأرض عن الاهتزاز، لكن الصَّوت

لم يتلاشَ. يضغط راحة يده على أذنه اليمنى. الهدير يبقى، أزيز ألف نحلة، قريب للغاية.

يسأل: «هل من ضوضاء؟».

لكن لا يمكنه سماع صوته وهو يسأل. الجانب الأيسر من وجهه مبلل. السَّماعات التي كان يضعها مفقودة. أين طاولة الحرفي، أين الراديو، ما هذه الأثقال التي تعلوه؟

يقتلع من كتفيه، صدره، وشعره، شظايا ساخنة من الحجر والخشب. يعثر على الكشَّاف، يتفقَّد الآخرين، يتفقَّد الراديو، يتفقَّد المخرج. يحاول أن يعرف أي خطب حلَّ بسمعه. هذه هي الخطوات الرشيدة. يحاول أن ينهض، لكن السَّقف أصبح أكثر انخفاضاً، ويرتطم برأسه. سخونة، تزداد ارتفاعاً. يفكِّر: نحن محبوسون في صندوق، والصندوق أقحم في فم بركان.

تمرُّ ثوانٍ، وربما هي دقائق. يلبث فرنر جاثياً على ركبتيه. ضوء. ثمَّ الآخرون. ثم المخرَج. ثم سمْعه. ربما رجال سلاح الجو الألماني في الأعلى يخربشون الآن عبر الحطام للمساعدة. لكنه لا يستطيع العثور على كشَّافه. لا يمكنه الوقوف حتى. في الظلمة المطلقة، بصره مغشَّى بألف حزمة مسافرة من اللونين الأحمر والأزرق. لهب؟ أشباح؟ تلعق الأرضية بطولها، ثم تصعد إلى السَّقف، تتوهَّج بغرابة، بصفاء.

يصرخ في الظلمة: «هل نحن موتى؟ هل متنا؟».

ستّة أدراج نحو الأسفل

لم يكد يخبو هدير قاذفات القنابل حتى سُمع صفير قصف مدفعي على المنزل مصدراً صوت تحطُّم رتيب عند انفجاره في مكان ليس ببعيد. أشياء تقرقع على السَّطح - شظايا قنبلة؟ جمرات؟ - وتقول ماري لور بصوت مسموع: «أنت في مكان مرتفع جداً في المنزل»، وترغم نفسها على الخروج من تحت السَّرير. على الرغم من تباطئها الذي طال. تعيد الحجر إلى داخل مجسَّم المنزل، وتعيد الألواح الخشبية التي تشكِّل سقفه، وتعيد المدخنة إلى مكانها، وتضع المنزل في جيب فستانها.

أين حذاؤها؟ تزحف في أرجاء الأرضية، لكن أصابعها لا تمسُّ إلا قطعاً خشبية، وما قد يكون شظايا من زجاج النافذة. تعثر على عصاها وتخرج بقدميها المجوربتين من الباب، وتنزل إلى الردهة. رائحة الدُّخان أقوى هنا. لا تزال الأرضية باردة، والجدران كذلك. تتبوَّل في مرحاض الطَّابق السَّادس وتمنع نفسها عن تنظيف المرحاض عالمة أن خزان الماء لن يمتلئ ثانية، وتعيد تفحُّص الهواء لتضمن أنه ليس حاراً قبل أن تواصل.

ست خطوات تفصلها عن بيت الدَّرج. تزعق قذيفة ثانية في الأعلى، وماري لور تصرخ، والثريا فوق رأسها تطن عندما تنفجر القذيفة في مكان ما في داخل المدينة.

وابل من الآجر، وابل من الحصى، وابل أبطأ من السُّخام. ثماني

درجات مقوَّسة نحو الأسفل، تصدر كل من الدَّرجتين الثَّانية والخامسة صريراً. محور حول دعامة الدرابزين، ثماني درجات أخرى. الطابق الرابع. الثَّالث. هنا تتحقَّق من سلك التنبيه الذي وضعه عمٌّ والدها تحت طاولة الهاتف على سفرة الدَّرج. الجرس معلَّق والسلك يظل مشدوداً، يجري عمودياً عبر الفجوة التي حفرها في الجدار. لم يأتِ أحد ولم يذهب. ثماني خطوات في الردهة نحو حمَّام الطَّابق الثَّالث. حوض الاستحمام ممتلئ. تعوم فيه أشياء، رقائق من جبس السَّقف، ربما، وهناك حبيبات رملية خشنة على الأرض تحت ركبتيها، لكنها تضع شفتيها على سطحه، وتشرب حتى ترتوي. بقدر ما تستطيع.

تعود إلى بيت الدَّرج وتنزل إلى الطَّابق الثَّاني. ثم الأول: جفنات منقوشة على عمود الدَّرابزين. المشجب الذي تعلق عليه الملابس سقط. حطام شيء حاد في الردهة – تقرر إنها آنية فخارية، من الصُّندوق في غرفة الطعام – وتخطو بخفَّة قدر الإمكان. هنا في الأسفل، لا بد من أن بعض النوافذ تحطمت أيضاً: تشمُّ المزيد من رائحة الدُّخان. ترتدي معطف عمِّها الصُّوفي المعلَّق على المشجب في البهو. ما من أثر لحذائها هنا أيضاً – ماذا فعلت به؟ المطبخ ممرغ بالرفوف المتدهورة والقدور. كتاب للطهو مقلوب في دربها مثل طائر ذبيح. تجد في الخزانة نصف رغيف خبز بقي من اليوم السَّابق.

هنا، في وسط الأرضية، باب القبو بحلقته المعدنية. تزلق جانباً طاولة الطَّعام الصَّغيرة وترفع الباب الأرضي الصَّغير.

بيتٌ للفئران والرطوبة ورائحة المحار المنسي، كما لو أن مداً هائلاً امتد خلال عقود مضت ثم انسحب ببطء. تقف ماري لور عند الباب المفتوح، تشمُّ رائحة النَّار من الخارج والرائحة النديَّة المناقضة من الأسفل. يقول

عمها إن الدُّخان هو تعطل الجسيمات، بلايين من الجزئيات الكربونية المنجرفة. شذرات من غرف الجلوس، المقاهي، الأشجار، النَّاس.

تصرخ قذيفة مدفعية ثالثة متوجهة نحو المدينة من الشَّرق. ثانية تتحسس ماري لور المنزل المصغَّر في جيب فستانها. ثم تأخذ الخبز وعصاها وتشرع في هبوط السُّلم وتغلق الباب الأرضي.

الوقوع في شرك

ينبثق ضوء، ليس متوهجاً، يصلّي فرنر بمخيلته: شعاع كهربائي يجول الغبار. يحاول التحرك عبر الحطام، مضيئاً كتلة ضخمة منهارة من جدار، ينير قطعة معوَّجة من رفوف. يطوف فوق زوج من خزائن معدنية تشوَّهت وهرست، كما لو أن يد عملاق امتدت ومزَّقت كل واحدة منهما إلى نصفين. يضيء على صناديق العدَّة المسفوحة، وألواح جدارية مكسورة وعشرات الجرار الصَّحيحة المليئة بالبراغي والمسامير.

فولكهايمر، كشَّافه معه، يؤرجح شعاعه على نحو متكرر فوق خليط من حطام ملبَّد في الزاوية القصيَّة - حجارة وإسمنت وخشب متشظٍّ. يستغرق فرنر لحظة ليدرك أن هذا بيت الدَّرج.

ما بقي من بيت الدرج.

زاوية القبو برمَّتها لم تعد موجودة. يرفرف الضُّوء هناك لحظة أخرى، كما لو أنه يسمح لفرنر باستيعاب الوضع، ثم ينحرف إلى اليمين ويتمايل نحو شيء قريب، وفي الضوء المنعكس، عبر شلل الغبار، يمكن لفرنر أن يرى خيال فولكهايمر الضَّخم، ينحني ويتعثر وهو يتحرك بين القضيب الفولاذي المعلَّق والأنابيب. يستقرُّ الضُّوء أخيراً. والمصباح الكهربائي في فمه، يرفع فولكهايمر، في تلك الظلال الحبيبية والمقذوفة عالياً، قطعاً

من الآجر وشظايا القذائف والجبس، قطعة تلو أخرى، ألواح ممزقة وبلاط من الجص - يرى فرنر هناك شيئاً تحت كل هذا، شيئاً مدفوناً تحت هذه الأشياء الثقيلة، آخذ بالتشكُّل.

المهندس. بيرند.

وجه بيرند أبيض من الغبار، لكنّ عينيه تبدوان كفجوتين وفمه كحفرة كستنائية اللون. مع أن بيرند يصرخ، لكن بسبب الهدير المسنن السّاكن في أذنيه، لا يستطيع فرنر سماعه. يرفع فولكهايمر المهندس - الرجل الأكبر سناً مثل طفل في ذراعي الرقيب الأول، يمسك فولكهايمر الكشّاف بين أسنانه - ويعبر به المكان المدمَّر، منحنياً ثانية ليتجنَّب السَّقف المتدلي، ويضعه في الكرسي الذهبي الذي لا يزال منتصباً في الزاوية، الذي صار أبيض مغبرّاً.

يضع فولكهايمر يده الكبيرة على فكِّ بيرند، ويغلق بلطف فم '
فرنر، لا يبعد سوى بضع أقدام، لا يسمع تغيراً في الهواء. ينت
حولهم مرة أخرى، وغبار ساخن ينهمر أينما كان.

سرعان ما يشكل مصباح فولكهايمر دائرة على ما بقي على اله
تصدَّعت الروافد الخشبية الثلاثة الكبيرة، لكن ما من واحدة تهاوت كلي
بينها الجص متشقق، والأنابيب تثقبه في مكانين. يميل الضُّوء من خلفه وينير طاولة الحرفي المقلوبة، صندوق الراديو المكسور. أخيراً يعثر على فرنر، فيرفع راحة يده ليحجبه.

يقترب فولكهايمر، وجهه الكبير الجزع يضغط أقرب. عينان واسعتان مألوفتان غائرتان تحت الخوذة. عظما الوجنة عاليان وأنف طويل أرنبته حمراء مثل العقد عند أسفل عظم الفخذ. ذقن مثل قارَّة. يمس فولكهايمر بعناية متوانية خدَّ فرنر. تتلون أصابعه بالأحمر على الفور.

يقول فرنر: «علينا الخروج، علينا أن نجد طريقاً آخر للخروج».

«الخروج؟». تقول شفتا فولكهايمر. يهزُّ رأسه. «ما من طريق آخر للخروج».

ثلاثة

حزيران 1940

قصر

بعد يومين على الفرار من باريس، تدخل ماري لور ووالدها بلدة إيفرو. كانت المطاعم إما مغلقة بألواح خشبية أو مزدحمة. امرأتان ترتديان ملابس السَّهرة تحدودبان جنباً إلى جنب على درج كاتدرائية. يتمدد رجل على بطنه بين أكشاك البيع، فاقد الوعي أو ربما في حالة أسوأ.

خدمات البريد متوقفة. خطوط البرق معطَّلة. يعود تاريخ أحدث الصُّحف إلى ما قبل ستٍّ وثلاثين ساعة. عند مقرِّ المحافظة، يقف الناس في طابور يمتد من الباب إلى حول المبنى، للحصول على قسائم البنزين.

أول فندقين ممتلئان. الثَّالث لن يفتح الباب. من آنٍ إلى آخر يضبط صانع الأقفال نفسه وهو يتلفت من حوله.

«أبي»، تدمدم ماري لور مرتبكة: «قدمي».

يشعل سيجارة، بقيت ثلاث فقط: «لم يعد بعيداً كثيراً الآن، ماري».

على الجهة الغربية من إيفرو، تقفر الطريق وتبدأ معالم الريف بالظهور. يتحقق مراراً من العنوان الذي أعطاه إياه المدير. السَّيد فرانسوا جيانو. 9 شارع سان نيكولا. لكن عندما يصلان إلى منزل السَّيد جيانو يجدانه يحترق. في الغسق السَّاكن تتصاعد أكوام مكفهرة من الدُّخان نحو الأعلى عبر الأشجار. ارتطمت سيارة بزاوية بوابة المنزل وخلعت البوابة عن

مفاصلها. المنزل فخم، أو ما بقي منه: عشرون نافذة فرنسية في الواجهة، مصاريع كبيرة مطلية حديثاً، أسيجة أنيقة في الواجهة. قصر فرنسي.

- أشمُّ رائحة دخان، أبي.

يقود ماري لور على الحصى. يشعر بازدياد ثقل الحقيبة، مع كل خطوة، أو ربما هو الحجر في داخلها. ما من برك صغيرة تلتمع في الحصى، ما من رجال مطافئ يحتشدون في المقدمة. جرتان مقلوبتان على الدَّرج الأمامي. ثريا متفجرة تنبسط عبر الدَّرج كله.

- ما الذي يحترق أبي؟

من الأصيل الدَّاخن، يتقدَّم منهما فتى، لا يفوق ماري لور عمراً، مبقع بالرماد، يدفع عربة طعام مدولبة عبر الحصى. ملاقط فضية ومعالق متدليَّة من العربة ترن وتصلصل، والعجلات تقعقع وتتخبط. ملاك مصقول صغير يكشِّر عند كل زاوية.

يقول صانع الأقفال: «هل هذا منزل فرنسوا جيانو؟».

لا يهتم الفتى للسؤال أو للسائل، وهو يمر.

- هل تعرف ما الذي حدث لـ..؟

تراجع قعقعة العربة.

تشد ماري لور حاشية معطفه: «أبي، من فضلك».

يبدو وجهها شاحباً ومذعوراً أكثر من أي وقت مضى، وهي ترتدي معطفها قرب الأشجار السَّوداء. هل سبق أن طلب منها الكثير؟

- احترق المنزل ماري. الناس يسرقون الأشياء.

- أي منزل؟

- المنزل الذي أتينا من أجله.

من فوق رأسها، يمكنه أن يرى بقايا أطر الباب المحترقة، تتقد وتخبو مع عبور النَّسيم. السَّماء المظلمة تُرى من فجوة في هياكل السَّقف.

ينبثق فتيان آخران من السُّخام، يحملان لوحة في إطار مذهَّب، يبلغ طولها ضعف طول قامتهما، وجه سلف راحل منذ زمن طويل يعبس في الليل. يرفع صانع الأقفال راحتيه ليوقفهما: «هل كانت الطائرات هي السبب؟».

يقول أحدهما: «هناك وفرة في الداخل». يتموج قماش اللوحة.

- هل تعرف أين يمكن أن نجد السَّيد جيانو؟

يقول الآخر: «هرب البارحة. مع البقية إلى لندن».

يقول الأول: «لا تخبره بشيء».

يهرول الفتيان على الدَّرب مع ما استوليا عليه وتبتلعتهما العتمة.

تهمس ماري لور: «لندن؟ صديق المدير في لندن؟».

تعدو صفائح من ورق مسوَّد قرب أقدامهما. تهمس ظلال في الأشجار. تتدحرج بطيخة صفراء منفجرة في الدَّرب مثل رأس مقطوع. يرى صانع الأقفال الكثير. طوال النَّهار، ميلاً بعد ميل، يستسلم لخياله الذي يوحي له أنهما سوف يُستقبلان بالطعام. حبَّات بطاطا صغيرة حارة اللب قد يغمس فيه -هو وماري لور- النّزر اليسير من الزُّبدة، بصل صغير وفطر وبيض مسلوق جيداً وصلصة البشاميل. قهوة وسجائر. قد يناول السَّيد جيانو الحجر، وجيانو قد يسحب نظارة نحاسية من جيب صدره، ويضع عدساتها على عينيه الهادئتين ويقول له: حقيقي أو مزيف. ثم قد يدفنه جيانو في الحديقة، أو يخفيه خلف لوح خفي في مكان ما في جدران بيته، وسوف ينتهي الأمر. أنجزت المهمَّة. لم يعد يهمني بعد الآن. ثم قد يعطى غرفة خاصَّة، يستحمَّان، ربما قد يغسل شخص ملابسهما. ربما

سيروي السَّيد جيانو قصصاً مضحكة عن صديقه المدير، وفي الصَّباح قد تغرد الطيور وصحيفة حديثة قد تعلن نهاية الغزو. ميزات منطقية. قد يعود إلى مكتب حفظ المفاتيح، يمضي أمسياته في تركيب نوافذ صغيرة ذات أطر في المنازل الخشبية الصَّغيرة. صباح الخير، صباح الخير. كل شيء كما كان.

لكن لا شيء كما كان من قبل. الأشجار تستشيط والمنزل يحترق من دون لهب، وواقفاً في الدَّرب المفروش بالحصى، ضوء النهار تلاشى تقريباً، تخطر لصانع الأقفال فكرة مشوشة: شخص ما قد يأتي من أجلنا. شخص ما قد يعرف ما أحمله. يقود ماري لور إلى الطريق مهرولاً.

- أبي، قدمي!

يجلب الحقيبة إلى صدره ويلف ذراعيها حول عنقه ويحملها على ظهره. يمران بالبوابة المهشَّمة والسَّيارة المحطمة، ولا يستديران شرقاً نحو مركز إيفرو، لكن غرباً. يمر أشخاص على دراجات هوائية. وجوه شاحبة يخطُّها الشَّك والخوف أو كلاهما. ربما الجزع في عيني صانع الأقفال.

تتوسل ماري لور: «لا تسرع كثيراً!».

يستريحان على العشب على بعد عشرين خطوة عن الطريق. حيث لا يوجد إلا الليل الذي بدأ ينسدل، وبوم ينادي من الأشجار، وخفافيش تلاحق حشرات فوق خندق جانب الطريق. يذكِّر صانع الأقفال نفسه، أن الماسة هي مجرد قطعة كربون ضغطت في باطن الأرض لدهور وسيقت إلى السَّطح في أنبوب بركاني. شخص ما سطَّحها، وآخر صقلها. لا يسعها أن تضمر لعنة، أكثر مما يمكن لورقة نبات أن تفعل، أو مرآة، أو حياة. هناك حظٌّ فقط في هذا العالم، حظ وفيزياء. بأيَّة حال ما يحمله ليس سوى قطعة زجاج، انحراف.

خلفه، فوق إيفرو، يلتهب جدار من السُّحب مرة، مرتين. برق؟ على الطريق قدماً، يمكنه أن يميِّز مساحة من الحشيش غير المجزوز، وملامح خفيفة لمباني مزرعة غير منارة - منزل وإسطبل. ما من حركة.

- ماري، أرى فندقاً.

- قلت إن الفنادق كانت ممتلئة.

- هذا الفندق يبدو مشجعاً. تعالي، إنه ليس ببعيد.

ثانية يحمل ابنته. مسافة نصف ميل آخر. نوافذ المنزل ما تزال مطفأة وهما يقتربان. يقع الإسطبل على بعد مئة ياردة في الخلف. يحاول أن يسترق السمع على الرغم من اندفاع الدم في أذنيه. ما من كلاب، ما من مشاعل. ربما هرب المزارعون أيضاً. يضع ماري لور أمام أبواب الإسطبل ويقرع بنعومة وينتظر ويقرع ثانية.

المزلاج جديد من ماركة «بورجيه» بقفل واحد، يفتحه بمعداته بسهولة. في الدَّاخل شوفان ودلاء ماء وذباب خيل يطير ناعساً، لكن ما من خيول. يفتح حجيرة ويساعد ماري لور أن تدخل الزاوية ويخلع حذاءها.

يقول: «انظري، أحد النُّزلاء جلب أحصنته للتو إلى البهو، لذا قد تفوح رائحتها للحظة. لكن الآن يسرع الحجَّاب لإخراجها. انظري، ها هو يمضي. وداعاً، يا حصان! اذهب إلى النوم في الإسطبل، من فضلك!».

يبدو عليها الشرود، الضياع.

بستان خضراوات خلف المنزل. في الظلمة يمكنه أن يميز زهوراً وكرَّاثاً وخساً. وفراولة، معظمها لا تزال غير ناضجة. جزر أبيض نضر وتراب أسود تكتَّل في أليافه. لا شيء يتحرك: ما من مزارع يظهر في نافذة مع بندقية. يعود صانع الأقفال بملء قميص من الخضار ويملأ دلواً صغيراً عند الحنفية ويفتح باب الإسطبل ويطعم ابنته في الظلمة. ثم يطوي

معطفه، يريح رأسها عليه، ويمسح وجهها بقميصه. بقي لديه سيجارتان. شهيق زفير.

سرٌ في دروب المنطق. كلُّ نتيجة لها سببها، وكل مأزق له حلُّه، كل قفل له مفتاح، يمكنك العودة إلى باريس أو يمكنك البقاء هنا، أو يمكنك مواصلة المضي. يسمع من الخارج نعيق بوم خافت. دمدمة رعد بعيد أو مدفع أو كلاهما.

يقول: «هذا الفندق رخيص جداً، يا عزيزتي. قال مدير الفندق خلف المكتب إن أجر غرفتنا كان أربعين فرنكاً في الليلة، لكنه عشرون فرنكاً إذا صنعنا أسرَّتنا». هو يصغي إلى نفَسها. «لذا قلت، إن في وسعنا أن نصنع أسرتنا. وقال، جيد، سوف أعطيكما بعض المسامير والخشب».

ماري لور لم تبتسم بعد: «الآن سوف نذهب للبحث عن العم إتيين؟».

- نعم، ماري.

- وهو مجنون بنسبة 76%؟

- كان مع جدك عندما توفي، أخوه. في الحرب. «دخل قليل من الغاز في الرأس»، هكذا كانوا يقولون. بعد ذلك بدأ يرى أموراً.

- أي نوع من الأمور؟

دمدمة رعد تصرُّ أقرب الآن. يرتعد الإسطبل قليلاً.

- أمور لم تكن موجودة.

عناكب تجرُّ شباكها بين الروافد. فراش يرفرف إزاء النوافذ. أخذت تمطر.

امتحان القبول

عقد امتحان الانتساب إلى المعاهد الوطنية السّياسية التربوية في إيسن، ثمانية عشر ميلاً جنوب زولفرين، داخل قاعة رقص قائظه، حيث ثلاثة مشعات تدفئة كل منها بحجم شاحنة وصلت بمقابس في الجدار الخلفي. واحد من المشعات يصلصل ويتبخّر طوال النهار، على الرغم من محاولات متعددة لإيقافه عن العمل. أعلام وزارة الحرب كبيرة بحجم صهاريج تتدلى من الروافد.

هناك مئة من الجنود الأغرار، كلهم فتيان. مندوب مدرسة في زي رسمي أسود يرتّبهم في صفوف، كل واحدة مؤلفة من أربعة. أوسمة ترن على صدره وهو يذرع المكان.

يعلن: «أنتم تحاولون دخول خيرة المدارس في العالم. سيستمر الامتحان ثمانية أيام. سوف نأخذ فقط الأنقى، والأقوى». يوزّع مندوب ثانٍ اللباس الرسمي: قمصان بيضاء، سراويل بيضاء قصيرة، جوارب بيضاء. يخلع الفتيان ملابسهم حيث يقفون.

يعدُّ فرنر ستة وعشرين آخرين في مجموعته العمرية. كلهم أطول منه قامةً ما عدا اثنين. كلهم شقر الشّعر ما عدا ثلاثة. ما من واحد منهم يرتدي نظارة. يمضي الفتيان ذلك الصّباح الأول كله في زيهم الأبيض الجديد،

يملؤون استبيانات على ألواح كتابة. ما من ضوضاء تحجب خربشة الأقلام وخطو الفاحصين وصليل مشعاع التدفئة الضَّخم.

أين ولد جدُّك؟ ما لون عيني والدك؟ هل عملت والدتك يوماً في مكتب؟ من بين مئة وعشرة سؤال عن نسبه، لا يستطيع فرنر أن يجيب بدقَّة إلا على ستة عشر. البقية مجرد تخمين.

من أين والدتك؟

ما من خيارات لصيغة الزمن الماضي. يكتب: ألمانيا.

من أين والدك؟

ألمانيا.

ما هي اللغات التي تتحدث بها والدتك؟

الألمانية.

يتذكَّر السَّيدة إلينا عندما ظهرت باكراً هذا الصَّباح، واقفة في قميص نومها إلى جانب مصباح الردهة، تبدي اهتماماً فائضاً بحقيبته، جميع الأطفال الآخرين نيام. بدت تائهة، منبهرة، كما لو أنها لم تتمكن من استيعاب كم كانت الأمور تتغير من حولها سريعاً. قالت إنها فخورة. قالت إن على فرنر أن يبذل قصارى جهده. «أنت فتى ذكي، سوف تبلي بلاء حسناً». ظلت تسّوي وتعيد تسوية ياقته. عندما قال: «إنه فقط أسبوع»، امتلأت عيناها ببطء كما لو أن فيضاناً داخلياً كان يغمرها تدريجياً.

في الأصيل، يجري الجنود الأغرار. يزحفون تحت حواجز، يؤدون تمرين الضَّغط، يتسلقون حبالاً متدلية من السَّقف - مئة طفل يمرون بليونة وتعاقب في زيهم الأبيض مثل قطيع من الماشية أمام أعين الفاحصين. فرنر يأتي في المرتبة التاسعة في الجري المكوكي. يحرز المركز قبل الأخير في تسلق الحبال. هو لن يكون جيداً بما يكفي أبداً.

في المساء، يندفع الفتيان نحو القاعة، يلتقي البعض بأهل فخورين يأتون في سيارات، يتوارى الآخرون بشكل هادف مثنى وثلاث في الشَّوارع: يبدو أنهم جميعاً يعرفون إلى أين هم ذاهبون.

يشقُّ فرنر طريقه وحيداً إلى نزل «سبارتان»، الذي يبعد مسافة ستة شوارع، حيث يستأجر سريراً مقابل ماركين اثنين في الليلة الواحدة، ويتمدد بين الجوَّالين المدمدمين ويصغي إلى الحمام والأجراس وحركة مرور إيسن المرتجفة. إنها أول ليلة يمضيها خارج زولفرين، ولا يمكنه التوقف عن التفكير في يوتا، التي لم تتحدث معه منذ أن اكتشفت أنه حطم الراديو. التي حدقت فيه وكثير من الاتهام في ملامحها، حتى أنه انبغى له أن يغضَّ طرفه. قالت عيناها: أنت تخونني، لكن ألم يكن يحميها؟

في صباح اليوم التَّالي يوجد امتحانات الانثروبولوجيا العرقية. يفرضون القليل على فرنر علاوة على أن يرفع ذراعيه أو يمنعهما من الطرف، بينما يضيء مراقب مصباحاً في نفقي بؤبؤي عينيه. يتعرَّق ويتزاح. قلبه ينبض بشكل غير معقول. يقيس متخصصٌ، لأنفاسه رائحة البصل في معطف المخبر، المسافةَ بين صدغي فرنر، ومحيط رأسه، وسماكة وشكل شفتيه. أدوات قياس السَّماكة مستعملة لتقييم أقدامه، وطول أصابعه، والمسافة بين عينيه وسرَّته. يقيسون عضوه. قيست زاوية أنفه بمنقلة خشبية. يقيس تقني ثانٍ لون عيني فرنر إزاء ميزان خاص بالألوان معروض عليه ما يقرب من ستين درجة من درجات اللون الأزرق. لون عيني فرنر أزرق سماوي. ليقيم لون شعره، يقص الرجل خصلة شعر من رأس فرنر ويقارنها مع ثلاثين خصلة أخرى مثبتة إلى لوح، مرتبة من الداكن إلى الأفتح. يدمدم الرجل: «ثلج» ويدوِّن ملاحظة. شعر فرنر أفتح من أفتح الألوان على اللوح. يفحصون بصره، يسحبون دمه، ويأخذون بصماته. بحلول الظهر يتساءل إذا بقي هناك أي شيء لم يفحصوه.

يأتي فحص شفهي لاحقاً. كم عدد المعاهد التعليمية السياسية الوطنية؟ عشرون. من هو أعظم الأولمبيين؟ لا يعرف. متى يصادف عيد ميلاد الفوهرر؟ 20 نيسان. من هم أعظم كتابنا، ما هي معاهدة فرساي، ما هي أسرع طيارة في الدولة؟

يحمل اليوم الثالث مزيداً من الجري، المزيد من التَّسلق، المزيد من القفز. كل شيء مؤقَّت. التقنيون، مندوبو المدرسة، والفاحصون - كل واحد منهم يرتدي زياً رسمياً تختلف درجات ألوانها اختلافاً دقيقاً - يخربشون على مساند كتابة من ورق بياني، المسافة بين سطورها ضيقة للغاية، وصفحة بعد أخرى من هذه الأوراق تحفظ في مجلدات جلدية بقفل ذهبي براق مدموغ على المقدمة.

يخمن الجنود الأغرار في همس متحمس.

- أسمع أن المدارس تملك مراكب شراعية، فن الصَّيد بالصقور، أماكن للتدرب على البنادق.

- أسمع أنهم سيأخذون فقط سبعة من كل مجموعة عمرية.

- سمعت أنهم أربعة فقط.

يتحدثون عن المدارس بتوق وتبجُّح، يريدون مستميتين أن يتم اختيارهم. يقول فرنر لنفسه: وأنا كذلك. وأنا كذلك. ومع ذلك في أوقات أخرى، على الرغم من مطامحه، تزوره لحظات من الدُّوار، يرى يوتا تحمل أجزاء الراديو المحطمة ويشعر بأن الشَّك ينسلُّ إلى أحشائه.

يتسلَّق الجنود الجدد الجدران، يؤدُّون نوعاً من التَّمارين الذي يتنقلون فيها من المشي إلى العدو السَّريع. يغادر ثلاثة في اليوم الخامس. في السَّادس، يستسلم أربعة آخرون. كل ساعة تبدو قاعة الرقص أنها تزداد دفئاً على نحو متصاعد، لذا بحلول اليوم الثَّامن، أشبع الهواء، الجدران،

والأرض برائحة الفتيان الحارة المحتشدة. من أجل اختبارهم الأخير، أرغم كل واحد من الفتيان الذين يبلغون من العمر أربعة عشرة عاماً على صعود سلَّم مثبَّت إلى جدار كيفما اتفق. وعندما تصل إلى القمة، التي ترتفع عن الأرض خمساً وعشرين قدماً، رؤوسهم في الروافد، من المفترض أن يقفزوا على منصة صغيرة، مغمضين أعينهم، وليمسكوا بعلم تحمله دستة من الجنود الجدد الآخرين.

أول الفتيان هو مزارع سمين من «هيرني». يتسلق السُّلم بسرعة كافية، لكن حالما يصل إلى المنصَّة عالياً فوق الجميع، يشحب وجهه، ترتعش ركبتاه على نحو خطر.

يتمتم أحدهم: «جبان».

يهمس الفتى بجانب فرنر: «يخشى المرتفعات».

ممتحن يراقب بشكل محايد. يسترق الفتى على المنصة النظر من فوق الحافَّة، كما لو نحو هاوية مدوِّمة، ويغمض عينيه. يتأرجح جيئة وذهاباً. تمر ثوانٍ لا نهاية لها. ينظر الفاحص إلى المؤقِّت. يتمسَّك فرنر بحافَّة العلم. سريعاً توقف الجميع في قاعة الرقص تقريباً ليشاهدوا، حتى الجنود الجدد في مجموعات عمرية أخرى. يتأرجح الفتى مرتين أخريين، إلى أن بدا واضحاً أنه على وشك أن يفقد وعيه. حتى حينها لم يتحرك أحد لمساعدته. عندما يقفز، يذهب جانبياً. يتمكَّن الجنود على الأرض من أرجحة العلم في الوقت المناسب، لكن ثقله يمزق الحافات من أيديهم، ويضرب الأرض بذراعيه أولاً بصوت مثل خبط قطع خشبية تكسر على الركبة. ينهض الفتى. كان ساعداه مائلين في زوايا مقززة. يطرف نحوهما بفضول للحظة، كما لو أنه يمسح ذاكرته بحثاً عن فكرة قد تشرح سبب وجوده هناك. ثمَّ يبدأ بالصُّراخ. يشيح فرنر نظره. أُمر أربعة فتيان بحمل المصاب إلى الخارج.

واحداً تلو آخر، يتسلَّق السُّلم باقي الفتيان البالغين من العمر أربعة عشر عاماً، ويرتجفون ويقفزون. واحد ينشج طوال الطريق. آخر يلوي كاحله عندما يرتطم. الثاني ينتظر على الأقل دقيقتين قبل أن يقفز. الفتى الخامس عشر يتطلع عبر قاعة الرقص، كما لو أنه يحدق في بحر بارد كئيب، ثمَّ يعود أدراجه.

يشاهد فرنر من مكانه على العلم. عندما يحين دوره، يقول لنفسه إنه ليس عليه أن يتردد. على الجانب السُّفلي لجفنيه يرى مصنوعات الحديد المتشابك في زولفرين، المصانع تنفث النَّار، رجال يحتشدون خارجين من مداخل مصعد كالنمل، فم «بيت ناين» حيث فقد والده. يوتا في نافذة الردهة المغلقة، خلف المطر، تراقبه يتبع العريف إلى منزل السَّيد سيدلر. طعم القشدة المخفوقة ومسحوق السُّكر وبطتا ساقي زوجة السَّيد سيدلر الناعمتين.

استثنائي. غير متوقع.

سوف نأخذ الأكثر نقاء والأقوى فقط.

المكان الوحيد الذي سيذهب إليه شقيقك أيتها الفتاة الصَّغيرة هو المناجم.

يسرع فرنر على السُّلم. الدرجات تم نشرها بخشونة، وتدخل في راحتيه نثرات طوال الطريق. من الأعلى، يبدو العلم القرمزي بصليبه المدوَّر الأبيض والأسود صغيراً على نحو غير متوقَّع. حلقة شاحبة من الوجوه تحدِّق. الحرارة أكثر ارتفاعاً هنا، متَّقدة، ورائحة العرق تجعل رأسه خفيفاً.

من دون تردد، يخطو فرنر نحو حافَّة المنصَّة ويغمض عينيه ويقفز. يصيب العلم في المركز تماماً، والفتيان الممسكين بحافاته يصدرون تأوهاً

جماعياً. يتدحرج على قدميه، غير مصاب. الفاحص يقرقع ساعة التوقيت، ويخربش على أوراقه، يرفع بصره. تلتقي عيونهما لنصف ثانية، ربما أقل، ثمَّ يعود الرجل إلى ملاحظاته.

يصرخ فرنر: «هايل هتلر!».

يصعد الفتى التالي السُّلم.

بريتاني

في الصَّباح، تتوقَّف شاحنة أثاث قديمة من أجلهما. يرفعها والدها إلى سريرها، حيث يستريح اثنا عشر شخصاً تحت قماش من الخيش المشمَّع. يهدر المحرك ويفرقع، نادراً ما تزيد الشَّاحنة سرعتها عن سرعة المشي.

تصلِّي امرأة بلكنة نورماندية، شخص يشاطر الآخرين الباتِّيه[1]، كل شيء يعبق برائحة المطر. ما من طائرات هجومية ألمانية «ستوكا» تتهافت عليهم، ولا رشاشات تستعر. لم يسبق لأحد في الشَّاحنة أن رأى ألمانياً. طوال منتصف الفترة الصَّباحية، تحاول ماري لور أن تقنع نفسها أن الأيام السَّابقة كانت نوعاً من اختبار متقن لفَّقه والدها، وأن الشَّاحنة لا تبتعد عن باريس، بل تتجه نحوها، وأنهما الليلة سوف يعودان إلى البيت. المجسَّم سيكون على نضده في الزاوية، وسلطانية السُّكر وسط طاولة المطبخ، تستكين ملعقتها الصَّغيرة على الحافَّة. خارج النَّوافذ المفتوحة، بائع الجبنة في شارع «دي باتريرش» سوف يقفل بابه ويغلق المصاريع على تلك الروائح البديعة، كما فعل كل مساء تتذكره تقريباً، وأوراق شجرة الكستناء سوف تخشخش وتدمدم، ووالدها سوف يغلي القهوة ويعدُّ حماماً ساخناً ويقول: «لقد أبليت بلاء حسناً ماري لور. أنا فخور بك».

---

(1) «معجون كبد الإوز». (م).

تثب الشَّاحنة من طريق سريع إلى درب ريفي إلى زقاق قذر. تحفُّ الأعشاب بجانبيها. بعد انتصاف الليل بفترة طويلة، غرب كانكال، ينفد الوقود.

يهمس والدها: «لم يبقَ أمامنا الكثير».

تسير ماري لور بتثاقل شبه نائمة. يبدو الطَّريق بالكاد أعرض من درب. للهواء رائحة أشبه برائحة حبوب قمح رطبة وقُلامات سياج، في الهدوء المؤقَّت بين وقع أقدامهما، يمكنها أن تسمع هديراً عميقاً دون سرعة الصَّوت تقريباً. تشد والدها كي يتوقف.

- جيوش.

- المحيط.

تميل برأسها.

- إنه المحيط ماري. صدقيني.

يحملها على ظهره. الآن صياح النَّوارس. رائحة أحجار رطبة، ذرق الطيور، الملح، على الرغم من أنها لم تعرف يوماً أن للملح رائحة. يهمهم البحر بلغة تسافر عبر الأحجار، الهواء، والسَّماء. ما الذي قاله القبطان نيمو؟ لا ينتمي البحر إلى الطُّغاة.

يقول والدها: «نحن نعبر إلى سان مالو الآن، الجزء الذي يسمونه المدينة ضمن الجدران». يحدِّثها بما يراه: شباك حديدية، جدران دفاعية تدعى الأسوار، صروح من حجر الغرانيت، برج كنيسة يعلو فوق سقوف البيوت. يرتد وقع قدميه عن المنازل العالية ويرجع منهمراً عليهما ويجهد تحت ثقلها، وهي كبيرة بما فيه الكفاية لتشكك في أن ما يصفه بالجذَّاب والمرحِّب قد يكون في الحقيقة مؤلماً ومحزناً.

تصدر الطيور صرخات مخنوقة فوق الرؤوس. ينعطف والدها يساراً.

يبدو لماري لور كما لو أنهما التفا هذه الأيام الأربعة الماضية نحو مركز متاهة محيِّرة، والآن هما يتسللان بمحاذاة خفراء حجرة داخلية صغيرة أخيرة. قد يكون نائماً في داخلها وحش رهيب.

يقول والدها لاهثاً: «شارع فوبوريل. هنا، لا بد أن يكون. أو هناك؟» يستدير، ينقلب على عقبيه، يصعد زقاقاً، ثمَّ يستدير.

- أليس من أحد تسأله؟

- ما من ضوء واحد ماري، الجميع نيام، أو يتظاهرون بذلك.

أخيراً يصلان إلى بوابة، وينزلها على حجر رصيف ويضغط على جرس كهربائي، ويمكنها سماعه يرن عميقاً في داخل المنزل. لا شيء، يضغط ثانية، وثانية لا شيء. يضغط للمرة الثالثة.

- هذا منزل عمِّك؟

- نعم.

- هو لا يعرفنا.

- إنه نائم. كما ينبغي أن نكون نحن نائمين.

يجلسان وظهريهما إلى البوَّابة. حديد مطاوع وبارد. باب خشبي ثقيل خلفها تماماً. تريح رأسها على كتفه، يخلع حذاءها. يبدو العالم أنه يتأرجح برفق جيئة وذهاباً، كما لو أن البلدة تنجرف بعيداً بخفَّة. كما لو أن فرنسا كلها غادرت نحو الشَّاطئ، لتقضم أظافرها وتهرب وتتعثر وتبكي وتستيقظ على فجر رمادي خدر، عاجزة عن تصديق ما يحدث.

من يمتلك الطرق الآن؟ والحقول؟ الأشجار؟

يخرج والدها سيجارته الأخيرة من جيب قميصه ويشعلها. من عمق داخل المنزل خلفهما يسمع وقع أقدام.

السَّيدة مانِك

ما إن لفظ والدها اسمه، أصبحت الأنفاس على الجانب الآخر من الباب محبوسة لاهثة، تزعق البوابة، ينزاح باب خلفها.

يقول صوت امرأة: «يا أمَّ يسوع. كنت صغيرة جداً...».

- ابنتي، يا سيدتي. ماري لور، هذه السَّيدة مانِك.

تحاول ماري لور أن تنحني احتراماً. اليد التي تلمس خدَّها قوية: يد جيولوجي أو بستاني.

- يا إلهي، لا يعجز القدر عن جمع شمل أي شيء مهما كان بعيداً. لكن، يا طفلتي العزيزة، جواربك. وكعباك! لا بد من أنَّك جائعة.

يدخلان عبر باب ضيِّق. تسمع ماري لور صليل البوَّابة وهي تغلق، ثمَّ تقفل المرأة الباب من خلفهما. قفلان اثنان، سلسلة واحدة. يقادان إلى غرفة تفوح منها رائحة أعشاب وعجينة مختمرة: مطبخ. يفكُّ والدها أزرار معطفها ويساعدها على الجلوس.

يقول: «نحن ممتنان للغاية، أفهم أن الوقت متأخر كثيراً». ومن الواضح أن المرأة المسنة، السَّيدة مانِك، وهي نشيطة، بارعة، تتغلَّب على دهشتها الأولية، تتجاهل عبارات الشُّكر، تدفع كرسي ماري لور نحو سطح الطاولة. تشعل عود ثقاب، ماء يملأ قدراً، ثلاجة تنفتح وتنغلق. هناك همهمة غاز

وطقطقة المعدن السَّاخن. في لحظة أخرى، منشفة دافئة على وجه ماري لور. إبريق ماء بارد عذب أمامها. كل رشفة هي بركة.

أوه، البلدة قطعاً مزدحمة حتى التخمة». تقولها السَّيدة مانِك متشدقة وهي تتحرك في المكان. تبدو قصيرة القامة، ترتدي حذاء ثقيلاً وضخماً. صوتها خفيض مليء بالحصى - صوت بحار أو مدِّخن. «البعض يمكنهم الإقامة في الفنادق أو استئجار البيوت، لكن الكثيرين في العنابر، على القش، لا يملكون ما يكفي لشراء قوت يومهم. كنت لأستقبلهم، لكن عمك كما تعلم قد ينزعج. ما من ديزل، ما من كيروسين، السُّفن البريطانية مضت منذ زمن بعيد. لقد أحرقوا كل ما خلفوه وراءهم، في البداية لم أستطع تصديق أي من هذا، لكن كان مذياع إيتيين يعمل من دون توقُّف...».

بيض يكسر. زبدة تفرقع في مقلاة ساخنة. يروي والدها قصَّة هربهما بإيجاز، محطات القطار، حشود خائفة، مُغفِلاً التَّوقف في إيفرو، لكن سرعان ما تستحوذ الروائح المنتشرة من حولها على اهتمام ماري لور: بيض، سبانخ، جبنة ذائبة. تصل عجَّة البيض. تثبت وجهها فوق بخارها المتصاعد.

- هل يمكنني الحصول على شوكة؟

تضحك المرأة المسنة: ضحكة تسرُّ لها ماري لور في الحال. وسرعان ما وضعت شوكة في يدها.

للبيض مذاق يشبه السُّحب. مثل ذهب مغزول. تقول السَّيدة مانِك: «أظنُّ أنها تحبه». وتضحك ثانية.

يظهر طبق آخر من العجَّة سريعاً. الآن والدها هو الذي يسرع في تناول الطعام.

تدمدم السَّيدة مانِك: «ماذا عن الخوخ يا عزيزتي؟» ويمكن لماري لور

سماع صوت علبة تفتح، عصير يصبُّ في قدر. بعد ثوان هي تأكل أوتاداً من ضوء شمس رطب.

يدمدم والدها: «ماري، أين تهذيبك؟».

- لكنها...

- لدينا الكثير، أكملي يا طفلتي. أنا أحضِّرها كل سنة.

بعدما أتت ماري لور على علبتين كاملتين من الخوخ، تنظف السَّيدة مانِك قدمي ماري لور بخرقة، وتنفض معطفها، وتضع الأطباق في المغسلة، وتقول: «سيجارة؟»، ويتأوَّه والدها ممتناً وعود ثقاب يتوهَّج، والبالغان يدخنان.

ينفتح باب أو نافذة وماري لور يمكنها سماع صوت البحر المنوِّم.

يقول والدها: «وإيتيين؟».

تقول السَّيدة: «يحبس نفسه في يوم مثل جثَّة، يأكل مثل طائر القطرس في اليوم التالي».

- هو لا يزال...؟

- ليس منذ عشرين عاماً.

ربما يتكلَّم الكبار أكثر مع بعضهم البعض. ربما على ماري لور أن تكون أكثر فضولاً بشأن عمِّها الذي يرى أشياء لا وجود لها، عن قدر كل شخص وكل ما عرفته يوماً - لكن معدتها ممتلئة، أصبح دمها تياراً ذهبياً دافئاً يجري عبر شرايينها، ومن النافذة المفتوحة، خلف الجدران، يتحطَّم المحيط، فقط مقدار ضئيل من حجر مكدَّس بقي بينها وبينه، حافَّة بريتاني، عتبة النَّافذة الأبعد لفرنسا - وربما الألمان يتقدمون بعناد حمم بركانية، لكن ماري لور تنزلق فيما يشبه الحلم، أو ربما هي ذكرى:

هي بعمر السَّادسة أو السَّابعة، فقدت بصرها مؤخراً ووالدها جالس في

الكرسي بجانب سريرها، يبري قطعة صغيرة من الخشب، يدخِّن سيجارة، والمساء يهبط على مئة ألف سقف باريسي ومدخنة، وجميع الجدران من حولها تسيل، السُّقوف أيضاً، تتحلَّل المدينة برمَّتها إلى دخان، وأخيراً يهبط النَّوم عليها مثل ظل.

تم استدعاؤك

يرغب الجميع في سماع قصص فرنر. كيف كانت الامتحانات؟ ما الذي جعلوك تفعله؟ أخبرنا كل شيء. يشدُّ الأطفال الأصغر سناً كمَّيه، يبدي الأكبر سناً احتراماً. هذا الحالم ذو الشَّعر الأبيض كالثلج اقتلع من السُّخام.

- قالوا إنهم سيقبلون فقط اثنين من مجموعتي العمرية. ربما ثلاثة.

من الطرف القصي للطاولة، يمكنه أن يشعر بدفء اهتمام يوتا. بما بقي من نقود السَّيد سيدلر، اشترى جهاز استقبال «الشَّعب» مقابل 34.18 ماركاً: راديو بدسَّامين ذو طاقة منخفضة حتى أرخص ثمناً من أجهزة «فولكسمفينجر» المدعومة من الدولة التي أصلحها في منازل الجيران. غير معدَّل، يمكن لمستقبله أن يلتقط البرامج محلية النِّطاق فقط، التي تبثُّ على الموجات الكبيرة الطويلة من محطة «دوتشلاندزيندر». لا شيء آخر. لا شيء أجنبي.

يصرخ الأطفال مبتهجين، عندما يعرضه. لا تبدي يوتا اهتماماً. يسأل مارتين زاكسي: «هل كان هناك الكثير من الرياضيات؟».

«هل كان هناك جبنة؟ هل كان هناك كعك؟».

«هل جعلوك ترمي بالبندقية؟»

«هل ركبت الدبابات؟ أراهن أنك ركبت دبابات».

يقول فرنر: «لم أعرف أجوبة نصف أسئلتهم، لن أُقبل أبداً».

لكن ذلك حدث. بعد خمسة أيام على عودته من إيسن، سلمت الرسالة باليد إلى منزل الأطفال. نسر وصليب على مغلّف مغضَّن. ما من طابع. مثل إرسالية من الله. السَّيدة إلينا تغسل. الفتية الصغار يتحلقون حول الراديو الجديد: برنامج مدته نصف ساعة يدعى «نادي الأولاد». يوتا وكلوديا فورستر اصطحبن ثلاثاً من الفتيات الأصغر سناً إلى عرض للدمى المتحركة في السُّوق، يوتا لم تتحدث بما يزيد عن ست كلمات مع فرنر منذ عودته.

تقول الرسالة: تم استدعاؤك، على فرنر الحضور إلى معهد التربية السياسي الوطني رقم 6 في «شولبفورتا».

هو يقف في بهو منزل الأطفال، يحاول أن يستوعب الأمر. جدران متصدِّعة، سقوف متراخية، مقاعد متماثلة تلك التي حملت طفلاً بعد آخر طويلاً منذ أن بدأ المنجم بحرمان الأطفال من آبائهم. لقد وجد مخرجاً.

شولبفورتا. نقطة صغيرة على الخارطة، قرب نومبورغ، في ساكسونيا. مئتا ميل شرقاً. فقط في أكثر أحلامه جرأة سمح لنفسه أن يأمل أنه قد يجتاز هذه المسافة. يحمل الورقة مبهوراً إلى الزقاق حيث تغلي السَّيدة إلينا الملاءات وسط كتل من البخار. هي تعيد قراءتها مرات عديدة: «لا يمكننا أن ندفع».

– لسنا في حاجة إلى ذلك.

– كم تبعد؟

– خمس ساعات بالقطار. لقد دفعوا الآن ثمن التذكرة.

– متى؟

– بعد أسبوعين.

السَّيدة إلينا: خصل من الشَّعر عالقة على خدَّيها، هالات كستنائية اللون تحت عينيها، حواف زهرية حول منخريها. صليب رفيع على حنجرتها الرطبة. هل هي فخورة؟ تمسح عينيها وتومئ غافلة.

«سوف يحتفلون بهذا». تعيد الرِّسالة وتحدِّق نحو الزُّقاق في صفوف حبال الغسيل الثَّخينة وصناديق الفحم.

- من سيدتي؟

- الجميع. الجيران.

تضحك ضحكة مفاجئة مجفلة.

- النَّاس يحبون نائب الوزير ذاك. الرجل الذي أخذ كتابك.

- ليس يوتا.

- لا، ليس يوتا.

يتدرَّب ذهنياً على الحجج التي سوف يحدِّث بها أخته. «فليخت»، تعني الواجب. إلزام. كل ألماني يقوم بوظيفته. انتعل جزمتك واذهب إلى العمل آين فولك، آين رايخ، آين فوهرر[1] جميعنا لدينا أدوار لنؤديها، يا أختي الصَّغيرة. لكن قبل وصول الفتيات، ترددت أخبار قبوله عبر الشَّارع. يحضر الجيران واحداً بعد الآخر ويهتفون ويهزُّون ذقونهم برضا. زوجات العمَّال يجلبن عراقيب الخنازير والجبن، يتبادلن رسالة قبول فرنر، النساء اللاتي يعرفن القراءة، يقرأنها على أسماع تينك اللواتي لا يُجدن القراءة، وتصل يوتا إلى البيت وتدخل غرفة مكتظَّة مبهجة. التوأم - هانا وسوزان جيرليتز - تعدوان بسرعة حول الأريكة، وقد انخرطتا في الإثارة، ورولف هوبفاور البالغ من العمر ست سنوات يغني: علٍّ! علٍّ! كل المجد لأرض الأجداد! وينضم عدد من الأطفال الآخرين إليه، وفرنر لا يرى السَّيدة إلينا

(1) شعب واحد، إمبراطورية واحدة، قائد واحد.

وهي تتحدث مع يوتا في زاوية الردهة، ولا يرى يوتا تعدو إلى الطابق الأعلى.

عندما يرنُّ جرس العشاء، لا تنزل. تطلب السَّيدة إلينا من هانا جيرليتز أن تتلو صلاة، وتخبر فرنر أنها سوف تتحدث إلى يوتا، وأن عليه أن يبقى في الطابق الأرضي، كل هؤلاء الناس هنا من أجله. كل بضعة أنفاس، تضطرم الكلمات في عقله مثل شرارات: لقد تمَّ استدعاؤك. مع كل دقيقة تمر يتناقص ما بقي له من زمن في هذا المنزل. في هذه الحياة.

بعد الوجبة، يدور الصَّغير زيغفريد فيشر، وهو لا يتجاوز عمره خمس سنوات، حول الطاولة ويشدُّ كمَّ فرنر ويناوله صورة مزَّقها من صحيفة. في الصُّورة ست قاذفات قنابل تطير فوق سلسلة جبلية من السُّحب. حبيبات الشَّمس المتلألئة تجمَّدت في أثناء انزلاقها عبر هياكل الطَّائرات. أوشحة الطيارين تنبسط إلى الوراء.

يقول زيغفريد فيشر: «سوف تريهم، أليس كذلك؟». تعابير الإيمان على وجهه، تشكل حلقة من جميع السَّاعات التي أمضاها فرنر في منزل الأطفال، آملاً بالمزيد.

يقول فرنر وعيون جميع الأطفال مشدودة إليه: «سأفعل. بالتأكيد سأفعل».

احتلال

تستيقظ ماري لور على صوت أجراس الكنيسة: اثنان ثلاثة أربعة خمسة. رائحة عفونة خفيفة. وسائد محشوّة بالريش عتيقة الطراز بليت مع الطابق العلوي بكامله. ورق جدران حريري خلف السَّرير المتكتل حيث تجلس. عندما تمط ذراعيها، تكاد تمس الجدران على كلا الجانبين.

صدى الأجراس ينقطع. لقد نامت طوال اليوم تقريباً.

ما هذا الهدير المكتوم الذي تسمعه؟ حشود؟ أو هو لا يزال البحر؟ تضع قدميها على الأرض. تنبض الجراح على مؤخّرة كعبيها. أين عصاها؟ تخطو متثاقلة كي لا ترتطم قصبتا ساقيها بشيء ما. خلف السَّتائر، نافذة ترتفع بعيدة عن متناولها. مقابل النافذة تجد خزانة ملابس أدراجها لا تنفتح إلا جزئياً قبل أن تصطدم بالسَّرير.

الطَّقس في هذا المكان: يمكنك أن تشعر به بين أصابعك.

تتلمس طريقها عبر بوابة نحو ماذا؟ قاعة؟ هنا الهدير أكثر خفوتاً، بالكاد دمدمة.

- مرحباً؟

هدوء. ثمَّ نشاط في الأسفل، صوت ضربات الحذاء الثقيل للسيدة مانِك وهي تصعد عدداً من درجات ضيقة مقوَّسة، رئتاها المدخنتان

تقتربان، الطابق الثَّالث، الرابع - كم يبلغ ارتفاع هذا المنزل؟ - الآن صوت السَّيدة ينادي: «يا آنسة» وتمسكها من يدها وتعيدها إلى الغرفة التي استيقظت فيها، وتجلسها على حافَّة السَّرير. «هل أنت في حاجة إلى الذهاب إلى المرحاض؟ لا بد من أن تكوني كذلك، ثمَّ الحمَّام، لقد نمت نوماً رائعاً، والدك في البلدة ذهب إلى مكتب البريد، ولو أني أكدت له أن هذا الأمر عديم الجدوى، مثل محاولة التقاط ريشة غارقة في الدبس. هل أنت جائعة؟».

تعيد السَّيدة مانِك ترتيب الوسائد، تنفض اللحاف. تحاول ماري لور أن تركِّز على شيء صغير، شيء متماسك. المجسَّم في باريس. صدفة مفردة في مختبر الدكتور جيفار.

- هل يملك عمي إيتيين هذا المنزل برمته؟

- كلَّ غرفة.

- كم دفع ثمناً له؟

تضحك السَّيدة مانِك: «هذا ما تهدفين إليه، ألست كذلك؟ ورث عمك المنزل من والده، الذي كان جد والدك. كان رجلاً ناجحاً للغاية ويملك الكثير من النقود».

- هل كنت تعرفينه؟

- لقد عملت هنا منذ أن كان السَّيد إيتيين فتى صغيراً.

- جدِّي أيضاً؟ عرفته؟

- نعم.

- هل سألتقي بالعم إيتيين الآن؟

تتردد السَّيدة مانك: «ربما لا».

- لكن هل هو هنا؟

- نعم طفلتي هو دوماً هنا.

- دوماً؟

حضنتها يدا السَّيدة مانك الكبيرتان السَّميكتان.

- لنرَ أمر الحمَّام، سوف يشرح والدك عندما يعود.

- لكن أبي لن يشرح شيئاً. هو يقول فقط إن العم كان في الحرب مع جدي.

- هذا صحيح. لكن عمُّك عندما عاد إلى البيت... (تفتش السَّيدة عن عبارة مناسبة) لم يعد كما كان عند مغادرته.

- أنت تعنين أنه كان خائفاً أكثر من أمر ما؟

- أعني تائهاً. فأر في فخ. رأى موتى يمرون عبر الجدران. أموراً رهيبة في زوايا الشَّوارع. الآن عمُّك لا يخرج من البيت.

- أبداً؟

- لسنوات. لكن إيتيين أعجوبة، سوف ترين. إنه يعرف كل شيء.

تصغي ماري لور إلى خشب المنزل يصدر صريراً والنَّوارس تزعق والهدير الخفيف يتكسَّر عند النافذة.

- هل نحن في مكان مرتفع، سيدتي؟

- نحن في الطابق السَّادس. إنه سرير جيد، أليس كذلك؟ فكرت أنك ووالدك سيكون في مقدوركما الراحة هنا.

- هل النافذة مفتوحة؟

- هي مفتوحة، عزيزتي. لكن ربما من الأفضل أن نتركها موصدة بينما...

ماري لور واقفة الآن على السَّرير تمرر راحتيها على الجدار. «هل يمكن للمرء أن يرى البحر منها؟».

«من المفترض أن نبقي المصاريع والنوافذ مغلقة. لكن ربما فقط لدقيقة». تدير السَّيدة مانك مقبضاً، تشد اللوحين المعلَّقين من النَّافذة، وتفتح المصراع. ريح: فورية، ساطعة، عذبة، مالحة، مضيئة. الهدير يعلو ويهبط.

- هل هناك حلزونات في الخارج، سيدتي؟

- «حلزونات؟ في المحيط؟» تضحك ثانية بالطريقة نفسها. «بعدد قطرات المطر. هل أنت مهتمَّة بالحلزونات؟».

- نعم نعم نعم. وجدت حلزونات أشجار وحلزونات حديقة. لكني لم أجد يوماً حلزونات بحريَّة.

تقول السَّيدة مانك: «حسناً. لقد وصلت إلى المكان المناسب».

تملأ السَّيدة حوض الطابق الثَّالث بمياه دافئة. من الحوض، تصغي ماري لور إليها تغلق الباب، والحمام المحتشد يتأوَّه تحت ثقل الماء، والجدران تصدر صريراً، كما لو أنها كانت في مقصورة داخل غوَّاصة القبطان نيمو. تلاشى الألم في كعبيها. تخفض رأسها تحت مستوى الماء. لن تخرج أبداً! لتختفي لعقود داخل هذا المنزل الضَّيق الغريب!

على العشاء تم إلباسها فستاناً رسمياً يعود إلى زمن غابر. يجلسون إلى طاولة المطبخ المربعَّة، والدها والسَّيدة مانِك قبالة بعضهما البعض، الركب تلامس الركب، نوافذ مغلقة بإحكام، الدَّرفات مسدلة. جهاز لاسلكي يدمدم بأسماء وزراء بصوت مسرع متقطِّع - «دو غول» في لندن، «بيتيان» سدَّ مسد «رينو». يأكلون السَّمك المطهو مع الطماطم الخضراء. يقول والدها إنه ما من رسائل أرسلت أو تم استلامها منذ ثلاثة أيام. خطوط البرق معطَّلة. أحدث أعداد الصُّحف صدر منذ ستة أيام. على الراديو، يقرأ المذيع إعلانات الخدمة العامة المبوبة.

السَّيد «شيمينو» اللاجئ في «أورانج» يبتغي أطفاله الثلاثة، المتروكين مع أمتعة في «ايفري سور سين».

فرنسيس في جنيف يبتغي أية معلومات عن ماري جين، التي شوهدت آخر مرة في جينتيلي.

ترسل الأم صلواتها إلى لوك وألبرت، أينما كانا.

ينشد «ل.رابيه» أخباراً عن زوجته التي شوهدت آخر مرة في «جيردورساي».

يريد «أ. كوتيريه» أن تعرف أمه أنه بخير في «لافال».

تبحث السَّيدة «ميزيو» عن مكان بناتها الست اللاتي أرسلن على متن القطار إلى «رودون».

تتمتم السَّيدة مانِك: «الجميع فقد شخصاً»، ووالد ماري لور يطفئ جهاز اللاسلكي والأنابيب تطقطق بينما تنخفض حرارتها. في الأعلى، يواصل الصَّوت نفسه تلاوة أسماء بخفوت. أو هو خيالها؟ تسمع السَّيدة مانِك تقف وتجمع الأطباق، ووالدها يزفر دخان سيجارة كما لو أنه يثقل رئتيه، وهو سعيد بالتخلُّص منه.

صعدت تلك الليلة هي ووالدها الدَّرج اللولبي وذهبا إلى النوم جنباً إلى جنب على نفس السَّرير المتكتل في غرفة نوم الطَّابق السَّادس نفسها بورق الجدران الحريري المهترئ. يصدر والدها ضجة وهو يعبث بحقيبة الظهر، وقفل الباب، وأعواد الثِّقاب. وسرعان ما تشمُّ رائحة سجائره المألوفة: غولواز الأزرق. تسمع فرقعة الخشب وتأوهه، عندما ينفتح شطرا النَّافذة.

يندفع عزيف الريح المرحِّب إلى الغرفة، أو ربما هو البحر والريح، أذناها عاجزتان عن تمييزهما الواحد عن الآخر. معه تأتي روائح الملح

والتِّبن وأسواق السَّمك ومسيرات بعيدة، وبالتأكيد لا شيء يفوح برائحة الحرب بالنسبة إليها.

- هل يمكننا أن نزور المحيط غداً أبي؟

- ليس غداً على الأغلب.

- أين العم إيتيين؟

- أتوقَّع أنه في غرفته في الطابق الخامس.

- يرى أموراً غير موجودة؟

- نحن محظوظان به ماري.

- محظوظان أن تكون هنا السَّيدة مانِك أيضاً. هي نابغة في تحضير الطَّعام، أليست كذلك أبي؟ هي ربما تتفوق عليك في الطهو قليلاً؟

- فقط قليلاً.

تنشرح ماري لور لسماع ابتسامة في صوته. لكن تحتها، يمكنها أن تشعر بأفكاره تصطفق كما تصطفق أجنحة طيور وقعت في فخ.

- ماذا يعني أنهم سوف يحتلوننا، أبي؟

- يعني أنهم سوف يركنون شاحناتهم في السَّاحات.

- سوف يجعلوننا نتحدث بلغتهم؟

- ربما قد يجعلوننا نقدم ساعاتنا ساعة واحدة.

يصدر المنزل صريراً. النَّوارس تزعق. يشعل سيجارة أخرى.

- هل هو مثل «مهنة»[1] أبي؟ مثل نوع العمل الذي يقوم به شخص؟

- إنه مثل حكم عسكري ماري، يكفي أسئلة الآن.

هدوء. عشرون دقة قلب، ثلاثون.

---

(1) لكلمة occupation معنيان: احتلال، ووظيفة. (م).

- كيف يمكن لبلد أن يجعل آخر يغيِّر ساعاته؟ ماذا لو رفض الجميع؟

- عندئذٍ، سيكون الكثير من الناس إما مبكرين، أو متأخرين.

- هل تتذكر شقتنا أبي؟ وكتبي ومجسَّمنا وجميع أكواز الصَّنوبر تلك على عتبة النَّافذة؟

- بالتأكيد.

- لقد صففت أكواز الصَّنوبر من الأكبر حجماً حتى الأصغر حجماً.

- هي لا تزال هناك.

- أتظن ذلك؟

- أعرف ذلك.

- لا تعرف ذلك.

- لا أعرف ذلك، لكني أؤمن به.

- هل يصعد الجنود الألمان على أسرتنا الآن أبي؟

- لا.

تحاول ماري لور أن تستلقي بهدوء شديد. يمكنها، تقريباً، سماع آلات عقل والدها تخضخض داخل جمجمته.

تهمس: «سيكون كلُّ شيء بخير». تعثر يدها على زنده: «سوف نبقى هنا إلى حين، ثمَّ سنذهب إلى شقتنا، وسوف تكون أكواز الصَّنوبر حيث تركناها تماماً، وستكون رواية «عشرون ألف فرسخ تحت سطح البحر» على أرض مكتب حفظ المفاتيح حيث تركناها، ولن يكون أحد على أسرتنا».

نشيد البحر البعيد. طقطقة كعبي جزمة شخص ما على الحصى في الأسفل. ترغب بشدة في أن يقول والدها: نعم لا محالة، يا عزيزتي. لكنه لا يقول شيئاً.

لا تروِ الأكاذيب

لا يمكنه التركيز على الواجب المدرسي أو على محادثات بسيطة أو مهمات السَّيدة إلينا الروتينية. كلَّما أطبق جفنيه، تتغلَّب عليه بعض الرؤى من مدرسة شولبفورتا: أعلام حمراء زاهية، أحصنة مفتولة العضلات، مختبرات لامعة. أفضل الفتيان في ألمانيا. في لحظات بعينها، يرى نفسه رمزاً للقدرة، التفتت نحوه عيون الجميع. مع ذلك في لحظات أخرى، وامضاً أمامه، يرى الطفل الضَّخم من امتحانات الدُّخول: شحب وجهه فوق المنصَّة عالياً، فوق قاعة الرقص. كيف سقط. كيف لم يتحرك أحد لمساعدته.

لماذا لا تستطيع يوتا أن تسعد من أجله؟ لماذا، حتى في لحظة هربه، لا بد من أن يدمدم تحذيراً لا يفسَّر في منطقة نائية من عقله؟

يقول مارتن زاكسي: «أخبرنا ثانية عن القنابل اليدوية!».

يقول زيغفريد فيشر: «والصَّيد بالصُّقور!».

يعيد حجَّته ثلاث مرات، وثلاث مرَّات تدير يوتا له ظهرها وتبتعد مسرعة. ساعة تلو أخرى، تساعد السَّيدة إلينا مع الصِّغار، أو تذهب إلى السُّوق، أو تجد عذراً ما لتكون عوناً، لتكون منشغلة، لتكون في الخارج.

يقول فرنر للسيدة إلينا:

- هي لن تصغي.

- واصل المحاولة.

وسريعاً تمرُّ الأيام، حتى لا يبقى على رحيله سوى يوم واحد فقط. يستيقظ قبل الفجر ويجد يوتا نائمة في مهدها في حجرة نوم الفتيات. تلفُّ رأسها بذراعيها، وغطاؤها الصُّوفي مطوي حول خصرها، ومخدتها محشورة في الفراغ بين الحشية والجدار - حتى في النَّوم لوحة حية للمشاكسة.

رسوماتها الخيالية بقلم الرصاص عن قرية السَّيدة إلينا، عن باريس، وألف برج أبيض تحت أسراب مدوَّمة من العصافير، معلقة فوق سريرها.

ينادي باسمها.

تلف نفسها بغطائها بشدة أكبر.

- هل تتمشين معي؟

تنهض مفاجئة إياه. يخرجان قبل أن يستيقظ أي شخص آخر. يتقدَّمها بصمت. يتسلَّقان سياجاً، ثمَّ آخر. شرائط حذاء يوتا غيز المربوطة تقطر خلفها. أشواك تلسع ركبهما. تثقب الشَّمس الطَّالعة الأفق ثقباً صغيراً.

يتوقَّفان عند حافَّة قناة للري. في شتاءات مضت، كان فرنر يجرها في عربتهما إلى هذه البقعة بالذَّات، وكانا يشاهدان متزلجين يتسابقون على طول القناة المتجمِّدة، مزارعين قد ثبتت شفرات إلى أقدامهم وصقيع تكتل في لحاهم، خمسة أو ستة يسرعون جميعاً فجأة، متراصين بإحكام، في غمرة سباق يمتد على طول ثمانية أو تسعة أميال بين البلدات. كانت النظرة في عيون المتزلجين لأحصنة عدت طريقاً طويلاً، وكانت رؤيتهم تثير فرنر دوماً: أن يشعر بالهواء يتخلخل من سرعتهم، أن يسمع مزالجهم تطقطق ثمَّ تتلاشى - إحساس كما لو أن روحه قد تندفع متحررة من جسده

وتذهب نشطة برفقتهم. لكن بمجرد مواصلتهم طريقهم حول المنعطف غير مخلفين في إثرهم سوى التنميش الأبيض لمزالجهم في الجليد، تلاشى الإثارة ويجر يوتا إلى منزل الأطفال يشعر بالوحدة والخذلان، وعالقاً في حياته أكثر من ذي قبل.

يقول: «لم يأتِ متزلجون الشّتاء الماضي».

تحدِّق أخته في الخندق. عيناها بنفسجيتان زاهيتان. شعرها متشابك وجامح وربما أيضاً أكثر بياضاً من شعره. ثلجي. تقول: «لن يأتي أحد هذه السَّنة أيضاً».

مجمَّع المناجم سلسلة جبال سوداء تحترق من غير لهب خلفها. حتى الآن فرنر يمكنه سماع صوت مكتوم آلي كقرع الطُّبول في البعيد، أوَّل نوبة تنزل في المصاعد عندما تصعد النوبة الليلية - كل هؤلاء الفتيان بعيون متعبة ووجوه ملطَّخة بالسُّخام يصعدون في المصاعد لملاقاة الشَّمس - وللحظة يدرك حضوراً ضخماً ورهيباً يلوح تماماً خلف الصَّباح.

- أعرف أنكِ غاضبة.

- ستصبح تماماً مثل هانز وهيربرت.

- لن أفعل.

- تمضي وقتاً كافياً مع فتيان مثل هؤلاء وسوف تفعل.

- إذاً أنت تريدين مني البقاء؟ أن أنزل إلى المناجم؟

يشاهدان درَّاجاً بعيداً في الدرب. تشبك يوتا يديها تحت إبطيها.

- هل تعلم ما اعتدت الاستماع إليه؟ على الراديو خاصتنا؟ قبل أن تدمره؟

- صه، يوتا من فضلك.

- برامج من باريس. لقد قالوا نقيض كل ما تقوله الإذاعة الألمانية. يقولون إننا أشرار. وإننا كنا نرتكب الفظائع. هل تعلم ماذا تعني كلمة فظائع؟

- من فضلك يوتا.

تقول يوتا: «هل من الصَّواب أن تقدم على فعل أمر، فقط لأن الجميع يفعلونه؟».

شكوك: تتزلق مثل حنكليس. يبعدها فرنر. يوتا بالكاد تبلغ من العمر اثني عشر عاماً، لا تزال طفلة.

- سوف أكتب لك رسالة كلَّ أسبوع. مرتين في الأسبوع إذا كان في وسعي. ليس عليك أن تريها للسيدة إلينا إذا لم ترغبي في ذلك.

تغمض يوتا عينيها.

- ليس إلى الأبد يوتا. ربما سنتان. نصف الفتيان المقبولين لا يستطيعون التَّخرج. لكن ربَّما سأتعلم شيئاً، ربما سيدرسونني لكي أكون مهندساً لائقاً. ربما يمكنني تعلُّم قيادة طائرة، كما يقول الصَّغير زيغفريد. لا تهزِّي رأسك، لطالما أردنا أن نرى الطيارة من الدَّاخل، ألم نفعل؟ سوف أطير بنا غرباً، أنت وأنا، السَّيدة إلينا أيضاً إذا كانت ترغب. أو يمكننا أن نركب القطار. سوف نركب عبر الغابات وقرى الجبال، كل تلك الأماكن التي تحدثت عنها السَّيدة إلينا عندما كنا صغيرين. ربما يمكننا أن نصل إلى باريس.

الضوء المزدهر. الهسيس الخفيف للعشب. تفتح يوتا عينيها لكنها لا تلتفت إليه.

- لا تكذب. اكذب على نفسك فرنر، لكن ليس عليَّ.

بعد عشر ساعات، فرنر على متن قطار.

ايتيين

مرَّت ثلاثة أيام ولم تلتقِ بعمٍّ والدها. ثمَّ وهي تتلمَّس طريقها إلى المرحاض، في صباح اليوم الرابع بعد وصولهما، تخطو على شيء صغيرٍ وقاسٍ. تجلس القرفصاء وتعين موضعه بأصابعها.

مغزلي الشَّكل وأملس. منحوتة من طيَّات عمودية محفورة بلولب مستدق الطَّرف. الفتحة عريضة وبيضوية. تهمس: «حلزون بحري كبير». بعد خطوة واسعة أمام الصَّدفة الأولى، تجد أخرى. ثمَّ ثالثة ورابعة. ممر من القواقع تشكِّل قوساً بمحاذاة المرحاض، وتنزل درجاً إلى باب الطَّابق الخامس المغلق الذي تعرف الآن أنه له. من خلفه تنبعث الهمسات المتضافرة لآلات بيانو تعزف.

يقول صوت: «ادخل».

تتوقَّع نتانة، رائحة كهولية كريهة، لكن الغرفة تعبق برائحة صابون رقيقة وكتب وطحالب بحرية مجفَّفة. ليس بخلاف مختبر الدكتور جيفار.

- العم؟

- ماري لور.

صوته منخفض وناعم، قطعة من حرير قد تحتفظ بها في دُرج ولا تسحبها إلا في مناسبات نادرة، فقط لتتلمَّسها بين أصابعك. تمدُّ يدها في

الفراغ، ويد باردة صغيرة وخفيفة تمسك بيدها. هو يشعر بتحسُّن، يقول: «آسف لم أكن قادراً على لقائك سريعاً».

تصدح آلات البيانو بصوت رنين خفيض، يبدو كما لو أن دستة منها تعزف في وقت واحد، كما لو أنَّ الصَّوت ينبعث من كل اتجاه.

- كم يبلغ عدد أجهزة الراديو التي تملكها يا عم؟

«دعيني أريكِ» يحمل يديها إلى رف. «هذا راديو ستيريو. "هترودايني". لقد جمعته بنفسي».

تتخيَّل عازف بيانو صغير للغاية، يرتدي بذلة رسمية «توكسيدو»، يعزف داخل الآلة. ثمَّ يضع يديها على صندوق راديو كبير، ثمَّ على ثالث لا يتجاوز حجمه حجم محمصة كهربائية. ما مجموعه أحد عشر جهازاً، يقول وفي صوته يندسُّ فخر صبياني: «يمكنني أن أسمع السُّفن في البحر. مدريد. البرازيل. لندن. مرة سمعت باكستان. هنا عند حافَّة المدينة، عالياً جداً في المنزل، لدينا التقاط ممتاز».

يسمح لها أن تنقِّب في صندوق يحتوي على صمَّامات كهربائية، آخر للمفاتيح. يقودها لاحقاً إلى أرفف للكتب: سلاسل من مئات الكتب، قفص طيور، خنافس في علب الكبريت، مصيدة فئران كهربائية، مثقلة ورق زجاجية يقول إن في داخلها عقرباً مدفوناً، جرار من الصمَّامات المتنوعة، مئة من أشياء أخرى لا يمكنها أن تتعرف إليها.

امتلك الطابق الخامس برمته - غرفة كبيرة واحدة، ما عدا سفرة الدَّرج. ثلاث نوافذ مطلَّة على شارع فوبوريل في المقدِّمة، ثلاث غرف أخرى على الزُّقاق في الخلف. هناك سرير قديم وصغير، لحافه أملس ومتماسك. مكتب مرتَّب، كنبة عريضة.

يقول بصوت هامس تقريباً: «تلك هي الجولة». يبدو عمُّ والدها لطيفاً،

فضولياً، وسليم العقل كلياً. سكون: هذا ما يشع به أكثر من أي شيء آخر. سكون شجرة. فأر يطرف في الظلمة.

تجلب السَّيدة مانك الشَّطائر. يقول إيتيين إنه لا يملك كتباً من تأليف جول فيرن، لكنه يملك كتباً لداروين، ويقرأ لها من كتاب «رحلة البيجل»، ويترجم من الإنكليزية إلى الفرنسية وهو يواصل - تنوع الأنواع بين العناكب الوثَّابة يكاد يبدو غير محدوداً... تنبعث موسيقى من أجهزة الراديو متَّخذة سبيلاً لولبياً، وإنه لأمر مبهج أن تغفو على الكنبة العريضة، أن تشعر بالدفء وبالشَّبع، أن تشعر بالعبارات ترفعها وتحملها إلى مكان آخر.

•

عند مكتب البرق الذي يبعد مسافة ستِّ كتل سكنية، يضغط والد ماري لور وجهه على النَّافذة ليشاهد دراجتين ناريتين ألمانيتين بعربتين جانبيتين تهدران عبر بوابة سان فانسان. مصاريع نوافذ البلدة مغلقة، لكن بين الشرائح، فوق العتبات، ألف عين تسترق النَّظر. خلف الدراجتين تتدحرج شاحنتين. في المؤخرة تنزلق سيارة مرسيدس سوداء. يومض ضوء الشَّمس من حلي غطاء محرِّك السَّيارة والتجهيزات المصنوعة من الكروم، يبطئ الموكب الصَّغير إلى أن يتوقف على الطريق المطوق المفروش بالحصى أمام جدران قصر سان مالو المرتفعة المخططة بالإشنيات. رجل متقدِّم في العمر مسفوع بشدة - يشرح شخص ما إنه المحافظ - ينتظر وفي يديه الكبيرتين مثل يدي بحار منديل أبيض، تظهر رعشة بالكاد يمكن إدراكها في رسغي يديه.

يركب الألمان عرباتهم، عددهم يفوق اثني عشر شخصاً. تلمع جزمهم، وأزياؤهم مرتبة. اثنان يحملان زهور القرنفل، واحد يحث كلباً مربوطاً بحبل. يحدق عدد منهم مشدوهين في واجهة القصر.

ينبثق من المقعد الخلفي للمرسيدس رجل قصير يرتدي بزة نقيب ميدانية وينفض شيئاً غير مرئي عن كم معطفه. يتبادل بضع كلمات مع ضابط مرافق نحيل، الذي يترجم للمحافظ. يومئ المحافظ. ثمَّ يختفي الرجل القصير عبر الأبواب الضَّخمة. بعد دقائق، يطوِّح الضَّابط المرافق مصاريع نافذة طابق أعلى وينظر لحظة عبر السُّقوف قبل أن يتجلَّى للعيان علم قرمزي فوق الآجر ويثبِّت ثقوبه الصَّغيرة إلى العتبة.

الشباب

إنها قلعة من كتاب للحكايات: ثمانية أو تسعة مبان حجرية محتجبة تحت التلال، أسقف صدئة، نوافذ ضيقة، أبراج مستدقة الطَّرف وحصون صغيرة، أعشاب تنبت من بين بلاط السقف. نهير صغير يجري عبر ملاعب الرياضة. لم يسبق لفرنر أن تنفس هواء بهذا النقاء في أصفى ساعات من أكثر أيام زولفرين صفاء.

ضابط مسؤول عن المبيت بذراع واحدة يتلو القواعد في سيل جارف عدواني. «هذا زيكم الاستعراضي، هذا زيكم الميداني، هذا زيكم الرياضي. يجب مصالبة الحمالات على الظهر، وأن تكون متوازية على الصدر. الأكمام مثنية حتى المرفق. على كل فتى أن يحمل سكيناً في غمد على الجانب الأيمن من حزامه. ارفعوا ذراعكم اليمنى عندما ترغبون في أن يتم استدعاؤكم. اصطفوا دوماً في صفوف مؤلفة من عشرة. ما من كتب، ولا سجائر، ولا طعام، ما من ممتلكات شخصية، لا شيء في خزانتك سوى اللباس الرسمي، والحذاء، والسّكين، وطلاء للحذاء. يمنع الكلام بعد إطفاء الأنوار. سوف ترسل الرسائل إلى البيت أيام الأربعاء. سوف تتخلصون من ضعفكم، من جبنكم، من ترددكم. سوف تصبحون مثل شلال، وابل من الرصاص - سوف تندفعون في الاتجاه نفسه بالخطوة

نفسه نحو الهدف نفسه. سوف تتخلون عن الراحة، سوف تعيشون بالواجب وحده. سوف تأكلون كبلدٍ وتتنفسون كأمَّةٍ».

هل يفهمون؟

يصرخ الفتيان بأنهم يفهمون. هناك أربعمئة فتى، بالإضافة إلى ثلاثين مدرباً وخمسين من العاملين. ضباط صف وطهاة، مساعدين ومزارعين. بعض الأغرار صغار بعمر التاسعة. الأكبر سناً بعمر السابعة عشرة. وجوه قوطية، أنوف حادَّة، ذقون مدببة. جميعهم ذوو عيون زرقاء.

ينام فرنر في حجرة صغيرة مع سبعة فتيان آخرين يبلغون من العمر أربعة عشر عاماً. السَّرير في الأعلى يخصُّ فريدريك: فتى نحيل واه مثل نصل العشب، جلده شاحب مثل القشدة. فريدريك جديد أيضاً. هو من برلين. والده مساعد سفير. عندما يتحدث فريدريك يعوم تركيزه عالياً كما لو أنه يفحص السماء باحثاً عن شيء ما.

هو وفرنر يتناولان وجبتهما الأولى في لباسهما الرسمي المنشى إلى طاولة خشبية طويلة في حجرة الطعام. يتحدث بعض الفتيان همساً، يجلس البعض بمفردهم، البعض يزدردون الطعام كما لو أنهم لم يأكلوا منذ أيام، عبر ثلاث نوافذ مقنطرة يرسل الفجر حزمة من أشعة ذهبية جليلة. ترتعش أصابع فريدريك ويسأل: «هل تحب الطيور؟».

- بالتأكيد.

- هل تعلم عن الغراب الأبقع؟

يهزُّ فرنر رأسه.

- طائر الغراب الأبقع أذكى من معظم الثدييات؛ حتى القرود. لقد رأيته يضع حبات البندق التي لا يستطيع كسرها على الطريق وينتظر أن تمر

السيارات عليها للحصول على اللب. فرنر أنت وأنا سوف نكون صديقين عظيمين، أنا واثق من ذلك.

لوحة مرسوم فيها الفوهرر يحملق فوق كل قاعة صف. التعليم يحدث على مقاعد بغير مساند، إلى طاولات خشبية ثلمها ضجر أعداد لا متناهية من فتيان سبقوهم هنا - ملاكو أراض، رهبان، مجندون، أغرار. في يوم فرنر الأول، يمشي بجانب باب موارب لمختبر العلوم التجريبية ويلمح غرفة بحجم صيدلية زولفرين تصطف فيها مغاسل جديدة وخزائن بواجهات زجاجية في داخلها تنتظر أكواب لماعة وأسطوانات متدرجة وموازين وحراقات. كان على فريدريك أن يحثه على مواصلة السير.

في يومهم الثاني، يقدم عالم واهن متخصص في فراسة الدماغ[1]، عرضاً عن كامل جسد الطالب. الأضواء في حجرة الطعام كابية، جهاز إسقاط يطن، ومخطط مليء بالحلقات يظهر على الجدار البعيد. يقف الرجل المسن تحت شاشة العرض ويخفق برأس عصا بلياردو عبر الشَّبكة.

«الحلقات البيض تمثل الدم الألماني الصَّافي. تشير الحلقات باللون الأسود إلى كمية الدم الأجنبي. لاحظوا المجموعة رقم اثنان، الرقم خمسة». ينقر الشاشة بعصاه وتتموج. «الزواج بين ألماني صافٍ وهجين ربع يهودي، لا يزال جائزاً، هل ترون؟».

بعد نصف ساعة، يقرأ فرنر وفريدريك «غوته» في علم العروض. ثم يمغنطان إبراً في التمارين الميدانية. يعلن المسؤول عن المبيت جداول معقدة للغاية: أيام الاثنين للميكانيك، تاريخ الدولة، علوم عرقية. أيام

(1) الفرينولوجيا: هو من أكثر العلوم الزائفة جدلية وتعرضاً للرفض والنقد العلمي والعام. بالتعريف الفرينولوجيا هي علم زائف يدرس الرابط بين شخصية الإنسان وشكل جمجمته. (م).

الثلاثاء من أجل الفروسية، الاستشراق، التاريخ العسكري. الجميع، حتى الذين يبلغون من العمر تسعة أعوام، سيتم تعليمهم تنظيف، تفكيك، والرمي بواسطة بندقية «ماوزر».

في الأصائل، يثبتون أنفسهم في عقدة من أحزمة الخرطوش ويركضون. اركضوا إلى المعالف، اركضوا نحو العلم، اركضوا على التلة، اركضوا حاملين بعضكم البعض على ظهوركم، اركضوا حاملين بنادقكم فوق رؤوسكم، اركضوا، ازحفوا، اسبحوا. ثم المزيد من الجري.

الليالي المغمورة بالنجوم، الفجر المنقوع بالنَّدى، الممرات الصامتة، التقشف المفروض - لم يجعل فرنر يشعر يوماً بأنه جزء من شيء ذي هدف مفرد. لم يشعر يوماً بتوق إلى الانتماء. في صفوف حجرات الأسرة هناك أغرار يتحدثون عن التزلج في جبال الألب، عن المبارزات، عن نوادي الجاز والمربين وصيد الخنازير، فتيان يوظفون كلمات الشتائم بمهارة بارعة وفتيان يتحدثون عن سجائر سميت بأسماء نجوم السينما، فتيان يتحدثون عن «الاتصال بالعقيد» وفتيان كانت أمهاتهم بارونات. هناك فتيان تم استدعاؤهم ليس لأنهم جيدين في أي شيء على نحو الخصوص، لكن لأن آباءهم يعملون عند الوزراء. ويتحدثون على النحو التالي: «ليس على المرء أن ينتظر التين من الشَّوك!» «سوف ألقحها هنا في ومضة، أيها اللعين!» «اصمدوا وابذلوا قصارى جهدكم أيها الفتيان!». يوجد أغرار يفعلون كل شيء على نحو صائب - وضعيات مثالية، رمايات خبيرة، جزم ملمَّعة على نحو مثالي، تعكس صورة السُّحب. هناك أغرار بشرتهم كالزبدة، وحدقات عيونهم مثل الياقوت الأزرق، وخطوط فائقة الدِّقة من أوردة زرقاء تشابكت عبر ظاهر أيديهم. الآن، مع ذلك، جميعهم متساوون تحت سوط الإدارة، جميعهم شبيبة. يتدافعون عبر البوابات معاً، يبتلعون بيضاً مقلياً في حجرة الطعام معاً، يسيرون عبر الباحة، يؤدون

التفقد، يحيون الألوان، يرمون بالبنادق، يركضون، يستحمون، ويعانون معاً. كل واحد منهم متراس من الطين، والخزّاف هو القائد العسكري، البدين، لامع الوجه، يقذف أربعمئة قدراً متماثلاً.

يغنون: نحن شبان، نحن الثابتون، نحن لم نقبل التسوية يوماً، لدينا الكثير من القلاع لنقتحمها.

يتأرجح فرنر بين الإرهاق، والتشوش، والابتهاج. يدهشه أن أصبح لحياته وجهة جديدة تماماً. يزيح الشكوك بعيداً بحفظ كلمات الأغاني أو الطرق إلى القاعات الصفية، بأن يبقي نصب عينيه رؤية مختبر العلوم التقنية: تسع طاولات، ثلاثون مقعداً، ملفات التوصيل، مكثفات كهربائية مختلفة، مضخمات صوت، بطاريات، لحام حديد في تلك الخزائن اللامعة المقفلة.

فوقه، جاثياً على سريره، ينظر فريدريك من النافذة المفتوحة عبر منظار قديم ويسجل على حاجز السّرير طيوراً رآها. ثلم تحت غطاس أحمر العنق. ستة أثلام تحت عندليب مغرد. على الساحات، مجموعة من الفتيان البالغين من العمر عشر سنوات يحملون مشاعل وأعلام الصليب المعقوف نحو النهر. العملية تتوقّف، وهبة ريح تمزق لهب المشاعل. ثم يسيرون، أغنيتهم تدوّم عبر النّافذة مثل سحابة متورّدة ساطعة.

أوه خذني، اصطفيني

فلا أموت ميتة طبيعية!

لا أريد أن أموت سدىً

ما أريده هو أن أسقط على المتراس القرباني.

فيينا

يبلغ الرقيب الأول رينهولد فون رومبل من العمر واحداً وأربعين عاماً، لا يزال في عمر يسمح له بالترقي. لديه شفتان حمراوان نديتان، وخدان شاحبان نصف شفافين مثل شريحتي سمك نيئتين، وغريزة لمعرفة الصَّواب، نادراً ما تخيبه. لديه زوجة تعاني من غيابه من دون تذمر، وترتب قطيطات مصنوعة من البورسلين بحسب ألوانها، من الأفتح إلى الأغمق، على رفين مختلفين في غرفة الاستقبال في شتوتغارت. لديه أيضاً ابنتان لم يرهما منذ تسعة أشهر. فيرونيكا الكبرى جدية للغاية. تتضمن رسائلها إليه عبارات مثل: تصميم مقدس، إنجازات فخورة، ولا نظير لها في التاريخ.

فون رومبل موهوب على نحو خاص في الألماس: يمكنه أن يسطِّح ويصقل الأحجار مثل أي جواهري آري في أوروبا، وهو غالباً يميز المزيف من نظرة. درس علم البلوريات في ميونخ، تمرن كملمع في أنتويرب، وكان أيضاً، ذات أصيل مجيد، في شارع تشارترهاوس في لندن، إلى شركة للماس لا تحمل علامة تجارية، حيث طلب منه إفراغ جيوبه والصُّعود برفقة شخص ثلاثة سلالم، وعبر ثلاثة أبواب مقفلة وأجلس إلى طاولة حيث يطلب منه رجل ذو شاربين مشمَّعين مثل رأس سكين، أن يتفحص ألماسة خام تزن اثنين وتسعين قيراطاً من جنوب إفريقيا.

قبل الحرب، كانت حياة «رينهولد فون رومبل» ممتعة إلى حد مقبول:

كان عالماً بالجواهر أدار شركة تخمين في متجر في الطابق الثاني خلف مستشارية شتوتغارت القديمة. كان الزبائن يجلبون أحجاراً ويعمل على تخمين قيمتها من أجلهم. أحياناً قد يعيد تقطيع الألماس أو يعمل استشارياً لمشاريع تصميم رفيعة المستوى. إذا ما غش زبوناً من دون قصد، قال لنفسه: إن ذلك جزء من اللعبة.

توسع عمله بسبب الحرب. الآن الرقيب الأول فون رومبل يملك فرصة أن يفعل ما لم يفعله أحد منذ قرون - ليس منذ عهد السُّلالة المغولية، ليس منذ عهد الخانات. ربما لم يسبق أن حدث في التاريخ. لم يمض على استسلام فرنسا سوى أسابيع وقد رأى الآن أشياء لم يحلم بأنه قد يراها ولو بعد ستة أعمار. كرة أرضية تعود إلى القرن السَّابع عشر بحجم سيارة صغيرة، وعليها أحجار من الياقوت الأحمر تدل على البراكين، وقطع من الياقوت الأزرق تجمعت عند القطبين، وألماس حيث عواصم العالم. لقد أمسك بيده - أمسك بيده!- مقبضَ خنجر لا يقل عمره عن أربعمئة سنة، مصنوع من اليشم الأبيض ومرصَّع بالزمرد. البارحة فقط، في الطريق إلى فيينا، استولى على خمسمئة وسبعين قطعة من الأواني الصينية وماسة «الماركيز» مثبتة على حافَّة كل طبق. لم يسأل من أين صادرت الشرطة هذه الثروات وممن. الآن وضبها شخصياً في صندوق وأغلقه بحزام ورقمه بطلاء أبيض ورآه يحمل على متن عربة قطار حيث تتم حراسته على مدى أربع وعشرين ساعة.

في انتظار أن يتم إرساله إلى قيادة عليا. منتظراً المزيد.

هذا الأصيل الصَّيفي على وجه الخصوص، في مكتبة مغبَّرة جيولوجية في فيينا، يتبع الرقيب الأول فون رومبل سكرتيرة نحيلة تنتعل حذاء بنياً، جوارب بنية، تنورة بنية، وقميصاً بنياً، عبر أكوامٍ من المجلات الدورية. تضع السكرتيرة مقعداً صغيراً، تصعد عليه، وتمدُّ يدها.

كتاب «أسفار في الهند» من تأليف تافرنييه عام 1676.

كتاب ب.س. بالاس «أسفار عبر ضواحي الإمبراطورية الروسية الجنوبي» عام 1793.

كتاب «أحجار كريمة ومجوهرات» تأليف ستريتر عام 1898.

تقول الشائعات إن الفوهرر يعد قائمة بما يتمناه من أشياء ثمينة من جميع أنحاء أوروبا وروسيا. يقولون إنه ينوي إعادة تشكيل البلدة النمساوية التي تدعى «لينز» ليحولها إلى مدينة سماوية، عاصمة العالم الثقافية. ممشى وسيع، ضريح، أكروبولس، نموذج نظام شمسي «بلانيتاريوم»، مكتبة، دار أوبرا – كل شيء من رخام وغرانيت، كل شيء نظيف للغاية. يخطط لإقامة متحف في مركزها بطول كيلومتر: كنز دفين من أعظم إنجازات الحضارة الإنسانية.

سمع فون رومبل إن الوثيقة حقيقية. مؤلفة من أربعمئة صفحة. هو يجلس إلى طاولة بين الأكوام. يحاول أن يصالب ساقيه، لكن انتفاخاً خفيفاً يزعج رأس فخذه اليوم: غريب، على الرغم من أنه ليس مؤلماً. أمينة المكتبة الهادئة تجلب كتباً. يقلب ببطء صفحات كتاب تافرنييه، ستريتر، كتاب موراي «صور من بلاد فارس». يقرأ تدوينات عن ماسة «أورلوف» التي تزن ثلاثمئة قيراط من موسكو، «نور العين»، «خضراء دريسدن» التي تزن ثمانية وأربعين ونصف قيراط. يجدها، مع اقتراب المساء: قصّة أمير لم يكن قتله ممكناً، كاهن حذّر من غضب آلهة، مطران فرنسي اعتقد بأنه اشترى الحجر نفسه بعد قرون.

بحر اللهب. أزرق ضارب إلى الرمادي ولون أحمر في مركزه. يزن مئة وثلاثة وثلاثين قيراطاً. إما ضاع أو انتقل إلى ملك فرنسا عام 1738 على شرط أن يحبس مدة مئتي عام.

يرفع بصره. مصابيح معلقة، صفوف من القمم تضمحل نحو الذهب المترب. أوروبا كلها، وهو يتطلع إلى العثور على حصاة عالقة في ثناياها.

الألمان

يقول والدها إن أسلحتهم تلمع كما لو أنها لم تستعمل يوماً. يقول إن أحذيتهم نظيفة وزيهم الرسمي لا تشوبه شائبة. يقول إنهم يبدون كما لو أنهم خرجوا للتو من عربات قطار مكيَّفة.

تقول نساء البلدة اللاتي يتوقفن عند باب مطبخ السَّيدة مانك مثنى وفرادى إن الألمان (ويشرن إليهم بالـ «بوش») يشترون كل البطاقات البريدية المعروضة على كل رف من رفوف الصَّيدليات، يقلن إن الألمان يشترون دمى القش والمشمش الملبس بالسُّكر، وكعكاً بائتاً من كوة دكان الحلواني.

يشتري الألمان قمصاناً من السَّيد فيرديه، وملابس داخلية من السَّيد مورفان، يطلب الألمان كميات غير منطقية من الزبد والجبنة، أسرف الألمان في شرب كل ما يمكن لبائع الخمر أن يبيعهم إياه من الشمبانيا.

تهمس النسوة عن أن هتلر يزور الآثار التاريخية الباريسية. تم فرض حظر التجوال. منعت الموسيقى التي يمكن سماعها في الهواء الطلق. منعت الرقصات العامة. يعلن المحافظ إن البلاد في حداد وعلينا أن نتصرف باحترام. على الرغم من أنه ليس واضحاً ما إذا كان يمسك بأي سلطة.

كل مرة تقترب فيها ضمن مدى سمعها، تسمع ماري لور والدها يشعل

عود ثقاب آخر. ترتعش يداه بين جيوبه. في الصَّباحات يتناوب في الذهاب بين مطبخ السَّيدة مانك، متجر التبغ، ومكتب البريد، حيث ينتظر دوره في طابور طويل ليستعمل الهاتف. في الأصائل يصلح أشياء في منزل إيتيين، مثل باب خزانة فالت، ولوح درجة يصدر صريراً. يسأل السَّيدة مانك عن مصداقية الجوار. ينقر قبضة قفل علبة أدواته مراراً وتكراراً إلى أن ترجوه ماري لور أن يتوقف.

في يوم يجلس إيتيين مع ماري لور ويقرأ لها بصوته الناعم، ثم في اليوم التالي يعاني مما يدعوه صداعاً ويحتجز نفسه في مكتبه خلف باب مقفل. تفاجئ السَّيدة مانك ماري لور بألواح الشوكولا، قطع الحلوى، هذا الصَّباح يعصرون ليموناً في كؤوس ملأى بالماء والسُّكر، وهي تسمح لماري لور أن تشرب قدر ما تحب.

- كم من الوقت سيبقى هناك، يا سيدة؟

تجيب السَّيدة مانك:

- أحياناً يوم أو اثنان. أحياناً أكثر.

يلحق الأسبوع الأول في سان مالو أسبوعاً آخر. تبدأ ماري بالشُّعور أن حياتها، مثل «عشرون ألف فرسخ تحت البحر»، انقسمت إلى نصفين. كان هناك المجلد الأول، عندما عاشت ماري لور ووالدها في باريس وذهب إلى العمل، والآن هناك المجلد الثاني، عندما يركب الألمان الدراجات البخارية في هذه الشَّوارع الضَّيقة الغريبة، وعمها يختفي داخل منزله.

- أبي متى سنغادر؟

- حالما أسمع خبراً من باريس.

- لماذا علينا أن ننام في هذه الغرفة الصَّغيرة؟

- أنا واثق من أننا نستطيع أن نخلي غرفة في الطَّابق الأرضي لو تحبين.

- ماذا عن الغرفة في الجهة الأخرى من القاعة؟

- اتفقنا - إيتيين وأنا - على عدم استعمالها.

- لم لا؟

- كانت تخص جدك.

- متى يمكنني الذَّهاب إلى البحر؟

- ليس اليوم ماري.

- هل يمكننا الذهاب في جولة حول المبنى؟

- خطر للغاية.

تريد أن تزعق. أي أخطار تحدق بنا؟ عندما تفتح نافذة غرفة نومها، لا تسمع صراخاً، أو انفجارات، فقط نداء طيور يدعوها عمها طيور «الغنَّيط»، والبحر، ورجفة بين الحين والآخر من طائرة في أثناء مرورها في الأعلى.

تمضي وقتها في التعرف إلى المنزل. الطابق الأول يخص السَّيدة مانك: نظيف، فسيح، مليء بالزوار الذين يدخلون من باب المطبخ لتداول ما يشيع في البلدة الصَّغيرة. هناك غرفة طعام، البهو، صندوق مليء بالأطباق الأثرية في القاعة يرتجف كلما مر أحد بالقرب، وباب من المطبخ يقود إلى غرفة السَّيدة مانك: سرير، مغسلة، وعاء الغرفة.

إحدى عشرة درجة لولبية تفضي إلى الطابق الثَّاني، الذي يعبق بروائح عظمةٍ مضمحلة: غرفة خياطة قديمة، غرفة خادمة سابقة. تخبرها السَّيدة مانك إنه هنا تماماً على سفرة الدرج، سقط النعش الذي كان يحمل عمة والد إيتيين.

«انقلب النعش وانزلقت على الدرج بطوله. جميعهم كانوا مذعورين، لكنها بدت غير متأثرة كلياً!».

مزيد من الفوضى في الطابق الثَّالث: صناديق ملأى بالجرار، أقراص

معدنية ومناشير تخريم صدئة، جرادل معبأة بما قد يكون معدات كهربائية، كتيبات هندسية مكومة حول المرحاض. في الطابق الرابع الأشياء مكوَّمة في كل مكان، في الغرف والممرات وعلى طول الدَّرج: سلال ملأى بما لا بد من أن يكون أجزاء آلة، صناديق أحذية مليئة بالبراغي، بيوت ألعاب شيدها جدُّ والدها. يحتل مكتب إيتيين الكبير الطابق الخامس كله، هادئ للغاية، أو مليء بأصوات أو موسيقى أو تشويش، بالتناوب.

ثم هناك الطابق السَّادس: غرفة نوم جدها المرتبة إلى اليسار، المرحاض رأساً، الغرفة الصغيرة حيث تنام مع والدها إلى اليمين. عندما تهبُّ الريح، وهذا هو الحال دوماً تقريباً، تئن الجدران وتخبط المصاريع، الغرف محملة بإفراط والدرج يلتف عالياً بإحكام عبر مركزه، يبدو أن المنزل هو المساوي المادي لنفس عمها الداخلية: جزوع، معزول، لكنه مليء بالأعاجيب التي تغطيها شباك العناكب.

في المطبخ، تثير صديقات السَّيدة مانِك جلبة حول شعر ماري لور ونمش وجهها. تقول النسوة: في باريس، ينتظر الناس في طابور طوال خمس ساعات للحصول على رغيف خبز. يأكل الناس الحيوانات الدَّاجنة، يسحقون الحمام بالآجر لصنع الحساء. ما من لحم خنزير، ولا أرانب، ما من قرنبيط. يقولون: إن جميع مصابيح السَّيارات الأمامية طليت بالأزرق، وليلاً، المدينة هادئة مثل مقبرة: ما من حافلات، ما من قطارات، البنزين غير متوفر إلا بالكاد.

تجلس ماري لور إلى طاولة مربعة الشكل، أمامها طبق من الكعك، وتتخيل النساء المسنات بأيدٍ معرَّقة وعيون حليبية وآذان كبيرة الحجم. من نافذة المطبخ يسمع تغريد سنونو المخازن، وقع أقدام على الأسوار، حبال تجلجل إزاء الصَّواري، مفاصل وسلاسل تصرف في الميناء. أشباح. ألمان. حلزونات.

نقيب

يخلع مدرس للعلوم التقنية، ضئيل الحجم، متورد الخدين، يدعى الدكتور هاوبتمان معطفه ذا الأزرار النحاسية، ويعلقه على مسند الكرسي. يأمر الأغرار في صف فرنر بجلب صناديق معدنية مفصَّلة من خزانة مقفلة في مؤخرة المختبر.

في داخل كل واحد هناك تروس، عدسات، مكثِّفات، نوابض، أكبال، ومقاومات. هناك ملف سميك من سلك نحاسي، مطرقة صغيرة للغاية، وبطارية ذات طرفين بحجم فردة حذاء - تجهيزات أفضل من أي عدة وصلت إلى متناول فرنر في حياته. يقف البروفسور قصير القامة إلى السَّبورة يرسم مخطط أسلاك لدارة بسيطة تطبيقية لشيفرة مورس.

يضع طبشورته، يضغط أطراف أصابعه النحيلة إلى بعضها البعض، الخمسة على الخمسة، ويطلب من الفتيان جمع الدارة الكهربائية بواسطة الأجزاء المتواجدة في عدتهم. «لديكم ساعة من الوقت».

يشحب لون معظم الفتيان. يفرغون كل شيء على الطاولات، وينكزون بحذر شديد الأجزاء، كما لو أنهم ينكزون حلى رخيصة مستوردة من عصر مستقبلي. ينتزع فريدريك قطعاً لا على التعيين من صندوقه ويحملها نحو الضوء.

للحظة يعود فرنر إلى غرفته في منزل الأطفال، رأسه سرب من الأسئلة.

ما هو البرق؟ كم في وسعك أن تقفز عالياً إذا عشت على المريخ؟ ما هو الفرق بين ضعف خمس وعشرون وضعف خمسة زائد عشرون؟ ثم يأخذ البطارية، مستطيلان من صفيحة معدنية، بعض المسامير، والمطرقة من صندوقه. ركب في أقل من دقيقة دارة مذبذب تطابق الرسم التخطيطي. يقطب البروفسور القصير القامة. يختبر دارة فرنر، التي تعمل. يقول: «صحيح» ويقف أمام طاولة فرنر ويعقد يديه خلف ظهره. «لاحقاً خذوا من علبة عدتكم المغنطيس الذي له شكل قرص، سلكاً، برغياً، وبطاريتك». يلتفت إلى فرنر وحده وهو يتلو تعليماته الموجَّهة للصف. «هذا كل ما يمكنكم استعماله. من يمكنه أن يصنع محركاً بسيطاً؟».

يحرك بعض الفتيان أجزاء في عدتهم بتراخي. اكتفى معظمهم بالمراقبة.

يشعر فرنر بانتباه البروفسور هاوبتمان الموجَّه نحوه مثل نور كشّاف.

يلصق المغنطيس على رأس البرغي ويضع طرف البرغي إلى الطرف الموجب للبطارية. عندما يمرر السلك من الطرف السّالب للبطارية إلى رأس البرغي يبدأ كل من البرغي والمغنطيس بالدوران، لا تستغرقه العملية أكثر من خمس عشرة ثانية.

فم الدكتور هاوبتمان فاغر جزئياً. وجهه متوهج، وقد ملأه الأدرينالين.

- ما اسمك أيها الغر؟

- بفينغ سيدي.

- ماذا يمكنك أن تصنع أيضاً؟

يتفحص فرنر الأشياء على طاولته.

- جرس سيدي؟ أو مرشد لاسلكي بشفرة مورس؟ جهاز لقياس المقاومة الكهربائية؟

يمد الفتيان الآخرون أعناقهم. شفتا الدكتور هاوبتمان زهريتان، وأجفانه رقيقة بشكل لا يصدق، كما لو أنه يراقب فرنر حتى عندما يطرف. يقول: «اصنعها كلها».

أريكة طائرة

الملصقات علقت في السُّوق، على جذوع الأشجار في ساحة شاتوبريان. تسليم طوعي للأسلحة النارية. أي شخص لا يتعاون سوف يرمى بالرصاص. ظهر اليوم التالي يتجمع مختلف البريتانيين لتسليم الأسلحة، مزارعين على عربات تجرها البغال من أميال، بحارين مسنين يتهادون حاملين طبنجات عتيقة، عدد من الصيادين تلتمع عيونهم بالغضب يحدقون في الأرض وهم يسلمون بنادقهم.

في النهاية، إنها كومة مثيرة للشفقة، ربما ثلاثمئة قطعة سلاح بالمجمل، نصفها صدئ. يكومها شرطيان شابان في مؤخرة الشَّاحنة ويصعدان الشَّارع الضَّيق، ويعبران الطريق المرتفع، ويرحلان. ما من خُطب، ما شروحات.

- من فضلك أبي، هل يمكنني الخروج؟

- قريباً، حمامتي الصَّغيرة.

لكنه لاهي الفكر، يدخن كثيراً كما لو أنه يحول نفسه إلى رماد. في الآونة الأخيرة يسهر ليعمل بشكل مسعور على مجسم لسان مالو الذي يزعم أنه من أجلها، مضيفاً منازل جديدة كل يوم، يبني أسواراً، يخطط شوارع، فيمكنها بذلك أن تتعرف إلى البلدة، كما تعرفت إلى حيهما في باريس. خشب، غراء، مسامير، ورق الزجاج: الضجة، وروائح جهده

الجنوني، بدلاً من أن تؤسِّيها، تزيدها قلقاً. لماذا سيتوجب عليها أن تحفظ شوارع سان مالو؟ كم سيطول بها البقاء هنا؟

في مكتب الطَّابق الخامس، تصغي ماري لور إلى عمها يقرأ صفحة أخرى من كتاب رحلة «البيجل». اصطاد داروين طائر الريَّة في منطقة «باتاغونيا»، درس البوم في ضواحي «بوينس آيرس»، وتسلق شلالاً في «تاهيتي». هو يهتم بالعبيد، الصُّخور، البرق، طائر الحسون، وحفل ضغط الأنوف في «نيوزيلاندا». هي تحب بشكل خاص أن تسمع عن السَّواحل القائمة في أميركا الجنوبية، بجدرانها المصمتة من الأشجار ونسائم الشاطئ العابقة برائحة عشب البحر النتنة، وصرخات الحيتان في أثناء الولادة.

تحب أن تتخيل داروين ليلاً، ينحني على سياج السَّفينة ليحدق في أمواج الإضاءة الحيوية، يشاهد مسارات البطارق المعلمة بآثار خضراء لاهبة.

تقول لإيتيين وهي واقفة على الأريكة العريضة في مكتبه: «مساء الخير. ربما أنا فتاة لا يتجاوز عمري اثني عشر عاماً، لكني مستكشفة فرنسية شجاعة جاءت لتساعدك في مغامراتك».

يجيب إيتيين بلهجة بريطانية:

- مساء الخير آنستي، لماذا لا تأتين معي إلى الدغل وتأكلين هذه الفراشات، هي بحجم أطباق عشاء ولعلها ليست سامة، من يعلم؟

- أحب أن آكل فراشاتك سيد داروين، لكن أولاً سآكل هذه الكعكات.

في أمسيات أخرى يلعبان لعبة الأريكة الطائرة. يصعدان على الأريكة ويجلسان جنباً إلى جنب ويقول إيتيين: «إلى أين الليلة يا آنسة؟».

- «الدغل»، أو «تاهيتي»، أو «موزمبيق»!

سيقول إيتيين بصوت جديد كلياً، ناعم، مخملي، تشدق مرشد:

- أوه إنها رحلة طويلة هذه المرة. هذا المحيط الأطلسي هناك في الأسفل، يتألق تحت نور القمر، هل في وسعك أن تشمي رائحته؟ أن تحسي بشدة البرد هنا في الأعلى؟ هل تشعرين بهبوب الريح في شعركِ؟

- أين نحن الآن، يا عم؟

- نحن في «بورنيو»، ألا يمكنك معرفتها؟ نحن نمر بخفة على قمم الأشجار الآن، تلمع أوراق كبيرة تحتنا، وهناك شجيرات البن في الأعلى هناك، هل تشمين رائحتها؟

وماري لور سوف تشم حقاً شيئاً، إما لأن عمها يمرر حبوب بن تحت أنفها، أو لأنهما حقاً يطيران فوق أشجار القهوة في بورنيو، لا تريد أن تعرف.

يزوران اسكوتلندا، مدينة نيويورك، سانتياغو. أكثر من مرة يرتديان معاطف شتوية ويزوران القمر.

- ألا يمكنك أن تشعري كم نحن خفيفا الوزن يا ماري؟ يمكنك أن تتحركي من خلال ارتعاشة عضلة!

يضعها في كرسي مكتبه المدولب، ويلهث وهو يدومها في حلقات، إلى أن تتألم من شدة الضحك.

يقول: «هاكِ، جربي لحم القمر الطيب الطري»، ويضع في فمها شيء له مذاق يشبه الجبنة. في النهاية دوماً يجلسان جنباً إلى جنب ثانية ويلكمان الوسائد، وببطء تعود الغرفة من حولهما إلى حقيقتها.

يقول: «آه، ها نحن هنا في البيت». تتلاشى لكنته بهدوء أكبر، وتعود لمسة الخوف الخفيفة إلى صوته.

مجموع الزوايا

استدعي فرنر إلى مكتب أستاذ العلوم التقنية. ثلاثة كلاب صيد صقيلة، طويلة القوائم، تدوم من حوله عندما يدخل. الغرفة مضاءة بزوج من المصابيح المكتبية ذات غطاء أخضر اللون، وفي الظلال يمكن لفرنر أن يرى رفوفاً تتكدس فيها الموسوعات، مجسمات طواحين الهواء، تلسكوبات مصغرة، مواشير. يقف الدكتور هاوبتمان خلف مكتبه الكبير، مرتدياً معطفه ذا الأزرار النحاسية، كما لو أنه أيضاً وصل للتو. تجاعيد مشدودة تؤطر جبهته العاجية، يخلع قفازيه الجلديين، إصبعاً في كل مرة.

- ارمِ حطبة في النار، من فضلك.

يعبر فرنر الغرفة ويعيد الحياة إلى الفحم. يدرك أن شخصاً ثالثاً يجلس في الزاوية، شخص ضخم استقر ناعساً في كرسي معد لرجل أصغر حجماً بكثير. هو فرانك فولكهايمر، طالب في السَّنة الثانية، يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، فتى من طبقة عليا من قرية شمالية، أسطورة بين الأغرار الأصغر سناً. يحكى أن فولكهايمر عبر بثلاثة من طلاب السَّنة الأولى النهر بحملهم على رأسه، يحكى أنه رفع مؤخرة سيارة القائد العسكري عالياً بما فيه الكفاية ليزلق رافعة تحت المحور. هناك شائعة عن أنه حطم رغامى شيوعي بيديه. شائعة أخرى عن أنه انتزع خطم كلب شارد واقتلع عينيه فقط ليتدرب على تعذيب الكائنات الأخرى.

ينادونه بالعملاق. حتى في الضُّوء الخفيض الوامض، يرى فرنر أن الأوردة تصعد على ساعدي فولكهايمر مثل كرمة.

يقول هاوبتمان وظهره جزئياً إلى فولكهايمر: «لم يركِّب طالب يوماً محركاً. ليس من دون مساعدة».

لا يعرف فرنر كيف يجيب، لذا يلتزم الصَّمت. ينخس النار مرة أخيرة وتصعد الشرارات إلى المدخنة.

- هل يمكنك حلّ مسائل المثلثات أيها الغر؟

- فقط ما تمكنت من تعلمه بنفسي سيدي.

يخرج هاوبتمان صفحة ورقية من درج ويكتب عليها.

- هل تعرف ما هذا؟

ينظر فرنر شزراً.

$$\varphi = \frac{d}{\tan a} + \frac{d}{\tan \beta}$$

- معادلة رياضية سيدي.

- هل تفهم استخداماتها؟

- أعتقد أنها طريقة لاستعمال نقطتين معروفتين لإيجاد مكان نقطة ثالثة غير معروفة.

تلمع عينا هاوبتمان الزرقاوان، يبدو مثل شخص وجد شيئاً قيماً للغاية أمام عينيه على الأرض.

- إذا أعطيتك النقاط المعروفة والمسافة بينهما أيها الجندي، هل يمكنك أن تحلها؟ هل يمكنك أن ترسم المثلث؟

- أعتقد ذلك.

- اجلس إلى مكتبي بفينغ، خذ كرسيي. وهاك قلم رصاص.

عندما يجلس فرنر في كرسي المكتب، لا يلمس طرف جزمته الأرض. تضخ النار حرارة في الغرفة. أخرج من عقلك فرانك فولكهايمر الضخم وجزمته الضخمة وفكه الثابت. أخرج من عقلك البروفسور الأرستقراطي الضئيل الحجم وهو يذرع الغرفة أمام الموقد والساعة المتأخرة والكلاب والرفوف تزخر بالأمور المثيرة للاهتمام. لا يوجد سوى هذا.

$$\text{Tan } \alpha = \sin \alpha \ / \cos \alpha$$

و

$$\text{Sin } (\alpha + \beta) = \sin \alpha \cos \beta + \cos \alpha \sin \beta$$

الآن يمكن نقل «d» إلى مقدمة المعادلة.

$$d = \varphi \sin \alpha \sin \beta \ / \sin (\alpha + \beta)$$

يصيغ فرنر من أرقام هاوبتمان معادلة. يتخيل أن مراقبين في حقل يذرعان المسافة بينهما، ثم ينظران نحو معلَم بعيد: سفينة مبحرة أو مدخنة. عندما يطلب فرنر مسطرة منزلقة، يزلق البروفسور واحدة على المكتب في الحال، متوقعاً الطلب. يأخذها فرنر من دون أن ينظر ويبدأ بحساب جيب الزاوية.

فولكهايمر يراقب. الدكتور القصير القامة يخطو، يداه خلف ظهره. النار تفرقع. الأصوات الوحيدة هي أنفاس الكلاب وطقطقة مؤشر المسطرة المنزلقة.

أخيراً يقول فرنر: «16.43، سيدي الدكتور».

يرسم المثلث ويعنون مسافات كل مقطع ويعيد الورقة. يتفحص هاوبتمان شيئاً في كتاب جلدي. يتحرك فولكهايمر قليلاً في كرسيه، نظرته مهتمة ومتراخية في آن. يضغط البروفسور إحدى راحتيه على المكتب

وهو يقرأ مقطعاً شارد الذِّهن كما لو أنه ينتظر مرور فكرة. يتملك فرنر وجل مفاجئ ومشؤوم، لكن حينها يلتفت هاوبتمان إليه والشُّعور ينحسر.

- يقال في أوراق استمارتك أنك تتمنى عند مغادرة هذه المدرسة دراسة الميكانيك الكهربائي في برلين. وأنت يتيم، هل هذا صحيح؟

نظرة أخرى نحو فولكهايمر. يومئ فرنر.

- أختي...

- عمل العالِم، أيها الغرّ، محدد بأمرين. مصلحته ومصلحة زمنه. هل تفهم؟

- أظن ذلك.

- نحن نعيش في أزمنة استثنائية، أيها الغرّ.

يرتعش صدر فرنر بالإثارة. غرف مضاءة بالمشاعل اصطفت فيها الكتب - هذه هي الأمكنة التي تحدث فيها الأمور المهمة.

- سوف تعمل في المختبر بعد العشاء كل ليلة، حتى الآحاد.

- نعم سيدي.

- ابدأ من الغد.

- نعم سيدي.

- فولكهايمر هنا سوف يرعاك. خذ هذا البسكويت.

يخرج البروفسور علبة وعليها قوس.

- وتنفس، بفينغ. لا يمكنك أن تحبس أنفاسك كلما أتيت إلى مختبري.

- نعم، سيدي.

يهبُّ هواء بارد عبر القاعات، يدوِّخ فرنر لشدَّة نقائه. ثلاث عشت تدوِّم قريباً من سقف سريره. يفك شرائط جزمته، ويطوي بنطاله في الظلمة،

ويضع علبة البسكويت أعلاه. ينظر فريدريك من فوق حافّة سريره: «أين ذهبت؟».

يهمس فرنر: «حصلت على كعك».

- سمعت صوت بومة قرناء الليلة.

يهمس فتى على مبعدة سريرين: «صَه».

يمرر فرنر قطعة بسكويت. يهمس فريدريك: «هل تعرف عنه؟ إنه طائر نادر بحق. يساوي حجمه طائرة شراعية. هذا كان ربما ذكراً صغيراً يبحث عن مكان جديد. كان في إحدى أشجار الحور بجانب ساحة الاستعراض».

يقول فرنر: «أوه». تتنقل أحرف إغريقية عبر باطن جفنيه: مثلثات متساوية السّاقين، أحرف بيتا، منحنيات الجيب. يرى نفسه في معطف أبيض، يسير بخطى واسعة بجوار آلات.

ربما سوف يفوز ذات يوم بجائزة كبيرة.

فك شيفرة، تسيير صاروخ، أحدث التقنيات.

نعيش في أزمنة استثنائية.

يسمع من القاعة صوت طقطقة كعبي جزمة المسؤول عن المبيت. يعود فريدريك إلى سريره.

يهمس: «لم أتمكن من رؤيته، لكنني سمعته على نحو مثالي».

يقول فتى ثان: «أغلق فمك. سوف تتسبب بضربنا».

لا يقول فريدريك المزيد. يتوقّف فرنر عن المضغ. تصمت جزمة المسؤول عن المبيت: إما أنه ذهب أو توقّف عند الباب. في السّاحات أحدهم يقطع الحطب، وفرنر يصغي إلى رنين المطرقة الثقيلة على الوتد وأنفاس الفتيان اللاهثة الخائفة من حوله.

البروفسور

يقرأ إيتيين داروين على مسامع ماري لور، ويتوقف فجأة.

- عمي؟

يتنفس بعصبية، يهمس بشفاه مزمومة، كما لو أنه ينفخ على ملء ملعقة من حساء: «أحدهم هنا».

لا يمكن لماري لور أن تسمع شيئاً. ما من وقع خطى، ما من قرع. السَّيدة مانك تكنس سفرة درج الطابق الأعلى. يناولها إيتيين الكتاب. يمكنها سماعه ينزع قابس الراديو الكهربائي، ثم يربط نفسه بأسلاكه. تقول ثانية: «عمي؟»، لكنه يغادر مكتبه، متخبطاً نحو الطابق الأسفل - هل هم في خطر؟ - وتتبعه إلى المطبخ، حيث يمكنها سماعه يعمل على إزاحة طاولة المطبخ بعيداً.

يرفع حلقة في وسط الأرض. تحت باب أرضي هناك فجوة مربعة تنبعث منها رائحة رطوبة مفزعة.

- خطوة للأسفل، أسرعي الآن.

هل هذا قبو؟ ما الذي رآه عمها؟ ما كادت تضع قدماً واحدة على أولى درجات سلم حتى جاء حذاء السَّيدة مانك الضَّخم يتثاقل نحو المطبخ.

- حقاً، يا معلم إيتيين، من فضلك!

صوت إيتيين من الأسفل: «سمعت شيئاً. شخص ما».

- أنت تخيفها. لا يوجد شيء ماري لور. تعالي الآن.

تخرج ماري لور، تحتها، يهمس عمها لنفسه بترانيم منومة.

- يمكنني الجلوس معه قليلاً، سيدتي. ربما يمكننا قراءة المزيد من كتابنا يا عمي؟

تستدل أن القبو ليس سوى فجوة رطبة في الأرض. يجلسان إلى حين على سجادة ملفوفة والباب الأرضي مفتوح، ويصغيان إلى السَّيدة مانك تدندن وهي تحضِّر الشَّاي في المطبخ فوقهما. يرتجف إيتيين قليلاً بجانبها.

تقول ماري لور: «هل تعلم، أن احتمال أن يضربك البرق يساوي واحد في المليون؟ هذا ما علمني إياه الدكتور جيفار.

- في سنة واحدة، أو مدى العمر؟

- أنا لست واثقة.

- كان عليك أن تسألي.

ثانية ذلك الزفير السَّريع المزموم. كما لو أن جسده برمته يلح عليه بالهرب.

- ماذا يحدث إذا خرجت عمي؟

يقول بصوت لا يكاد يكون مسموعاً: «أشعر بالاضطراب».

- لكن ما الذي يجعلك مضطرباً؟

- كوني في الخارج.

- أي جزء؟

- الأماكن الفسيحة.

- ليست كل الأماكن فسيحة. شارعك ليس كبيراً جداً، أليس كذلك؟

- ليس كبيراً كالشَّوارع التي اعتدتِ عليها.

- أنت تحب البيض والتين. والطماطم. كانوا في غدائنا. إنها مزروعة في الخارج.

يضحك بخفَّة: «بالطبع هي كذلك».

- ألا تفتقد العالم؟

هو صامت وهي كذلك. كلاهما يغوصان في دوامة الذكريات.

يقول ويربت على غلاف كتاب داروين: «لدي العالم كله هنا. وفي أجهزة الراديو خاصتي. تماماً عند أطراف أصابعي».

يكاد يبدو عمها طفلاً، ناسكاً في تواضع حاجاته، ومستقلاً تماماً عن أي نوع من الواجبات الدنيوية. ومع ذلك، يمكنها أن تعرف أن مخاوف هائلة تنتابه، متعددة للغاية، حتى أنها تكاد تشعر بالرعب ينبض في داخله. كما لو أن وحشاً يتنفس طوال الوقت عند عتبات عقله.

تسأل: «هل يمكنك أن تقرأ المزيد من فضلك؟». ويفتح إيتيين الكتاب ويهمس: «البهجة ذاتها مصطلح ضعيف للتعبير عن مشاعر عالم الطبيعة الذي يتجول للمرة الأولى بنفسه في غابة برازيلية...».

بعد عدة فقرات تقول ماري لور من دون سابق إنذار: «أخبرني عن غرفة النوم في الأعلى، مقابل الغرفة التي أنام فيها».

يتوقف. ثانية أنفاسه اللاهثة المتوترة.

تقول: «هناك باب صغير في مؤخرتها، لكنه مقفل، ماذا يوجد هناك؟».

يلبث صامتاً لفترة حتى أنها تخاف أن تكون قد أزعجته. لكنه يقف عندئذٍ، ركبتاه تصدران صوتاً مثل صرير أغصان صغيرة.

- هل تنتابك واحدة من نوبات الصُّداع يا عم؟

- تعالي معي.

يلفان الدَّرج حتى آخره. يستديران عند سفرة درج الطابق السَّادس إلى اليسار، ويدفع باب ما كانت سابقاً غرفة جدِّها. هي حتى الآن مررت يديها على محتوياتها مرات كثيرة: مجذاف خشبي مثبت إلى الجدار، نافذة مكسوة بستائر طويلة. سرير مفرد. مجسَّم سفينة على رف. في المؤخرة خزانة ملابس كبيرة للغاية لا يمكنها أن تصل إلى قمتها ولا أن تمد ذراعيها بما يكفي لتحيط بجانبيها في الوقت نفسه.

- هل هذه أشياؤه؟

يفتح إيتيين الباب الصَّغير قرب الخزانة.

- تقدَّمي.

تتلمس طريقها عبره. حرارة جافة محتجزة. فئران تعدو. تعثر أصابعها على سلَّم.

- إنه يفضي إلى العلية. ليس مرتفعاً.

سبع درجات. تقف عند القمَّة، لديها إحساس بمكان طويل منحدر الجدران، مضغوط تحت جملون السَّطح. ذروة السَّقف تعلوها بقليل.

يصعد إيتيين خلفها ويمسك بيدها. تتعثر قدماها بأسلاك على الأرضية. يشقان طريقهما بصورة متعرجة بين صناديق متربة، محملة على مسند لنشر الخشب، يقودها عبر أجمة منها نحو ما يبدو مثل مقعد بيانو منجَّد عند الطرف القصي، ويساعدها على الجلوس.

- هذه هي العلية. وتلك المدخنة أمامنا. ضعي يديك على الطاولة، ها أنت ذي.

سطح الطاولة مكسو بصناديق معدنية: أنابيب، ملفات، مفاتيح، عدادات، على الأقل جهاز فونوغراف واحد. تدرك أن هذا الجزء من العلية بكامله آلة من نوع ما. تحمِّص الشَّمس السقف فوق رأسيهما. يضع

إيتيين سماعتي رأس على أذني ماري لور. عبر السَّماعات يمكنها سماعه يدير مرفقاً، ويشغل شيئاً ما، من ثم، كما لو أنه متموضع مباشرة في وسط رأسها، يعزف بيانو أغنية عذبة بسيطة.

الأغنية تتلاشى، وصوت رتيب يقول: تأملوا قطعة واحدة تتوهج في موقد عائلتكم. انظروا إليها، أيها الأطفال؟ كانت قطعة الفحم تلك يوماً نبتة خضراء، سرخساً أو قصباً عاش قبل مليون عام، أو ربما قبل مليوني عام، أو ربما مئة مليون.

بعد فترة قصيرة، يفسح الصَّوت المجال للبيانو ثانية. يرفع عمها سمَّاعتي الرأس. يقول: «كان أخي في صباه يجيد كل شيء، لكنَّ صوته كان يثير إعجاب الناس أكثر من أي شيء آخر. رغبت راهبات كنيسة «سان فانسان» بتأسيس جوقة لتغني معه. كان لدينا، هنري وأنا، حلماً مشتركاً، أن نصنع تسجيلات ونبيعها. كان يملك الصَّوت، وأنا امتلكت العقل، وفي ذلك الحين، رغب جميع النَّاس في الحصول على أجهزة الحاكي. ولم يكن هناك أحد ينتج برامجَ للأطفال إلا لماماً. لذا اتصلنا بشركة تسجيل في باريس، وأبدى أصحابها اهتماماً، وكتبت عشرة نصوص مختلفة عن العلم، تمرَّن هنري عليها، وأخيراً بدأنا التَّسجيل. كان والدك مجرَّد فتى صغير، لكنه كان يأتي ليستمع. كانت من أسعد فترات حياتي».

- ثم كانت الحرب.

- أصبحنا عاملي إشارة. كانت مهمتنا، أنا وجدك، ربط أسلاك البرق من مواقع القيادة في المؤخرة مع الضباط المقاتلين على الجبهة. معظم الليالي كان العدو ليطلق شعلات ضوئية تدعى «مضيء للغاية» على الخنادق، نجوم قصيرة العمر علقت في الهواء من مظلات الهبوط، بهدف إنارة الأهداف المحتملة للقناصين. سوف يتجمَّد كل جندي، في متناول الوهج، طوال فترة عمله. في بعض الأحيان، كانت تُرمى ثمانون أو

تسعون من هذه النيران، واحدة تلو الأخرى، والليل قد ينقلب قاسياً وغريباً في ذلك الوهج المغنيزيومي. كان له أن يكون شديد الهدوء، والصَّوت الوحيد المسموع هو أزيز النيران المضيئة، ثم قد يسمع صفير رصاص القنَّاص مندفع من الظلمة ليدفن نفسه في الوحل. كنا لنبقى متقاربين قدر المستطاع. لكني كنت لأشلّ بعض الأحيان، لم أتمكَّن من تحريك أي جزء من جسدي، حتى أصابعي، حتى جفني. كان هنري يجلس بجانبي ويهمس بتلك النصوص التي سجلناها. أحياناً طوال الليل. مراراً وتكراراً. كما لو أننا ننسج من حولنا ستار حماية حتى يطلع الصَّباح.

- لكنه مات.

- وأنا لم أمت.

تدرك أن هذا أساس خوفه، كل مخاوفه. أن ضوءاً تعجز عن إيقافه سوف يدار نحوك ويوجِّه رصاصة نحو هدفها.

- من بنى كل هذا يا عمي، هذه الآلة؟

- أنا فعلت. بعد الحرب. استغرقني الأمر سنوات.

- كيف تعمل؟

- إنه جهاز إرسال. هذا المفتاح هنا (يقود يدها إليه) يزود مكبر الصَّوت بالكهرباء، وهذا يشغل الفونوغراف. هنا المضخِّم، وهذه هي الصَّمامات المفرغة، وهذه الملفات. يمتد الهوائي على طول المدخنة. اثنا عشر متراً. هل يمكنك أن تتحسسي الرافعة؟ فكري في الطاقة على أنها موجة، وبجهاز الإرسال كمرسل دورات ملساء من تلك الموجات. يخلق صوتك عرقلة في تلك الدورات...

تتوقف عن الإصغاء. إنه مغبر ومحير وفاتن في آن. كم ينبغي أن يكون عمر كل هذا؟ عشر سنوات؟ عشرين؟

- ماذا أذعت؟

- تسجيلات أخي. كانت شركة الغرامافون في باريس قد فقدت الاهتمام بالموضوع، لكني أذعت كل ليلة التسجيلات العشرة التي سجلناها، حتى تلف معظمها. وأغنيته المفضلة.

- البيانو؟

- مقطوعة «ضوء القمر» من تأليف ديبوسي.

يمس أسطوانة معدنية ودائرة ملصقة على أعلاها.

- قد أدخل مكبر الصَّوت في جرس الفونوغراف، وانظري.

تنحني على مكبر الصَّوت، تقول: «مرحباً بكم».

يضحك ضحكته الرقيقة.

تسأل: «هل بلغ مسامع أي من الأطفال؟».

- لا أعرف.

- ما هي المسافة التي يمكن أن يصل إليها، يا عم؟

- بعيداً.

- إلى إنكلترا؟

- بسهولة.

- إلى باريس؟

- نعم. لكني لم أكن أحاول الوصول إلى إنكلترا. أو باريس. اعتقدت أنني إذا ما صنعت بثاً فعالاً بما فيه الكفاية سوف يسمعني أخي. وأني قد أتمكن من تزويده ببعض السلام، أحميه كما حماني دوماً.

- كنت تشغل صوت أخيك من أجله؟ بعد وفاته؟

- وديبوسي.

- هل رد عليك يوماً؟

العلية تتكتك. أي أشباح تمشي جانبياً على طول الجدران الآن؟ هل تحاول أن تسترق السَّمع؟ يكاد يكون في وسعها أن تحس بخوف عمها في الجو.

«لا». يقول، «لم يفعل يوماً».

إلى أختي العزيزة يوتا -

يهمس بعض الفتيان عن أن للدكتور هاوبتمان علاقات مع وزراء شديدي النفوذ. هو لن يجيب

لكنه يرغب في أن أساعده طوال الوقت! أذهب إلى ورشته في الأمسيات ويدفعني للعمل على دارات جهاز راديو يختبره. حساب مسائل المثلثات أيضاً.

يقول إن عليّ بذل ما في وسعي كي أكون مبدعاً، يقول إن الإبداع هو وقود الرايخ. لديه هذا الرجل الضّخم من الصّف الثاني، ينادونه بالعملاق، يقف فوقي حاملاً مؤقتاً ليختبر مدى سرعتي في الحساب. مثلثات مثلثات مثلثات. ربما أنهي خمسين عملية حسابية كل ليلة. هم لا يقولون لي السّبب. لن تصدقي عن السّلك النحاسي هنا، لديهم

.

عندما يأتي العملاق الجميع يفسحون الطريق. يقول الدكتور هاوبتمان إن في وسعنا أن نفعل أي شيء، أن نبني أي شيء. يقول إن الفوهرر جمع علماء لمساعدته على التحكم بالطقس. يقول إن الفوهرر سوف يطور صاروخاً يمكنه أن يصل إلى اليابان. يقول إن الفوهرر سوف يبني مدينة على القمر.

إلى أختي العزيزة يوتا -

اليوم حدثنا القائد في التمارين الميدانية عن راينر شيكر. كان عريفاً شاباً وقائده احتاج إلى شخص ليذهب خلف خطوط العدو لرسم خريطة دفاعاتهم.

طلب النقيب متطوعين وكان راينر شيكر الوحيد الذي نهض. لكن في اليوم التالي ألقي القبض على راينر شيكر. في اليوم التالي تماماً! ألقى البولنديون القبض عليه وعذّبوه بالكهرباء. قال القائد إنهم أخضعوه للكثير من الكهرباء حتى أن دماغه تميع، لكن قبل أن يفعلوا قال راينر شيكر أمراً رائعاً. قال: «أنا نادم فقط لأني لا أملك إلا حياة واحدة كي أفقدها من أجل وطني».

يقول الجميع إن هناك اختبار عظيم قادم. اختبار أصعب من جميع الاختبارات.

يقول فريدريك إن قصة راينر شيكر هي [illegible]

[illegible]

[illegible]

- فقط لأني أرافق العملاق - ويدعى فرانك فولكهايمر - يعاملني الفتيان الآخرون باحترام. أنا أصل فقط إلى خصره عملياً. هو يبدو رجلاً، وليس فتى. هو يمتلك إخلاصاً لراينر شيكر. في يديه وقلبه وعظامه. من فضلك قولي للسيدة إلينا إنني آكل الكثير هنا، لكن ما من أحد يصنع الكعك كما تفعل أو على الإطلاق حقاً. قولي للصغير زيغفريد أن يرى بحيوية. أفكر فيك كل يوم. زيغ هايل.

إلى أختي العزيزة يوتا -

البارحة كان يوم الأحد، وفي التمارين الميدانية ذهبنا إلى الغابة. معظم الصيادون على الجبهة، لذا الغابات ملأى بسمُّور الخز والغزلان. جلس الفتيان الآخرين في الظلال، وتحدثوا عن الانتصارات الرائعة، وعن السرعة التي سنعبر بها القنال وندمر

وكلاب الدكتور هاوبتمان عادت بثلاثة أرانب، واحد لكل منا، ما عدا فريدريك، عاد يحمل نحو ألف حبة توت في قميصه، وكانت أكمامه ممزقة من جمع العليق، وكيس منظاره ممزقاً، وقلت له: سوف تتلقى تقريعاً. ونظر إلى ملابسه كما لو أنه لم يرها يوماً من قبل!

يعرف فريدريك كل أنواع الطيور من خلال سماع أصواتها فحسب. سمعنا فوق البحيرة القبرات، وطائر الزقزاق، والزقزاق الشَّامي، وأنثى هرار، وربما عشرة أنواع أخرى نسيت أسماءها. سوف تحبين فريدريك على ما أظن. هو يرى ما لا يراه سواه. آمل أنك تعافيت الآن من السُّعال والسَّيدة إلينا أيضاً.

زيغ هايل.

عطّار

اسمه كلود ليفيت، لكن الجميع يطلقون عليه اسم كلود الكبير. منذ عقد من الزمن يدير متجراً للعطور في شارع فوبوريل: تجارة غير مجدية، لا تنجح إلا في موسم تمليح سمك القد عندما تبدأ أحجار البلدة نفسها ببعث رائحة كريهة.

لكن فرصاً جديدة قد أزفت، وكلود الكبير ليس ممن يفوتون الفرص. هو يدفع للمزارعين قرب كانكال مقابل ذبح النعاج والأرانب، يخفي كلود اللحوم في حقائب زوجته المصنوعة من مادة الفينيل، ويحملها بنفسه على متن القطار إلى باريس. الأمر سهل: في بعض الأسابيع قد يكسب مبلغاً وقدره خمسمئة فرنك. عرض وطلب. هنالك دوماً أعمال مكتبية، بالتأكيد، بعض المسؤولين في السلسلة يشمون الرائحة ويطلبون نسبة من الربح. يلزم عقل مثل عقل كلود لتجاوز صعوبات العمل.

اليوم درجة الحرارة مرتفعة، يسيل العرق على ظهره وجانبيه. سان مالو تُشوى. حلَّ شهر تشرين الأول، ورياح باردة صافية كان يجب أن تنصب من المحيط، كان على الأوراق أن تتساقط في الأزقة. لكن الرياح جاءت ومضت. كما لو أنها تقرر أن التغييرات لم ترق لها هنا.

طوال فترة الأصيل، يجثم كلود في متجره فوق المئات من القوارير الصَّغيرة من الزيوت العطرية المستخلصة من الأزهار، والشَّرقية،

والسرخسيات «الفوجير»، في الفترينة الزجاجية، بألوان الزهري والقرمزي والأزرق السَّماوي، ولا يدخل أحد، ومروحة كهربائية تهب عبر وجهه، إلى اليسار، ثم إلى اليمين، ولا يقرأ أو يتحرك على الإطلاق، إلا ليمد يده بشكل دوري تحت مقعده، ويلتقط من علبة مدوَّرة كمشة من البسكويت، يضعها في فمه.

نحو السَّاعة الرابعة من بعد الظُّهر، تتجول ثلَّة من الجنود الألمان في شارع فوبوريل. إنهم هزيلون، متوردو الوجوه، وجادون، نظراتهم وقورة، يوجهون أسلحتهم نحو الأسفل، يرمونها فوق أكتافهم مثل آلات كلارينيت. يتبادلون الضَّحكات وتحت خوذاتهم تتراءى مسحة ذهبية رحيمة.

يدرك كلود أنه كان عليه الشعور بالاستياء منهم، لكنه معجب بكفاءتهم وسلوكهم، الكفاءة الصَّرفة التي يتحركون بها. يبدون دوماً أنهم متجهون إلى مكان ما، ولا يشككون أبداً في أنه المكان الصائب. شيء افتقر إليه بلده.

ينعطف الجنود نحو شارع سان فيليب ويختفون. تتبع أصابع كلود أشكالاً بيضوية عبر قمة الفترينة. في الطابق العلوي تكنس زوجته باستعمال المكنسة الكهربائية، يمكنه سماعها تواصل دورانها. كان شبه غافٍ، وإذ به يرى الباريسي الذي يقيم على مسافة ثلاثة بيوت، يخرج من بيت إتيين لو بلان. رجل نحيل مدبب الأنف، يتوارى عند باب مكتب البرق، ينجر صناديق خشبية صغيرة.

يسير الباريسي في الاتجاه نفسه الذي سلكه الجنود الألمان، واضعاً كعب إحدى قدميه على أصابع القدم الأخرى. يصل نهاية الشارع، يخربش شيئاً على لوح كتابة، يلتفت مئة وثمانين درجة، ويعود. عندما يصل إلى آخر الكتلة السَّكنية، يحدق نحو منزل عائلة «ساجير» ويدون عدة ملاحظات.

ينظر أعلى، ينظر أسفل، يقيس. يقضم ممحاة قلم الرصاص كما لو أنه مرتبك.

يذهب كلود الضَّخم إلى النَّافذة. هذه أيضاً قد تكون فرصة. سوف ترغب سلطات الاحتلال في أن تعرف أن غريباً يذرع المسافات ويرسم المنازل. سوف يرغبون في معرفة أوصافه، من يدعم نشاطه. من أيَّده.

هذا جيِّد، هذا رائع.

زمن النعام

لم يعودا بعد إلى باريس. وحتى الآن لم تخرج. تعد ماري لور الأيام التي احتجزت فيها في منزل إيتيين. مئة وعشرون. مئة وواحد وعشرون. تفكر في جهاز الإرسال في العلية، كيف أرسل صوت جدها عبر البحر - تأملوا قطعة واحدة تتوهج في موقد عائلتكم - تبحر مثل داروين، من بليموث ساوند إلى كيب فيردي، إلى باتاغونيا، إلى جزر فوكلاند فوق الأمواج، عبر الحدود.

تسأل والدها: «عند إنهائك للمجسَّم، هل هذا يعني أن في وسعي الخروج؟».

العمل على ورق الزجاج لا يتوقف.

القصص التي يأتي بها زوار السَّيدة مانك إلى المطبخ مخيفة ويصعب تصديقها. الآن يكتب الرسائل أقارب باريسيون، لم يسمع عنهم أحد منذ عقود، يتوسلون ديكة مسمَّنة، لحم خنزير، دجاجاً. يبيع طبيب الأسنان النبيذ عبر البريد. يذبح العطار الخراف ويحملها في حقائب على متن القطار إلى باريس، حيث يبيع اللحم مقابل ربح كبير.

في سان مالو، يغرَّم الناس بسبب إقفال أبوابهم، وبسبب تربية الحمام، على ادخار اللحم. الكمأة تختفي. النبيذ الفوار يختفي. لا تواصل بالعيون. ما من حديث على العتبات. ما حمامات شمس، ما من غناء. ما من عشاق

يتنزهون عند الأسوار في الأمسيات - مثل هذه القواعد ليست مكتوبة، لكن كما لو أنها كذلك. تدوِّم رياح شديدة البرودة من الأطلسي، وإيتيين يحبس نفسه في غرفة أخيه القديمة، وماري لور تحتمل المطر الذي يهمي بطيئاً لساعات، بتمرير أصابعها على أصدافه في غرفة مكتبه، ترتيبها بحسب الحجم، بحسب النوع، بحسب التشكل، تتحقق مراراً من ترتيبها، تحاول أن تكون على يقين من أنها لم تخطئ في فرز أي واحدة.

لا ريب في وسعها الخروج لمدة نصف ساعة؟ على ذراع والدها؟ ومع ذلك كل مرة يرفض والدها، يتردد صوت من غرفة ذاكرتها: هم قد يأخذون الفتيات الكفيفات قبل أن يأخذوا الكسحاء.

يرغمونهن على فعل أشياء.

خارج جدران المدينة، تطوف بعض المراكب العسكرية جيئة وذهاباً، وخيوط الكتان حزمت وشحنت وحبكت حبالاً أو أكبالاً أو حبال لفتح الباراشوت، ونوارس صاعدة في الجو ترمي محارات أو بلح البحر أو حلزونات صدفية، والقعقعة المفاجئة على السَّطح تجعل ماري لور تسقيم في السَّرير. يفرض المحافظ ضريبة جديدة، وبعض من أصدقاء السَّيدة مانِك يتمتمن عن أنه باعهم، وأنهم في حاجة إلى رجل يفرض قبضته، لكن آخرون يسألون ماذا يفترض بالمحافظ أن يفعل. لقد أصبح معروفاً بزمن النَّعام.

- هل يجب أن نضع رؤوسنا في الرمل سيدتي؟ أو عليهم أن يفعلوا؟

تتمتم:

- ربما الجميع يفعل.

أخذت السَّيدة مانك تغط في النوم إلى الطاولة بجانب ماري لور. تستغرق وقتاً طويلاً في حمل الوجبات، إلى غرفة إيتيين، صاعدة خمس

مجموعات من الأدراج، تتنفَّس بجهد طوال الطريق. معظم الصَّباحات، تخبز السَّيدة قبل أن يستيقظ أحد، في الضحى تخرج إلى المدينة، في فمها سيجارة، لتحمل الكعك أو قدور من اليخنة لمريض أو لمتروك، وفي الأعلى يعمل والد ماري لور على المجسم، يصقل بأوراق الزجاج، يثبت بالمسامير، يقطع، يقيس، كل يوم يعمل بسعار أكبر من اليوم السابق كما لو أن لديه موعداً نهائياً لا يعرفه سواه.

الأضعف

ضابط الصَّف المسؤول عن التَّمارين الميدانية هو القائد، مدير مدرسة شديد الحماس يدعى «باستيان»، ذو مشية واسعة الخطى وبطن مدوَّر ومعطف يرتعش بأوسمة الحرب. وجهه مليء بندوب من آثار مرض الجدري، وكتفاه يبدوان كما لو أنهما كانا منحوتين من طين ناعم. ينتعل حذاءً عالي السَّاقين، مسمَّر النعلين، كل ثانية من كل يوم، والأغرار يطلقون النُّكات عن أنه شق طريقه خارج الرحم ركلاً.

يطلب باستيان استظهار الخرائط، دراسة زاوية الشَّمس، قطع أحزمتهم من جلد البقر. كل أصيل، مهما كان حال الطقس، يقف في حقل يصيح بقول مأثور: «يعتمد الرفاه على الضَّراوة. الأشياء الوحيدة التي تحفظ لجداتكم العزيزات شايهن وكعكهن، هي القبضات عند نهاية أذرعكم».

يتدلى مسدس عتيق من حزامه، يلتفت الأغرار الأكثر تحمساً إليه بعيون مشرقة. بالنسبة إلى فرنر يبدو قادراً على ارتكاب عنف شديد ورهيب.

يشرح مدوراً قطعة من خرطوم مطاطي فيطن طرفه على بعد بوصات من أنف الفتى: «الفيالق هي جسد، لا تختلف عن جسد الإنسان. فقط مثلما نطلب منكم أن تزيلوا الضعف من أجسادكم، لذا عليكم أيضاً أن تتعلموا أن تزيلوا الضعف من الفيالق».

ذات أصيل في شهر تشرين الأول، يقتلع باستيان من الصَّف فتح بأقدام محنية: «ستكون الأول. من أنت؟».

- بيكر سيدي.

- بيكر. أخبرنا يا بيكر، من هو أضعف الأعضاء في هذه المجموعة؟

فرنر يجبن. هو أقصر قامة من أي غرٍّ آخر في مثل عمره. يحاول أن يوسع صدره، يقف باستقامة بقدر استطاعته، بيكر ينظر مفتشاً عبر الصفوف.

- هو سيدي؟

يتنفس فرنر الصعداء، اختار بيكر فتى يقف بعيداً إلى يمين فرنر، واحداً من الفتيان القلة ذوي الشَّعر الأسود. إرنست. خيار آمن بما فيه الكفاية: في الواقع، إرنست عدَّاء بطيء. فتى لم تنمُ بعد ساقاه الشبيهتان بقوائم الحصان.

يدعو باستيان إرنست ليتقدم. ترتجف شفة الفتى السفلية وهو يستدير ليواجه المجموعة.

يقول باستيان: «البكاء الكثير لن يساعد» وينظر بإبهام نحو طرف الميدان القصي، حيث يقطع صف من الأشجار الغابة. «عليك أن تبدأ بعد عشر ثوانٍ. يجب أن تصل إلي قبل أن يصلوا إليك. هل فهمت؟».

لا يومئ إرنست ولا يهزُّ رأسه. يتظاهر باستيان بالإحباط.

«عندما أرفع يدي اليسرى، تركض. عندما أرفع يدي اليمنى، بقيتكم تركضون». يتهادى باستيان، حبل مطاطي حول عنقه، مسدس يتأرجح إلى خصره.

ستون فتى ينتظرون، يتنفسون. يفكر فرنر في يوتا، وشعرها البراق وعينيها السريعتين ووتيرتها الكليلة: ما كان ليكون صعباً معرفة أنها

الأضعف. يرتجف إرنست كله الآن، من رأسه حتى رسغيه وكعبيه. عندما يصبح باستيان، ربما على بعد مئتي ياردة، يستدير ويرفع يده اليسرى.

يركض إرنست، ذراعاه مستقيمتان تقريباً، وساقاه متباعدتان ومنفصلتان. يبدأ باستيان بالعد تنازلياً، من عشرة. يصرخ صوته الذاهل: «ثلاثة، اثنان. واحد». عند الصِّفر ترتفع ذراعه اليمنى وتنطلق المجموعة. الفتى داكن الشعر يتقدمهم بخمسين ياردة الأقل، لكن في الحال تبدأ المجموعة بالتقدم.

يحثون الخطى، يرمحون، يجرون بأقصى سرعة، تسعة وخمسون فتى في عمر الرابعة عشرة، يطاردون واحداً. يبقى فرنر في مركز المجموعة عندما تنتشر، يخفق قلبه في ذهول قاتم، يتساءل عن مكان فريدريك، لماذا يطاردون هذا الفتى، وماذا يفترض بهم أن يفعلوا إذا ألقوا القبض عليه.

إلا أنه، في جزء باطني من عقله، يعلم بالضَّبط ماذا سيفعلون.

عدد قليل من طلائع العدائين سريعين على نحو استثنائي، يتقدمون على الشخص الوحيد. ترتفع أطراف إرنست وتهبط باهتياج، لكن من الواضح أنه ليس متمرناً على العدو السريع، ويتباطأ. العشب يموج، الأشجار يقطعها نور الشَّمس عرضاً، والمجموعة تقترب، وفرنر يشعر بالانزعاج: لماذا لا يمكن لإرنست أن يكون أسرع؟ لماذا ليس قادراً؟ كيف اجتاز امتحان الدخول؟

يندفع أسرع الجنود بقوة نحو ظهر قميص الفتى. هو ينال منه تقريباً. سوف يلقى القبض على إرنست ذي الشعر الداكن، وفرنر يتساءل إذا ما كان جزء منه يرغب في حدوث ذلك. لكن الفتى يصل إلى القائد تفصله لحظة عن الآخرين الذين يتعاقبون خلفه.

تسليم إجباري

كان على ماري لور أن تلح على والدها ثلاث مرات قبل أن يقرأ المكتوب بصوت عال: على الأفراد من السكان التخلي عن جميع ما يملكون الآن من أجهزة راديو. يجب إرسال أجهزة الراديو إلى 27 شارع دو شارتريه قبل ظهر الغد. كل من يتلكأ عن تنفيذ هذا الأمر سوف يتم توقيفه باعتباره مخرباً.

للحظة يرين الصَّمت على الجميع، وفي داخل ماري لور، ينهض قلق قديم على قدميه.

- هل هو...؟

تقول السَّيدة مانك: «في غرفة جدك القديمة».

ظهر الغد. تفكر ماري لور، تحتل المستقبلات اللاسلكية والأجزاء المرفقة بها، نصف المنزل.

تقرع السَّيدة مانك على باب غرفة هنري ولا تلقى جواباً. في الأصيل يضعون العدة الموجودة في مكتب إيتيين في صندوق، السَّيدة وأبي يفكان أجهزة الراديو وينزلونها في عربات، ماري لور جالسة على الأريكة تصغي إلى الأجهزة تذهب واحداً واحداً: الراديولا فايف القديم، ج م ر. تيتان، ج م ر اورفيه. جهاز راديو ديلكو 32 فولط شحنه إيتيين من أميركا عام 1922.

يلف والدها الجهاز الأكبر في ورق مقوى ويستعمل عربة قديمة مدولبة لينزله على الدَّرج. تجلس ماري لور وأصابعها خدرة في حجرها تفكر في الآلة في العلية، في حبالها ومفاتيحها. جهاز إرسال صنع ليحدث الأشباح. هل هو مؤهل ليعمل كجهاز استقبال؟ هل يجب أن تذكره؟ هل أبي والسَّيدة مانك يعرفان؟ يبدو أنهما لا يعرفان. في المساء يتحرك ضباب نحو المدينة، يجلب معه رائحة سمك باردة، ويأكلون البطاطا والجزر في المطبخ والسَّيدة مانك تترك طبقاً عند باب غرفة هنري وتقرع الباب بلطف، لكن الباب لا ينفتح والطعام يبقى غير ممسوس.

تسأل ماري لور: «ماذا؟ ماذا سيفعلون بأجهزة الراديو؟».

يقول والدها: «يرسلونها إلى ألمانيا».

تقول السَّيدة مانِك: «أو يرمونها في البحر، تعالي يا طفلتي اشربي الشاي. هي ليست نهاية العالم. سوف أضع غطاء إضافياً على سريرك الليلة».

في الصَّباح يظل إيتيين حبيساً داخل غرفة أخيه. أما إذا ما كان يعلم ما يحدث في منزله أم لا، فهذا أمر ليس في وسع ماري لور أن تعرفه. عند العاشرة صباحاً يبدأ والدها بجر الشحنات إلى شارع «شارتريه»، رحلة، رحلتان، ثلاث، وعندما يعود ويحمل آخر جهاز على العربة لم يكن إيتيين قد ظهر بعد. تمسك ماري لور يد السَّيدة مانك وهي تصغي إلى صوت إغلاق البوابة، إلى صوت محور العربة يخبط عندما يدفعها والدها في شارع فوبوريل، وإلى الصَّمت الذي يحل ثانية بعد مضيه.

متحف

يستيقظ الرقيب الأول رينهولد فون رومبل باكراً. يرتدي بذلته الرسمية، يضع في جيبه عدسته وملاقط صغيرة، يرتدي قفازاته البيضاء. وعند السَّاعة السَّادسة صباحاً يكون في بهو الفندق بكامل حلته، حذاؤه ملمع، حقيبة المسدس مغلقة. يجلب له صاحب الفندق الخبز والجبنة في سلَّة من خيزران داكن، مغطاة بأناقة بمنديل قطني: كل شيء مرتب.

هناك متعة كبيرة في الخروج إلى المدينة قبل شروق الشَّمس، ومصابيح الشَّارع متوهجة، يوم باريسي يبدأ نشاطه. وفيما هو يصعد شارع «كوفييه» وينعطف نحو حديقة النباتات، تبدو الأشجار ضبابية وجليلة: مظلات انتصبت من أجله فقط.

يحب أن يكون مبكراً.

عند مدخل الغراند غالوري، حارسا ليل متصلبان. ينظران إلى الخطوط على رقعة ياقته وأكمامه، تتضيق الحبال في حنجرتيهما. ينزل رجل ضئيل في قميص صوفي أسود الدرج معتذراً بالألمانية، يقول إنه مساعد المدير. لم يتوقع وصول الرقيب الأول قبل ساعة.

يقول فون رومبل: «يمكننا التَّحدث بالفرنسية».

يعدو خلفه مسرعاً رجل ثان ذو بشرة هشة ورعب واضح من الاتصال بالعين.

يتنفس مساعد المدير قائلاً: «شرف لنا أن نريك المجموعات، أيها الرقيب الأول. هذا عالم المعادن البروفسور هوبلين».

يطرف هوبلين مرتين، يضفي انطباعاً عن حيوان مزروب. يراقب زوج الحراس من طرف الممر.

- هل لي أن أحمل سلتك؟

- لا داعي لذلك.

معرض المعادن ممتد على مسافة طويلة للغاية، لا يستطيع فون رومبل أن يرى نهايته إلا بالكاد. في أقسام، خزانات العرض تتوالى فارغة، أشكال صغيرة على رفوفها المكسوة باللباد تعلِّم الصور الظلية لأي شيء تمت إزالته. يتجول فون رومبل وسلته على ذراعه ناسياً أن يفعل أي شيء سوى النظر. أي ثروة تركوا خلفهم! مجموعة باهرة من كريستال التوباز الأصفر على مصفوفة رمادية. قطعة زهرية ضخمة من زمرد مصري مثل دماغ متبلور. عمود بنفسجي من التورمالين من مدغشقر، يبدو فاخراً للغاية لا يمكنه مقاومة الرغبة في ضربه. بورنونيت، أباتيت على موسكوفيت، زركون طبيعي في رشة من الألوان، عشرات المعادن لا يمكنه تسمينها. يفكر: ربما يتعامل هؤلاء الرجال مع كمية من الأحجار الكريمة خلال أسبوع تفوق ما رأى طوال حياته.

كل قطعة مسجلة في مخطوطات تنظيمية كبيرة استغرق جمعها قروناً. يريه هوبلين الشاحب صفحات. «أنشا لويس الثالث عشر المجموعة كخزانة من الأدوية الطبية، اليشب للكلى، الوحل للمعدة، وهكذا. كان هناك مئتا ألف مادة مدونة في الجدول عام 1850، إرث معدني لا يقدر بثمن...».

بين الحين والآخر، يسحب فون رومبل دفتره من جيبه ويدون ملاحظة.

يأخذ وقته. عندما يصلون إلى النهاية، يمرر مساعد المدير أصابعه عبر حزامه. «نأمل أنه قد أثار إعجابك أيها الرقيب الأول. هل استمتعت بجولتك؟».

«للغاية». الأضواء الكهربائية في السقف متباعدة كثيراً، والصَّمت مسطير على المكان الضَّخم. «لكن»، يقول معلناً ببطء شديد: «ماذا عن المجموعات غير المعروضة للعلن؟».

يتبادل مساعد المدير وعالم المعادن النظرات، «لقد رأيت كل ما يمكننا أن نريك إياه أيها الرقيب الأول».

يحافظ فون رومبل على صوته مهذباً. متحضراً. باريس ليست بولندا في النهاية. يجب أن تكون الأمواج مصنوعة بعناية. لا يمكن الاستيلاء على الأمور ببساطة. ما الذي اعتاد والده أن يقول؟ انظر للعقبات على أنها إمكانيات، رينهولد. انظر للعقبات على أنها إلهام. يقول: «هل هناك من مكان يمكننا التحدث فيه؟».

يحتل مكتب مساعد المدير زاوية مليئة بالغبار في الطابق الثالث تطل على الحدائق: مصنوع من خشب الجوز، بارد، مزين بفراشات مثبتة وخنافس في إطارات متناوبة. على الجدار خلف مكتبه الذي يزن نصف طن تتدلى الصورة الوحيدة: صورة فحمية لعالم الأحياء الفرنسي «جان بابتسيت لامارك».

يجلس مساعد المدير خلف المكتب، وفون رومبل أمامه وسلته بين قدميه. يقف عالم المعادن. تجلب السكرتيرة طويلة العنق الشاي.

يقول هوبلين: «نحن نستحوذ دائماً، صحيح؟ في شتى أنحاء العالم، يهدد التصنيع الودائع المعدنية. نحن نجمع كل ما هو موجود من أنواع المعادن. بالنسبة إلى أمين متحف، لا شيء أهم من الآخر».

يضحك فون رومبل. يقدر بإعجاب أنهم يحاولون ملاعبته. ألا يفهمون أن الرابح معلوم سلفاً؟ يضع فنجان الشاي ويقول: «أحب أن أرى عيناتكم الأكثر حماية. أنا مهتم على وجه الخصوص في عينة أنا أعتقد أنكم أخرجتموها فقط مؤخراً من مخازنكم».

يجرف مساعد المدير يده اليسرى عبر شعره ويطلق عاصفة من القشرة.

- أيها الرقيب الأول، المعادن التي رأيتها ساهمت في اكتشافات في الكيمياء الكهربائية، في قوانين أساسية في علم البلوريات الرياضي. دور المتحف الوطني هو أن يعمل متجاوزاً رغبات وأهواء جامعي التحف، أن يحمي من أجل أجيال المستقبل...

يبتسم فون رومبل:

- سوف أنتظر.

- أنت تسيء فهمنا، يا سيد. لقد رأيت كل ما يمكننا أن نريك إياه.

- سوف أنتظر لأرى ما لا يمكنكم أن تروني إياه.

يحدق مساعد المدير في كوب الشاي. عالم المعادن يبدل قدماً بأخرى، يظهر أنه يتصارع مع غضب داخلي. يقول فون رومبل بالفرنسية: «أنا موهوب تماماً في الانتظار. إنها واحدة من مهاراتي العظيمة. لم أكن يوماً أجيد الرياضة أو الحساب، لكن حتى في صباي، امتلكت صبراً غير طبيعي. كنت لأنتظر مع أمي وهي تسرح شعرها. قد أجلس في الكرسي وأنتظر لساعات لا مجلات لا ألعاب، لا أؤرجح ساقي جيئة وذهاباً حتى، كل الأمهات كن متأثرات للغاية».

تململ كل من الرجلين الفرنسيين. خلف باب المكتب، أي آذان تصغي؟ يقول فون رومبل لهوبلين: «من فضلك اجلس لو رغبت في ذلك»، ويربت على الكرسي الذي بجانبه. لكن هوبلين لا يجلس. الوقت

يمر. يبتلع فون رومبل آخر رشفة من الشَّاي ويضع الفنجان بحذر شديد على حافَّة مكتب مساعد المدير. في مكان ما مروحة كهربائية تطن، تدور لفترة، وتتوقف.

يقول هوبلين: «ليس واضحاً ما ننتظره، أيها الرقيب الأول».

- أنا أنتظر أن تكون صادقاً.

- إذا كان في إمكاني...

«ابق». يقول فون رومبل: «اجلس. أنا واثق أن أحدكما كان سيلتزم التعليمات، لن تسمع الآنسة التي تبدو مثل زرافة، هل ستسمع؟».

يصالب مساعد المدير ويعيد مصالبة ساقيه. تجاوز الوقت فترة الظهر.

يحاول مساعد المدير: «ربما قد ترغب في رؤية الهياكل العظمية؟ قاعة الإنسان مثيرة تماماً. ومجموعتنا الحيوانية هي أبعد...».

- أحبُّ أن أرى المعادن التي لم تكشفوها للعامة، واحداً على وجه الخصوص.

تتلطخ حنجرة هولبين باللونين الزهري والأبيض. لا يجلس. يبدو مساعد المدير مستكيناً لمأزق ويسحب كومة سميكة من الورق من درج ويبدأ بالقراءة. هوبلين يتحرك كما لو أنه يهمُّ بالمغادرة، لكن فون رومبل يكتفي بالقول: «من فضلك ابقَ إلى أن نحل هذا».

يفكِّر فون رومبل: الانتظار، نوع من الحرب. أنت تقول لنفسك ببساطة أن عليك ألا تخسر.

يرنُّ هاتف مساعد المدير ويمد يده نحو سماعة الهاتف، لكن فون رومبل يرفع يده، والهاتف يرن عشر مرات أو إحدى عشرة مرة ثم يصمت. تمضي نصف ساعة من الوقت ربما، يحدِّق هوبلين بشريطتي حذائه، يدوِّن

مساعد المدير الملاحظات بين الحين والآخر في مخطوطه بقلم فضّي، يبقى فون رومبل كلياً بلا حراك، من ثمَّ هناك قرع بعيد على الباب.

يأتي الصَّوت: «أيها السادة؟».

ينادي فون رومبل: «نحن بخير، شكراً لك».

يقول معاون المدير: «لدي مسائل أخرى عليَّ متابعتها أيها الرقيب الأول».

لا يرفع فون رومبل صوته: «عليك أن تنتظر هنا. كلاكما. سوف تنتظران هنا معي إلى أن أرى ما أتيت لرؤيته. من ثم جميعنا سنعود إلى أعمالنا المهمة».

يرتجف ذقن عالم المعادن. تبدأ المروحة ثانية بالعمل، ثم تتوقف. يخمن فون رومبل: مؤقت خمس دقائق. ينتظر أن تبدأ وتتوقف مرة ثانية. ثم يرفع سلته في حجره. يشير إلى الكرسي. يقول بصوت رقيق: «اجلس أيها البروفسور. سوف تكون مرتاحاً أكثر».

هوبلين لا يجلس. الساعة الثانية في المدينة، وأجراس تقرع في مئة كنيسة. مشاة على الدروب. تتهاوى آخر أوراق الخريف نحو الأرض.

يفرد فون رومبل المنديل على حجره، يرفع الجبنة. يكسر الخبز ببطء، مرسلاً شلالاً موفوراً من قشور الخبز على منديله. وهو يمضغ يمكنه تقريباً أن يسمع أحشاءهما ترتجف. لا يقدم لهما شيئاً. عندما ينتهي يمسح زاويتي فمه.

- لقد أسأتما فهمي أيها السادة. أنا لست حيواناً. أنا لست هنا لتدمير مجموعاتكم. هي تنتمي إلى أوروبا جمعاء، إلى الإنسانية جمعاء، أليست كذلك؟ أنا هنا فقط من أجل شيء صغير. شيء أصغر من عظمة رضف ركبكما.

ينظر إلى عالم المعادن وهو يقول ذلك. فيغض طرفه متورداً.

يقول مساعد المدير: «هذا سخيف أيها الرقيب الأول».

يطوي فون رومبل منديله ويعيده إلى السلة ويضع السلة على الأرض. يلعق طرف إصبعه ويلتقط الفتات عن سترته واحدة واحدة. ثم ينظر مباشرة إلى مساعد المدير.

- مدرسة شارلمان الثانوية، هل هذا صحيح؟ في شارع شارلمان؟

يتمدد الجلد حول عيني مساعد المدير.

يستدير فون رومبل في كرسيه: «حيث تذهب ابنتك إلى المدرسة؟ وكلية ستانيسالس، أليست كذلك يا دكتور هوبلين؟ أين يذهب ولداك التوأم؟ في شارع نوتردام دي شان؟ أليسا هما ذانك الفتيين الوسيمين اللذين يستعدان للذهاب إلى البيت الآن؟».

يضع هولبين يديه على ظهر الكرسي الفارغ بجانبه، ومفاصل أصابعه تصبح شديدة الشحوب.

- واحد يحمل كماناً والآخر فيولا، هل أنا محق؟ يعبران كل تلك الشّوارع المزدحمة. تلك مشية طويلة على فتية بعمر عشر سنوات.

يجلس مساعد المدير باستقامة شديدة. يقول فون رومبل: «أعرف أنه ليس هنا، أيها السادة. حتى أدنى بواب لن يكون غبياً إلى درجة ترك الألماسة هنا. لكني أود أن أرى أين أخفيتموها. أحب أن أعرف نوع المكان الذي تعتقدون أنه آمن بما فيه الكفاية».

لا يقول أي من الرجلان الفرنسيان شيئاً. يستأنف مساعد المدير النظر إلى مخطوطه، ولو أنه واضح لفون رومبل أنه لم يعد يقرأ. عند الساعة الرابعة تقرع السكرتيرة الباب وثانية فون رومبل يرسلها بعيداً. يركز فقط على رمش العيون. نبض في عنقه. تيك تاك تيك تاك، يفكر أن الآخرين

قد يفعلون هذا بجدارة أقل. قد يستعملون ماسحات ضوئية، متفجِّرات، مواسير مسدسات، عضلات. يستعمل فون رومبل أرخص المواد، الدقائق فقط، والسَّاعات.

خمسة أجراس. يرشح الضوء من الحدائق.

يقول مساعد المدير، يداه مسطحتان على مكتبه. ينظر أعلى الآن: «أيها الرقيب الأول من فضلك، لقد تأخر الوقت كثيراً. عليَّ أن أتبول».

«خذ راحتك» يومئ فون رومبل بيد واحدة نحو علبة معدنية للمهملات بجانب المكتب.

يغضن عالم المعادن وجهه. ثانية، يرن الهاتف. يمضغ هوبلين الجلد حول أظافره. يظهر الألم في وجه مساعد المدير. المروحة تدور. في الحدائق، ينتشر ضوء النهار من الأشجار ولا يزال فون رومبل ينتظر.

يقول لعالم المعادن: «زميلك، رجل منطقي، أليس كذلك؟ هو يشك في الأساطير. لكنك تبدو أكثر اندفاعاً. أنت لا ترغب في أن تصدق، أنت تقول لنفسك ألا تصدق. لكنك تصدق». يهزُّ رأسه ويردف كلامه: «لقد حملت الماسة، لقد شعرت بقوتها».

يقول هوبلين: «هذا سخيف» تنقلب عيناه مثل عيني مهر خائف. «هذا ليس سلوكاً متحضراً، هل أطفالنا في أمان أيها الرقيب؟ أنا أطلب أن تدعنا نعرف بشكل حاسم إذا كان أطفالنا في مأمن».

- رجل العلم، ومع ذلك تؤمن بالأساطير. أنت تؤمن بقوة السبب، لكنك أيضاً تؤمن بالحكايات الخيالية. الإلهات واللعنات.

يزفر مساعد المدير بحدة ويقول: «يكفي».

يرتفع نبض فون رومبل: هل حدث هذا فعلاً؟ بهذه السهولة؟ قد ينتظر يومين آخرين، ثلاثة، بينما صفوف من الرجال تتكسر نحوه كالأمواج.

- هل أطفالنا في أمان، أيها الرقيب الأول؟

- إذا كنت تتمنى أن يكونوا.

- هل لي أن أستعمل الهاتف؟

يومئ فون رومبل. يمد مساعد المدير يده نحو سماعة الهاتف، يقول: «سيلفي»، ويصغي إلى حين، ثم يضعه. تدخل المرأة مع حلقة من المفاتيح. من درجٍ في مكتب مساعد المدير، تخرج مفتاحاً آخر معلق بسلسلة. بسيط، أنيق، طويل الذراع.

باب صغير مقفل عند مؤخرة المعرض الرئيس. يحتاج إلى مفتاحين لفتحه، ومساعد المدير يبدو غير خبير بالقفل. يقودان فون رومبل نحو درج حجري ملولب، في الأسفل يفتح مساعد المدير بوابة ثانية.

يلفون عبر شبكات من دهاليز، يمران بحارس يرمي صحيفته ويضع مدك البندقية باستقامة عندما يمرون. في مخزن متواضع ممتلئ بملاءات عريضة وفراش من قش وصناديق، خلف رقاقة من خشب، يكشف عالم المعادن عن خزنة بسيطة مدمجة يفتحها مساعد المدير بسهولة.

ما من إنذار. فقط الحارس الوحيد.

داخل الخزنة صندوق ثان أكثر إثارة للاهتمام. إنه ثقيل بما فيه الكفاية حتى أنه يتطلب كلاً من مساعد المدير وعالم المعادن لرفعه.

أنيق، أثار النجارة غير مرئية. ما من اسم علامة تجارية، ما من قفل عليه. من المحتمل أنه مجوف لكن من دون مفاصل مرئية، ما من مسامير، ما من نقاط ربط، إنه يبدو مثل كتلة صلبة من خشب مصقول بإتقان. عمل مشغول بشكل خاص.

يدخل عالم المعادن مفتاحاً في فجوة متناهية في الصِّغر لا تكاد تكون مرئية في الأسفل، عندما يدور، ينفتح ثقبان آخران على الجانب المقابل.

يدخل مساعد المدير المفاتيح المطابقة في تلك الفجوتين، يفتحان ما يبدو مثل خمسة مقابض مختلفة.

ثلاثة أقفال أسطوانية متراكبة، كل واحد يعتمد على التالي.

يهمس فون رومبل: «بارع».

ينفتح الصندوق بكامله برفق.

في الداخل كيس صغير من اللباد.

يقول: «افتحه».

ينظر عالم المعادن إلى مساعد المدير. يتناول مساعد المدير الكيس ويحل فتحته ويقلب حزمة ملفوفة في راحته. بإصبع واحد يفرق الثنايا. في الداخل حجر أزرق بحجم بيضة الحمام.

الخزانة

غُرِّم سكَّان المدينة ممن خالفوا أمر إطفاء الأنوار أو تم استدعاؤهم من أجل الاستجواب، ولو أن السَّيدة مانك تقول إن المصابيح في مستشفى «أوتيل ديو»، مضاءة طوال الليل، والضُّباط الألمان يتخبطون دخولاً وخروجاً في كل حين، يسوون قمصانهم وسراويلهم. تظل ماري لور يقظة، في انتظار أن تسمع حركة عمها. أخيراً تسمع الباب عبر القاعة ينفتح، وأقدام تحفُّ بالألواح. تتخيل فأراً من كتاب للحكايات يزحف خارجاً من جحره.

تنزل من السَّرير، تحاول ألا توقظ والدها، وتتوجَّه نحو القاعة.

تهمس: «عمِّي لا تخف».

– ماري لور؟

رائحته مثل رائحة شتاء قادم، قبر، جمود الوقت الثقيل.

– هل أنت بخير؟

– أفضل.

يقفان على سفرة الدَّرج.

تقول ماري لور: «كان هناك مكتوب تركته السَّيدة مانك على مكتبك».

– مكتوب؟

- أجهزة الراديو خاصتك.

ينزل إلى الطابق الخامس. يمكنها سماعه يسعل سعالاً خفيفاً. يمرر أصابعه عبر رفوفه التي فرغت مؤخراً. أصدقاء قدامى رحلوا. تتحضر لصرخات الغضب، لكنها تسمع أغنية للأطفال سريعة الإيقاع بدلاً من ذلك: ..بسبب السلطة أنا مريض، بسبب الكرفس أنا معافى...

تمسك بمرفقه، تساعده على الجلوس على الكنبة. هو لا يزال يتمتم، محاولاً أن يحدث نفسه بشكل أعمق، ويمكنها أن تحس بالخوف ينزح منه، قاسياً، ساماً، يذكرها بأبخرة تموج من أحواض الفورمالين في قسم الحيوانات.

يطرق المطر على ألواح النوافذ. يأتي صوت إيتيين من بعيد: «كلها؟».

- ليس الراديو الذي في العلية. لم أشر إليه. هل تعرف السَّيدة مانك بأمره؟

- لم نتحدث عنه أبداً.

- هل هو مخفي يا عم؟ هل يمكن لأحد أن يراه إذا تم تفتيش البيت؟

- من قد يفتش البيت؟

صمت يرين.

يقول: «في وسعنا تشغيله. نقول إننا سهونا عنه؟».

- كان آخر موعد البارحة ظهراً.

- قد يتفهمون.

- عماه، هل تعتقد حقاً أنهم سيتفهمون أنك سهوت عن تسليم جهاز إرسال يمكن أن يصل بثه إلى إنكلترا؟

المزيد من الأنفاس اللاهثة. دوران الليل على مرتكزاته الصَّامتة.

يقول: «ساعدني». يجد رافعة سيارة في غرفة الطابق الثَّالث، ومعاً يصعدان إلى الطابق السادس ويغلقان باب غرفة جدها ويركعان بجانب الخزانة الضخمة من دون أن يجازفا بإشعال الضُّوء أو حتى شمعة واحدة. هو يزلق الرافعة تحت الخزانة ويرفع الجانب الأيسر. تحت قائمتيها يزلق بسطاً مطوية ثم يرفع الجانب الآخر ويفعل المثل.

«الآن ماري لور، ضعي يديك هنا وادفعي». تشعر بالإثارة عندما تفهم: سوف يضعان الخزانة أمام الباب الصغير المفضي إلى العلية.

- بكل قوتك، جاهزة؟ واحد اثنان ثلاثة.

تنزلق الخزانة الضخمة مسافة بوصة. تقرقع الأبواب ذات المرايا الثقيلة قليلاً وهي تنزلق. تشعر كما لو أنهما يدفعان منزلاً على الجليد.

يقول إيتيين: «كان والدي يقول إن المسيح نفسه ما كان ليكون في وسعه أن يحمل هذا الخزانة إلى هنا. وأنهم لا بد بنوا المنزل من حولها. مرة أخرى الآن، جاهزة؟».

يدفعان، يستريحان، يدفعان، يستريحان. أخيراً تستقر الخزانة أمام الباب الصَّغير، والمدخل إلى العلية مسدود. يرفع إيتيين كل قائمة ثانية، يسحب البسط من تحتها، ويهبط إلى الأرض، يتنفس بصعوبة، وماري لور تجلس بجانبه. ينامان قبل أن ينتشر الفجر عبر المدينة.

شحارير

التفقد. الفطور. دراسة شكل الجمجمة، تدريب على البندقية، تدريب عسكري. إرنست ذو الشَّعر الأسود يترك المدرسة بعد خمسة أيام من تصنيفه على أنه الأضعف في تمرين باستيان. يغادر اثنان آخران في الأسبوع الذي يليه. الستون يصبحون سبعة وخمسين. يعمل فرنر كل مساء في مختبر الدكتور هاوبتمان، يضع الأرقام في صيغ مثلثية أو هندسية بالتناوب: يريد منه هاوبتمان أن يطور فعالية وقوة جهاز مرسل - مستقبل اتجاهي يصممه. يقول الدكتور الصَّغير إنه يجب إعادة ضبطه سريعاً كي يبث على ترددات متعددة، ويجب أن يكون قادراً على قياس زاوية ما يتلقاه من بث. هل في وسع فرنر أن يتدبر هذا؟

يكاد يعيد تكوين كل شيء في التصميم. بعض الليالي يصبح هاوبتمان ثرثاراً، فيشرح دور ملف لولبي أو مقاومة كهربائية بتفصيل كبير، حتى أنه يصنف عنكبوتاً متدلياً من رافدة خشبية، أو يتحمس بشأن اجتماعات العلماء في برلين، ويقول إنه يبدو أن كل محادثة هناك تميط اللثام عن إمكانية جديدة. النظرية النسبية، النظرية الكميَّة، في مثل هذه الليالي يبدو سعيداً، حتى أنه يتحدث عن كل ما يسأل عنه فرنر.

مع ذلك في الليلة التالية بالذَّات، كان هاوبتمان منغلقاً على نفسه بشكل مخيف، لا يرحب بأي سؤال، ويراقب عمل فرنر بصمت. وكون

الدكتور هاوبتمان مرتبطا بعلاقات مع كبار المسؤولين - والهاتف على مكتبه يصله برجال يبعدون مئات الأميال، ربما في وسعهم أن يرسلوا، بإشارة من إصبعهم، عشرات الطائرات لتتدفق من مهبط وتقصف ثمة مدينة - أمر يفتك بفرنر.

نحن نعيش في أزمنة استثنائية.

يتساءل إذا ما كانت يوتا قد غفرت له. تصرُّ رسائلها غالباً على توافه الأمور - نحن منشغلون، السَّيدة إلينا ترسل لك التحية - أو أنها تصل إلى سريره مليئة بعلامات الرقابة، وبالتالي فقد فسد معناها. هل تحزن لغيابه؟ أو هل تحجرت مشاعرها، حمت نفسها، كما يتعلم هو أن يفعل؟

مثل هاوبتمان، يبدو فولكهايمر مليئاً بالتناقضات. يرى الفتيان الآخرون العملاق وحشاً، آلة من قوة صِرفة، ومع ذلك، أحياناً عندما يكون هاوبتمان في برلين، سوف يتوارى فولكهايمر في مكتب الدكتور ويعود حاملاً راديو أنبوب «جروندِج»، ويرفع هوائي الموجة القصيرة، ويملأ المختبر بالموسيقى الكلاسيكية. موزرات، باخ، وحتى الإيطالي فيفالدي. كلما كان صوت الموسيقى شجياً أكثر كلما كان أفضل. قد يتكئ الفتى الضَّخم إلى الوراء في كرسي، يصدر صريراً احتجاجاً على ضخامته، ويزلق جفنيه في نصف إغماضه.

لماذا دوماً مسائل المثلثات؟ ما الغرض من جهاز المرسل المستقبل الذي يصنعونه؟ ما هما النقطتان اللتان يعرفهما هاوبتمان، ولماذا يحتاج إلى معرفة النُّقطة الثالثة؟

يقول هاوبتمان: «إنها مجرد أرقام، أيها الغرّ. رياضيات بحتة. عليك أن تروِّض نفسك على التفكير بتلك الطريقة». حكمته المفضَّلة.

لدى فرنر عدة نظريات عن فريدريك، لكنه يعلم أن فريدريك يتجول

كما لو أنه في قبضة حلم، سرواله واسع للغاية على محيط خصره، وقد أخذت خياطة حواشيه بالتمزق. عيناه كلاهما كثيفتان وغائمتان، لا يبدو أنه يدرك عندما يخطئ أهدافاً في الرماية إلا بالكاد. معظم الليالي يتمتم فريدريك لنفسه قبل أن يخلد إلى النَّوم: شذرات من قصائد، عادات الإوز، خفافيش سمعها تتهافت بحذاء النوافذ. طيور، دوماً طيور.

«...الآن، تطير خطافات بحر قطبية، يا فرنر، من القطب الجنوبي إلى القطب الشَّمالي، ملَّاحون للكوكب حقيقيون، ربَّما أكثر المخلوقات تنقُّلاً، سبعين ألف كيلومتر في السَّنة...».

ينعكس لمعان نور شتوي على الإسطبلات والكروم ومكان التَّدرب على الرمي، وتحلق طيور مغردة فوق التِّلال، شباك كبيرة واسعة من العصافير في طريقها نحو الجنوب، ممر للهجرة يجري فوق أبراج المدرسة تماماً. مرة كل حين، يحطُّ سرب في إحدى أشجار الزيزفون الضَّخمة المزروعة في السَّاحات، ويهتاج تحت أوراقها.

بعض الفتيان الأكبر سناً، أغرار تتراوح أعمارهم بين ستة عشر وسبعة عشر عاماً، أتيح لهم الوصول إلى الذَّخيرة بحرية أكبر، يظهرون ولعاً بإطلاق وابل من الرصاص على الأشجار، ليروا كم يمكنهم أن يصيبوا من الطيور. تبدو الشَّجرة غير مسكونة وهادئة، ثم يطلق أحدهم النار، فتتشظَّى قمتها في كل اتجاه، ويندفع مئة طائر محلقين في رفَّة عين، زاعقين كما لو أن الشَّجرة برمتها قد تمزَّقت إرباً.

ذات ليلة، في نافذة مبنى الطلبة، يريح فريدريك جبهته على الزجاج ويقول: «أكرههم. أكرههم لذلك».

يرنُّ جرس العشاء ويهرول الجميع، يدخل فريدريك أخيراً، بعينيه الصَّغيرتين وشعره بلون السُّكر المحروق، جاراً شريط حذائه. يغسل فرنر

لفريدريك صفيحة طعامه، يشاركه حل الوظائف المدرسية، طلاء الحذاء، حلويات من عند الدكتور هاويتمان، يهرعان جنباً إلى جنب في أثناء تمارين الميدانية. يضغط مسمار نحاسي بخفة على طيات سترتي كل منهما، تلمع مئة وأربع عشرة جزمة مسمرة النعال إزاء الحصى على الممر. تلوح القلعة بأبراجها وشرفات حصونها تحتهما مثل رؤيا مبهمة من مجد آفل. يعدو دم فرنر عبر بطيني قلبه، يفكِّر في جهاز المرسل مستقبل الخاص بهاويتمان، بلحام الصَّهر، الصَّمامات، البطاريات، الهوائيات، يمس حذاؤه وحذاء فريدريك الأرض في اللحظة نفسها تماماً.

SSG35 A NA513 NL WUX

نسخة ثانية من برقية مسجَّلة بالهاتف

10 كانون الأول 1940

السَّيد دانيل لوبلان

سان مالو - فرنسا

= عد إلى باريس نهاية الشَّهر = سافر بشكل آمن =

حمّام

دفعة واحدة أخيرة من التَّغرية والصَّقل بورق الزجاج، وسينهي والد ماري لور مجسَّم سان مالو. إنه غير مطلي، بعيد عن الكمال، مخطط بنصف دزينة من أنواع مختلفة من الخشب، ويفتقر إلى التفاصيل. لكنه مكتمل بما فيه الكفاية كي تستعمله ابنته إذا توجَّب عليها ذلك: المضلَّع غير المنتظم للجزيرة المؤطرة بالأسوار، كل واحد من مبانيه الثمانمئة وخمسة وستين في مكانها.

يشعر بالتشتت. لأسابيع كان المنطق يخيبه. الحجر الذي طلب المتحف منه حمايته ليس حقيقياً. لو كان حقيقياً، لكان المتحف أرسل رجالاً ليستردوه. لمَ إذاً عندما ينظر إليه بواسطة عدسة مكبِّرة، تكشف أعماقه عن خناجر صغيرة من اللهب؟ لماذا يسمع وقع أقدام خلفه عندما لا يوجد أحد؟ ولماذا يجد نفسه مستمتعاً بفكرة سخيفة مفادها أن الحجر الذي يحمله في الكيس الصَّغير في جيبه جلب له التعاسة، عرَّض ماري لور للخطر، وربما عجَّل باجتياح كامل فرنسا حقاً؟

حماقة شديدة، مثيرة للسخرية.

كان قد جرَّب كل اختبار يمكن أن يخطر في باله من دون أن يقحم روحاً آخرى.

حاول أن يطويه بين قطع من اللباد ويضربه بمطرقة، لم يتكسر.

حاول أن يخدشه بحصى مشطورة من الكوارتز، لم ينخدش.

حاول أن يعرضه للهب الشَّمعة، يغرقه، يغليه في الماء. كان قد أخفى الجوهرة تحت الفراش، في علبة أدواته، في حذائه. ذات ليلة، دسَّه لعدة ساعات في نبتة السَّيدة مانك، في أصيص زهور في النَّافذة، ثم أقنع نفسه أن زهرة الجيرانيوم كانت تذوي وأخرج الحجر.

هذا الأصيل، يلوح وجه مألوف في محطة القطار، ربما يليه بأربعة أو خمسة أشخاص في مؤخرة الطابور. كان قد رأى ذلك الرجل من قبل، قصير بدين، يتعرَّق، مزدوج الذَّقن. تلاقت نظراتهما، تنزلق تحديقة الرجل بعيداً. جار إيتيين. العطَّار.

منذ أسابيع، بينما كان يأخذ المقاسات من أجل المجسَّم، رأى صانع الأقفال هذا الرجل نفسه فوق الأسوار يوجِّه آلة تصوير نحو البحر. قالت السَّيدة مانك إنه ليس رجلاً جديراً بالثقة، لكنه مجرد رجل ينتظر في طابور لشراء تذكرة.

منطق. مبدأ الجدوى. لكل قفل مفتاحه.

لمدة فاقت الأسبوعين، ترددت برقية المدير في رأسه. يا له من خيار ملتبس بشكل مؤلم من أجل ذلك الأمر الأخير - سافر بشكل آمن! هل يعني هذا أن يجلب الحجر أو يتركه؟ يصحب ماري لور أو يتركها؟ يسافر بالقطار؟ أو بوسائط نقل أخرى، أكثر أماناً نظرياً؟

وماذا لو -يفكِّر صانع الأقفال- لم يكن المدير من أرسل البرقية على الإطلاق؟

تدور وتدور الأسئلة. عندما يحين دوره على الشباك، يشتري تذكرة لمسافر واحد على متن قطار الصَّباح إلى «رين»، من ثمَّ إلى باريس، ويعود سيراً على الأقدام عبر الشَّوارع الضيقة المظلمة إلى شارع فوبوريل.

سيفعل هذا ثم سوف ينتهي. يعود إلى العمل، في مكتب حفظ المفاتيح، يقفل على الأشياء. خلال أسبوع، سوف يركب عائداً خالي الوفاض إلى بريتاني ويجلب ماري لور.

على العشاء، قدمت السَّيدة مانك حساء اللحم والخبز الفرنسي. فيما بعد يقود ماري لور على السلالم المتداعية إلى حمَّام الطابق الثَّالث. يملأ الحوض الحديدي الكبير ويدير ظهره وهي تخلع ملابسها.

يقول: «استعملي من الصَّابون قدر ما تحبين، لقد اشتريت كمية إضافية». تذكرة القطار مطوية في جيبه مثل خيانة.

تدعه يغسل لها شعرها. تمرر ماري لور أصابعها مراراً وتكراراً عبر رغوة الصَّابون، كما لو أنها تحاول أن تزنها. لطالما شعر بقدر ضئيل من الذُّعر، مدفون عميقاً، عندما يتعلق الأمر بابنته: الخشية من كونه ليس أباً جيداً، وأنه يقوم بكل شيء على نحو خاطئ. وأنه لم يفهم يوماً القواعد. كل تلك الأمهات الباريسيات يدفعن عربات الأطفال عبر حديقة النباتات أو يحملن ستراً صوفية في متاجر المقاطعة - بدا له أن تلك النسوة يتبادلن الإيماءات في أثناء مرورهن، كما لو أن كل واحدة كانت تعرف سراً أنه لم يفعل. كيف لك أن تعرف على وجه اليقين أنك تقوم بالعمل الصَّائب؟

مع ذلك هناك فخر أيضاً - فخر لأنه أنجز هذا كله. وأن ابنته شديدة الفضول، سهلة التكيف. هناك خنوع ما كونه أباً لشخص صلب للغاية، كما لو أنه كان مجرَّد قناة ضيقة لشيء آخر أكثر عظمة. هكذا يبدو له الأمر الآن، وهو يفكِّر جاثياً بجانبها يغسل شعرها: كما لو أن حبه لابنته سوف يتخطى حدود جسده. يمكن للجدران أن تتهاوى، حتى المدينة برمتها، ولن ينحسر بريق ذلك الشُّعور.

يئن المصرف، يضيق المنزل الممتلئ بأشياء مبعثرة. ترفع ماري وجهها المبلل.

- أنت مغادر، ألست كذلك؟

يسعده -الآن فقط- أنها لا تستطيع أن تراه.

- حدثتني السَّيدة عن البرقية.

- لن أتأخر ماري، أسبوع، عشرة أيام على الأكثر.

- متى؟

- غداً، قبل أن تستيقظي.

تنحني على ركبتيها. ظهرها طويل وأبيض تشقه عقد فقراتها. اعتادت أن تخلد إلى النَّوم وهي تقبض على سبَّابته. اعتادت أن تتمدد وكتبها تحت مقعد مكتب حفظ المفاتيح، وتمرر يديها مثل عناكب عبر الصَّفحات.

- هل سأبقى هنا؟

- مع السَّيدة وإيتيين.

يناولها منشفة ويساعدها على الصُّعود على البلاط، وينتظر في الخارج بينما ترتدي قميص نومها. ثم يمشي معها إلى الطابق السَّادس وإلى غرفتهما الصَّغيرة، ولو أنه يعرف أنها ليست في حاجة إلى من يقودها، ويجلس على حافة السَّرير، وتركع بجانب المجسَّم وتضع ثلاث أصابع على برج الكاتدرائية. يعثر على فرشاة الشَّعر ولا يكلِّف نفسه عناء إضاءة المصباح.

- عشرة أيام، أبي؟

- على الأكثر.

تصدر الجدران صريراً، النَّافذة بين الستائر سوداء اللون، تستعد البلدة للنوم. في مكان ما هناك، تنزلق غوَّاصات ألمانية فوق وهاد تحت مائية، وحبَّار بطول ثلاثين قدماً ينقل عيونه الهائلة عبر الظلمة الباردة.

- هل سبق أن أمضينا ليلة متباعدين؟

«لا». يجول بنظره في أرجاء الغرفة غير المضاءة. يكاد الحجر في جيبه أن ينبض. لو استطاع إلى النَّوم سبيلاً هذه الليلة ما الذي سيحلم به؟

- هل يمكنني الخروج فيما أنت مسافر أبي؟

- حالما أعود. أعدك.

يمرر الفرشاة بحنو قدر مستطاعه، عبر خصلات شعر ابنته المبلل. بين الضَّربات يمكنهما سماع رياح البحر تخشخش النَّافذة.

تهمس يدا ماري لور عبر المنازل وهي تسرد أسماء الشَّوارع. «شارع كورديه، شارع جاك كارتيه، شارع فوبوريل».

يقول: «سوف تعرفينها جميعاً خلال أسبوع».

تطوف أصابع ماري لور نحو الأسوار الخارجية. البحر من وراءها.

«عشرة أيام؟». تقول.

- على الأكثر.

الأضعف #2

يمتصُّ كانون الأول الضُّوء من القلعة. تكاد الشَّمس لا تنير الأفق حتى تأفل. يهطل الثَّلج مرة، مرتين، ثم يستقر على المروج. هل سبق لفرنر أن رأى الثلج بمثل هذا البياض، ثلجاً لا يتلوث في الحال بالرماد وغبار الفحم؟ المرسلون الوحيدون من العالم الخارجي هم فقط الطائر المغرد الذي يحط في أشجار الزيزفون خلف باحة المدرسة، مشرداً من عاصفة بعيدة أو معركة أو كلاهما، وعريفان بوجوه فتيَّة يأتيان إلى حجرة الطعام كل أسبوع تقريباً - دوماً بعد الصَّلاة، دوماً بعد أن يضع الفتية أول لقمة من العشاء في أفواههم تماماً - ليمرا تحت زخرفة لشعار النبالة، ويتوقفان خلف جندي غر، ويهمسان في أذنه خبر مقتل والده في المعركة.

في ليالٍ أخرى يصرخ تلميذ مفوَّض قائلاً: انتباه! ويقف الفتية إلى مقاعدهم، ويتهادى القائد باستيان. يحدق الفتية في طعامهم بصمت، بينما يتجول باستيان عبر الصفوف ممرراً سبابته على ظهورهم. «مشتاقون إلى الوطن؟ ليس علينا أن نزعج أنفسنا بالتفكير في بيوتنا. ففي النهاية نحن جميعاً أتينا إلى الفوهرر. أي بيت آخر يهم؟».

يصرخ الفتيان: «لا بيت آخر!».

كل أصيل، مهما كان حال الطقس، يصفِّر القائد بصفارته، ويهرول

الفتيان البالغون من العمر أربعة عشر عاماً إلى الخارج، ويلوح لهم بمعطفه المنبسط على بطنه، وأوسمته ترن، والخرطوم المطاطي يدوِّم.

يقول فتندفع سحب أنفاسه في البرد: «هناك نوعان من الموت، يمكنكم أن تقاتلوا مثل الأسد. أو يمكنكم الهلاك بسهولة كما تنزع شعرة من فنجان حليب. اللاشيء، النكرات - يموتون بسهولة».

يجرف عينيه على طول الصُّفوف، ويلوِّح بخرطومه، ويفتح عينيه على نحو مؤثر. «كيف ستموتون أيها الفتيان؟».

ذات أصيل عاصف يُسحب هيلموت رودل من الصَّف. هيلموت طفل ضئيل غير واعد من الجنوب يكوِّر يديه طوال ساعات يقظته تقريباً.

يدوِّم القائد الخرطوم: «ومن يكون يا رودل؟ في رأيك، من هو العضو الأضعف في الكتائب؟».

يسارع هيلموت إلى القول: «هو سيدي».

يشعر فرنر بشيء ثقيل يسقط عبره. يشير رودل مباشرة نحو فريدريك.

ينادي باستيان على فريدريك كي يتقدم. إذا كان وجه صديقه يمتقع خوفاً، فإن فرنر لا يمكنه أن يراه. يبدو فريدريك شارد الذِّهن. رابط الجأش تقريباً. يلف باستيان خرطومه حول عنقه ويتمشَّى في الميدان مجهداً، يصل الثَّلج حتى قصبتي ساقيه، يتريَّث، إلى أن يصبح أكثر من كتلة داكنة بقليل عند الحافَّة القصيَّة. يحاول فرنر أن ينظر في عيني فريدريك، لكن عينيه بعيدتان.

يرفع القائد ذراعه اليمنى ويصيح: «عشرة!».

والكلمة تبليها الرِّيح عبر المنفسح الطويل. يطرف فريدريك عدَّة مرات كما يفعل غالباً عندما يخاطب في الصَّف، منتظراً أن تلحق حياته الداخلية بالخارجية.

«تسعة!».

يهمس فرنر: «اركض».

فريدريك عدَّاء مقبول، أسرع من فرنر، لكن يبدو أن القائد يعدُّ بسرعة هذا الأصيل، وأسبقية فريدريك اختزلت، كما أن الثلج يعوقه، وعندما يرفع باستيان ذراعه اليسرى لم يكن قد اجتاز أكثر من عشرين ياردة.

ينطلق الفتية. يركض فرنر مع الآخرين، يحاول أن يبقى في مؤخرة المجموعة، تضرب بنادقهم على ظهورهم في إيقاع غير منتظم. يبدو أن أسرع الفتية يجري بسرعة أكبر من المعتاد، كما لو أنه قد سئم من أن يسبقه أحد.

يعدو فريدريك بإصرار. لكن أسرع الفتيان بدوا مثل كلاب صيد، تم انتقاؤهم من جميع أرجاء الدولة لسرعتهم وحماسهم للخضوع، ويبدو لفرنر أنهم يركضون بلهفة وبحسم أكبر مما سبق. هم تواقون إلى معرفة ما الذي سوف يحدث إذا ما ألقي القبض على أحدهم.

كان بين فريدريك وباستيان خمس عشرة خطوة عندما أوقعوه أرضاً. تلتئم المجموعة حول طلائع العدائين عندما ينهض فريدريك واللاحقون به على أقدامهم، جميعهم مكسوون بالثلج. يتقدَّم باستيان بخطى واسعة. يحيط الأغرار بمعلمهم، تجيش الصُّدور، الكثير منهم أيديهم على ركبهم. أنفاس الفتيان تنبض أمامهم في سحابة سريعة الزوال جماعية عرتها الريح سريعاً. يقف فريدريك في الوسط يلهث ويرمش بأهدابه الطويلة.

«لا يستغرق وقتاً طويلاً»، يقول باستيان بلطف كما لو أنه يخاطب نفسه: «أن يتم الإمساك بالأول».

ينظر فريدريك نحو السَّماء.

يقول باستيان: «أيها الغرّ هل أنت الأضعف؟».

- لا أعرف سيدي.

«لا تعرف؟» وقفة. يتدفّق في وجه باستيان تيّار تحتي من العداء. «انظر إليَّ عندما تتحدث».

- بعض الناس ضعفاء بطريقة ما سيدي، والآخرون بطريقة أخرى.

شفاه القائد رقيقة، وعيناه ضيقتان، وسيماء من الحقد البطيء والكثيف تبرز في وجهه. كما لو أن سحابة انجرفت بعيداً، وللحظة ظهرت حقيقة باستيان، وشخصيته البغيضة. يسحب الخرطوم من حول عنقه ويناوله لرودل.

يطرف رودل عالياً نحو جسامته. يحثُّه باستيان: «هيَّا، إذاً».

في سياق آخر ربما كان ليشد من عزم فتى ممانع كي يخطو نحو الماء البارد.

- أسدِ إليه معروفاً.

ينظر رودل نحو الخرطوم: أسود، يبلغ طوله ثلاث أقدام، صلب في البرد. تمرُّ عدة ثوان تقريباً، ومع ذلك تبدو لفرنر كما لو أنها ساعات، وتندفع الريح عبر العشب المتجمد، مرسلة نسمات عليلة وحزم من الثلج تصفُر عبر البياض، وموجة من شوق مفاجئ إلى زولفرين تتدحرج في داخله: أصائل الصّبا متجولاً عبر الجحور المبقّعة بالسُّخام، يجرُّ أخته الصّغيرة في العربة. وحل في الأزقة، الصُّراخ الأجشُّ لأطقم العمل، الفتيان في أسرتهم ينامون في اتجاهين متعاكسين، بينما تتدلى معاطفهم وبناطيلهم من مشاجب على طول الجدران. مرور السّيدة إلينا في منتصف الليل بين الأسرة مثل ملاك، متمتمة: أعرف أن الطّقس بارد، لكني بجانبكم، أترون؟

يوتا، أغمضي عينيك.

يتقدَّم رودل ويلوِّح بالخرطوم ويلطم فريدريك على كتفه. يتراجع فريدريك خطوة إلى الوراء. تسوط الريح الميدان. يقول باستيان: «ثانية».

كل شيء يبدو غارقاً في بطء قبيح وعجيب. يتراجع رودل ويضرب. هذه المرة أصاب فريدريك في فكِّه. برغم فرنر عقله على مواصلة تذكر صور من البيت: الغسيل، أصابع السَّيدة إلينا الزهرية المكدودة، كلاب في الأزقة، بخار يهبُّ من الأكوام - كل جزء منه يريد أن يصرخ: أليس هذا خطأ؟

لكنه هنا صواب.

يستغرق وقتاً طويلاً. يصمد فريدريك ضربة ثالثة. يأمر باستيان: «ثانية».

عند الضَّربة الرابعة، يرفع فريدريك ذراعيه والخرطوم يضرب ساعديه ويتعثر. يلوِّح رودل ثانية، ويقول باستيان: «في مثالك السَّاطع، يا أيها المسيح، قد الطريق دائماً وأبداً»، والأصيل برمته ينعطف جانبياً، ينفتح متمزقاً، يشاهد فرنر المشهد ينسحب كما لو أنه يلاحظه من طرف نفق بعيد: حقل صغير أبيض، جمع من الفتية، أشجار عارية، لعبة قلعة، لا يتفوق أحدها على قصص السَّيدة إلينا عن طفولتها في الألزاس أو على رسومات يوتا عن باريس، واقعيةً.

ست مرات أخرى، يسمع رودل يلوح والخرطوم يصفر واللطمة الخامدة الغريبة للمطاط تضرب يدي فريدريك، كتفيه، ووجهه. يمكن لفردريك المشي لساعات في الغابة، يمكنه التَّعرف إلى الطيور المغردة على بعد خمسين ياردة بمجرد سماع تغريدها. فريدريك لا يفكر في نفسه إلا بالكاد. فريدريك أقوى منه بكل شكل يمكن تخيله من الأشكال. يفتح فرنر فمه لكنه يغلقه ثانية، يغرق، يغلق عينيه، عقله.

عند حدٍّ معين يتوقف الضَّرب. وجه فريدريك في الثلج.

«سيدي؟». يقول رودل لاهثاً.

يستعيد باستيان الخرطوم من رودل، ويرميه حول عنقه، ويمد يده أسفل بطنه ليشد حزامه. يركع فرنر قرب فريدريك ويقلبه على جنبه. دم يجري من أنفه أو عينه أو أذنه، ربما منها جميعاً. إحدى عينيه الآن متورمة ومغمضة، الأخرى تظل مفتوحة. يدرك فرنر أن انتباهه فقط نحو السَّماء. يتعقَّب شيئاً في الأعلى.

يجازف فرنر بنظرة نحو إلى الأعلى: صقر وحيد، يركب الريح.

يقول باستيان: «انهض».

يقف فرنر. فريدريك لا يتحرك.

يقول باستيان بهدوء أكبر هذه المرة: «انهض»، وينهض فريدريك على ركبته. يقف، متأرجحاً. خدُّه مجروح وينزُّ لوالبَ من الدَّم. تظهر بقع من البلل على ظهره حيث ذاب الثَّلج في قميصه. فرنر يمد لفريدريك ذراعه.

- أيها الغر هل أنت الأضعف؟

لا ينظر فريديك إلى القائد.

- لا سيدي.

لا يزال صقر يدوِّم هناك. يفكر القائد المهيبة ملياً لبعض الوقت. ثم يرن صوته الصَّافي مرفرفاً فوق المجموعة، يحثهم على الجري. سبعة وخمسون غراً يعبرون السَّاحات ويهرولون على الدَّرب الثلجي نحو الغابة. يجري فريدريك بجانب فرنر، عينه اليسرى تتورم، ينزف الدم في خديه من شبكتين متماثلتين، ياقته مبللة وبنية.

الأغصان تفور وتقرقع. يغني الفتيان السبعة والخمسين جميعهم بانسجام.

سوف نزحف إلى الأمام،

حتى لو تحطم كل شيء،

لأن الأمة تسمعنا اليوم،

وغداً العالم بأسره!

شتاء في غابات ساكسونيا القديمة. لا يجازف فرنر بإلقاء نظرة أخرى نحو صديقه. هو يسرع عبر البرد، بندقية غير محشوة على كتفه. هو في الخامسة عشرة من عمره تقريباً.

اعتقال صانع الأقفال

أوقفوه على مشارف «فيتريه» التي تبعد مسافة ساعات عن باريس.

رجلا شرطة بزيهما الكامل يدفعانه من قطار، بينما يحدق اثنا عشر مسافراً. استجوب في شاحنة، وثانية في مكتب أرضي شديد البرودة، مزين برسومات منجزة على نحو سيئ بالألوان المائية لسفن بخارية عابرة للمحيطات. أول المحققين فرنسيون، بعد ساعة يصبحون ألماناً. يلوحون بدفتره وعلبة أدواته. يرفعون حلقة مفاتيحه، ويعدون سبعة مفاتيح مختلفة من النوع الذي يفتح جميع الأقفال. يريدون أن يعرفوا: ماذا تفتح هذه، وكيف تستعمل هذه المبارد الصَّغيرة والمناشير؟ ماذا عن هذا الدفتر الزاخر بمقاييس معمارية؟

مجسَّم من أجل ابنتي.

مفاتيح للمنحف حيث أعمل.

من فضلكم.

يجبرونه على السَّير موثَّق اليدين إلى زنزانة. قفل الباب ومفاصله كبيرة للغاية وأثريَّة، لا بد من أنها تعود إلى عهد لويس الرابع عشر. ربما نابليون. في أي ساعة الآن قد يظهر المدير أو جماعته ويشرحون كل شيء. بالتأكيد هذا سوف يحدث.

في الصَّباح يخضعه الألمان إلى جولة استجواب ثانية، أكثر إيجازاً،

بينما يقرقع ضارب على آلة كاتبة في الركن. يبدو أنهم يتهمونه بالتآمر لتدمير قلعة سان مالو، مع ذلك السَّبب الذي يدعوهم لذلك ليس واضحاً. لا يتقنون اللغة الفرنسية إلا قليلاً، ويبدون أكثر اهتماماً بأسئلتهم من أجوبته. يحرمونه من الحصول على الورق، البياضات، الهاتف. يملكون صوراً له.

يتلهَّف لتدخين السَّجائر. يتمدَّد على الأرض ويتخيَّل نفسه يقبِّل ماري لور قبلة على كلِّ عين، وهي نائمة. بعد مرور يومين على توقيفه، يقاد إلى زريبة للماشية تبعد مسافة بضعة أميال، في ضواحي ستراسبورغ. عبر شرائح سياج خشبية، يشاهد فرقة من تلميذات باللباس الرسمي، تمشين في صفٍّ مزدوج في شمس الشِّتاء المشرقة.

يجلب حرَّاس شطائر معلبة، جبنة قاسية، ماءً كافياً. ربما يوجد في الزريبة ثلاثون شخصاً آخرون، نائمين على فراشٍ من القش فوق وحل متجمد. أغلبهم فرنسيون، لكن البعض بلجيكيون، وأربعة فلاندريون، واثنان من والونيا. اتهموا جميعهم بجرائم لا يتحدثون عنها إلا بتحفظ، جزعين من أي فخ قد يتربص لهم ضمن أي سؤال يطرحه عليهم. في الليل، يتبادلون الشَّائعات همساً.

يقول أحدهم: «سوف نظل في ألمانيا لبضعة شهور فقط» والنبأ ينتقل من شخص إلى آخر.

- فقط للمساعدة في زراعة محاصيل الربيع بينما رجالهم في الحرب.

- ثم سوف يرسلوننا إلى الوطن.

يفكِّر كل رجل أن هذا مستحيل، من ثم: قد يكون حقيقة. فقط بضعة أشهر. ثم الوطن.

ما من محامٍ مكلف رسمياً. ما من محكمة عسكرية. يمضي والد ماري

لور ثلاثة أيام يرتعش في زريبة الماشية. ما من منقذ يصل من المتحف، ما من سيارة ليموزين من المدير تندفع مسرعة في الزقاق. لن يسمحوا له بكتابة الرسائل. عندما يطلب استعمال الهاتف، لا يكلف الحراس أنفسهم عناء الضَّحك. «هل تعلم متى كانت آخر مرة استعملنا فيها هاتفاً؟».

كل ساعة هي صلاة من أجل ماري لور، كل نفَس.

في اليوم الرابع، كدِّس جميع السُّجناء على متن شاحنة للماشية وسيقوا شرقاً.

يهمس الرجال: «نحن قريبون من ألمانيا». يمكنهم أن يلمحوها على الجانب القصي من النهر. كتل منخفضة من أشجار عارية محاطة بحقول تكسوها طبقة خفيفة من الثلج. صفوف سوداء من الكروم. أربع شرائط منقطعة من دخان رمادي تذوب في سماء بيضاء.

ينظر صانع الأقفال شزراً. ألمانيا؟ لا تبدو مختلفة عن هذا الجانب من النهر.

قد تكون أيضاً حافَّة جرف صخري.

أربعة

8 آب 1944

حصن دو لا سيتيه

يصعد الرقيب الأول فون رومبل سلماً في الظلمة. يمكنه أن يشعر بالعقد اللمفاوية تنبض على جانبي عنقه، ضاغطة على المريء والقصبة الهوائية. وزنه مثل خرقة وهو يصعد الدرج.

ينظر إليه اثنان من رماة المدافع داخل برج المرقَب من تحت حافتي خوذتيهما. لا يعرضان مساعدة، لا يلقيان التحية. البرج الصَّغير متوَّج بقبَّة فولاذية، ومستعمل في المقام الأول لبسط مدافع أكبر متمركزة في الأسفل. إنه يوفر إطلالة على البحر نحو الغرب، المنحدرات في الأسفل، جميعها منظومة بسلك معقَّد، ومباشرة، على الجهة الأخرى من المياه، على بعد نصف ميل، تقع مدينة سان مالو المحترقة.

توقف القصف، ونيران ما قبل الفجر، ضمن الجدران، أصبحت مستقرة، تبلغ. غدت الحافَّة الغربية للمدينة مِحرقة من تدرجات اللون القرمزي، تصعد منها أبراج دخانية متعددة. تخثَّر أكبرها فأصبح عموداً مثل سحابة من بقايا بركانية ورماد وبخار، تتكتل أعلى بركان ثائر. يظهر الدُّخان من البعيد، صلباً على نحو غريب، كما لو أنه منحوت من خشب مضيء. على امتداد حدودها الخارجية، تصعد شرارات، ورماد ينهمر، ووثائق حكومية ترفرف: مخططات خدمات عامة، أوامر شراء، سجلات ضريبية.

بمنظار مزدوج، يشاهد فون رومبل ما قد تكون خفافيش تضطرم

وتتمايل فوق الأسوار. تثور فورة من الشَّرر عميقاً داخل منزل - محوِّل تيار كهربائي أو مخزن وقود أو ربما قنبلة موقوتة - ويبدو له كما لو أن برقاً يسوط البلدة من الدَّاخل.

يطلق أحد الرماة تعليقات ضعيفة الخيال حول الدُّخان، حصان ميت في وسعه رؤيته عند قاعدة الجدران، كثافة أرباع محددة من دوائر النَّار. كما لو أنهما نبيلان جالسان في المدرجات المسقوفة يشاهدان حرب حصون في عهد الصليبيين. يشد فون رومبل ياقته عن الأورام في حنجرته، يحاول ابتلاع ريقه.

يختفي القمر وراء الأفق، وتضاء السَّماء من الشرق، تنسحب حافَّة الليل بعيداً، آخذة معها النجوم واحدة واحدة، إلى أن يبقى نجمتان فقط. «فيجا» ربما. أو الزُّهرة. لم يعرف قط.

يقول رامي المدفعية الثَّاني: «برج الكنيسة تدمَّر».

في اليوم السَّابق، فوق سقوف البيوت المتعرِّجة، برج الكنيسة متجه باستقامة نحو الأعلى، يسمو على كل ما عداه. لكن ليس هذا الصَّباح. سرعان ما تعلو الشَّمس خط الأفق، واللهب البرتقالي يفسح مكاناً للدخان الأسود المرتفع على طول الجدران الغربية، ويهب مثل غشاء، عبر القلعة.

أخيراً، لبضع ثوان، يتفرَّق الدخان فترة طويلة بما فيه الكفاية لينظر رومبل في متاهة المدينة المسننة، وينتقي ما يبحث عنه: القسم العلوي من منزل مرتفع ذي مدخنة عريضة. نافذتان مرئيتان، بغير زجاج. يتدلى مصراع، وثلاثة أخرى في مكانها.

الرقم 4 شارع فوبوريل. لا يزال سليماً. تمر ثوان يحجبه دخان ثانية.

طيَّارة وحيدة تعبر عبر الليل الحالك، مرتفعة بشكل لا يصدق. ينكفئ فون رومبل نازلاً السُّلم الطويل إلى أنفاق الحصن في الأسفل. محاولاً ألا

يعرج، وألا يفكر في التورمات في أعلى رأس فخذه. في المخزن تحت الأرضي، يستند رجال على الجدران، يغرفون دقيق الشُّوفان من خوذاتهم المقلوبة. المصابيح الكهربائية ترميهم ببرك متناوبة من الوهج والظِّل.

يجلس فون رومبل على صندوق ذخيرة، ويتناول الجبن من أنبوب. كان العقيد المسؤول عن الدفاع عن سان مالو قد ألقى خطباً على هؤلاء الرجال، عن البسالة، عن كيف أنه في أية ساعة قطاع القائد «هرمان جرينج» سوف يكسر الخط الأميركي عند «افرانشيه»، وكيف سينهمر الدَّعم من إيطاليا، وربما من بلجيكا، دبابات وطائرات، حمولات شاحنات من قذائف الهاون 50 مليميتر، كيف يؤمن سكان برلين بهم مثلما تؤمن راهبة بالله، وكيف أنه ما من أحد سوف يتخلَّى عن موقعه، وإذا ما فعل سوف يعدم باعتباره فاراً من الجندية، لكن فون رومبل يفكر في الكرمة في داخله. كرمة سوداء نمت أغصانها عبر ساقيه وذراعيه. تقضم جوفه من الدَّاخل. هنا في هذا الحصن - شبه الجزيرة، تماماً خارج سان مالو، مفصولاً عن الخطوط المتراجعة، تبدو مسألة وقت فقط حتى تعج المدينة بالكنديين والبريطانيين، والعيون الأميركية الصَّافية لجنود القطَّاع الثَّالث والثَّمانين، يطهرون البيوت من الغزاة الألمان، يفعلون ما يفعلونه عندما يأخذون أسرى.

فقط مسألة وقت ريثما تخنق الدَّالية السَّوداء قلبه.

«ماذا؟». يقول جندي بجانبه.

يستنشق فون رومبل: «لا أظن أني تفوَّهت بأي شيء».

يعود الجندي لينظر في دقيق الشُّوفان في خوذته.

يعصر فون رومبل آخر ما بقي من الجبنة المالحة السَّيئة، ويرمي الأنبوب الفارغ بين قدميه. المنزل لا يزال هناك. لا يزال جيشه يحتل

المدينة. لبضع ساعات سوف تضطرم النيران، ومن ثم سوف يحتشد الألمان كالنَّمل عائدين إلى مواقعهم ويقاتلون يوماً آخر.

سوف ينتظر. ينتظر وينتظر، وعندما ينجلي الدُّخان، سوف يدخل.

ورشة الإصلاح

يتلوَّى المهندس بيرند ألماً، يهرس وجهه في ظهر الكرسي الذَّهبي. خطب ما في ساقه وما هو أسوأ في صدره.

جهاز الراديو ميؤوس منه. السِّلك الكهربائي مقطوع، وسلك التَّوصيل مع الهوائي فوق سطح الأرض مفقود، ولن يتفاجأ فرنر إذا كانت لوحة التحكم مكسورة. بواسطة الضُّوء الواهن لكشاف فولكهايمر، يحدِّق في قابس مهشَّم بعد آخر.

يبدو أن القصف خرَّب حاسة السَّمع في أذنه اليسرى. أذنه اليمنى، بقدر ما يعتقد، تتحسن تدريجياً. خلف الطنين، يبدأ بالسَّماع.

تكتكة النيران وهي تنطفئ.

زحير الفندق في الأعلى.

قطرات متنوعة وغريبة.

وفولكهايمر وهو يرفس بشكل متقطع، بجنون، الحطام الذي يسد سفرة الدرج. تقنية فولكهايمر فيما يبدو هي التالي: يجثم تحت السَّقف المحدَّب، يلهث، ممسكاً بقطعة من الحديد المسلح المفتول بيد. يضيء كشَّافه الكهربائي ويفحص بيت الدَّرج المكتظ، بحثاً عن أي شيء يمكن أن يسحبه منه. يستظهر مواضع الأشياء. ثم يطفئ المصباح، ليحافظ على

بطاريته، ويمضي في مهمته في العتمة. عندما يضاء النُّور من جديد، تبدو فوضى بيت الدَّرج على حالها: اضطراب مرصوص من الحديد والآجر والخشب، سميك للغاية حتى أنه يصعب أن تصدِّق أن عشرين رجلاً تمكنوا من الدُّخول عبره.

«رجاء». يقول فولكهايمر. لا يستطيع فرنر أن يعرف ما إذا كان يدرك أنه يقول ذلك بصوت مسموع، أو لا، لكن فرنر يسمعه بأذنه اليمنى مثل صلاة بعيدة. «رجاء، رجاء». كما لو أن كل شيء في الحرب حتى هذه اللحظة كان مقبولاً في نظر فرانك فولكهايمر، البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، إلا هذه المظلومية الأخيرة.

لا بدَّ من أن النيران في الأعلى امتصَّت الأوكسجين حتى آخره من هذه الفجوة الآن. كان ينبغي أن يكونوا مختنقين جميعاً. الديون سددت، الحسابات سويت، ومع ذلك هم يتنفسون. تحمل الروافد الثلاثة المتشظية في السَّقف ما لا يعرفه إلا الله: عشرة أطنان من فندق متفحِّم، وجثث ثمانية رجال من سلاح المدفعية المضاد للطائرات، وذخائر غير منفجرة لا تعد ولا تحصى. ربما فرنر من أجل العشرة آلاف خيانة صغيرة، وبيرند من أجل جرائمه التي لا حصر لها، وفولكهايمر لكونه الآلة، منفِّذ الأوامر، نصل الرايخ - ربما ثلاثتهم عليهم أن يدفعوا ثمناً أكبر، قرار أخير سوف يتم استلامه.

في البداية قبو القرصان، شيِّد لحفظ الذَّهب، الأسلحة، تجهيزات غريبة لتربية النحل. ثم قبو للنبيذ. ثم ركن لعمال التصليح: ورشة إصلاح، يفكر فرنر، حجرة لإجراء الإصلاحات. مكان مناسب لا يختلف عن سواه. بالتأكيد قد يوجد أناس في العالم يؤمنون أن هؤلاء الثلاثة لديهم ما يصلحونه.

علبتان

تستيقظ ماري لور، والمنزل المصغَّر مثبَّت تحت صدرها، وهي تتعرَّق في معطف عمها.

هل طلع الفجر؟ تصعد السُّلم وتضغط أذنها على الباب الأرضي. توقفت صفارات الإنذار. ربما المنزل احترق عن بكرة أبيه فيما كانت نائمة. أو ربما نامت خلال السَّاعات الأخيرة من الحرب وحُررت المدينة. قد يكون هناك أناس في الشُّوارع: متطوعون، شرطة، رجال إطفاء. حتى أميركيين. عليها أن تصعد عبر الباب الأرضي، وتخرج من الباب الأمامي على شارع فوبوريل.

لكن ماذا لو أن ألمانيا احتلت المدينة؟ ماذا لو أن الألمان الآن يسيرون من منزل إلى آخر، يطلقون النار على من يريدون؟ سوف تنتظر. في أية لحظة قد يكون إيتيين آتياً نحوها، يصارع رمقه الأخير للوصول إليها. أو هو جاثم في مكان ما يحتضن رأسه. يرى شياطين.

أو أنه ميت.

تقول لنفسها أن تدَّخر الخبز، لكنها جائعة والرغيف أخذ يجف، وسرعان ما أتت عليه.

لو أنها فقط جلبت روايتها معها.

تطوف ماري لور القبو بقدميها المجوربتين. يوجد بساط ملفوف،

تجويفه مملوء بما تفوح منه رائحة أشبه بنشارة الخشب: فئران. صندوق يحتوي على أوراق قديمة. مصباح عتيق. مؤن السَّيدة مانك المعلَّبة. وهنا عند مؤخرة رف قرب السَّقف، أعجوبتان صغيرتان. علبتان مليئتان! لم يبقَ في المطبخ بكامله أي طعام إلا بالكاد - فقط شوفان وحزمة من الخزامى واثنتان أو ثلاث زجاجات من نبيذ البوجوليه كريه الرائحة - لكن هنا في القبو علبتان ثقيلتان.

بازلاء؟ فاصولياء؟ ذرة؟ ربما. تصلي ألا يكون زيتاً، أليست علب الزَّيت أصغر حجماً؟ عندما تهزهما لا تستطيع أن تعرف. تحاول ماري لور أن تحسب احتمالات أن تحتوي إحداهما على خوخ السَّيدة مانِك، الخوخ الأبيض من لانجيدوك الذي كانت تشتري منه صندوقاً وتقشره وتقطعه أرباعاً وتغليه مع السُّكر. كان المطبخ ليمتلئ برائحته ولونه، وتصير أصابع ماري لور دبقة منه، نوع من النشوة.

علبتان فوَّتهما إيتيين.

لكن أن ترفع آمال المرء يعني أن تجازف بانهيارها أيضاً. سواء كانت بازلاء أو فاصولياء، ستكون سعيدة بهما للغاية. تودع علبة في كل جيب من جيوب معطف عمها، وتتحقق ثانية من المنزل الصَّغير في جيب فستانها، وتجلس على صندوق وتقبض على عصاها بكلتا يديها، وتحاول ألا تفكر في مثانتها.

مرَّة، عندما كانت في الثَّامنة أو التَّاسعة من عمرها، صحبها والدها إلى «البانثيون» في باريس، ليشرح لها عن رقَّاص فوكو، عن تمايله، كان جسماً كروياً ذهبياً مثل رأس طفل، تأرجح من سلك بطول سبعة وستين متراً، ولأن مساره تغير مع مرور الزَّمن، أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الأرض تدور. لكن ما تذكرته ماري لور، وهي واقفة إلى الحاجز عندما صفَّر، كان

قول والدها إن رقّاص فوكو لن يتوقّف أبداً. فهمت أنه سوف يظل يتأرجح، بعد أن تغادر هي ووالدها البانثيون، بعد أن تنام تلك الليلة. بعد أن تنسى أمره وتعيش حياتها، وتموت.

الآن كما لو أنها تستطيع سماع الرّقاص في الهواء قبالتها: ذلك المكّوك الذّهبي الضّخم، بعرض برميل، يتأرجح من دون توقف. يحرث ويعيد حرث حقيقته المتوحشة في الأرضية.

رقم 4 شارع فوبوريل

رماد، رماد: ثلج في شهر آب. استؤنف القصف على نحو متقطع بعد الفطور، ثم توقف نحو السَّاعة السَّادسة مساء. يطلق رشَّاش النَّار في مكان ما، صوت مثل سبحة من الخرز تنسرب عبر الأصابع. يحمل الرقيب الأول فون رومبل مطرة ماء، ونصف دزينة من حقن المورفين، ومسدسه. عبر كاسر الأمواج. عبر الطريق المعبدة نحو متراس سان مالو الضَّخم المشتعل. خارجاً في المرفأ، تحطم رصيف الميناء في أمكنة متعددة. مركب صيد، نصف مغمور بالمياه، تطفو مؤخرته نحو الأعلى.

داخل المدينة القديمة، جبال من كتل الأحجار، أكياس، مصاريع، أغصان، مشابك حديدية، وقدور يتصاعد منها الدُّخان تملأ شارع «دو دينان». أصص زهور محطَّمة وأطر نافذة متفحِّمة وزجاج مكسور. لا يزال الدُّخان يتصاعد من بعض المباني، ومع أن فون رومبل يضغط وشاحاً رطباً على فمه وأنفه، توجَّب عليه أن يتوقَّف عدَّة مرَّات ليلتقط أنفاسه.

هنا حصان ميت، آخذ بالانتفاخ، هناك كرسي منجَّد بمخمل أخضر مخطط، وفي جهة ثانية مزق من ظلَّة تدلُّ على مطعم. ستائر تتمايل بكسل من نوافذ مكسورة في الضُّوء الغريب الوامض، تثير أعصابه. خطاطيف تطير جيئة وذهاباً، تبحث عن أعشاش ضائعة، وصوت شخص ما بعيد جداً

يصرخ، أو ربما هي الريح. الانفجارات خلعت الكثير من لافتات المتاجر عن دعاماتها وتدلَّت الأذرع مهجورة.

يهرول كلب صغير خلفه، يعوي. لا أحد يصرخ من نافذة محذراً إياه أن يبتعد عن الألغام. في الواقع، في أربع كتل سكنية يرى فقط شخصاً واحداً، امرأة خارج ما كانت في اليوم السَّابق صالة للسينما. مجرفة في يد، لكن لا مكنسة تُرى حولها. ترفع بصرها نحوه، دائخة. عبر باب مفتوح خلفها، صفوف من المقاعد تجعدت تحت بلاط السقف الكبير. من خلفها، تنتصب الشَّاشة سليمة، ليست حتى ملطخة بآثار الدخان.

تقول بلكنتها الفرنسية البروتانية: «لا يوجد عرض قبل السَّاعة الثَّامنة». يومئ وهو يمر بها ببطء. في شارع فوبوريل، كميات كبيرة من بلاط الاردواز انزلقت عن السُّقوف وانفجرت في الشَّوارع. قصاصات من ورق محروق ترفرف فوق الرؤوس. ما من نوارس. يفكر: حتى لو احترق المنزل، الماسة سوف تكون هناك. سوف يقتلعها من الرماد مثل بيضة ساخنة. لكن المنزل المرتفع النحيل بقي سالماً من العطب تقريباً. إحدى عشرة نافذة على الواجهة، معظم الزجاج مخلوع. أطر نافذة زرقاء، غرانيت قديم باللونين الرمادي والأحمر. أربعة من صناديق الزهور السِّتة متدلية. قائمة أسماء المقيمين تتشبث ببابه الأمامي.

السَّيد إيتيين لو بلان، يبلغ من العمر 63 عاماً.

الآنسة ماري لور لو بلان، تبلغ من العمر 16 عاماً.

سوف يحتمل جميع الأخطار. من أجل الرايخ. من أجله. لا أحد يوقفه. ما من قذائف تأتي صافرة. أحياناً عين الإعصار هي أكثر الأماكن أمناً.

ماذا يملكون

متى يكون الوقت نهاراً ومتى يكون ليلاً؟ يبدو من الأفضل أن يقاس الزمن بالومضات: يومض كشاف فلوكهايمر منطفئاً، يومض مشتغلاً.

يشاهد فرنر وجه فولكهايمر الملطخ بالرماد والغبار في الوهج المنعكس، رغبته في الخدمة، وهو ينحني على بيرند. ينطق فم فولكهايمر وهو يضع مطرته إلى شفتي بيرند: «اشرب». وظلال تندفع عبر السَّقف المكسور مثل حلقة من أشباح تتحضر لوليمة. يشيح بيرند بوجهه، الذُّعر في عينيه، ويحاول أن يتفحَّص ساقه.

ينطفئ المشعل الكهربائي وتعود الظلمة بسرعة.

في حقيبة فرنر، وضع دفتره من أيام الطفولة، غطاءه، وجوارب جافة. ثلاث حصص من الطعام. هذا كل ما يملكونه من طعام. فولكهايمر لا يملك شيئاً. بيرند لا يملك شيئاً. لا يملكان سوى مطرتي ماء، كل منها نصف فارغة. اكتشف فولكهايمر أيضاً سطل دهان في إحدى الزوايا وبعض الرسابة الرطبة في القاع، لكن كم يجب أن يبلغ يأسهم لكي يشربوا ذلك؟

قنبلتان يدويتان من نوع 24 س، واحدة في كل جيب من جيوب معطف فولكهايمر. مقابض خشبية مجوفة في القاع، مواد شديدة الانفجار في علبة من الفولاذ في القمَّة – قنابل بحجم راحة اليد دعاها الفتيان في مدرسة

شولبفورتا «هارس البطاطا». طلب بيرند من فولكهايمر مرتين حتى الآن أن يجرب واحدة على الفوضى المرصوصة في بيت الدَّرج، ليرى إذا في وسعهم أن ينسفوا طريقاً للخروج. لكن أن تستعمل القنبلة هنا في مثل هذا المثوى الضيق تحت حطام على ما يبدو تبعثر مع قنابل 88 ميليمتر، قد يكون انتحاراً.

ثم هناك البندقية: بندقية فولكهايمر كارابينر 98 محشوة بخمس طلقات. يفكِّر فرنر: كافية، بوفرة. قد يحتاجون إلى ثلاث فقط، واحدة لكل منهم.

أحياناً يفكِّر فرنر في الظلمة، أن للقبو ضوءه الشَّاحب، ربما منبعث عن الحطام، سوف يكون المكان أكثر حمرة بقليل مع تقدُّم نهار شهر آب فوقهم، نحو الغسق. يعلم أنه بعد حين، حتى الظلمة التامة ليس بظلمة مطلقة، أكثر من مرة يظن أنه يستطيع رؤية أصابعه المفرودة عندما يمررها أمام عينيه.

يفكر فرنر في طفولته، مغازل غبار الفحم العالقة في الهواء في صباحات الشِّتاء، تستقر على عتبات النوافذ، في آذان الأطفال، في رئاتهم، غير أنه هنا في هذه الفجوة، الغبار الأبيض هو النقيض، كما لو أنه وقع في منجم عميق متشابه، لكن أيضاً المناقض للمنجم الذي قتل والده.

ظلمة ثانية. نور ثانية. يتجسَّد وجه فولكهايمر الغريب الملوَّث بالرماد أمام فرنر. شارة رتبته ممزقة جزئياً على أحد كتفيه. بشعاع من كشافه، يرى فرنر أنه يمسك بمفكي براغٍ وصندوق صمامات كهربائية. «الراديو»، يقول في أذن فرنر السَّليمة:

– هل نمت؟

يدير فولكهايمر المصباح على وجهه. يقول فمه: قبل أن تنفد منا البطارية.

يهزُّ فرنر رأسه. الراديو ميؤوس منه. يريد أن يغمض عينيه، ينسى، يستسلم. ينتظر حتى تمس ماسورة البندقية صدغه. لكن فولكهايمر يريد أن يخترع حجَّة عن أن الحياة تستحق العيش.

تتوهج أسلاك المصباح الحرارية داخل كشافه صفراء: أضعف الآن. فم فولكهايمر المنار أحمر إزاء الظلمة. تقول شفتاه: الوقت ينفد منَّا. المبنى يتأوه. يرى فرنر عشباً أخضر، فرقعة الذباب، شعاع شمس. تنفتح بوابات بيت صيفي على اتساعها. عندما يأتي الموت ليقبض روح بيرند، قد يأتي من أجله أيضاً. موفراً على نفسه رحلة ثانية.

«أختك»، يقول فولكهايمر: «فكِّر في أختك».

سلك تنبيه

لن تصمد مثانتها مزيداً من الوقت. تتسلَّق درجات القبو وتحبس أنفاسها ولا تسمع شيئاً لمدة ثلاثين دقَّة قلب... أربعين. ثم تدفع الباب الأرضي وتصعد نحو المطبخ.

لا أحد يطلق النار عليها. لا تسمع أصوات انفجارات.

تدوس ماري لور على رفوف المطبخ المتساقطة، وتعبر نحو شقة السَّيدة مانِك الصَّغيرة، تتأرجح العلبتان بثقل في معطف عمِّها. الحنجرة تخز، المنخران يخزان، الدُّخان هنا أقل كثافة بقليل.

تتبول في مبولة عند قدم سرير السَّيدة مانِك. ترفع جواربها وتعيد تزرير معطف عمها. هل هو الأصيل؟ تتمنى للمرة الألف لو أن في وسعها التَّحدث مع والدها. هل سيكون من الأفضل الخروج إلى المدينة، لا سيَّما إذا كان لا يزال الوقت نهاراً وتحاول العثور على أي شخص؟

قد يساعدها جندي، أي شخص قد يفعل. ولو أن الشَّك يخامرها عندما تتبادر الفكرة إلى ذهنها.

تعلم أن الشعور التداعي في ساقيها مبعثه الجوع. في فوضى المطبخ، لا يمكنها العثور على فتَّاحة العلب، لكنها تجد سكين تقشير في درج السَّيدة مانك الخاص بالسكاكين، والقرميدة الكبيرة الخشنة التي استعملتها السَّيدة لترفع مقضب الموقد. سوف تأكل ما يوجد في إحدى العلبتين مهما كان.

ثم سوف تنتظر قليلاً لربما عاد عمها أدراجه إلى البيت، لربما سمعت أي شخص عابر، منادي البلدة، رجل إطفاء، أو جندياً أميركياً يتحلَّى بالنخوة. إذا لم تسمع أحداً عند شعورها بالجوع ثانية سوف تخرج إلى ما بقي من الشَّارع.

أولاً تصعد إلى الطَّابق الثَّالث لتشرب من حوض الاستحمام. مقربة شفتيها من سطحه، تشرب جرعات طويلة. تجميع، بقبقة في أحشائها. خدعة تعلمتها هي وإيتيين خلال مئات الوجبات الضئيلة: قبل أن تأكلي اشربي قدر ما تستطيعين من الماء وسوف تشعرين بالشَّبع بسرعة أكبر.

«على الأقل يا بابا»، تقول بصوت مرتفع: «كنت ذكية بشأن الماء».

ثم تجلس على سفرة الطابق الثالث وتسند ظهرها إلى طاولة الهاتف. تحصر إحدى العلبتين بين فخذيها، تضع رأس السكين على غطائها، وترفع القرميدة لتضرب على مقبض السكين. لكن قبل أن تتمكَّن من إنزال القرميدة، يهتز السِّلك المنبه خلفها والجرس يرن وشخص ما يدخل المنزل.

الخامس

كانون الثَّاني 1941

إجازة كانون الثاني

يلقي القائد العسكري خطبة عن الفضيلة والعائلة والنَّار الرمزية التي يحملها فتيان مدرسة شوبلفورتا حيثما ذهبوا، طبق من لهب صاف ليذكي مواقد الأمَّة، فوهرر في كل شيء، تتحطم كلماته في أذني فرنر في ضربات مألوفة، يتمتم واحد من أكثر الفتيان شجاعة بعدئذ: «أوه، لقد حصلت على طبق ساخن أتمناه من صميم قلبي».

في غرفة المبيت ينحني فريدريك على حافَّة سريره. وجهه يمثل خارطة باللونين القرمزي والأصفر. «لماذا لا تأتي إلى برلين؟ سوف يكون والدي في العمل، لكن يمكنك أن تلتقي بأمي».

على مدى أسبوعين كان فريدريك يعرج مرضوضاً وبطيئاً جداً ومتورِّماً، ولم يحدِّث فرنر بأي شيء، حتى لمرة واحدة، بعيداً عن طبعه الدمث من كياسة ذاهلة. لم يتَّهم فرنر مرة بالخيانة، مع أن فرنر لم يفعل شيئاً عندما كان فريدريك يضرب، ولم يفعل شيئاً منذ ذلك الحين: لم يطارد رودل أو يصوِّب بندقية إلى باستيان أو يخبط بسخط على باب الدُّكتور هاوبتمان، طالباً العدالة. كما لو أن فريدريك يفهم الآن أن كلاً منهما تم تكليفه بدربه الخاص، ولم يعد هناك مجال للانحراف عنه الآن.

يقول فرنر: «ليس لدي...».

«أمي سوف تدفع ثمن التذكرة»، يميل فريدريك إلى الخلف ويحدّق في السَّقف. «أمر لا قيمة له».

ركوب القطار هو ملحمة من النعاس تمتد على مدى ست ساعات، في كل ساعة على عربتهما المتداعية الخروج إلى طريق جانبي لتسمح للقطارات الممتلئة بالجنود المتوجهين إلى الجبهة بالمرور سريعاً. أخيراً يترجَّل فرنر وفريدريك عند محطة خافتة الإضاءة، فاحمة اللون، ويصعدان درجاً طويلاً، كل درجة مطلية بالعلامة نفسها - برلين تدخن سجائر يونوس ١ - وينتهي عند شوارع أكبر مدينة رآها فرنر في حياته.

برلين! الاسم نفسه مثل جرسين حادين للمجد. عاصمة العلوم، سدَّة الفوهرر، حاضنة بور، آينشتاين، ستاودينغر، باير. في مكان ما في هذه الشَّوارع، اخترع البلاستيك، اكتشفت أشعة إكس، تمَّ التحقق من الانجراف القاري. أي أعاجيب رعاها العلم هنا؟ يقول الدكتور هاوبتمان: جنود متفوقون، وآلات صنع الطقس وصواريخ يمكن للرجال توجيهها من على بعد ألف ميل.

السَّماء ترمي خيوطاً فضية من المطر الثلجي. تندفع منازل رمادية في خطوط متقاربة نحو الأفق، مضمومة كما لو كي تتقي البرد. يمران بمتاجر محشوَّة بلحوم معلَّقة، وثمل يحمل آلة بزق مكسورة على حجره، وثلاث مومسات اجتمعن تحت ظلة يستقبلن الفتيين في زيهما الرسمي بالصفير.

يقودهما فريدريك نحو منزل مؤلَّف من خمسة طوابق، على مسافة شارع من جادَّة جميلة تدعى «كنيسبيك». يرن جرس الطابق الثاني، ويتردد أزيز من الدَّاخل والباب ينفتح. يدخلان إلى بهو معتم ويقفان أمام زوج من الأبواب المتطابقة. يضغط فريدريك زراً وشيء مرتفع في المبنى يقعقع وفرنر يهمس: «الديكم مصعد؟».

يبتسم فريدريك. الآلات تصلصل نحو الأسفل، والمصعد يصلصل عند وصوله إلى مكانه، ويدفع فريدريك الأبواب الخشبية نحو الدَّاخل. يشاهد فرنر داخل المبنى ينزلق مذهولاً. عندما يصلان الطابق الثاني يقول: «هل يمكننا أن نركبه ثانية؟».

يضحك فريدريك. ينزلان، يصعدان، نحو البهو للمرة الرابعة، وبينما فرنر يسترق النَّظر إلى الحبال والأثقال فوق الصُّندوق، محاولاً أن يفهم آليَّة عملها، تدخل المبنى امرأة ضئيلة للغاية وتنفض مظلتها. تحمل بيدها الأخرى كيساً ورقياً وسرعان ما ترى عيناها زي الفتيان الرسمي وبياض شعر فرنر الكثيف والكدمات المزرقة تحت عيني فريدريك. على صدر معطفها نجمة صفراء بلون الخردل خيطت بعناية. مستقيمة على نحو تام، رأس نحو الأسفل، وأخر نحو الأعلى. تتساقط قطرات تسقط مثل بذار من طرف مظلتها.

يقول فريدريك: «عمتِ مساء، يا سيدة شفارتزينبرغر». يتراجع نحو جدار عربة المصعد ويومئ لها كي تدخل. تنحشر في المصعد ويدخل فرنر من خلفها. من قمة كيسها تبرز حزمة من الخضار الذَّاوية. يمكنه أن يرى أن ياقتها منفصلة عن بقية المعطف، وقد وهت خيوطه. إذا كانت ستلتفت، فإن المسافة الفاصلة بين عينيهما لا تزيد عن شبر.

يضغط فريدريك 2، ثم 5. لا أحد يتكلم. تحكُّ المرأة المسنَّة أحد حاجبيها بالطرف المرتعش لسبابتها. يصلصل المصعد صاعداً طابقاً واحداً. يفتح فريدريك القفص ويتبعه فرنر إلى الخارج. يشاهد حذاء المرأة المسنة الرمادي يرتفع ماراً بأنفه. الآن باب الشقة #2 ينفتح، وامرأة ترتدي مريلة بذراعين منفوختين ووجه أزغب تخرج سريعاً وتعانق فريدريك. تقبِّله على خديه، ثم تمسُّ كدماته بإبهاميها.

- لا بأس، فراني، مزاح سمج.

الشّقة أنيقة ومضيئة، ممتلئة بسجاد يمتص الضجيج. نوافذ خلفية كبيرة تطلُّ على قلوب أربع شجرات زيزفون عارية من الأوراق. لا يزال المطر الثَّلجي ينهمر في الخارج.

تقول فراني وهي تسوِّي مئزرها بكلتا راحتي يديها، وعيناها ثابتتان على فريدريك: «والدتك لم تعد إلى البيت بعد. هل أنت واثق من أنك بخير؟».

يقول فريدريك: «بالتأكيد». ومعاً هو وفرنر، يسيران نحو غرفة نوم دافئة، تفوح منها رائحة النظافة، يفتح فريدريك درجاً، وعندما يلتفت، على عينيه نظارة ذات إطار أسود. ينظر إلى فرنر بحياء.

- أوه، هيَّا، ألم تكن تعرف؟

تبدو ملامح فريدريك مريحة أكثر مع ارتدائه النَّظارة، يصبح وجهه أكثر معقولية - يفكِّر فرنر: هذا هو. فتى نحيل في نظارة وشعره بلون السُّكر المحروق وأثر واهٍ لشارب مطرز عبر شفته. عاشق الطيور، فتى ثري.

- بالكاد أصيب أي شيء في الرماية. ألم تدرك ذلك حقاً؟

- ربما. ربما عرفت. كيف اجتزت امتحانات فحص العيون؟

- حفظت المخططات.

- ألا يملكون مخططات مختلفة؟

- لقد استظهرت الأربعة جميعاً. حصل أبي عليها في وقت سابق. ساعدتني أمي على الدِّراسة.

- ماذا عن منظارك؟

- عبر وصفة طبية، كلفت ثروة!

يجلسان في مطبخ كبير إلى نضد مكسوٌ بالرُّخام. تظهر الخادمة،

وتدعى فراني، مع رغيف أسمر وكرة من الجبنة، وتبتسم لفريدريك وهي تضعها. يتحدثان عن عيد الميلاد وعن أسف فريدريك لأنه لم يحضره، والخادمة تخرج من باب دوّار، وتعود بطبقين أبيضين دقيقين للغاية، حتى أنهما يصدران رنيناً عندما تضعهما على الطاولة.

يضطرب عقل فرنر: مصعد! يهودية! خادمة! برلين! يعودان إلى غرفة نوم فريدريك العامرة بجنود من الصَّفيح، ومجسَّمات طائرات، وصناديق خشبية ملأى بالكتب المصوَّرة. يستلقيان على بطنيهما ويقلبان صفحات الكتب، يشعران بمتعة كونهما خارج المدرسة، ينظران بعضهما إلى بعض بين الحين والآخر كما لو أن لديهما الفضول ليعلما ما إذا كانت صداقتهما ستستمر لتحيا في مكان آخر.

تنادي فراني: «أنا ذاهبة». وحالما ينغلق الباب، يأخذ فريدريك فرنر من ذراعه إلى غرفة الجلوس، ويصعد سلماً مقاماً على امتداد رفوف من الخشب الصُّلب، ويزيح جانباً سلة كبيرة من الأملود ومن خلفها ينزل كتاباً ضخماً: مجلدان مغلفان بغلاف ذهبي، كل واحد بحجم مفرش سرير طفل.

«هاك». يتوقَّد صوته وتتوهَّج عيناه «هذا ما أردت أن أريك إياه».

في الدَّاخل رسومات مليئة بالألوان لطيور. ينقض صقران أبيضان بعضهما على بعض، منقاراهما مفتوحان. طائر نحام قاني اللون يضع منقاره ذا الرأس الأسود على ماء راكد. إوزة متألِّقة تقف على رأس بحري وتحدِّق في السَّماء الكئيبة. يقلِّب فريدريك الصَّفحات بيديه. بيبري صائد الذُّباب. بط لامع الصَّدر. نقَّار الخشب ذو عرف أحمر. الكثير منها أكبر حجماً في الكتاب منها في الحقيقة.

«أودوبون»، يقول فريدريك: «كان أميركياً. مشى عبر المستنقعات

والغابات لسنوات، في ذلك الحين كان ذلك البلد بأسره مجرَّد مستنقعات وغابات. لقد أمضى اليوم بطوله يراقب طائراً واحداً. ثم اصطاده ودعمه بالأسلاك والعصي ورسمه. ربما عرف أكثر من أي مختص بالطيور سواء من قبله أو من بعده. أكل معظم الطيور بعد أن رسمها. هل يمكنك أن تتخيل؟». يرتجف صوت فريدريك بالحماس. يحدِّق نحو الأعلى. «ذلك السَّديم السَّاطع وسلاح على كتفك، وعيناك واثقتان في رأسك؟».

يحاول فرنر أن يرى ما يراه فريدريك: زمن سابق على التصوير الضوئي، قبل المنظار. وهنا كان شخص راغب في التجول في البرية الزاخرة بالمجهول، جالباً معه اللوحات. كتاب ليس ممتلئاً كثيراً بالطيور بقدر ما هو ممتلئ بتلاشي غموض الكائنات ذات الأجنحة الزرقاء.

يفكر في برنامج الفرنسي الإذاعي، في مبادئ الميكانيك لهاينريش هرتز - ألا يدرك الإثارة في صوت فريدريك؟

يقول: «ستحب أختي هذا».

- يقول أبي إنه لا يفترض بنا أن نمتلكه. يقول إن علينا أن نخفيه هناك خلف السَّلة، لأنه أميركي وطبع في اسكوتلندا. إنها مجرد طيور!

ينفتح الباب الأمامي ويسمع وقع خطوات عبر البهو. يعيد فريدريك المجلدين بسرعة داخل غلافيهما، وينادي: «أمّي؟» وتدخل امرأة ترتدي بذلة تزلُّج خضراء مع خطوط بيضاء على السَّاقين هاتفة: «فريدي! فريدي!» تعانق ابنها وتعيده إلى الوراء بذراعين مبسوطتين، فيما تمرر أطراف أصابعها على جرح مندمل تقريباً على طول جبهته. يتطلع فريدريك من فوق كتفها وعلى وجهه أثر للذعر. هل هو خائف من أنها سوف ترى أنه كان يطالع كتاباً ممنوعاً؟ أو أنها سوف تكون غاضبة بشأن كدماته؟ لم تقل شيئاً، لكنها تكتفي بالتحديق في ابنها، متشابكة الأفكار، لا يمكن لفرنر أن يخمِّن، ثم تتذكر نفسها.

«ولابد أن تكون فرنر!» تعود الابتسامة لتكتسح وجهها. «كتب فريدريك الكثير عنك! انظر إلى ذلك الشّعر! أوه، نحن نعشق الضُّيوف». تصعد السُّلم وتعيد مجلدي «أودوبون» الثقيلين إلى رفهما واحداً واحداً، كما لو أنها تبعد شيئاً مزعجاً. يجلس الثلاثة إلى الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب البلوط، ويشكرها فرنر على تذكرة القطار. ثم تروي قصَّة عن رجل «صادفته للتو، لا يصدَّق حقاً»، وهو فيما يبدو لاعب تنس شهيراً، وبين الحين والآخر تمد يدها وتعصر ساعد فريدريك. تردد أكثر من مرة: «لا بد من أنك كنت مصعوقاً». يتفحَّص فرنر وجه صديقه ليخمن ما إذا كان ليكون مصعوقاً أم لا، وفراني تعود لتضع النبيذ والمزيد من الجبنة المدخَّنة، ولمدة ساعة ينسى فرنر أمر مدرسة شولبفورتا، وباستيان، والخرطوم المطاطي الأسود، واليهودية في الطابق الأعلى - يا للأشياء التي يملكها هؤلاء الناس! كمان على حامل في الزاوية، وأثاث صقيل مصنوع من الفولاذ والكروم، وتلسكوب من النحاس، وأحجار شطرنج من الفضة الممتازة وضعت خلف زجاج، وهذه الجبنة الرائعة التي لها طعم أشبه بدخان مغموس في زبدة.

يتّقد النبيذ في معدة فرنر بنعاس، والمطر الثلجي يتكتك عبر أشجار الزيزفون عندما تعلن والدة فريدريك أنهم سيخرجون. «شد ربطة عنقك، هلا فعلت؟» تضع بعض المساحيق تحت عيني فريدريك ويسيران إلى مطعم صغير، من المطاعم التي لم يحلم فرنر يوماً بدخولها، وفتى يرتدي سترة بيضاء لا يكاد يفوقهما عمراً، يجلب المزيد من النبيذ.

يأتي سيل متواصل من الزبائن إلى طاولتهم لمصافحة كل من فرنر وفريدريك، ويسألون والدة فريدريك بأصوات منخفضة متملِّقة عن ترقية زوجها الأخيرة. يلاحظ فرنر فتاة في الزاوية، مشرقة، ترقص بمفردها رافعة وجهها نحو السَّقف. عيناها مغمضتان. الطعام وفير، وبين الحين والآخر

تضحك والدة فريدريك، وفريدريك يمسُّ غافلاً البودرة على وجهه بينما تقول أمه: «حسناً، فريدي حظي بالأفضل هناك في المدرسة، بالأفضل»، وباستمرار، كل دقيقة ثمّة وجه جديد يأتي ويقبّل والدة فريدريك على خديها ويهمس في أذنها. عندما يسمع فرنر والدة فريدريك تقول لامرأة: «أوه، الشمطاء شفارتزينبرغر سوف ترحل مع نهاية العام، حينها سوف نحصل على الطابق الأعلى، سترين»، ينظر نحو فريدريك، الذي أصبحت عدستا نظارته الملطختان مغبشتين في ضوء الشّمعة، وتبدو زينته غريبة وفاسقة الآن، كما لو أنها كثفت الكدمات بدلاً من أن تحجبها، وشعور بالانزعاج الهائل يغمره. يسمع رودل يلوّح بالخرطوم، لطمته عبر راحتي فريدريك المقذوفتين عالياً. يسمع أصوات الفتيان زملائه في زولفرين يغنون، عش بإخلاص، قاتل بشجاعة، ومت ضاحكاً. المطعم الصَّغير مزدحم، أفواه الجميع تتحرك بسرعة كبيرة، المرأة التي تتحدث مع والدة فريدريك تضع كمية مقززة من العطر، وفي الضوء الخفيف يبدو فجأة كما لو أن الوشاح المتدلي من عنق الفتاة الراقصة أنشوطة.

يقول فريدريك: «هل أنت بخير؟».

- بخير، إنه لذيذ.

لكن فرنر يشعر بشيء داخله يزداد انقباضاً شيئاً فشيئاً.

في الطريق إلى البيت، يسير فريدريك وأمه في المقدمة. تطوي ذراعها النحيلة في ذراعه وتتحدث إليه بصوت منخفض. فريدي هذا، وفريدي ذاك. الشّارع مقفر، النّوافذ معتمة، اللافتات الكهربائية مطفأة. متاجر لا تعد ولا تحصى، ملايين النائمين في الأسرة من حولهم، ومع ذلك أين هم جميعاً؟ عندما يبلغون شارع فريدريك، امرأة تلبس فستاناً، تستند إلى مبنى، تنحني وتتقيأ على الرصيف.

في المنزل يرتدي فريدريك لباس نوم من حرير أخضر، ويطوي نظارته على الطاولة الجانبية، ويصعد حافياً إلى سرير طفولته النُّحاسي. يصعد فرنر إلى سرير صغير متحرك، اعتذرت والدة فريدريك من أجله ثلاث مرات متفرقة، على الرغم من أن فراشه مريح أكثر من أي فراش نام عليه في حياته. ران الصَّمت على المبنى، سيارات صغيرة تومض على رفوف فريدريك.

يهمس فرنر: «هل سبق أن تمنيت ألا يكون واجباً عليك أن تعود؟».

– رغب والدي في أن أكون في شولبفورتا، أمي أيضاً، لا يهم ما أرغب أنا فيه.

– بالتأكيد يهم، أريد أن أكون مهندساً. وأنت تريد أن تدرس الطيور. أن تكون مثل ذلك الرسام الأميركي في المستنقعات. وإلا لماذا نفعل أي من هذه إن لم يكن لنصبح ما نريد أن نكون؟

سكون في الغرفة. في الخارج، في الأشجار خلف نافذة فريدريك، يتدلَّى نور غريب.

«مشكلتك يا فرنر»، يقول فريدريك: «هي أنك لا تزال تؤمن بأنك تملك حياتك».

عندما استيقظ فرنر كان النهار قد طلع. رأسه يؤلمه ويشعر بثقل في مقلتيه. ارتدى فريدريك ثيابه، سروالاً، قميصاً مكوياً، وربطة عنق، يركع عند النَّافذة وأنفه على الزجاج ويشير: «أبو فصادة رمادي». ينظر فرنر متجاوزاً إياه نحو أشجار الزيزفون العارية.

يتمتم فريدريك: «لا يبدو بالشَّيء العظيم، أليس كذلك؟ لا يتجاوز وزنه عدة أونصات من الريش والعظام. لكن ذلك الطائر يمكنه الذهاب إلى إفريقيا والعودة منها. مزوداً بالبق والديدان والرغبة».

يثب طائر «أبو فصادة» صغير من غصين إلى آخر. يفرك فرنر عينيه المتألمتين. إنه مجرد طائر.

يهمس فريدريك: «منذ ألف سنة. أتوا إلى هنا بالملايين، عندما كان هذا المكان حديقة، حديقة متصلة من أوله إلى آخره».

هو لن يعود

تستيقظ ماري لور وتظن أنها تسمع وقع حذاء والدها، صليل حلقة مفاتيحه. الطابق الرابع الخامس السَّادس. تحفُّ أصابعه بمقبض الباب. يشع جسده حرارة ضعيفة لكن محسوسة في الكرسي بجانبها. أدواته الصَّغيرة تبرد الخشب. تفوح منه رائحة الغراء وورق السنفرة وسجائر «غولواز» الأزرق.

لكنه أنين المنزل فحسب. يقذف البحر الصخور بالزبد. خداع العقل.

يطلع صباح اليوم العشرين ولم تتلقَّ أي نبأ من والدها، لم تخرج ماري لور من السَّرير. لم تهتم عندما ارتدى عمها ربطة عنق قديمة ووقف إلى الباب الأمامي في مناسبتين منفصلتين وهمس بترانيم غريبة لذات نفسه - بالنسبة إلى البطاطا، أنا على الأرض، بالنسبة إلى الفاصولياء أنا في الماء - يحاول ويفشل في استحضار الشَّجاعة للخروج. لم تعد ترجو السَّيدة مانِك أن ترافقها إلى محطة القطار، أن تكتب رسالة أخرى، أن تمضي أصيلاً خائباً آخر عند المحافظ تحاول أن تتوسل سلطات الاحتلال أن تجد والدها. يصبح من الصعب التواصل معها، متجهِّمة. لا تستحم، لا تدفئ نفسها بنار المطبخ، لم تعد تسأل إذا في وسعها الخروج. بالكاد تأكل.

تهمس السَّيدة مانك: «يقول المتحف إنهم يبحثون يا طفلتي». لكن

عندما تحاول أن تضغط شفتيها على جبهة ماري لور ترتد الفتاة إلى الخلف، كما لو أن القبلة تحرقها.

يجيب المتحف على مناشدات إيتيين: والد ماري لور لم يصل أبداً.

يقول إيتيين بصوت مرتفع: «لم يصل أبداً؟».

هذا يصبح السُّؤال الذي يقضُّ مضجع ماري لور: لماذا لم يصل إلى باريس؟ إن لم يتمكن، لماذا لم يعد إلى سان مالو؟

لن أتركك أبداً، ليس حتى بعد مليون عام.

تريد فقط أن تذهب إلى البيت، أن تقف في شقتهما ذات الغرف الأربع، وتسمع حفيف شجرة الكستناء خارج نافذتها، تسمع بائع الجبنة يرفع ظلته، تشعر بأصابع والدها تنطبق على أصابعها.

ليتها فقط توسَّلته البقاء.

كلُّ شيء في المنزل يخيفها الآن: الدَّرج الذي يصدر صريراً، النَّوافذ المغلقة، الغرف الفارغة. الفوضى والصَّمت. يحاول إيتيين أن يؤدي تجارب سخيفة ليدخل البهجة إليها: بركان الخل، إعصار في زجاجة. «هل يمكنك سماعها ماري؟ تدوِّم هناك؟» هي لا تتظاهر بالاهتمام. تجلب لها السَّيدة مانك العجَّة، طبق الكازوليت، السَّمك المشوي، مختلقة أعاجيب من حصص الطعام ومما بقي في خزائنها، لكن ماري لور ترفض أن تأكل.

«مثل حلزونة». تسمع إيتيين يقول عند بابها: «مكوَّرة بإحكام شديد هناك في الدَّاخل».

لكنها غاضبة: من إيتيين لأنه لم يفعل سوى القليل، ومن السَّيدة مانك لأنها فعلت الكثير، ومن والدها لأنه ليس هنا ليساعدها على فهم غيابه، ومن عينيها لأنهما تخيبانها، من كل شيء، ومن كل شخص. من كان يدرك أن في وسع الحب أن يقتلك؟ تُمضي ساعاتٍ جاثيةً بمفردها في الطابق

السّادس، النّافذة مفتوحة والبحر يرشق الغرفة بهواء قطبي، أصابعها على مجسَّم مدينة سان مالو تتخدَّر ببطء. جنوباً نحو بوابة دينان. غرباً نحو بلاج دو مول. تعود إلى شارع فوبوريل. كل ثانية يزداد منزل إيتيين برودة، كل ثانية يبدو كما لو أن والدها ينزلق بعيداً.

سجين

ذات صباح شباطي، أُنهض الأغرار من أسرتهم عند السَّاعة الثانية صباحاً. وسيقوا تحت بصيص الضُّوء. في مركز الباحة، مشاعل تتقد. يتهادى باستيان ذو الصَّدر العريض بساقيه العارينين الباديتين تحت معطفه.

ينبثق فرانك فولكهايمر من الظِّلال، يجر رجلاً يرتدي الأسمال ونحيلاً للغاية وفردتا حذائه غير متطابقتين. يضعه فولكهايمر بجانب القائد، حيث وضع وتد في الثلج. بإتقان، يربط فولكهايمر جذع الرجل إلى الوتد.

يتدلى عنقود من النجوم في الأعلى، أنفاس الأغرار تختلط ببطء، بصورة مفزعة فوق الميدان.

يتراجع فولكهايمر، القائد يخطو. «أيها الفتيان، لن تصدقوا أي مخلوق هذا. أي وحش قذر. قنطور، منحط».

يمدُّ الجميع أعناقهم ليروا. كاحلا السَّجين مكبلان، وذراعاه موثقان من رسغيه إلى ساعديه. قميصه الرقيق مشقوق عند خط الدرزة، وينظر بفتور بارد نحو مسافة متوسطة. يبدو بولندياً. روسياً، ربما. على الرغم من أغلاله يتمكن من التمايل قليلاً جيئة وذهاباً.

يقول باستيان: «هرب هذا الرجل من مخيَّم العمل. حاول الاعتداء

على منزل مزرعة وسرقة لتر من الحليب الطازج. أوقف قبل أن يتمكن من فعل شيء شائن». يومئ بغموض خلف الجدران. «سوف يمزِّق هذا البربري حناجركم في ثانية إذا تركناه».

منذ زيارته إلى برلين، أخذ وجل عظيم ينبت في صدر فرنر. تدرج، بحركة بطيئة كما تعبر الشَّمس السَّماء، لكن الآن يجد نفسه يكتب رسائل إلى يوتا لا بد من أن يتلاعب بالحقيقة فيها، لا بد من أن تدعي أن كل شيء بخير عندما لا تبدو الأمور بخير. يغرق في أحلام تتحول فيها والدة فريدريك إلى شيطان، بفم صغير ينظر بخبث وتضع مثلثات الدكتور هاوبتمان فوق رأسه.

ألف نجمة متجمِّدة تطل على السَّاحة. البرد يغزوهم بلا هدف محدد.

«أي سحنة هذه؟» يقول باستيان ويلوح بيده السَّمينة: «بهذه الطريقة لم يتبق له شي، لا يصل جندي ألماني أبداً إلى هذا الحد. هناك اسم لهذه السُّحنة. إنها تدعى تفريغ المصرف[1]».

يحاول الفتيان آلا يرتعشوا. ينظر السَّجين على المشهد كما لو من مجثم شديد العلو. يعود فولكهايمر حاملاً مجموعة كبيرة مجلجلة من الجرادل، يفتح اثنان من الفتية الأكبر سناً خرطوم المياه عبر الباحة. يشرح باستيان: «المعلمون أولاً. ثم الطلاب. سوف يصطف الجميع، وينقعون السَّجين بدلو من الماء. كل رجل في المدرسة».

يبدأون. واحداً واحداً، يأخذ كل مدرِّس جردلاً مليئاً من فولكهايمر ويرمي بمحتواه على السَّجين الذي يبعد بضع أقدام. يعلو الهتاف في الليلة الباردة.

عند أول غمرتين أو ثلاث، يفيق السَّجين، يهتز متراجعاً على كعبيه.

(1) وتعني أيضاً الاقتراب من النهاية أو الاحتضار. (م).

تظهر تغضنات عمودية بين عينيه، يبدو مثل شخص يحاول أن يتذكر شيئاً ضرورياً.

يمر الدكتور هاوبتمان بين المدرسين في أرديتهم السَّوداء، تقرص أصابعه في القفازات ياقته حول حنجرته. يستلم هاوبتمان جردله ويرمي المياه ولا يتريث ليرى أين تستقر.

تستمر المياه بالورود. وجه السَّجين خاوٍ. ينهار على الحبال التي تدعمه وجذعه ينزلق على الوتد، وبين الحين والآخر يخرج فولكهايمر من الظلال يبدو ضخماً على نحو لا يصدَّق والسَّجين يستقيم ثانية.

يتبدَّد الطُّلاب داخل القلعة. تصدر الجرادل صليلاً مكتوماً متجمداً عندما يعاد ملئها. ينتهي الطلاب البالغين من العمر ستة عشر عاماً. وكذلك من هم في الخامسة عشرة. فيخلو الهتاف من تلذذهم، ويغمر فرنر توق نقي إلى الهرب. اركض. اركض.

بقي ثلاثة فتيان حتى يأتي دوره. اثنان. يحاول فرنر أن يستحضر صوراً أمام عينيه، لكن الصُّور الوحيدة التي أتت صور بائسة: الآلة السَّاحبة فوق «بيت ناين»، عمَّال المناجم المحدبين يمشون كما لو أنهم يجرون سلاسل هائلة. الفتى من امتحانات القبول يرتجف قبل أن ينهار. كل واحد واقع في فخ دوره: يتامى، أغرار، فريدريك، فولكهايمر، اليهودية المسنة التي تعيش في الطابق الأعلى. حتى يوتا.

عندما يأتي دوره، يرمي فرنر الماء مثل الباقين والرذاذ يصيب السجين على صدره ويعلو الهتاف اللامبالي. ينضم إلى الأغرار المنتظرين إطلاق سراحهم. نعال مبللة، قيود مبللة، خدرت يداه للغاية، لا تبدوان أنهما يديه. بعد خمسة فتيان، إنه دور فريدريك، فريدريك الذي يبدو جلياً أنه لا يستطيع أن يرى جيداً من دون نظارته. لم يكن يهتف عندما يعثر كل جردل من المياه على هدفه. يقطب نحو السَّجين كما لو أنه يدرك شيئاً ما هناك.

وفرنر يعلم ما الذي سيفعله فريدريك.

دُفع فريدريك إلى الأمام من قبل الفتى الواقف خلفه. يناوله الطالب الأكبر سناً جردلاً وفريدريك يسكبه على الأرض.

يتقدَّم باستيان. يتقد وجهه قرمزياً في البرد. «أعطه آخر».

يرميه فريدريك ثانية على الجليد عند قدميه. يقول بصوت خفيض: «لقد انتهى أمره، سيدي».

يناول الطالب الأكبر سناً جردلاً ثالثاً.

يأمر باستيان: «ارمه».

يتبخَّر الليل، النجوم تتقد، السَّجين يتمايل، الفتيان يراقبون، القائد يحني رأسه. فريدريك يصبُّ الماء على الأرض: «لن أفعل».

بلاج دو مول

والد ماري لور مفقود دونما نبأ منذ تسعة وعشرين يوماً. تستيقظ على صوت حذاء السَّيدة مانك الضخم تصعد إلى الطابق الثالث الرابع الخامس.

صوت إيتيين على سفرة الدرج خارج مكتبه: «لا تفعلي».

- لن يعرف.

- إنها مسؤوليتي.

تنبثق بعض الصلابة غير المتوقعة في صوت السَّيدة مانك: «لا يمكنني الصمود لحظة أخرى».

تصعد آخر الدرجات. ينفتح باب ماري لور مصدراً صريراً، تعبر المرأة المسنة الأرض وتضع يدها الثقيلة على جبهة ماري لور: «أنت مستيقظة؟».

تقلب ماري لور نفسها نحو الزاوية وتتحدث عبر الأغطية:

- نعم سيدتي.

- سآخذك إلى الخارج. اجلبي عصاك.

ترتدي ماري لور ثيابها، تلاقيها السَّيدة مانك عند أسفل الدرج برغيف خبز. تربط وشاحاً على رأس ماري لور وتزرر معطفها حتى الياقة، وتفتح الباب الرئيس. صباح في آخر أيام شهر شباط والهواء يعبق برائحة المطر والسُّكون. تتردد ماري لور، تصغي. ينبض قلبها اثنان أربعة ستة ثمانية.

تهمس السَّيدة مانك: «لا يوجد أحد في الخارج عزيزتي إلا لماماً، ونحن لا نرتكب خطأ».

تصدر البوابة صريراً.

- درجة واحدة للأسفل، الآن إلى الأمام، وهذا كلُّ شيء.

يضغط الشارع المرصوف بالحصى على حذاء ماري لور بشكل غير منتظم، يتوقَّف طرف عصاها، يهتز، يتوقَّف ثانية. ينهمل مطر خفيف على السُّطوح، يدلف عبر الجداول، يتقطَّر على وشاحها. صوت يرتد بين المنازل المرتفعة، تشعر، كما شعرت في ساعتها الأولى هنا، كما لو أنها دخلت في متاهة.

بعيداً فوقهما، يهزُّ أحدهم منفضة غبار من النَّافذة. قطة تموء. أية أهوال تصرُّ بأسنانها هنا؟ ما هذا الشَّيء الذي كان والدها مهتماً جداً بأن يحميها منه؟ تنعطفان مرة، ثم مرة ثانية، من ثم تقودها السَّيدة مانك نحو اليسار، حيث لا تتوقع ماري لور منها أن تفعل، حيث تمتد جدران المدينة من دون انقطاع، مبطَّنة بالطحلب ثم تخطوان عبر بوابة.

- يا سيدة؟

تخرجان من المدينة.

- هنا درج، انتبهي، واحدة للأسفل، اثنتان، وها أنت ذي، سهلة مثل كعكة...

المحيط، المحيط! تماماً أمامها! قريب جداً طوال هذا الوقت. يمتص ويهدر ويرش الماء ويدمدم، يتحول ويتمدَّد وينهمر على نفسه، انفتحت متاهة سان مالو على بوابة من صوت أكبر من أي شيء عرفته سابقاً. أكبر من حديقة النباتات ومن نهر السِّين، أكبر من أكبر صالات العرض في المتحف. لم تتخيلها كما يجب، لم تستوعب المقياس.

عندما ترفع وجهها نحو السَّماء، يمكنها أن تشعر بألف شوكة متناهية في الصِّغر من قطرات المطر تذوب على خديها، على جبهتها. تسمع أنفاس السَّيدة مانك الخشنة، والصَّوت العميق للبحر بين الصُّخور، ونداءات شخص ما على الشَّاطئ ترتد عن الجدران العالية. في عقلها، يمكنها سماع والدها يلمِّع الأقفال. يسير الدكتور جيفار على طول صفوف أدراجه. لماذا لم يخبروها أنه قد يكون على هذا الشَّكل؟

تقول السَّيدة مانِك: «ذلك السَّيد «رادوم» ينادي كلبه، لا شيء يدعو إلى القلق. هاكِ ذراعي، اجلسي واخلعي حذاءك. وارفعي أكمام معطفك».

تفعل ماري لور ما طلب منها: «هل يراقبون؟».

- الألمان؟ وماذا إذا كانوا يفعلون؟ امرأة مسنَّة وفتاة؟ سوف أخبرهم أننا نبحث عن المحار. ماذا في وسعهم أن يفعلوا؟

- يقول الغم إنهم دفنوا قنابل في الشواطئ.

- لا تقلقي بهذا الشَّأن. إنه يخاف من نملة.

- يقول إن القمر يسحب المحيط.

- القمر؟

- أحياناً الشَّمس تفعل أيضاً. يقول إن المد يصنع حول الجُزر أقماعاً يمكنها ابتلاع المراكب.

- لن نقترب من هناك، عزيزتي. نحن فقط على الشَّاطئ.

تفكُّ ماري لور وشاحها، والسَّيدة مانك تأخذه. يتزلق هواء رصاصي مالح ممزوج بالطحالب على ياقتها.

- سيدتي؟

- نعم؟

- ماذا أفعل؟

- فقط امشِ.

تمشي، هناك حصى بارد مدوَّر تحت قدميها. عشب يطقطق. شيء أكثر نعومة: رمل رطب غير متغضِّن. تنحني وتفرد أصابعها. إنه مثل الحرير البارد. حرير بارد نفيس بسط البحر عليه عطاياه: حصى، محار، برنقيلات. انزلاقات صغيرة من قش البحر. تحفر أصابعها وتمسك، تمس قطرات المطر ظاهر عنقها، ظاهر يديها. يسحب الرمل الحرارة من أطراف أصابعها، من باطن قدميها.

تأخذ عقدة بعمر أشهر داخل ماري لور بالارتخاء. تتحرك على طول خط المد، تقريباً تزحف في البداية، وتتخيل الشَّاطئ يمتد في كلِّ اتجاه، يطوِّق الرأس البحري، يعانق الجزر الخارجية، الزخرفة المزركشة لخط بريتون السَّاحلي برؤوسه البريَّة ومدفعياته المحطَّمة وأطلاله التي تغطيها العرائش. تتخيَّل المدينة المسوَّرة خلفها، أسوارها الشَّاهقة، عقدة شوارعها المحيِّرة. كلُّ ما فيها صغير فجأة بحجم مجسَّم أبي. لكن ما يحيط بالمجسَّم لم ينقله لها والدها، ما وراء المجسم هو الأمر الأكثر فتنة.

يزعق سرب نوارس في الأعلى. كلُّ حبَّة من حبيبات الرمل التي لا تعد تطحن جارتها في قبضتيها. تشعر بوالدها يحملها ويدوِّمها ثلاث مرات.

لا يأتي جندي من جنود الاحتلال لتوقيفهما، لا أحد يتحدث إليهما أيضاً. في غضون ثلاث ساعات تستكشف أصابع ماري لور الخدرة قنديل بحر مدفوع على الشَّاطئ، عوَّامة بحرية متقشرة، وألف حجر صقيل. تخوض حتى ركبتيها وتبلل حاشية ثوبها. عندما تقودها السَّيدة مانك أخيراً - مبللة ومنبهرة - إلى شارع فوبوريل، تصعد ماري لور الدرج وتنقر على باب مكتب إيتيين وتقف أمامه، رمل رطب عالق على وجهها.

يتمتم: «تغيبت لوقت طويل، لقد قلقت».

- هاكَ، يا عمي.

تخرج من جيوبها أصدافاً. برتقيل، أصدافاً صفراء، ثلاث عشرة قطعة كبيرة من الكوارتز تحتوي على الرمل. «لقد جلبت لك هذه وهذه وهذه وهذه».

صاقل الأحجار الكريمة

خلال ثلاثة أشهر، سافر الرقيب الأول فون رومبل إلى برلين وشتوتغارت، لقد ثمَّن قيمة مئة خاتم مصادر، ودستة أساور من الماس، وعلبة سجائر من «لاتفيا» تلألأ فيها معيَّن من التوباز الأزرق. الآن، في باريس مجدداً، أقام في فندق الـ«جراند أوتيل» مدة أسبوع وأطلق تساؤلاته كالطيور. كل ليلة تعوده تلك اللحظة: عندما قبض على تلك الماسة إجاصية الشَّكل بين إبهامه وسبابته، وبدت ضخمة بعدسته المكبرة، وصدق أنه أمسك بحجر بحر اللهب الذي يزن مئة وثلاثة وثلاثين قيراطاً.

حدَّق في داخل الحجر ذي اللون الأزرق الجليدي، حيث بدا أن منمنمة سلاسل جبلية تقذف النار، بألوان القرمزي والأحمر المرجاني والبنفسجي، مضلَّعات من الألوان تومض وتتألق بينما يديره، وكاد يقنع نفسه أن القصص كانت حقيقية، وأنه منذ قرون وضع ابن أحد السَّلاطين تاجاً خطف أبصار الزائرين، وأن من يمتلك الماسة لن يفارق الحياة أبداً، وأن الحجر الأسطوري اندفع مرتداً عبر أوتاد التاريخ ووقع في راحة يده.

كانت هناك بهجة في تلك اللحظة - انتصار. لكنها ممزوجة بخوف مباغت، بدا الحجر مثل شيء مسحور، ليس معداً للعين البشرية. شيء عندما تنظر إليه، لا يمكنك نسيانه قط. لكن أخيراً اتضح السَّبب. لم تكن

مفاصل سطوح الماسة حادَّة تماماً، كما يجب أن تكون. الطوق شمعي بعض الشَّيء. وما يؤكد ذلك، لم يفشِ الحجر عن أية شقوق دقيقة، أي رؤوس متناهية في الصِّغر، ولا حتى شائبة واحد. كان والده يقول إن الماسة الحقيقية لن تكون خالية أبداً من الشَّوائب. ألماسة الحقيقية لا تبلغ الكمال أبداً.

هل توقع أن تكون حقيقية؟ أن تكون محفوظة بدقة حيث تمنى أن تكون؟ أن يظفر بمثل هذا النصر في يوم واحد؟

بالطبع لا.

قد يظن المرء أن فون رومبل قد يكون محبطاً، لكنه ليس كذلك. بل على العكس، يشعر بتفاؤل كبير. لن يقدم المتحف على صنع مثل هذه النسخة الزائفة عالية الجودة إن لم يكونوا يملكون الشَّيء الحقيقي في مكان ما. خلال الأسابيع الماضية في باريس، في الوقت المستقطع بين مهمات أخرى، كان قد اختصر قائمة من سبعة نقاشين إلى ثلاثة، من ثم إلى واحد: رجل من أصول جزائرية يدعى دوبون، كان ماهراً في قطع الأوبال. يبدو أن دوبون كان يكسب النقود قبل الحرب من صقل حجر «الأسبينل» وتحويله إلى ماسات مزيفة لأرامل النبلاء، والبارونات، وأيضاً للمتاحف.

ذات منتصف ليلة شباطية، يدخل فون رومبل إلى متجر دوبون الأنيق للغاية، القريب من كنيسة «القلب الأقدس». يتفحَّص نسخة من كتاب ستريتر «الأحجار الكريمة والمجوهرات»، رسومات لألواح زجاجية مشطورة، مخططات مثلثاتية استعملت للصقل. عندما يجد عدة مكررات شديدة التدقيق من قالب يطابق تماماً حجم الحجر الذي له شكل إجاصة في قبو المتحف، يعرف أنه وصل إلى من يبتغيه.

بناء على طلب فون رومبل، يُمنح دوبون بطاقات تموين مزوَّرة. الآن فون رومبل ينتظر. يحضر أسئلته: هل صنعت نسخاً مطابقة أخرى؟ كم عددها؟ هل تعرف من يمتلكها الآن؟

في اليوم الأخير من شهر شباط عام 1941، يأتيه رجل ضئيل نشيط من الجيستابو (البوليس السِّري النازي) بأنباء عن أن دوبون حاول استعمال البطاقات المزورة وهو غير مدرك بأمر تزويرها. تم اعتقاله. مهمة سهلة. إنها ليلة شتائية جذابة وممطرة، ندف من الثَّلج الذَّائب دعمت حافات قصر الكونكور، تبدو المدينة مهجورة، نوافذها مرصَّعة بقطرات المطر. عريف قصير الشَّعر يتفحَّص هوية فون رومبل ويدله، ليس على زنزانة، بل إلى مكتب في الطابق الثالث، مرتفع السَّقف حيث تجلس ضاربة آلة كاتبة خلف مكتب. مرسومة على الجدار خلفها دالية الوستاريا مهترأة على شكل رذاذ حديث متشابك من الألوان، تبعث القلق في فون رومبل.

دوبون مكبَّل إلى كرسي مائدة رخيص في وسط الغرفة. لوجهه لون ولمعة خشب استوائي. توقَّع فون رومبل مزيجاً من الخوف والسُّخط والجوع، لكن دوبون يجلس باستقامة. إحدى عدستي نظارته مكسورة، لكن بخلاف ذلك يبدو جيداً بما فيه الكفاية.

تطفىء المنضِّدة سيجارتها في المنفضة، على عقبها لطخ من أحمر شفاه لماع، المنفضة ممتلئة بخمسة عشر عقباً مدهوكاً هناك، عديم الأوصال، دامٍ بطريقة ما.

يقول فون رومبل مومئاً لها: «يمكنك الذهاب»، ويوجه اهتمامه إلى الصائغ.

- لا يمكنه التحدث بالألمانية، سيدي.

يقول بالفرنسية: «سنكون بخير، أغلقي الباب من فضلك».

يرفع دوبون بصره، ترشح عقدة في داخله شجاعة في دمه. ليس على فون رومبل أن يتكلّف الابتسام، بل إنها ترتسم على وجهه بسهولة وافية. يأمل أن يحصل على أسماء، لكن كل ما يحتاجه هو رقم.

غاليتي ماري لور -

نحن في ألمانيا الآن والأمور على ما يرام. لقد تمكَّنت من العثور على ملاك حارس سوف يحاول إيصال هذه إليك. أشجار التَّنوب والحور الشَّتوية جميلة جداً هنا. وأنت لن تصدقي هذا، لكن سوف يتوجب عليك أن تثقي بي - هم يقدمون لنا طعاماً رائعاً. من الدرجة الأولى: طائر السُّمان وبط وأرنب مطهو. أفخاذ دجاج وبطاطا مقليةٌ مع خنزير وفطيرة المشمش. لحم عجل مسلوق مع الجزر. ديك بالنبيذ مع الأرز. فطيرة الخوخ. فاكهة ومثلَّجات. بقدر ما يسعنا أن نأكل. أنا أنتظر مواعيد الوجبات! كوني مهذبة مع عمك والسَّيدة أيضاً. شكراً لهما لقراءة هذه لك. واعلمي أني دوماً معك وأني بجانبك تماماً.

والدك

إنتروبيا

يظل السَّجين الميت مربوطاً مدة أسبوعٍ إلى الوتد في السَّاحة، لحمه رمادي متجمِّد. يتوقَّف فتيان ويسألون الجثَّة عن الاتجاهات، شخص ما يلبسه حزام خرطوش وخوذة. بعد عدة أيام يأخذ زوج من الغربان بالوقوف على كتفيه، ينحتانه بمنقاريهما، وأخيراً يخرج الحارس مع اثنين من طلاب السَّنة الثالثة، ويخرجون قدمي الجثة من الجليد بواسطة مطرقة، ويقلبانها على عربة ويدحرجونها بعيداً.

ثلاث مرات خلال تسعة أيام، يتم اختيار فريدريك على أنه الأضعف في تمارين الميدان. يسير باستيان مسافة أبعد من أي وقت مضى، ويعد بسرعة أكبر من أي وقت مضى، لذا كان على فريدريك أن يركض أربعمئة أو خمسمئة ياردة، غالباً عبر الثلج السَّميك، والفتيان يتبعونه كما لو أن حياتهم تتوقف على ذلك. كل مرة يُجلد بينما باستيان ينظر، كل مرة لا يقدم فرنر على فعل شيء لإيقافه.

يصمد فريدريك سبع ضربات ثم يتهاوى. ثم ست. ثم ثلاث. هو لا يصرخ أبداً ولا يطلب أن يتركوه، ويبدو أن هذا على وجه الخصوص ما يجعل القائد يرتجف بخيبة قاتلة. غموض فريدريك، لتفرده أثر عليه مثل رائحة، وفي وسع الجميع أن يشمها.

يحاول فرنر أن يغرق نفسه في عمله في مختبر هاوبتمان. لقد ركَّب

نموذجاً مبدئياً من جهاز المرسل المستقبل خاصتهم ويفحص الصَّمامات الكهربائية والإلكترونية والسَّماعات والمقابس - لكن حتى في تلك السَّاعات المتأخرة، كما لو أن السَّماء أعتمت والمدرسة ازدادت ظلمة، مكان شيطاني بازدياد. تزعجه معدته. يصاب بالإسهال. يستيقظ في الهزيع الأخير من الليل ويرى فريدريك في غرفة نومه في برلين، يضع نظارته وربطة عنق، يحرر طيوراً حبيسة من صفحات كتاب كبير.

أنت فتى ذكي. سوف تبلي بلاء حسناً.

ذات مساء عندما يكون هاويتمان في مكتبه في القاعة، ينظر فرنر نحو فولكهايمر النَّاعس، المستبد الجالس في الزاوية ويقول: «ذلك السَّجين».

يطرف فولكهايمر، حجر يتحوَّل إلى لحم حي.

«إنهم يفعلون ذلك كل سنة». يخلع قبعته ويمرر يداً على جذامة شعره الكثيفة. «يقولون إنه بولندي، شيوعي، قوزاقي. سرق مشروباً أو وقوداً أو نقوداً. يتكرر الأمر نفسه كل سنة».

لعدة ساعات متتالية، يكافح الفتيان في اثني عشر مضماراً مختلفاً. يزحف أربعمئة طفل على طول حافَّة شفرة. يضيف فولكهايمر: «دوماً العبارة نفسها أيضاً، تفريغ المصرف».

- لكن هل كان أخلاقياً تركه خارجاً على ذلك الشكل؟ حتى بعد موته؟

«الأخلاق لا تعنيهم في شيء». ثم يسمع صوت كعبي جزمة هاويتمان يطقطقان وهو يدخل إلى الغرفة، وفولكهايمر يستند إلى الوراء في الزاوية، ومحجرا عينيه يمتلآن ثانية بالظلال، وفرنر لا يملك الفرصة ليسأله من يعني بـ«هم».

يضع فتية فأراً ميتاً في جزمة فريدريك. يدعونه باللوطي، بممارس

الجنس الفموي، ألقاب صبيانية أخرى لا تعد. وفي مرتين، أخذ أحد طلاب السَّنة الخامسة منظار فريدريك ولطخ العدستين بالبراز.

يقول فرنر لنفسه بأن يحاول. كل ليلة يلمِّع جزمة فريدريك إلى أن تصبح لمعتها مرئية على مسافة قدم – تقليل من عدد ذرائع المسؤول عن المبيت، أو باستيان، أو الطلاب الأكبر سناً كي لا يتهجموا عليه. صباحات الأحد في حجرة الطعام، يجلسان بهدوء في شعاع الشَّمس وفرنر يساعده على حلِّ وظائفه. يهمس فريدريك أنه يأمل في الربيع، أن يجد أعشاش قبرة في العشب خارج جدران المدرسة. مرة يرفع قلمه ويحدق في الفراغ ويقول: «ثعبان التقط نقار خشب». وفرنر يسمع طنيناً بعيداً لطائر يرتحل عبر السَّاحات وعبر الجدار.

في درس العلوم التقنية، يعرض الدكتور هاوبتمان قوانين التحريك الحراري. «إنتروبيا، من يمكنه أن يعرِّفها؟» يتحدَّب الفتيان على مناضدهم. لا يرفع أحد يده. يمشي هاوبتمان بين الصفوف. يحاول فرنر ألا يأتِ بنأمة.

– بفينغ.

– الإنتروبيا هي درجة العشوائية أو الفوضى في نظام يا دكتور.

تتركز عيناه على فرنر لوقت قصير، لمحة دافئة وباردة في آن. «الفوضى. أنتم تسمعونها من القائد. أنتم تسمعونها من المسؤول عن المبيت. لا بد من أن يكون هناك نظام. الحياة فوضى، أيها السَّادة. وما نمثله هو تنظيم تلك الفوضى. حتى في المورثات. نحن ننظم تطور الأنواع. نطرد الرديء، العنيد، الحثالة. هذا مشروع الرايخ العظيم، أعظم مشروع عكف عليه الجنس البشري».

يكتب هاوبتمان على اللوح. يدوِّن الأغرار الكلمات في دفاترهم: «إنتروبيا نظامٍ معزول لا تنخفض أبداً. كل عملية بحسب القانون يجب أن تضمحل».

الجولات

على الرغم من أن احتجاجات إيتيين المتواصلة، اصطحبت السَّيدة مانك ماري لور إلى الشَّاطئ كل صباح. تربط الفتاة شرائط حذائها بنفسها، تتلمس طريقها على الدرج نحو الأسفل، وتنتظر في البهو وعصاها في قبضة يدها، بينما تنهي السَّيدة مانك عملها في المطبخ.

تقول ماري لور للمرة الخامسة وهما تخرجان: «يمكنني أن أجد طريقي، ليس عليك أن تقوديني».

اثنان وعشرون خطوة إلى التقاطع مع شارع ديستريه. أربعون خطوة إضافية إلى البوابة الصَّغيرة. تسع خطوات وهي على الرمل تغمرها أصوات المحيط التي لا تعد.

تجمع أكواز الصَّنوبر المتساقطة من أشجار لا يعرف أحد كم هي بعيدة. لفائف حبال سميكة. كريَّات صغيرة ملساء من البولب[1] مدفوعة إلى الشَّاطئ. ومرة، دورياً غارقاً. متعتها الأعظم هي السَّير إلى الجهة الشَّمالية من الشَّاطئ عند انخفاض المد لتجلس القرفصاء أسفل جزيرة تدعوها السَّيدة مانك «لو جراند بيه» وتدع أصابعها تخفق في برك المدّ. فقط حينها، وأصابع قدميها ويديها في البحر البارد، يبدو أن عقلها يترك

---

(1) أحد أنواع المرجان. (م).

والدها تماماً، فقط آنئذٍ تكفُّ عن التَّساؤل عن مقدار الحقيقة في رسالته، متى سوف يكتب مجدداً، ولماذا هو مسجون. هي ببساطة تصغي، تسمع، وتتنفس.

تمتلئ غرفة نومها بالحصى، بالأحجار البحرية الزجاجية، القواقع: أربعون محارة على امتداد عتبة النَّافذة، واحد وستون حلزوناً على امتداد سطح الخزانة الكبيرة. ترتبها بحسب نوعها كلما استطاعت، ثم بحسب الحجم. الأصغر إلى اليسار، الأكبر إلى اليمين، تملأ جراراً، دلاء، صوان، تعبق الغرفة بنسيم البحر.

معظم الصَّباحات، بعد الشَّاطئ، تقوم بالجولات مع السَّيدة مانك، تذهبان إلى سوق الخضار، وأحياناً إلى الجزَّار، من ثم إرسال الطعام إلى الجيران الذين تجد السَّيدة مانِك أنهم في حاجة أكثر من سواهم. تصعدان درجاً يردد الصَّدى، تقرعان باباً، تدعوهما امرأة مسنة للدخول، تسأل عن الأخبار، تصرُّ على أن يشربن ثلاثتهنَّ ملء كشتبان من نبيذ الشَّيري. تكتشف ماري لور أن طاقة السَّيدة مانك استثنائية، تتبرعم، تتجدد فسائلها، تستيقظ باكراً، تعمل حتى وقت متأخر، تطهو حساءً دسماً من دون نقطة من القشدة السَّائلة، أرغفة بأقل من كوب من الطحين. تمشيان معاً بتثاقل عبر الشَّوارع الضَّيقة، يد ماري لور على ظهر مئزر السَّيدة، تتبع روائح يخنانها وكعكها، في مثل هذه اللحظات تبدو السَّيدة مانك مثل جدار عظيم متحرك من شجيرات الورد، شوكية وعطرة ويطقطق النحل في أغصانها.

خبز لا يزال ساخناً إلى أرملة عجوز تدعى السَّيدة بلانشار. حساء إلى السَّيد ساجيه. ببطء، يصبح دماغ ماري لور خارطة ثلاثية الأبعاد متوهِّجة المعالم: شجرة دلب كثيفة في ساحة «اوزيرب»، تسع شجيرات للزينة في أصص عند باب فندق الـ«كونتيننتال»، ست درجات نحو ممر يدعى شارع كونيتابل.

عدة أيام في الأسبوع تجلب السَّيدة الطعام إلى المجنون هارولد بازان، محارب قديم من الحرب الكبرى ينام في فجوة خلف المكتبة في الشَّمس أو الثَّلج. فقد أنفه، وأذنه اليسرى، وعيناً بسبب قصف. يضع قناعاً نحاسياً مصقولاً على نصف وجهه.

يحبُّ هارولد بازان التَّحدث عن جدران وسحرة وقراصنة سان مالو. يخبر ماري لور: خلال قرون حفظت الأسوار المدينة من النَّهابين المتعطِّشين للدماء، الرومان، الكلت، وشعوب الشَّمال. البعض يقول وحوش البحر. يقول: لمدة ألف وثلاثمئة عام أبعدت الجدران البحارة الإنكليز المتعطشين للدماء الذين كانوا يركنون سفنهم على الشَّاطئ ويطلقون قذائف ملتهبة على المنازل، ويحاولون إحراق كل شيء ويجوِّعون الجميع، لم يكن هناك شيء ليردعهم عن قتل الجميع.

«كانت أمهات سان مالو»، يقول: «يخبرن أطفالهن: اجلسوا باعتدال، وتصرفوا بأدب. أو أن الإنكليز سوف يأتون في الليل لذبحكم».

تقول السَّيدة مانك: «هارولد من فضلك، سوف تخيفها».

في آذار، يبلغ إيتيين السِّتين من عمره والسَّيدة مانك تطهو محاراً صغيراً مع بصل الشالوت وتقدِّمه جنباً إلى جنب مع الفطر وأرباع بيضتين مسلوقتين جيداً: تقول إنهما البيضتان الوحيدتان اللتان تمكَّنت من العثور عليهما في المدينة. يتحدَّث إيتيين بصوته الناعم عن ثوران «كراكاتوا»، في أقدم ذكرياته كلها، كيف حوَّل رماد من «الهند الشَّرقية» غروب الشَّمس في سان مالو إلى أوردة كبيرة قانية من القرمزي الذي يتوهَّج فوق البحر كلَّ مساء، بالنسبة إلى ماري لور وقد تبطَّنت جيوبها بالرمل، وجهها لفحته الريح، يبدو الاحتلال -للحظة- بعيداً ألف ميل. تفتقد والدها، باريس، الدكتور جيفار، الحدائق، كتبها، أكواز الصَّنوبر خاصتها - جميعها فجوات

في حياتها. لكن خلال تلك الأسابيع القليلة الماضية، أصبح وضعها أكثر قبولاً. أقلّه، على الشّواطئ. شعورها بالحرمان والخوف، لطفته الريح واللون والضوء.

معظم الأصائل، بعد الجولات الصّباحية مع السّيدة، تجلس ماري لور على سريرها، والنّافذة مفتوحة، وتمرر يديها على مجسّم المدينة الذي صنعه والدها. تمر أصابعها على سقائف بناة السُّفن في شارع «شارتريه»، تمر بفرن السّيدة رويل في شارع روبرت سوركوف.

في خيالها، تسمع الفرانين يتزحلقون على أرضية زلقة بالطحين، تشبه حركتهم حركة المتزلجين بحسب ما تتخيلها، يخبزون أرغفة في المخبز نفسه الذي يبلغ عمره أربعمئة سنة والذي استعمله جدُّ جد والد السّيد رويل. تمر أصابعها على درج الكاتدرائية - هنا رجل مسنٌّ يقلّم زهوراً في حديقة، هنا بجانب المكتبة، المجنون هارولد بازان يتمتم إلى نفسه وهو يحدّق بعينه الوحيدة في قنينة نبيذ فارغة، هنا الدّير، هنا مطعم «شي شوش» قرب سوق السّمك، هنا المنزل رقم 4 شارع فوبوريل، بابه غائر قليلاً، في الطابق الأسفل منه تجثو السّيدة مانك بجانب سريرها، تخلع حذاءها، حبّات المسبحة تنزلق من بين أصابعها، تتلو صلاة على نيّة كلّ شخص في المدينة. هنا، في غرفة الطابق الخامس، يمشي إيتيين بجانب رفوفه الفارغة، يجرُّ أصابعه على أماكن أجهزة الراديو خاصته سابقاً. وفي مكان ما خلف حدود المجسّم، خلف حدود فرنسا، في مكان لا تستطيع أصابعها الوصول إليه، يجلس والدها في زنزانة، دزينة من مجسماته المنحوتة على عتبة النّافذة، يأتي حارس إليه مع ما تريد من صميم قلبها أن تصدّق أنها مأدبة - طائر سمّان وبط وأرنب مطهو. أفخاذ دجاج وبطاطا مقلية مع لحم خنزير وفطيرة المشمش - دزينة صواني، دزّينة من الأطباق الكبيرة، بقدر ما يمكنه أن يأكل.

إبرة في كومة قش

منتصف الليل. تقفز كلاب الدُّكتور هاوبتمان عبر الميادين المتجمِّدة قرب المدرسة، قطرات زئبقية تنزلق برشاقة عبر البياض. خلفهم يأتي هاوبتمان مرتدياً قبعة من الفراء، يمشي بخطوات قصيرة كما لو أنه يعد الخطوات نحو مسافة طويلة. في الخلف يأتي فرنر، حاملاً جهازي المرسل المستقبل اللذين كان هو وهاوبتمان يختبرانها طوال شهور.

يلتفت هاوبتمان متوهِّج الوجه.

– بقعة جيدة هنا، خطوط رؤية جيدة، ضعه، بفينغ. لقد أرسلت صديقنا فولكهايمر قدماً. هو في مكان ما على التلة.

لا يرى فرنر آثاراً، فقط هضبة محدبة تلمع تحت ضوء القمر، والغابة البيضاء من خلفه.

يقول هاوبتمان: «إنه يحمل جهاز الإرسال KX في صندوق ذخيرة. سوف يتوارى ويبث بثبات إلى أن نجده أو تنفد البطارية. حتى أنا لا أعرف أين هو».

يلطم يديه في القفازين ببعضهما بعضاً، والكلاب تدوِّم من حوله أنفاسها مدخنة.

– عشرة كيلومترات مربَّعة. حدد موضع جهاز الإرسال، جد صديقنا.

ينظر فرنر نحو العشرة آلاف شجرة المحجوبة بالثلج.

- هناك، سيدي؟

- هناك.

يخرج هاويتمان زجاجة من جيبه ويفتحها من دون أن ينظر إليها.

- هذا الجزء المسلي، بفينغ.

يضرب هاويتمان بقدمه بقعة في الثلج، ويضع فرنر الجهاز الأول، مستعملاً شريط قياس ليقطع مئتي متر ويضع الثاني. يحل أسلاك التأريض، يرفع الهوائيين ويشغلهما. أصابعه خدرة سلفاً.

- جرِّب ثمانين متراً، بفينغ. عادة، لن تعرف الفِرَق عن أي نطاق يبحثون. لكن في هذه الليلة، اختبارنا الميداني الأول، سوف نخادع قليلاً.

يضع فرنر سماعتي الرأس فتمتلئ أذناه بالتشويش. يتصل ثانية بالترددات الراديوية، يعدِّل المرشِّح. وسرعان ما تمكَّن من سماع الأزيز المنبعث من جهاز إرسال فولكهايمر عبر كلا المستقبلين. «لقد وجدته يا سيدي».

يبدأ هاويتمان بالابتسام بجدية. تطفر الكلاب وتعطس باهتياج. يخرج من معطفه قلم شحم. «فقط افعلها على الراديو. الفرق لا تمتلك ورقاً دوماً، ليس في الميدان».

يدوِّن فرنر المعادلة على المعدن المغلِّف للمستقبل ويبدأ بالعمل بجد على الأرقام. يناوله هاويتمان مسطرة. وخلال دقيقتين حصل فرنر على كمية موجهة ومسافة: كيلومترين ونصف.

«والخريطة؟». يومض وجه هاويتمان الصَّغير الأرستقراطي مستمتعاً.

يستعمل فرنر منقلة وبوصلة ليرسم الخطوط.

- تقدَّم، بفينغ.

يطوي فرنر الخارطة في جيب معطفه، يحزم جهازي المرسل -المستقبل، ويحمل واحداً في كل يد مثل حقيبتين متطابقتين. تهطل بلورات ثلجية رقيقة عبر ضوء القمر. سريعاً تبدو المدرسة ومبانيها الخارجية مثل ألعاب على المنبسط الأبيض في الأسفل. ينزلق القمر، عين نصف مغمضة، والكلاب تلبث قريبة من سيدها، أفواه تصدر بخاراً، وفرنر يتعرَّق.

يهبطان في خور ويصعدان. كيلومتر واحد، اثنان.

«الارتقاء»، يقول هاوبتمان لاهثاً: «هل تعرف ما هو بفينغ؟». هو ثمل، متحمس، يهذر قليلاً. لم يره فرنر يوماً على هذه الحال. «إنها اللحظة التي يكون فيها أمر ما على وشك أن يصبح شيئاً آخر. النهار ليلاً، اليرقة فراشة، الخشف ظبياً، التجربة نتيجة، الفتى رجلاً».

يصعد ممراً ثالثاً، يفرد فرنر الخارطة ويتحقَّق جيداً من اتجاهاته بواسطة بوصلة. في كل مكان تومض الأشجار الصَّامتة. ما من آثار ما عدا آثارهما. ضاعت المدرسة خلفهما.

- هل أهيئ جهازي المرسل المستقبل ثانية، سيدي؟

يضع هاوبتمان أصابعه إلى شفتيه.

يقوم فرنر بحساب المثلثات ثانية ويرى كم هما قريبان من قراءته الأصلية - أقل من نصف كيلومتر. يعيد حزم الجهازين ويغذُّ سيره، مطاردة الآن، على الرائحة، تشعر الكلاب الثلاثة بها أيضاً، وفرنر يفكِّر: لقد وجدت مدخلاً، أنا أحلها، الأرقام تصبح حقيقة. وتفرغ الأشجار كميات مغربلة من الثلج والكلاب تتجمد وتنفض خطومها، مثبتة بصلابة على رائحة، مشيرة كما لو نحو طائر تدرج، وهاوبتمان يرفع راحة يده، وأخيراً فرنر، يخرج من فجوة بين الأشجار، يجهد وهو يحمل الصندوقين

الكبيرين، يرى هيئة رجل مستلقياً على الثلج ووجه نحو الأعلى، جهاز إرسال عند قدميه، هوائي يرتفع عبر الشجيرات الخفيضة.

العملاق.

الكلاب ترتجف في مكان وقوفها. هاوبتمان يبقي راحته عالية، وباليد الأخرى يخرج مسدسه من غمده. «هذا قريب، بفينغ، لا يمكنك التردد».

جانب فولكهايمر الأيسر بمواجهتهما. يستطيع فرنر أن يرى بخرَ أنفاسه يعلو ويتبدَّد. يوجِّه هاوبتمان مسدسه مباشرة نحو فولكهايمر، وللحظة طويلة مروِّعة، فرنر متأكد من أن مدرسه على وشك أن يقتل الفتى، وأنهما في خطر عظيم، كل جندي غر، ولا يمكنه إلا أن يسمع يوتا وهي تقف بجانب القنال: هل من الصَّواب أن تقدم على فعل أمر، فقط لأن الجميع يفعلونه؟ شيء في روح فرنر يغلق عينيها المتقشرتين. البروفسور القصير يرفع مسدسه ويطلق نحو السَّماء.

يقفز فولكهايمر في الحال جاثياً، يرتفع رأسه عندما تنطلق الكلاب باتجاهه، وقلب فرنر يبدو كما لو أنه تمزق إرباً في صدره.

ترتفع ذراعا فولكهايمر عندما تهاجمه الكلاب، لكنهم يعرفونه، يتقافزون عليه بمرح، ينبحون ويركضون، وفرنر يشاهد الفتى الضَّخم يتخلص من الكلاب كما لو أنها قطط أليفة. يضحك الدكتور هاوبتمان. ينبعث الدُّخان من مسدسه، ويأخذ جرعة طويلة من قارورته ويمررها إلى فرنر، وفرنر يضعها إلى شفتيه. لقد سرَّ أستاذه في النهاية، المرسلان يعملان، هو في الليل المنير المرصَّع بالنجوم يشعر بالوهج الواخز للبراندي يتدفق في أحشائه.

يقول هاوبتمان: «هذا ما نفعله بالمثلَّثات». تحوم الكلاب وتنحني وتمرح. يتبوَّل هاوبتمان تحت الأشجار. يسير فولكهايمر مجهداً نحو

فرنر، فيما هو يجرُّ جهاز الإرسال الكبير يصبح أضخم من أي وقت، يريح يداً ضخمة على قبَّعة فرنر وهو يرتدي قفازاً.

يقول بهدوء كافٍ فلا يمكن لهاوبتمان أن يسمعه: «إنها مجرَّد أرقام».

يضيف فرنر مقلِّداً لهجة هاوبتمان المشذَّبة: «رياضيات بحتة، أيها الغرّ». يضغط أطراف أصابعه المكسوَّة بالقفَّازات معاً، خمسة إلى خمسة ويردف قائلاً: «عليك أن تكيف نفسك على التفكير بتلك الطريقة».

إنها المرة الأولى التي سمع فرنر فيها ضحكة فولكهايمر، وسحنته تتغير، يصبح أقل توعُّداً، وأكثر شبهاً بطفل ضخم سمِح. أكثر شبهاً بالشَّخص الذي يصبح عليه عندما يستمع إلى الموسيقى.

طوال اليوم التَّالي تسري متعة نجاح فرنر في دمه، ذكرى كيف بدا في نظره مقدساً إلى حد بعيد أن يمشي بجانب فولكهايمر الضَّخم في طريق عودتهما إلى القلعة، عبر الأشجار المتجمدة، مروراً بغرف الفتيان النَّائمين المرتبين مثل قضبان ذهبية في مخازن محصَّنة - شعرَ فرنر تقريباً بحماية أبوية للآخرين وهو يخلع ملابسه بجانب سريره، عندما واصل فولكهايمر المتثاقل طريقه نحو حجرات الطلبة الأكبر سناً، غول بين ملائكة، حارس يعبر حقلاً من شواهد القبور ليلاً.

اقتراح

تجلس ماري لور في بقعتها المعتادة في زاوية المطبخ، أقرب إلى الموقد، وتصغي إلى شكوى صديقات السَّيدة مانِك.

تقلو السَّيدة فونتينو: «سعر الإسقمري! قد يخيل إليك أنه توجب عليهم الإبحار إلى اليابان لاصطياده!».

تقول السَّيدة هيبرار مديرة مكتب البريد: «لم يعد في وسعي تذكُّر مذاق الخوخ الأصلي».

تقول السَّيدة رويل زوجة الخبَّاز: «وتلك القسائم السَّخيفة، ثيو حصل على الرقم 3501، والدور لم يصل إلى الرقم 400!».

– لم تعد بيوت البغاء الآن في شارع تيفانار فقط. إنهم يعطون كل شقق البيوت الصيفية إليهن.

– كلود البدين وزوجته يزدادان سمنة.

– الألمان الملاعين أنوارهم مضاءة طوال النهار!

– لم يعد في وسعي احتمال البقاء ليلاً في البيت مع زوجي.

تجلس تسع نساء إلى الطاولة المربعة الشَّكل، الركب ملتصقة بالركب. قيود البطاقات التموينية، بودنج سيئ للغاية، النوعية المتردِّيَة من طلاء الأظافر – تلك جرائم تترك أثرها في أرواحهن. الاستماع لأصوات

بهذه الكثرة في غرفة يُشعر ماري لور بالإرباك والإثارة: هنَّ طائشات عندما يتوجب عليهن أن يكن جديات، كئيبات بعد رواية النكات، تبكي السَّيدة هيبرار لعدم توفُّر سكر ديمارارا، تشكو أخرى من تفسُّخ التبغ، وفجأة، ينفجرن في نوبة من الضَّحك والبكاء، حول الحجم الاستثنائي لمؤخرة العطار. لهن رائحة الخبز البائت، رائحة غرفة جلوس خانقة محشوة بأثاث بريتوني ضخم داكن اللون.

تقول السَّيدة رويل: «إذاً ابنة عائلة الجوتيه تريد أن تتزوج. ووجب على العائلة بيع جميع ممتلكاتها من الجواهر للحصول على الذهب من أجل خاتم الزواج. فرضت سلطات الاحتلال ضريبة على الذهب بنسبة 30 في المئة. ثم عمل الصائغ سيكلّف بضريبة 30 في المئة أخرى. عندما دفعوا له لم يبق هناك خاتم!».

سعر الصَّرف مهزلة، سعر الجزر غير قابل للتبرير، النِّفاق يزدهر في كل مكان. أخيراً تقفل السَّيدة مانِك باب المطبخ وتنظف حنجرتها. تصمت النسوة.

تقول السَّيدة مانِك: «نحن من ندير عالمهم. أنتِ، يا سيدة جيبو، ابنك يصلح لهم أحذيتهم. يا سيدة هيبرار أنت وابنتك تفرزان بريدهم. وأنت يا سيدة رويل مخبزك يصنع الكثير من خبزهم».

يتمدد الهواء مشدوداً، أحست ماري لور أنهن يراقبن شخصاً ينزلق على جليد رقيق أو يضع راحة يده فوق اللهب.

– ماذا تقولين؟

– أن نفعل شيئاً.

– نضع قنابل في أحذيتهم؟

– براز في عجينة الخبز؟

ضحك متقصِّف.

- لا شيء بمثل هذه الجرأة. لكن يمكننا أن نفعل أشياء صغيرة. أموراً أبسط.

- مثل ماذا؟

- أولاً يجب أن أعرف إذا كنتن راغبات.

يعقب ذلك صمت مشحون. تستطيع ماري لور أن تشعر بهن جميعاً رابطات الجأش هناك. تسعة عقول تنوس ببطء. هي تفكِّر في والدها - بأي ذنب سجن؟ وتتألم.

تغادر امرأتان بحجة أن لديهما التزامات لها علاقة بالأحفاد. تشد أخريات قمصانهن وتحركن كراسيهن كما لو أن حرارة المطبخ ارتفعت. ستٌّ يبقين. تجلس ماري لور بينهن، تتساءل من سوف تنسحب، من سوف تثرثر، من سوف تكون الأكثر شجاعة. من سوف تتمدد على ظهرها وتترك نفسها الأخير يتموج نحو السقف مثل لعنة على الغزاة.

لديك أصدقاء آخرون

«احترس، أيها الحطبة الجافة»، يصيح مارتن بوركارد عندما يعبر فريدريك السَّاحة، «أنا قادم إليك الليلة!». ويحرك خصره بجنون.

يتبرز شخص على سرير فريدريك. يسمع فرنر صوت فولكهايمر: الأخلاق لا يعنيهم.

«يا من يتبرز في سريره»، يبصق فتى: «اجلب لي جزمتي».

يتظاهر فريدريك بأنه لا يسمع.

ليلة بعد ليلة ينسحب فرنر إلى مختبر هاوبتمان. خرجوا حتى الآن ثلاث مرات إلى الثلج لتتبع جهاز إرسال فولكهايمر، وفي كل مرة كانت سرعتهم في العثور عليه تزداد. في أثناء الاختبار الميداني الأخير، تمكن فرنر من إعداد جهازي المرسل - المستقبل، العثور على جهاز الإرسال، وتحديد مكان فولكهايمر على الخارطة في أقلّ من خمس دقائق. يعدُ هاوبتمان برحلات إلى برلين، يبسط مخططات من مصنع للإلكترونيات في النمسا ويقول: «أعربت عدة وزارات عن حماسها لمشروعنا». ينجح فرنر. هو مخلص. هو جيد وهذا ما يتفق عليه الجميع. ومع ذلك يشعر كلما يستيقظ ويزرر سترته بأنه يخون شيئاً.

ذات ليلة عاد أدراجه هو وفولكهايمر مجهدين عبر الوحل، يحمل فولكهايمر جهاز الإرسال، جهازي الاستقبال، والهوائي مطوي تحت

إحدى ذراعيه. يمشي فرنر خلفه، مسروراً في أن يكون في ظله. الأشجار تدلف، تبدو أغصانها على وشك أن تنفجر بالزهور. الربيع. بعد شهرين سوف يمنح فولكهايمر تكليفه ويذهب إلى الحرب.

يتوقفان للحظة فيتمكن فولكهايمر أن يرتاح، وفرنر ينحني ليتفحّص أحد الجهازين، يسحب مفك براغ صغيراً من جيبه، ويشد مفصلة لوح رخوة. ينظر فولكهايمر إليه بحنان عظيم ويقول: «ماذا يمكن أن تكون».

يصعد فرنر تلك الليلة إلى السّرير، ويرنو إلى الأعلى نحو السّطح السُّفلي لمفرش فريدريك. تهبُّ ريح دافئة إزاء القلعة، وفي مكان ما تصفق درفة، يدلف الثّلج الذّائب على مواسير التصريف الطويلة. يهمس بهدوء قدر الإمكان: «هل أنت مستيقظ؟».

يميل فريدريك من على جانب سريره، وللحظة في الظلمة التامة تقريباً، يعتقد فرنر أنهما أخيراً سوف يقولان لبعضهما البعض ما لم يكونا قادرين على قوله.

- يمكنك الذهاب إلى البيت كما تعلم، إلى برلين، غادر هذا المكان.

يكتفي فريدريك بأن يطرف بعينيه.

- والدتك لن تمانع. ربما هي تحب أن تكون بالقرب منها، فراني أيضاً. فقط لشهر. حتى أسبوع، حالما تغادر سوف يتوقّف الطلاب، وحين عودتك سيكونون قد انتقلوا إلى شخص آخر. ليس من الضروري أن يعلم والدك.

لكن فريدريك ينقلب عائداً إلى سريره، وفرنر لم يعد في وسعه رؤيته. يأتي صوته متردداً من السّقف.

«ربما يكون من الأفضل لو لم نعد صديقين بعد الآن»، يقولها بصوت مرتفع جداً، مرتفع على نحو خطير: «فرنر. أعرف أنه التزام، السير برفقتي،

تناول الطعام معي، تطوي لي ملابسي دوماً، وتلمِّع جزمتي، وتدربني. عليك التفكير في دراساتك».

يطبق فرنر عينيه بإحكام. تغمره ذكرى من غرفة نومه في العليَّة: أصوات خطوات الفئران في الجدران، مطر ثلجي يطرق على النَّافذة. السَّقف منحدر للغاية فلم يتمكن من الوقوف إلا في المكان الأقرب إلى الباب. والشُّعور أنه في مكان ما تماماً خلف بصره، كانت أمه ووالده والرجل الفرنسي من الراديو يتجولون مثل متفرجين في معرض، يراقبونه جميعاً من خلال النَّافذة المجلجلة ليروا ما قد يفعله.

يرى وجه يوتا المكتئب، محنياً على قطع من جهاز الراديو المكسور خاصتهما. أحسَّ بأنَّ شيء ضخم وفارغ على وشك أن يلتهمهم جميعاً.

يقول فرنر من تحت غطائه: «ليس هذا ما قصدته»، لكن فريدريك لم يقل شيئاً، وكلاً منهما يتمدد بلا حراك لوقت طويل، يشاهدان آثر ضوء القمر الزرقاء كعجلة تدور عبر الغرفة.

نادي السَّيدات المسنات للمقاومة

السَّيدة رويل، زوجة الخبَّاز - امرأة ذات صوت جميل تفوح منها غالباً رائحة الخميرة، لكن أيضاً -أحياناً- رائحة مسحوق بودرة الوجه، أو عطر التُّفاح المشرَّح الحلو - تربط سلماً إلى سطح سيارة زوجها وتقود عبر «روت دي كارنتان» عند الغسق مع السَّيدة جيبو وتغيران ترتيب لافتات الطريق بواسطة طقم من مفاتيح الصَّواميل. تعودان ثملتين وضاحكتين إلى مطبخ منزل رقم 4 شارع ذو فوبوريل.

تقول السَّيدة رويل: «دينان الآن على بعد عشرين كيلومتر إلى الشَّمال. تماماً وسط البحر!».

بعد ثلاثة أيام، تسمع السَّيدة فونتينو مصادفة أن قائد الحامية العسكرية الألماني يتحسس من نبتة عصا الذَّهب. السَّيدة كاريه، بائعة الزهور، تضم حفنات كبيرة منها في باقة موجَّهة إلى القصر. توجه النساء شحنة من الحرير الصِّناعي إلى الوجهة الخاطئة. يتعمدن الخطأ في طباعة جدول مواعيد القطار. تزلق السَّيدة هيبرار، مديرة مكتب البريد، رسالة تبدو مهمة من برلين في سروالها الداخلي، وتأخذها إلى البيت وتشعل نار المساء بها.

يدخلن مطبخ إيتيين بفيض من روايات جذلة عن أن شخصاً سمع عطاس قائد الحامية، أو أن براز الكلب الموضوع على عتبة مبغى وصل هدفه أسفل حذاء ألماني بإتقان. تصب السَّيدة مانك نبيذ الشيري أو خمر

عصير التفاح أو نبيذ «موسكاديت» الأبيض، يجلس شخص ما قرب الباب ليسد مسدَّ حارس. تتباهى السَّيدة فونتينو، صغيرة ومطأطئة، بأنها عطَّلت لوحة المفاتيح الكهربائية في القصر لمدة ساعة، تقول السَّيدة «جيبو» الضَّخمة ورئة الملابس إنها ساعدت أحفادها في تلوين كلب شارد بألوان العلم الفرنسي وأرسلته يجري عبر ساحة شاتوبريان.

تثرثر النسوة بحماس.

تسأل السَّيدة بلانشار الأرملة العجوز: «ماذا يمكنني أن أفعل؟ أريد أن أفعل شيئاً».

تطلب السَّيدة مانِك من الجميع أن يعطوا نقودهم للسيدة بلانشار.

تقول: «سوف تعاد إليكم، لا تقلقن. الآن، يا سيدة بلانشار، لطالما كان خط يدك جميلاً طوال حياتك. خذي قلم الحبر هذا من السَّيد إيتيين. أريدك أن تكتبي على كل ورقة خمسة فرنكات: حرروا\فرنسا\الآن. لا يملك أحد القدرة على إتلاف النقود، صحيح؟ وما إن ينفق الجميع نقودهم، سوف تنتشر رسالتنا الصَّغيرة في جميع أنحاء بريتاني».

تصفِّق النِّسوة. تعصر السَّيدة بلانشار يد السَّيدة مانك وتتنفس بجهد وتطرف بعينيها اللامعتين باستمتاع. أحياناً ينزل إيتيين متبرماً، ينتعل فردة حذاء واحدة، ويرين الهدوء على المطبخ بأسره بينما تحضر السَّيدة مانِك له الشَّاي وتضعه على صينية وإيتيين يحملها عائداً إلى الأعلى. ثم تبدأ النسوة ثانية، يمكرن، يثرثرن. تسرِّح السَّيدة مانِك شعر ماري لور بضربات طويلة غافلة. تهمس: «ستة وسبعون عاماً ولا يزال في وسعي أن أشعر مثل هذا؟ مثل فتاة صغيرة والنجوم في عيني؟».

تشخيص

يقيس الطبيب العسكري درجة حرارة الرقيب الأول فون رومبل. ينفخ جهاز ضغط الدَّم. يفحص حنجرته بقلم مضيء. هذا الصَّباح بالذات عاين فون رومبل أريكة من القرن الخامس عشر، وأشرف على وضعها في عربة قطار أعدَّت لتكون مسكن المارشال جورين الخاص بالصَّيد. الجندي الذي جلبها له وصف غنائم الفيلا التي أخذوها منها، سماه «تسوُّقاً».

تحيل الأريكة أفكار فون رومبل إلى صندوق تبغ هولندي يعود إلى القرن الثَّامن عشر، مصنوع من النحاس الأصفر والأحمر، ومرصَّع بماسات متناهية في الصِّغر، فحصه في بداية الأسبوع، ويحيل صندوق التبغ أفكاره بإلحاح كالجاذبية الأرضية، إلى بحر اللهب. في أكثر لحظاته ضعفاً، يتخيل السَّير في ثمَّة ساعة مستقبلية بين مبان مقنطرة من أعمدة في متحف الفوهرر الكبير في لينز، كعبا حذائه يطقطقان بنشاط على الرخام، شفق ينهمر عبر النَّوافذ العالية. يرى ألف خزانة عرض بلورية، بالغة الصَّفاء تبدو أنها تعوم فوق الأرضية، في داخلها تنتظر ثروة العالم المعدنية، محصودة من كل فجوة على سطح الكرة الأرضية: ديوبتاز وتوباز وجمست وروبليت كاليفورنيا.

ما كانت العبارة؟ مثل نجوم تتهاوى عن جبهات رؤساء الملائكة.

وفي مركز المعرض، تسقط بقع ضوء عبر السَّقف على قاعدة، هناك، في داخل مكعب زجاجي، يتوقَّد حجر أزرق صغير...

يطلب الطبيب من فون رومبل أن ينزل سرواله. مع أن العمل في الحرب لم يتوقف، ولو ليوم واحد، كان فون رومبل يشعر بالسَّعادة طوال شهور. تتضاعف مسؤولياته، يتَّضح عدم وجود الكثير من خبراء الماس الآريين في الرايخ. فقط منذ ثلاثة أسابيع، خارج محطة صغيرة مشمسة غرب براتسلافا، تفحَّص مغلفاً مليئاً بالأحجار الصَّافية تماماً، المصقولة على نحو جيد، خلفه دمدمت شاحنة مليئة باللوحات الملفوفة في ورق ومحزَّمة في قش. همس الحراس عن أن لوحة لرامبرانت كانت من بينها، وقطعاً من نقش شهير في مذبح من كراكوف.

كلها أرسلت إلى منجم للملح في مكان عميق أسفل قرية «التاوسي» النِّمساوية، حيث نفق بطول ميل ينزل في ممر مقنطر رقراق مملوء برفوف على ارتفاع ثلاثة طوابق، عليها تكدِّس القيادة العليا فخر الفنون الأوروبية. سوف يجمعون كل شيء تحت سقف حصين واحد، معبد للمجهود البشري. سوف تدهش الزوَّار لألف سنة.

يسبر الطبيب حقوه ويقول: «ما من ألم؟».

- لا.

- ولا هنا؟

- لا.

ربما كان لها أن تكون مبالغة أن تأمل بالحصول على أسماء من الصائغ في باريس. دوبون، في النهاية ما كان له أن يعرف لمن أعطيت النسخ المطابقة من الماسة، لم لكن لديه لمحة عن إجراءات الحماية التي اتَّخذها المتحف في اللحظة الأخيرة. لكن مع ذلك كان دوبون مفيداً، احتاج فون رومبل إلى رقم، وحصل عليه.

ثلاثة.

يقول الطبيب: «يمكنك ارتداء ملابسك»، ويغسل يديه في المغسلة. في الشَّهرين اللذين سبقا اجتياح فرنسا، صمَّم دوبون ثلاث نسخ مطابقة للمتحف. هل استعمل الماسة الحقيقية لصنعها؟ هو استعمل سبيكة. لم يرَ أبداً الماسة الحقيقية. فون رومبل يصدقه. ثلاث نسخ. بالإضافة إلى الحجر الحقيقي. في مكان ما على هذا الكوكب بين حبيبات الرمل اللامتناهية العدد.

أربعة أحجار، واحد منها في قبو المتحف، محفوظ في خزنة. يجب العثور على الأحجار الثلاثة الأخرى. يشعر فون رومبل في بعض الأوقات بأن التبرُّم يجيش في داخله مثل عصارة المرارة، لكنه يرغم نفسه على ابتلاعها. سوف تأتي.

يشبك حزامه. يقول الطبيب: «علينا أن نأخذ خزعة، ربما ترغب في الاتصال بزوجتك».

الأضعف 3#

تصل القسوة إلى حدها. ربما ينتزع باستيان ثأراً أخيراً، ربما يمضي فريدريك باحثاً عن طريقه الوحيد للخروج. كل ما يعرفه فرنر على وجه الثِّقة هو أنه ذات صباح نيساني يستيقظ ليجد ثلاث بوصات من الطين على الأرض وفريدريك ليس في سريره.

لا يظهر على الفطور أو في حصة علم العروض أو تمارين الصَّباح الميدانية. كل قصة يسمعها فرنر لها مآخذها وتناقضاتها، كما لو أن الحقيقة هي آلة تروسها غير متراكبة. أولاً يسمع عن أن مجموعة من الفتيان أخذوا فريدريك إلى الخارج ووضعوا مشاعل في الثلج وطلبوا منه أن يصوِّب على المشاعل بيندقيته - ليثبت أنه يملك البصر المناسب. ثم يسمع فرنر أنهم جلبوا له مخططات لامتحان العين، وعندما لم يتمكن من قراءتها، أجبروه على أكل المخططات.

لكن أيُّ أهمية للحقيقة في هذا المكان؟ يتخيَّل فرنر عشرون فتى يطبقون على جسد فريدريك كالجرذان، يرى الوجه السَّمين اللامع للقائد، حنجرة تنسكب من ياقته، يستلقي مثل ملك على عرش مرتفع من خشب البلوط بينما الدم ينسكب ببطء على الأرض، يرتفع حتى كاحليه، حتى ركبتيه...

يفوت فرنر الغداء ويمشي ذاهلاً إلى مستشفى المدرسة. هو يجازف

بالحجز أو ما هو أسوأ، إنها ظهيرة مشمسة ساطعة، لكن قلبه يتحطَّم ببطء في ملزمة، وكل شيء بطيء ومنوِّم، ويراقب ذراعه تعمل وهي تفتح الباب كما لو أنه يسترق النظر خلال ماء أزرق على عمق عدة أقدام.

سرير واحد عليه دم. دم على الوسادة، وعلى الملاءات، وحتى على الحديد المطلي بالمينا لهيكل السَّرير. أسمال بالية زهرية اللون في حوض. ضمادة نصف ملفوفة على الأرض. الممرضة منهمكة بعملها وتتجهم في وجه فرنر. خارج المطابخ، هي المرأة الوحيدة في المدرسة.

يسأل: «لماذا هناك الكثير من الدم؟».

تضع أربع أصابع على شفتيها. ربما تشاور نفسها فيما إذا كان عليها أن تخبره أو تتظاهر بأنها لا تعلم. اتهام أو تسليم أو تورط في جريمة.

- أين هو؟

- لايتزغ. من أجل عملية جراحية.

تمس زراً أبيض مدور على زيها بما قد يكون إصبعاً يرتجف بشكل غير مناسب. بخلاف ذلك هيئتها متجهمة تماماً.

- ما الذي حدث؟

- ألا يجب عليك أن تكون في إطعام الظهيرة؟

كل مرة يطرف، يرى رجال طفولته، عمال مناجم منصرفين ينجرفون عبر الأزقة الخلفية، رجالاً بكلَّابات بدل الأصابع وفراغات مكان العيون، يرى باستيان واقفاً عند نهر ينبعث منه الدخان، الثلج يتساقط من حوله. فوهرر، شعب، موطن. صلِّب جسدك، صلِّب روحك.

- متى سيعود؟

تقول كلمة ناعمة بما فيه الكفاية: «أوه». تهزُّ رأسها.

صندوق صابون أزرق على الطاولة. فوقه رسمٌ لضابط سابق في إطار متفتت. ثمّة فتى أرسل سابقاً ليقضي نحبه في هذا المكان.

- أيها التلميذ؟

توجب على فرنر أن يجلس على السَّرير. يبدو أن وجه الممرضة يحتل مسافات متعددة، قناع فوق قناع فوق قناع. ما الذي تفعله يوتا في هذه اللحظة بالذَّات؟ تمسح أنف وليد نائح أو تجمع الصُّحف أو تصغي إلى عروض من ممرضات الجيش أو ترفو جورباً آخر؟ تصلي من أجله؟ تؤمن به؟

يفكِّر: لن أكون يوماً قادراً على إخبارها عن هذا.

عزيزتي ماري لور

الآخرون في زنزانتي لطفاء غالباً. البعض يروون النكات. إليك واحدة: هل سمعت عن برنامج تمرين الفيرماخت(١)؟ نعم، كل صباح ترفعين يديك فوق رأسك وتبقيهما هناك!

هاها. وعدَ ملاكي بإرسال هذه الرسالة من أجلي بمجازفة هائلة. إن التواجد خارج «النُزُل» لفترة قصيرة آمن للغاية ولطيف. نحن نشيد طريقاً الآن والعمل جيد. جسدي يزداد قوة. اليوم رأيت شجرة بلوط تتنكر في زي شجرة كستناء. أظن أنها تدعى بلوط الكستناء. أود كثيراً جداً أن أسأل بعض علماء النبات في الحدائق عنها عندما نعود إلى البيت.

آمل أنك والسَّيدة مانِك وإيتيين سوف تواصلون إرسال الأشياء. يقال إنه سيكون مسموحاً لكل واحد منا أن يتلقى رزمة، لذا يمكن أن يصل شيء ما أخيراً. أشك أنهم سوف يسمحون لي بالاحتفاظ بأدواتي لكن قد يكون رائعاً إن فعلوا. أنت قطعاً لن تصدقي كم المكان جميل هنا، يا عزيزتي، وكم نحن بعيدون عن الخطر! أنا في أمان على نحو لا يصدق، في أمان بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

والدك.

---

(1) Wehrmacht: اسم القوات المسلحة الموحدة لألمانيا من العام 1935 إلى 1945. (م).

كهف

إنه فصل الصَّيف، وماري لور جالسة في الفجوة في الجدار خلف المكتبة مع السَّيدة مانك والمجنون هارولد بازان. عبر قناعه النحاسي، مع جرعة من الحساء، يقول هارولد: «أريد أن أريك شيئاً».

يقود ماري لور والسَّيدة مانك عبر ما تظنه ماري لور شارع «دو بوير»، ولو أنه قد يكون شارع «فانسان دو جورناي» أو شارع «دي هوت سال». يصلون إلى أساسات السور، وينعطفون يمنة، يتبعون زقاقاً لم يسبق لماري لور عبوره من قبل. ينزلون درجتين، يمرون عبر ستارة من اللبلاب المتدلي، وتقول السَّيدة مانِك: «هارولد من فضلك، ما هذا؟». يضيق الزقاق إلى أن يتوجَّب عليهم أن يمشوا في بشكل مفرد، الجدران متقاربة على كلا الجانبين، من ثم يتوقَّفون. ماري لور يمكنها أن تشعر بالكتل الحجرية تصعد عمودياً على كلا الجانبين لتحفَّ بأكتافهم: يبدو أنها ترتفع إلى الأبد. إذا ما بنى والدها هذا الزقاق في مجسَّمه فإن أصابعها لم تكتشفه بعد.

ينقِّب هارولد في سرواله القذر، يلهث بشدَّة خلف قناعه. حيث يجب أن تكون الأسوار، إلى يسارهم، تسمع ماري لور قفلاً يزاح. بوابة تنفتح.

يقول: «انتبهي لرأسك»، ويساعدها على المرور عبرها. ينزلون في مكان رطب ضيِّق تنبعث منه روائح البحر القوية بالتأكيد. «نحن تحت الجدار. يعلونا عشرون متراً من الجرانيت».

تقول السَّيدة: «حقاً، هارولد، إنه معتم مثل مقبرة هنا»، لكن ماري لور تجازف أبعد قليلاً، نعلا حذائها ينزلقان، والأرض تنحدر، وحينها يمس حذاؤها الماء.

«تحسسي هذا»، يقول هارولد بازان، ويقرفص جالباً يدها إلى جدار مقوَّس مرصَّع كلياً بالحلزونات. المئات منها، الآلاف.

تهمس: «الكثير».

«لا أعرف لماذا. ربما لأنها في مأمن من النَّوارس؟ هنا، تحسسي هذا، سوف أقلبها». مئات من الأقدام المتلوية المتناهية في الصغر المائية تحت قمة وعرة صلبة: نجمة بحر. «بلح بحر أزرق هنا. وهنا سرطان صخري ميت، هل يمكنك أن تتحسسي مخالبه؟ انتبهي لرأسك الآن».

تتكسر الأمواج بجانبهم، الماء يخرخر بجوار حذائها. تخوض ماري لور قدماً، أرض الغرفة رملية، الماء بالكاد يصل حتى الكاحل.

تدرك إنه كهف منخفض، ربما يبلغ عرضه أربع ياردات ونصف، على شكل رغيف خبز. في الطرف القصي هناك شبَّاك حديدي سميك تهب من خلاله رياح بحرية صافية مشعة. تعثر أطراف أصابعها على قواقع، أعشاب بحرية، ألف حلزون آخر. «ما هذا المكان؟».

- هل تذكرين ما قلته لك عن كلاب الحراسة؟ منذ وقت طويل، كان مربو الكلاب في المدينة يبقون كلاب الدوراس هنا، كلاب بحجم الخيول. في الليل يرنُّ جرس حظر التجول، ويتم إطلاق الكلاب على الشَّواطئ لتأكل أي حبار يجرؤ على الاقتراب من الشَّاطئ. في مكان ما تحت كائنات بلح البحر تلك يوجد حجر منقوش عليه العام 1165.

- لكن الماء؟

- حتى عند أعلى ارتفاع للمد، لا يصل حتى الخصر. حينها ربما كان

المد أكثر انخفاضاً. كنا نلعب هنا في صغرنا أنا وجدك. أحياناً عمٌّ والدك أيضاً.

يجري المد بحذاء قدميه. في كل مكان قواقع تقرقع وتتنهد.

تفكِّر في الملاحين المسنين المتوحشين الذين عاشوا في هذه البلدة، مهربين، وقراصنة، يبحرون عبر البحار المظلمة، يدورون بسفنهم بين عشرة آلاف حيِّد بحري.

تنادي السَّيدة مانِك ويتردد صوتها: «هارولد، علينا الذهاب الآن. هذا المكان لا يناسب فتاة صغيرة».

تنادي ماري لور: «لا بأس سيدتي».

أعداد من السرطان الناسك. شقائق نعمان البحرية تقذف بنافورة صغيرة من مياه البحر عندما تكزها. مجرات من القواقع. لكل واحدة منها قصة حياة.

أخيراً، بالمداهنة، تقنعهما السَّيدة مانك بالخروج من بيت الكلاب، ويقود هارولد المجنون ماري لور للخروج من البوابة ويقفلها من خلفهم. قبل أن يصلوا إلى ساحة بروسيه، تتقدمهما السَّيدة مانك. يربت على كتف ماري لور، ويهمس في أذنها اليسرى، تفوح من أنفاسه رائحة الحشرات المسحوقة:

- هل يمكنك العثور على هذا المكان ثانية، أتظنين ذلك؟

- أظنُّ ذلك.

يضع شيئاً حديدياً في يدها: «هل تعرفين ما هو؟».

تغلق ماري لور قبضتها: «إنه مفتاح».

ثمل

كل يوم هناك نبأ عن نصر جديد، عن تقدُّم آخر. تنهار روسيا مثل آلة أكورديون. في تشرين الأول يجتمع الطُّلاب حول لاسلكي كبير ليستمعوا إلى تصريح الفوهرر عن عملية «تيفون». تضع الشَّركات الألمانية أعلاماً على بعد أميال عن موسكو، سوف تكون روسيا لهم.

يبلغ فرنر من العمر خمسة عشر عاماً. ينام فتى جديد في سرير فريدريك. أحياناً في الليل، يرى فرنر فريدريك في غيابه. يظهر وجهه فوق حافَّة السَّرير العلوي، أو صورته الظلية وهو يضغط بمنظاره على لوح النَّافذة. فريدريك: الذي لم يمت لكنه لم يتعافَ. بفك مكسور، جمجمة مهشمة، رض في الدماغ. لم يُعاقَب أحد، لم يُستجوَب أحد. ووصلت سيارة زرقاء إلى المدرسة، خرجت والدة فريدريك وسارت إلى مسكن القائد وخرجت بعد وقت قصير، تميل بسبب ثقل كيس عدَّة فريدريك، تبدو ضئيلة جداً. ركبت السَّيارة وابتعدت.

رحل فولكهايمر، تُروى قصص عن أنه أصبح رقيباً مرعباً في الفيرماخت، وأنه يقود فصيلاً نحو البلدة الأخيرة على الطريق إلى موسكو. قطع أصابع الروس القتلى ودخَّنها في غليون.

أصبح الأغرار في الدُّفعات الأخيرة متوحشين في حاجتهم لإثبات جدارتهم. يعدون، يهتفون، يقذفون أنفسهم على العقبات، التمارين

الميدانية يلعبون لعبة بحيث يحصل عشرة فتيان على شارات عسكرية حمراء وعشرة على شارات سوداء. تنتهي اللعبة عندما يحوز فريق على الشَّارات العشرين.

يبدو لفرنر كما لو أن جميع الفتيان من حوله ثملون. كما لو أنه، عند كل وجبة، لا يملأ الأغرار أكوابهم بالماء البارد المعدني من شولبفورتا، بل بشراب مسكر يجعلهم مزججين ومنبهرين، كما لو أنهم يجابهون موجة مديَّة محتومة وواسعة من العذاب، بالبقاء ثملين إلى الأبد بالصرامة والتمرين وتلميع الحذاء. تشع عيون معظم الفتيان صعبي المراس بالتصميم: كل قدر ضئيل من انتباههم روِّض للبحث الدؤوب عن الضَّعف. يعاينون فرنر بارتياب عندما يعود من مختبر هاويتمان. لا يثقون به لكونه يتيماً، لأنه وحيد غالباً، ولأن في لكنته أثراً من الفرنسية التي تعلمها عندما كان طفلاً.

يغنِّي الأغرار الجدد: نحن وابل من الرصاص، نحن القذائف. نحن حدُّ السيف.

يفكِّر فرنر في البيت طوال الوقت. يفتقد صوت المطر على سطح التوتياء فوق غرفة نومه، الطاقة البرية لليتامى، الغناء الشَّائك للسيدة إلينا وهي تهزُّ طفلاً في الردهة. رائحة منشأة الفحم منبعثة قبل بزوغ الفجر، أولى الروائح التي يعوِّل عليها يومياً. يفتقد يوتا أكثر من كل شيء آخر: إخلاصها، عنادها، كيف تبدو دائماً أنها قادرة على إدراك ما هو صائب.

ولو أن فرنر في أضعف حالاته، فإنه يستاء من تلك الخصال نفسها في أخته. ربما هي الدَّنس فيه، التشويش في إشارته الذي يمكن أن يحس به المتنمرون. ربما هي الشيء الوحيد الذي يمنعه من الاستسلام التام. إذا كان لديك أخت في البيت، من المفترض أن تفكِّر فيها على أنها فتاة جميلة في ملصق دعائي. متوردة الخدين، شجاعة، وفية. هي من تقاتل من أجلها. من تموت من أجلها. لكن يوتا؟ ترسل يوتا الرسائل التي يطمسها

رقيب المدرسة بالكامل تقريباً. تطرح أسئلة لا ينبغي طرحها. فقط التحاق فرنر بالدكتور هاوبتمان – وضعه المميز باعتباره المفضَّل عند أستاذ العلوم التقنية – يبقيه سالماً. تنتج شركة في برلين جهاز المرسل المستقبل خاصتهم، والآن بعض وحداتهم العائدة مما يدعوه هاوبتمان «الميدان»، انكسرت أو احترقت أو غرقت في الوحل أو معطوبة، ويتجلى عمل فرنر في إعادة تركيبها بينما يتحدث هاوبتمان في هاتفه أو يكتب طلبات من أجل قطع تبديلية أو يمضي أسبوعين كاملين بعيداً عن المدرسة.

تمرُّ أسابيع من دون أن يكتب رسالة إلى يوتا. يكتب فرنر أربعة أسطر، عدد قليل من ملاحظات تافهة – أنا بخير، أنا منشغل للغاية – ويناولها إلى المسؤول عن المبيت. وجل رهيب يغمره.

يتمتم باستيان ذات مساء في حجرة الطعام، ويتحدب جميع الفتيان بشكل غير ملحوظ تقريباً على طعامهم عندما يمس إصبع القائد ظاهر بذلة كل واحد منهم: «لديكم عقول. لكن العقول لا يمكن الوثوق بها. العقول تنجرف دوماً نحو الغموض، نحو الأسئلة، في حين تحتاجون حقاً إلى اليقين، والهدف. والوضوح، لا تثقوا بعقولكم».

يجلس فرنر في المختبر حتى وقت متأخر من الليل، وحيداً ثانية، ويتصيد الترددات على مذياع «جروندج» الذي اعتاد فولكهايمر استعارته من مكتب هاوبتمان، باحثاً عن موسيقى، عن صدى، عن ماذا، لا يعرف على وجه اليقين. يرى دارات تتفكك ويعاد تشكلها. يرى فريدريك يحدِّق في كتاب الطيور، يرى سخط عمال المناجم في زولفرين، عربات القطار المتحولة، الأثقال المتخبطة، النَّاقلات المتدحرجة، مداخن تخنق السَّماء ليل نهار، يرى يوتا تسوط جيئة وذهاباً بكشاف عندما تتطاول الظلمة من كل جانب. تضغط الريح على جدران المختبر – يحلو للقائد أن يذكِّرهم: الريح، الآتية من روسيا، ريح القوزاق، ريح برابرة آكلو الشَّمع برؤوس

كبيرة لن يردعهم شيء عن شرب دم الفتيات الألمانيات. غوريلات يجب أن تمسح عن وجه الأرض.

تشويش تشويش.

هل أنت هناك؟

أخيراً يغلق الراديو. إلى السكون تأتي أصوات رؤسائه، تتردد من أحد جانبي رأسه بينما تتحدث الذاكرة من الجانب الآخر.

افتحوا أعينكم، وانظروا ماذا يسعكم أن تروا بواسطتها قبل أن تنغلق إلى الأبد.

الشَّفرة والحلزون

غرفة الطَّعام في مستشفى «أوتيل ديو»، كبيرة ومعتمة وتعجُّ بالنَّاس الذين يتحدَّثون عن الغوَّاصات الألمانية في جبل طارق والظلم في تصريف العملة ومحركات الديزل رباعية الأشواط. تطلب السَّيدة مانك طبقين من الحساء اللذين تنهيانهما هي وماري لور على الفور. تقول إنها لا تعرف ما الذي يتوجَّب عليهما فعله لاحقاً - هل عليهما أن تنتظرا؟ لذا تطلب اثنين آخرين.

أخيراً يجلس معهما رجل يرتدي ثياباً تصدر حفيفاً.

- أنت واثقة من أنك تدعين السَّيدة والتر؟

تقول السَّيدة مانِك:

- هل أنت واثق من أنك تدعى رينيه؟

وقفة.

- وهي؟

- شريكتي. في وسعها معرفة إذا كان شخص ما يكذب بمجرد سماع حديثه.

يضحك. يتحدثان عن الطقس. هواء البحر ينضح من ثياب الرجل، كما لو أن عاصفة هوجاء رمت به هنا. بينما يتحدث، يقوم بحركات خرقاء ويضرب الطاولة فتصلصل الملاعق في طبقيهما.

يقول أخيراً: «نحن نقدِّر جهودك يا سيدتي».

يبدأ الرجل الذي يدعو نفسه «رينيه» بالحديث بمنتهى الهدوء. تتلقَّف ماري لور عبارات فقط: «ابحثي عن شارات خاصة على لوحات سياراتهم. WH تشير إلى الجيش، WL تشير إلى القوى الجوية، WM إلى البحرية، ويمكنك أن تحصي - أو تجدي شخصاً يمكنه أن يفعل - كل مركب يدخل ويخرج من المرفأ. هذه معلومات مهمة جداً».

السَّيدة مانِك صامتة. إذا ما قيل المزيد فإن ماري لور لا تستطيع السَّماع - إذا كان هناك إيماءات يتم تبادلها بينهما، رسائل تم تمريرها، مكائد اتفقا عليها - لا تستطيع أن تعرف. تمَّ التَّوصل إلى مستوى معين من التناغم، وعادتا أدراجهما سريعاً بما فيه الكفاية، هي والسَّيدة مانك، إلى مطبخ المنزل رقم 4 في شارع فوبوريل. تقعقع السَّيدة مانك في القبو، وتخرج مؤناً معلَّبة. تعلن أنها هذا الصَّباح بالذات، تمكنت من الحصول على ما قد يكونا آخر صندوقي خوخ في فرنسا. تدندن وهي تساعد ماري لور بالقشَّارة.

- سيدتي؟

- نعم ماري.

- ما هو الاسم المستعار؟

- إنه اسم زائف، اسم بديل.

- إذا كنت سأحصل على واحد، أي نوع من الأسماء يمكنني أن أختار؟

تقول السَّيدة مانِك وهي تجوِّف وتقطع خوخة أخرى إلى أرباع: «حسناً يمكن أن يكون أي شيء، يمكن أن تكوني الحورية لو تودِّين. أو أقحوانة؟ بنفسجة؟».

- ماذا عن الحلزون البحري الكبير؟ أظن أني أحب أن أكون الحلزون.

- الحلزون. هذا اسم ممتاز.

- وأنت يا سيدة؟ ماذا تودين أن تكوني؟

«أنا؟» تتوقف سكين السَّيدة مانِك. تغني جداجد في القبو. «أظن أني قد أكون الشَّفرة».

- الشَّفرة؟

- نعم.

يؤلف أريج الخوخ سحابة متورِّدة اللون ساطعة.

تكرر ماري لور: «الشَّفرة؟». ثم كلاهما تبدأن بالضحك.

مسابك
المعادن تعمل ليل نهار والأكوام لا تكفُّ عن إصدار الدخان. الطقس باردٌ هنا، لذا يحرق الجميع كل شيء كي يدفئوا. نشارة، فحم قاس، فحم ناعم، كلس، قمامة. أرامل حرب
وفي
كل يوم هناك المزيد. أنا أعمل في مكان غسل الملابس مع التَّوأم، هانا وسوزان، وكلوديا فورستر، أنت تتذكرها، نحن نرفو القمصان والسَّراويل غالباً. بدأت أتقن التطريز بالإبرة لذا على الأقل لا أخز نفسي طوال الوقت. الآن أنهيت للتو عملي المنزلي. هل لديك فروض منزلية؟ هناك نقص في القماش والناس يجلبون أغطية الأثاث، ستائر، معاطف قديمة. يقولون إن أي شيء يمكن استعماله يجب أن يستعمل. تماماً مثلنا جميعاً هنا. وجدت هذا تحت معطفك القديم. يبدو كما لو أنك يمكن أن تستعمله.

محبتّي،

يوتا

كان دفتر طفولة فرنر داخل مغلّف منزلي الصُّنع، خط يده على الغلاف: أسئلة. صفحاته مليئة برسومات صبيانية، اختراعات: مسخن سرير كهربائي أراد أن يصنعه للسيدة إلينا، درَّاجة بسلاسل لتقاد بدولابين. هل يمكن للمغناطيس أن يؤثِّر في السَّوائل؟ لماذا تعوم المراكب؟ لماذا نشعر بالدوخة عندما ندور؟

صفحات فارغة عديدة في الخلف. طفولي بما فيه الكفاية، من المحتمل، أن هذا ما جعله يمر من بين يدي المراقب.

يدوِّي من حوله ضجيج الأحذية، قعقعة البنادق. أكوام على الأرض، براميل إزاء الجدار. انتزاع فناجين عن علاقاتها، أطباق عن الرفوف. طابور في انتظار الحصول على اللحم المسلوق. تتكسر عليه موجة من الشَّوق حادة للغاية حتى أنه يغمض عينيه بإحكام.

على قيد الحياة قبل أن تموت

تصعد السَّيدة مانك إلى مكتب إيتيين في الطابق الخامس. ماري لور تصغي على الدرج.

تقول السَّيدة: «يمكنك المساعدة». يفتح شخص ما نافذة – من المحتمل أنها السَّيدة – ويندفع هواء البحر النقي على سفرة الدَّرج، محركاً كل شيء: ستائر إيتيين، أوراقه، غباره، توق ماري لور إلى والدها.

يقول إيتيين: «من فضلك يا سيدتي. أغلقي النَّافذة، إنهم يلقون القبض على من ينتهك أمر إطفاء الأنوار».

تظل النَّافذة مفتوحة. تزحف ماري لور وتهبط مجموعة أخرى من الأدراج.

– كيف تعرف يا إيتيين على من يقبضون؟ حكم على امرأة في رين بالسجن تسعة أشهر لأنها أطلقت على أحد خنازيرها اسم جوبلز، هل تعرف ذلك؟ قُتل قارئ كف في كانكال لأنه تنبأ بأن «ديغول[1]» قد يعود في الربيع. قتلوه!

– تلك مجرَّد شائعات يا سيدة.

– تقول السَّيدة هيبرار إن رجلاً من مدينة دينارد – جد، يا إيتيين – حكم

---

(1) أول رئيس للجمهورية الفرنسية الخامسة، وقائد المقاومة الفرنسية ضد النازيين. (م).

عليه بالسجن مدة سنتين لارتدائه «صليب اللورين[1]» تحت ياقته. سمعت أنهم سوف يحولون المدينة بكاملها إلى مستودع كبير لإفراغ الذخيرة.

يضحك عمها بخفوت.

- يبدو مثل شيء قد يختلقه طفلٌ صغيرٌ.

- تحمل كل شائعة بذار الحقيقة، يا إيتيين.

تدرك ماري لور أن السَّيدة مانِك، طوال حياة إيتيين، منذ أن بلغ سن الرشد، عُنيت بمخاوفه، طوقتها، وخففتها. تزحف مجموعة أخرى من الأدراج نحو الأسفل.

تقول السَّيدة مانك: «أنت لديك المعرفة، إيتيين. عن الخرائط، المد، أجهزة الراديو».

- إنه بالفعل أمر شديدة الخطورة، كل تلك النساء في منزلي. الناس لها عيون يا سيدة.

- من؟

- العطار على سبيل المثال.

تشخر: «كلود؟ كلود الصَّغير منشغل بشم نفسه».

- كلود لم يعد صغيراً. حتى أنا يمكنني أن أرى عائلته تحصل على قدر أكبر من الآخرين: المزيد من اللحم، المزيد من الكهرباء، المزيد من الزبدة. أعرف كيف يتم الحصول على مثل هذه المكافآت.

- إذاً ساعدنا.

- لا أريد إثارة المشاكل يا سيدتي.

- أليس عدم فعل شيء هو من أيضاً إثارة للمشاكل؟

---

(1) صليب بعارضة صغيرة فوق العارضة الرئيسة، يستخدم كرمز فرنسي. (م).

- عدم فعل شيء هو عدم فعل شيء.

- عدم فعل شيء لا يختلف عن التّعاون مع العدو.

تهبُّ الريح. في عقل ماري لور، تنزاح وتومض، تجر إبراً وأشواكاً في الهواء. فضيَّة ثم خضراء ثم فضيَّة ثانية.

تقول السَّيدة مانك: «أعرف سبلاً».

- أي سبل؟ بمن تضعين ثقتك؟

- عليك أن تثق بشخص ما في بعض الأحيان.

- إن لم يكن دمك نفسه يجري في ذراعي وساقي الشَّخص المجاور لك، لا يمكنك أن تثقي بشيء، وحتى حينذاك، إن من ترغبين في محاربته ليس شخصاً يا سيدة، إنَّه نظام. كيف تقاتلين نظاماً؟

- حاول.

- ماذا تريدين مني أن أفعل؟

- انبش ذلك الشَّيء القديم في العليَّة. لطالما كنت تعرف الكثير عن أجهزة الراديو، أكثر من أي شخص آخر في البلدة. أي شخص في بريتاني، ربما.

- لقد أخذوا جميع أجهزة الراديو.

- ليس جميعها. أخفى الناس أشياء في كل مكان. سوف يتوجَّب عليك فقط أن تقرأ أرقاماً، هذا ما أفهمه، أرقام على قصاصات ورقية. سوف يجلبها شخص ما - لا أعرف من يكون، ربما هارولد بازان - إلى السَّيدة رويل، وهي سوف تجمعها وتخبز الرسائل في الخبز. تماماً في الخبز!»

تضحك. يبدو صوتها لماري لور أصغر بعشرين عاماً.

- هارولد بازان. أنت تثقين بهارولد بازان؟ تخبزين شيفرات سرية في الخبز؟

- أي بدين ألماني سوف يأكل تلك الأرغفة الرهيبة؟ هم يأخذون كل الطحين الجيد لأنفسهم. نحن نجلب الخبز إلى البيت، أنت تبث الأرقام ثم نحرق قصاصة الورق.

- هذا سخيف، أنت تتصرفين كالأطفال.

- إنه أفضل من عدم فعل شيء على الإطلاق، فكِّر في ابن أخيك، فكِّر في ماري لور.

ترفرف السَّتائر والأوراق تخشخش والبالغان يقفان متباعدين في المكتب. زحفت ماري لور حتى مسافة قريبة جداً من عتبة باب عمها، لدرجة أنها تستطيع أن تلمس إطار الباب.

تقول السَّيدة مانك: «ألا تريد أن تكون حياً قبل أن تموت؟».

- ماري تكاد تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً يا سيدتي. ليست صغيرة جداً، ليس في سنوات الحرب. من يبلغون من العمر أربعة عشر عاماً يموتون مثل أي شخص آخر. لكني أريد أربعة عشر عاماً لأكون شاباً. أريد...

تندفع ماري لور صاعدة درجة واحدة. هل شاهداها؟ تفكر في بيت الكلاب الحجري الذي قادها إليه المجنون هارولد بازان: الحلزونات تجمعت وفيرة. تفكر في المرات العديدة التي وضعها فيها والدها على دراجته الهوائية: كانت لتتوازن على المقعد، ويقف هو على الدواستين، وينزلقان نحو هدير شارع باريسي. كانت لتمسك بوركيه وتحني ركبتيها، ويرفرفان بين السَّيارات، يهبطان التلال، عبر حشود من عطر وضجيج ولون.

يقول إيتيين: «أنا عائد إلى كتابي يا سيدتي، أليس عليك تحضير العشاء الآن؟».

ما من مخرج

في شهر كانون الثاني من عام 1942، يذهب فرنر إلى الدُّكتور هاوبتمان في مكتبه المتوهِّج بضوء النَّار، يحظى بدفء مضاعف نسبة إلى بقية القلعة، ويطلب أن يتم تسريحه. يجلس الطبيب الصَّغير خلف مكتبه الكبير، أمامه طائر مشوي هزيل على طبق. طائر سمَّان أو حمامة أو أوزة. لفائف من المخططات إلى يمينه. تتمدد كلابه على البساط أمام الموقد.

يقف فرنر وقبعته في يديه. يغمض هاوبتمان عينيه ويمرر أطراف أصابعه عبر أحد حاجبيه. يقول فرنر: «سوف أعمل لأدفع ثمن تذكرة القطار، سيدي».

تنبض أوردة جبهة هاوبتمان كنقش شَّبكي أزرق. يفتح عينيه. «أنت؟». ترفع الكلاب بصرها في آن، وحش هيدرا متعدد الرؤوس. «أنت الذي يحصل على كل شيء؟ أنت الذي يأتي إلى هنا ويستمع إلى حفلات موسيقية وينال قضمات من الشوكولا وتدفئ نفسك بالنار؟».

ترقص قطعة صغيرة من لحم الطائر المشوي على خد هاوبتمان. ربما للمرة الأولى، يرى فرنر في شعر مدرسه الأشقر الخفيف، في منخريه الأسودين، في أذنيه الصَّغيرتين العفريتيتين، شيئاً عديم الرحمة وغير بشري، شيئاً مصمماً على النجاة فقط.

– ربما تعتقد بأنك شخص ما الآن؟ شخص ما على قدر من الأهمية؟»

يتشبث فرنر بقبعته خلف ظهره ليمنع كتفيه من الاهتزاز، «لا سيدي».

يطوي هاوبتمان منديله.

- أنت يتيم، بفينغ، وليس لديك أقارب. يمكنني أن أصنع منك ما أشاء. مثيراً للمتاعب، مجرماً، راشداً. يمكنني أن أرسلك إلى الجبهة وأحرص على أن تكون جائماً في خندق في الجليد إلى أن يقطع الروس يديك ويطعموك إياها.

- نعم سيدي.

- سوف تنفذ لك طلباتك عندما تكون المدرسة جاهزة لذلك، ما من عجلة. نحن نخدم الرايخ، بفينغ. وليس هو الذي يخدمنا.

- نعم سيدي.

- سوف تأتي إلى المختبر الليلة. على جاري عادتك.

- نعم سيدي.

- لا مزيد من الشوكولا، لا مزيد من المعاملة الخاصة.

في القاعة والباب مغلق خلفه، يضغط فرنر جبهته على الجدار، وتخطر له صورة لحظات والده الأخيرة، الضغط السّاحق للأنفاق، السّقف ينخفض. فكٌّ مثبت على الأرض. جمجمة تتشظّى. يفكِّر: لا يسعني الذّهاب إلى البيت، ولا يسعني البقاء.

اختفاء هارولد بازان

تتبع ماري لور رائحة حساء السَّيدة مانِك عبر ساحة «أوزيرب» وتمسك القدر السَّاخن عند الفجوة خلف المكتبة بينما تقرع السَّيدة على الباب.

تقول السَّيدة: «أين السَّيد بازان؟».

يقول أمين المكتبة: «لا بد أنه انتقل» ولو أن الشَّك في صوته واضح إلى حدٍّ ما.

- إلى أين يمكن أن يكون هارولد بازان قد انتقل؟

- أنا لست واثقاً يا سيدة مانك. من فضلك الطقس بارد.

يغلق الباب. السَّيدة مانك تشتم. تفكر ماري لور في قصص هارولد بازان: وحوش كئيبة مصنوعة من زبد البحر، حوريات بأعضاء خاصة سمكية، رواية الحصار الإنكليزي.

تقول السَّيدة مانك: «سوف يعود»، كما لو أنها تقول لنفسها ولماري لور في آن. لكن في صباح اليوم التالي لم يعد هارولد بازان، ولا في اليوم الذي تلاه.

لا يحضر اللقاء التالي سوى نصف العدد.

تهمس السَّيدة هيبرار: «هل تظنين أنه كان يساعدنا؟».

- هل كان يساعدنا؟

- اعتقدت أنه كان يحمل الرسائل.

- أي نوع من الرسائل؟

- إن الأمر يزداد خطورة.

تذرع السَّيدة مانك المكان، تكاد ماري لور تشعر بحرارة خيبتها تنتشر في الغرفة.

«غادرن إذاً»، يحترق صوتها من غير لهب. «جميعكن».

تقول السَّيدة رويل: «لا تتسرعي، سوف نستريح، أسبوعاً أو اثنين. ننتظر حتى تستقر الأمور».

هارولد بازان بقناعه النُّحاسي وجشعه الصِّبياني وأنفاسه مثل حشرات مسحوقة، تتساءل ماري لور: أين يأخذون الناس؟ «النُّزل» الذي اقتيد والدها إليه؟ حيث يكتبون رسائل إلى الوطن عن طعام رائع وأشجار خرافية؟ تدعي زوجة الفران أنهم أرسلوا إلى معسكرات في الجبال. تقول زوجة البقال إنهم أرسلوا إلى مصانع النايلون في روسيا. يبدو على الأرجح بالنسبة إلى ماري لور أن الناس اختفوا فحسب. يرمي الجنود كيساً على أي شخص يريدون قتله، يمررون تياراً كهربائياً فيه، وعندئذ يكون ذلك الشَّخص قد رحل، اختفى. مدحوراً إلى عالم آخر.

تفكِّر ماري لور: يعاد صنع المدينة ببطء ثانية مثل المجسم في الطابق الأعلى. شوارع أقفرت واحداً تلو آخر. كل مرة تخرج، تدرك كل النوافذ فوقها. الهدوء مشاكس، غير طبيعي. تفكِّر: إنه الشعور الذي لا بد من أن الفأر يشعر به عندما يخرج من جحره إلى أنصال العشب في مرج مكشوف، لا يدرك أبداً ظل ماذا يحوم فوقه.

كل شيء مسموم

تعلق رايات حريرية جديدة فوق طاولات حجرة الطعام، ملتهبة بالشِّعارات.

تقول: ليس الذُّل أن تسقط، بل أن تكذب.

تقول: كن رشيقاً ونحيلاً، سريعاً مثل كلب صيد، متيناً كالجلد، قاسياً كالفولاذ.

يختفي معلم كل بضعة أسابيع، ابتلعته رحى الحرب. تم استقدام مدرسين جدد، رجال مدنيون طاعنون في السن يتمتعون برصانة غير جديرة بالثقة. يلاحظ فرنر أنهم جميعاً معطوبون بطريقة ما: عرج، أو عور، أو وجوههم مائلة من سكتات دماغية أو من الحرب السَّابقة. يبدي الجنود الأغرار قدراً أقل من الاحترام للمدربين الجدد، الذين هم بدورهم أكثر عصبية، وسرعان ما تبدو المدرسة لفرنر مثل قنبلة يدوية موقوتة.

بدأت أمور غريبة بالحدوث في التيار الكهربائي. ينقطع لخمس عشرة دقيقة ثم يعود، الساعات تجري بسرعة، المصابيح تسطع، تضطرم، وتفرقع، فيتساقط رذاذ خفيف من الزجاج في الممرات. يعقبها أيام من الظلمة، مفاتيح الإنارة معطلة، الشَّبكة فارغة. تصبح غرف النوم والحمامات شديدة البرودة، وللإضاءة، يلجأ فرَّاش المدرسة إلى الكشَّافات والشُّموع.

كمية البنزين بأكملها تذهب إلى الحرب، وبضع سيارات تدخل متدحرجة من بوابات المدرسة، الطعام مرسل على ظهر البغل الذاوي نفسه، أضلاعه ماثلة للعيان وهو يجر عربته.

أكثر من مرة يقطع فرنر السُّجق على طبقه ليجد ديدان زهرية اللون تتلوى في الداخل. اللباس الرسمي للأغرار الجدد أكثر قساوة وأرخص ثمناً من زيه، لم يعد مسموحاً لهم الوصول إلى الذخيرة الحية للتدرب على الرماية. ما كان فرنر ليتفاجأ إذا بدأ باستيان بتوزيع الحجارة والعصي.

ومع ذلك جميع الأنباء جيدة. يصرِّح راديو هاويتمان: نحن على أبواب القوقاز، استولينا على حقول النفط، سوف نستولي على سفالبارد. نحن نتقدَّم بسرعة مدهشة. خمسة آلاف وسبعمئة روسي قتيل، خمسة وأربعون ألمانياً مفقوداً.

كل ستة أو سبعة أيام، يدخل الضابطان المساعدان المصابان الشَّاحبان نفسيهما حجرة الطعام، ويبهت أربعمئة وجه من الجهد الذي يبذلونه كي لا يلتفتوا. يحرك الفتيان عيونهم فقط، أفكارهم فقط، يتتبعون في عقولهم مسار الضابطين وهما يتحركان بين الطاولات، باحثين عن الفتى التالي الذي قُتل والده.

غالباً يحاول الغر الذي يتوقفان خلفه التظاهر بأنه لم يلاحظ حضورهما. يضع شوكته في فمه ويمضغ، وحينها يضع الضابط الأطول قامة، رقيب، يداً على كتف الفتى كما جرت العادة. يرفع الفتى بصره نحوهما بفم ملآن ووجه متداعٍ، ويتبع الضابطين إلى الخارج، وينغلق الباب المزدوج الكبير المصنوع من خشب البلوط والمطعم السريع يزفر ببطء وتعود إليه الحياة.

يسقط والد رينهارد فيلمان، والد كارل ويسترهولزر، والد مارتن بوركهارد، ومارتن يخبر الجميع - في الليلة نفسها التي تلَّقى فيها الخبر

- أنه سعيد. يقول: «أليس كل شيء يموت في النِّهاية، وسريعاً جداً؟ من ذا الذي لن يشرفه الموت؟ أن تكون حجراً على الطريق إلى النَّصر الأخير؟».
يبحث فرنر عن انزعاج في عيني مارتن لكنه لا يستطيع العثور عليه.

أما فرنر فإن الشُّكوك تراوده بانتظام. النقاء العرقي، النقاء السياسي - يتحدث باستيان بشكل مرعب عن أي نوع من الفساد، ومع ذلك، يتساءل فرنر في منتصف الليل، أليست الحياة نوع من الفساد؟ طفل ولد، والعالم يطبق عليه. آخذاً منه أشياء ويحشو فيه أشياء. كل لقمة من الطعام، كل شذرة ضوء تدخل العين - لا يمكن للجسد أن يكون نقياً البتة. لكن هذا ما يصر القائد عليه، السبب الذي يجعل الرايخ يقيس أنوفهم، ويحدد درجة لون شعرهم.

إنتروبيا نظام معزول لا تنخفض أبداً.

في الليل يحدق فرنر في سرير فريدريك في الأعلى، الشَّرائح الواهية، الفراش الملطخ البائس. ينام فتى جديد آخر هناك، ديتر فريديناند، ولد قصير مفتول العضلات من فرانكفورت يطيع جميع الأوامر بشراسة مخيفة.

أحدهم يسعل، وشخص آخر يتأوه. قطار يطلق صفارته الموحشة في مكان ما خلف البحيرات. نحو الشَّرق، دوماً القطارات تتجه نحو الشَّرق، خلف حواف التلال، تذهب إلى مناطق الجبهة الحدودية الضخمة المطروقة. حتى في أثناء نومه القطارات تتحرك. مناجق التاريخ تجلجل.

يعقد فرنر شريطي جزمته ويغنِّي الأغنيات ويسير المسيرات، لا يتصرَّف بداعي الواجب، بقدر ما يكون تصرفه نابعاً عن رغبة بالية في أن يكون مطيعاً. يسير باستيان عبر صفوف الفتيان وهم يتناولون عشاءهم. «ما هو أسوأ من الموت، يا فتيان؟».

طلب من غرٍّ مسكين أن يجيب. «الجُبن!».

يوافق باستيان: «الجبن». ويجلس الفتى بينما يواصل القائد السَّير مومئاً لنفسه باستمتاع. يتحدث القائد في الآونة الأخيرة بحميمية أكثر فأكثر عن الفوهرر وعن أحدث ما يفرضه من الأمور - صلوات، نفط، ولاء - يفرض الفوهرر: الأمانة، الكهرباء، جلد الأحذية. فرنر وهو على وشك أن يبلغ عامه السادس عشر يبدأ بفهم أن ما يطلبه الفوهرر حقاً هو الفتيان. صفوف عظيمة منهم يتوجهون نحو الحزام الناقل لكي يتسلقوه. يتخلون عن القشدة من أجل الفوهرر، وعن النوم من أجل الفوهرر، وعن الألمنيوم من أجل الفوهرر. التخلي عن والد رينهارد فيلمان ووالد كارل ويسترهولزر ووالد مارتن بوركارد.

في آذار عام 1942 يستدعي الدكتور هاوبتمان فرنر إلى مكتبه. صناديق شبه ممتلئة مبعثرة على الأرض. كلاب الصَّيد لا تُرى في أي مكان. يذرع الرجل الضئيل المكان، وما إن يعلن فرنر عن قدومه حتى يتوقف. هو يبدو كما لو أن شيئاً متعذراً ضبطه يبتلعه ببطء. «لقد استدعيتُ إلى برلين. يريدون مني أن أواصل عملي هناك». يرفع هاوبتمان ساعة رملية عن رف ويضعها في صندوق، وتعلق أصابعه الشَّاحبة فضية الأطراف في الهواء.

- سوف يكون كما حلمت سيدي. أفضل التجهيزات، أفضل العقول.

يقول الدكتور هاوبتمان: «هذا كل شيء».

يدخل فرنر القاعة. ويخرج إلى الباحة المكسوة بالثلج، يهرول ثلاثون طالباً من طلاب السنة الأولى في المكان، تظهر أنفاسهم على شكل أعمدة قصيرة العمر. يصرخ باستيان السَّمين البغيض ذو الذقن الأملس. يرفع ذراعاً قصيرة ويتحرك الفتيان، يرفعون بنادقهم فوق رؤوسهم، ويركضون بسرعة أكبر في المكان، تومض ركبهم في ضوء القمر.

زوار

يرن الجرس الكهربائي في المنزل رقم 4 شارع فوبوريل. يتوقف كل من إيتيين لو بلان، السَّيدة مانك، وماري لور عن المضغ في الوقت نفسه، كل واحد يفكر: لقد اكتشفوا أمري. الجهاز في العلية، النساء في المطبخ، مئة رحلة إلى الشاطئ.

يقول إيتيين: «هل تنتظرين أحداً؟».

تجيب السَّيدة مانك: «لا».

قد تدخل النسوة من باب المطبخ.

يرنُّ الجرس ثانية. يذهب الثلاثة إلى البهو، تفتح السَّيدة مانِك الباب. رجلان من رجال الشرطة الفرنسيين. يشرحان: جاءا بناء على طلب متحف التَّاريخ الطبيعي في باريس. يبدو صرير كعوب أحذيتهما على ألواح أرضية البهو صاخباً بما يكفي لكسر النوافذ. يأكل الأول شيئاً - تجزم ماري لور أنها تفاحة. يفوح من الثاني أريج بلسم الحلاقة، ولحم مشوي. كما لو أنهما كانا في وليمة.

يجلس الخمسة جميعاً - إيتيين، ماري لور، السَّيدة مانك، والرجلين - في المطبخ إلى الطاولة المربعة. يرفض الرجلان تناول طبق من اليخنة. ينظف الأول حنجرته ويقول: «لقد أُدين بتهمة السَّرقة والتآمر سواء كان ذلك صحيحاً أو خاطئاً».

يقول الثاني: «جميع السُّجناء، السياسيين وسواهم، مجبرون على العمل حتى لو لم يحكم عليهم به».

- راسل المتحف مدراء السُّجون والحراس في شتى أرجاء ألمانيا.

- نحن لا نعرف بعد بالضبط في أي سجن.

- نحن نعتقد أنه من الممكن أن يكون بريتينو.

- نحن متأكدون من أنهم لم يعقدوا محكمة مناسبة.

يرتفع صوت إيتيين ملتفاً من جانب ماري لور: «هل ذلك سجن جيد؟ أعني واحداً من أفضل السُّجون؟»

- أخشى أنه ما من سجون ألمانية جيدة.

تمر شاحنة في الشَّارع. ينثني البحر على الـ«بلاج دو مول» الذي يبعد خمسين ياردة. تفكِّر: إنهما يقولان كلمات فحسب، وما هي الكلمات سوى أصوات هذين الرجلين مشكَّلة من الأنفاس، بخار عديم الوزن يرسلانه في هواء المطبخ ليتبدَّد ويموت؟ تقول: «لقد قطعتما كل ذلك الطريق لتخبرانا أشياء نحن نعرفها سلفاً».

تمسك السَّيدة مانك بيدها.

يتمتم إيتيين: «نحن لا نعرف عن هذا المكان المدعو بريتينو».

يقول الشُّرطي الأول: «أنتم أخبرتم المتحف أنه تمكَّن من تهريب رسالتين؟».

الثاني: «هل يسعنا أن نراها؟».

يذهب إيتيين، راغباً في تصديق أن شخصاً ما يحاول. ينبغي على ماري لور أن تكون سعيدة أيضاً، لكن شيئاً ما يثير ريبتها. تتذكر أمراً قاله والدها في باريس، في الليلة الأول من الاجتياح، بينما كانا ينتظران القطار: الجميع يهتم بنفسه فقط.

ينهش الشُّرطي الأول قضمة من تفاحته بأسنانه. هل ينظران إليها؟ قربها منهما يشعرها بالضعف. يعود إيتيين بالرسالتين ويمكنها سماع الرجلين يمرران الصفحات جيئة وذهاباً.

- هل تحدث عن أي شيء قبل مغادرته؟

- عن أي نشاطات معينة أو مهمات يجب أن نكون على علم بها؟

فرنسيتهما جيدة، باريسية للغاية، لكن من يعلم لمن يكون ولاؤهما؟ إن لم يكن دمك نفسه يجري في ذراعي وساقي الشّخص المجاور لك، لا يمكنك الوثوق بأي شيء. فقط حينئذٍ يبدو كل شيء مضغوطاً وغائصاً لماري لور، كما لو أن خمستهم كانوا مغمورين في حوض مظلم يعجُّ بالأسماك وزعانفها تواصل التخبط وهي تتحرك.

تقول: «والدي ليس لصاً».

تعصر يد السَّيدة مانك يدها.

يقول إيتيين: «بدا قلقاً على عمله، وابنته، وعلى فرنسا بالتأكيد. من كان له ألا يكون في مثل حاله؟».

يقول الرجل الأول هو يتحدَّث مباشرة إلى ماري لور: «يا آنسة. هل أشار إلى شيء ما على وجه الخصوص؟».

- لا شيء.

- كان يملك الكثير من المفاتيح في المتحف.

- لقد سلم مفاتيحه هناك قبل أن يغادر.

- هل يمكننا أن ننظر إلى أي شيء جلبه إلى هنا معه؟

يضيف الرجل الثاني: «حقائبه ربما؟».

تقول ماري لور: «أخذ حقيبة ظهره معه عندما طلب المدير منه أن يعود».

- هل يمكننا أن ننظر إليها بأية حال؟

تستطيع ماري لور أن تشعر بتنامي حرج الموقف في الغرفة. ما الذي يأملون العثور عليه؟ تتخيل جهاز الراديو عالياً فوقها: مكبر صوت، مرسل مستقبل، كل تلك الأقراص والمفاتيح والأكبال.

يقول إيتيين: «يمكنكما ذلك».

يدخلان كل غرفة. الطابق الثالث الطابق الرابع الخامس. في الطابق السَّادس، يقفان في غرفة نوم جدها القديمة ويفتحان خزانة ضخمة بأبوابها الثقيلة ويعبران القاعة ويقفان عند مجسم سان مالو في غرفة ماري لور ويتهامسان، ثم يعودان إلى الطابق السفلي بتثاقل.

يطرحان ما حاصله سؤال واحد: لماذا يحتفظ إيتيين بثلاثة أعلام «فرنسا الحرة» ملفوفة في خزانة الطابق الثاني؟

يقول الشرطي الثاني: «أنت تعرِّض نفسك لخطر التهلكة بالاحتفاظ بها».

يقول الأول: «لن ترغب في أن تظن السلطات بأنكم إرهابيون، اعتقل الناس لأسباب أقل شأناً».

يظل غير واضحاً لماري لور إذا ما كان القصد من هذا تقديم العون أو التهديد. تفكر: هل يقصدون أبي؟

ينهي الشرطيان بحثهما ويتمنيان لهم ليلة سعيدة بتهذيب تام ويغادران.

تشعل السَّيدة مانك سيجارة.

يخنة ماري لور باردة.

يتخبط إيتيين مع مشبك الموقد. يقحم الأعلام واحداً تلو آخر في النار.

«لا مزيد من هذا. لا مزيد». يقول الثانية بصوت أعلى من الأولى. «ليس هنا».

صوت السَّيدة مانك: «لم يعثرا على شيء، لا شيء ليعثرا عليه».

يعبق المطبخ برائحة القطن المحترق اللاذعة. يقول العم: «اصنعي ما تشائين بحياتك يا سيدة. كنت دوماً هنا من أجلي، وسوف أحاول أن أكون من أجلك. لكن لا تفعلي هذه الأمور في هذا المنزل. وليس مسموحاً أن تفعليها مع حفيدة أخي».

إلى أختي العزيزة يوتا

الأمر صعب للغاية الآن. حتى الورق من الصَّعب
كان
علينا ما من
حرارة في الـ كان
فريدريك يقول إنه ليس هناك شيء يدعى إرادة حرة وأن درب كل شخص مفروض عليه سلفاً تماماً مثل
وأن خطئي كان أني
علامات الرقيب هنا علامات الرقيب هنا علامات الرقيب هنا علامات الرقيب هنا آمل أن يكون في مقدورك أن تفهمي ذات يوم. محبتي لك وللسَّيدة إلينا أيضاً. سيغ هايل.

طهو الضفادع

في الأسابيع التي تلت، السَّيدة مانك ودودة للغاية، ترافق ماري لور إلى الشَّاطئ معظم الصَّباحات، تصحبها إلى السُّوق. لكنها تبدو غافلة، تسأل عن حال ماري لور وإيتيين بلباقة تامة، تلقي بتحية الصباح كما لو أنهما غريبان. غالباً تختفي نصف نهار.

تطول أصائل ماري لور وتزداد وحشة. ذات مساء تجلس إلى طاولة المطبخ وعمها يقرأ بصوت مسموع.

الحيوية التي تمتلكها بيوض الحلزون تفوق التَّصور. لقد رأينا أنواعاً محددة متجمدة في كتل صلبة من الجليد، ومع ذلك تستعيد نشاطها عندما تتعرض إلى تأثير الدفء.

يتوقَّف إيتيين. «علينا تحضير العشاء. يبدو أن السَّيدة لن تعود الليلة».
ولا يتحرك أي منهما. يقرأ صفحة أخرى. لقد حفظت لسنوات في علب حبوب الدواء، ومع ذلك عند تعريضها للرطوبة، عادت إلى حالها المعتاد... ربما القوقعة مكسورة، وأجزاء منها أزيلت أيضاً، ومع ذلك بعد انقضاء بعض الوقت سوف ترمم الأجزاء المصابة بترسيب المادة الصدفية عند الأجزاء المكسورة.

يقول إيتيين: «هناك أمل لي أيضاً!» ويضحك، وانتبهت ماري لور أن

عمها لم يكن دوماً كثير الخوف، وأنه عاش حياة قبل هذه الحرب وقبل الحرب السَّابقة أيضاً، وأنه كان ذات يوم شاباً سكن في العالم وأحبه كما تحبه هي. أخيراً تدخل السَّيدة مانك من باب المطبخ وتقفله خلفها ويلقي إيتيين تحية المساء ببرود إلى حد ما وسريعاً ما ترد عليه التحية. في مكان ما في المدينة، الألمان يدكون الأسلحة أو يحتسون البراندي والتاريخ أصبح كابوساً تتمنى ماري لور بإلحاح أن تستيقظ منه.

تأخذ السَّيدة مانك قدراً عن المنصب وتملؤه بالماء. تهوي بسكينها على ما يبدو كأنها البطاطا، تضرب الشَّفرة لوح التقطيع الخشبي تحتها.

يقول إيتيين: «من فضلك يا سيدة، اسمحي لي، أنت منهكة».

لكنه لا ينهض، وتواصل السَّيدة مانك تقطيع البطاطا، وعندما تنتهي، تسمعها ماري لور تدفع كمية منها في الماء بمؤخرة سكينها. التوتر في الغرفة يجعل ماري لور تشعر بالخدر، كما لو أنها تستطيع أن تحس بدوران الكوكب.

يتمتم إيتيين: «هل غرقت أي غواصة ألمانية اليوم؟ هل انفجرت أي شاحنات ألمانية؟».

تفتح السَّيدة مانِك باب الثَّلاجة. تستطيع ماري لور سماعها تفتش في درج. يشتعل عود ثقاب، سيجارة تتقد. وسرعان ما يظهر قدر من البطاطا غير المطهوة جيداً أمام ماري لور. تتلمس سطح الطاولة باحثة عن شوكة، لكنها لا تجد شيئاً.

«هل تعرف ما الذي يحدث يا إيتيين»، تقول السَّيدة مانِك من جهة المطبخ الأخرى: «عندما ترمي ضفدعاً في قدر ماء يغلي؟».

– أنت سوف تخبريننا، أنا واثق.

- سيقفز خارجاً. لكن هل تعلم ما الذي يحدث عندما تضع الضِّفدع في قدر ماء بارد ومن ثم تسخنه ببطء؟ هل تعلم ما الذي يحدث حينها؟

تنتظر ماري لور. تنتشر رائحة البطاطا.

تقول السَّيدة مانك: «يُطبخ الضفدع».

أوامر

استدعي فرنر من قبل فتى يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة بالزي الكامل إلى مكتب القائد. ينتظر على مقعد خشبي في ذعر يتشكَّل ببطء. لا بد من أنهم يشكُّون في شيء. ربما اكتشفوا حقيقة ما لا يعرفها عن نسبه، شيئاً مدمِّراً. يتذكَّر عندما دخل نائب العريف من باب منزل الأطفال ليرافقه إلى منزل السَّيد سيدلر: اليقين من أن أجهزة الرايخ تستطيع أن ترى من خلال الجدران، من خلال الجلد، في ذات روح كل مادة.

بعد عدة ساعات يدعوه مساعد القائد للدخول، ويضع قلمه الجاف وينظر عبر مكتبه كما لو أن فرنر واحدة من المشاكل التافهة الكثيرة التي ينبغي عليه تسويتها.

– لقد تناهى إلى سمعنا أيها التلميذ أن عمرك قد سجل على نحو غير صحيح.

– سيدي؟

– أنت الآن في الثامنة عشر من عمرك. ولست في السادسة عشرة كما ادَّعيت.

يرتبك فرنر. السُّخف جلي. هو أقصر قامة من معظم الجنود الذين في عمر الرابعة عشرة.

- بروفسور العلوم التقنية السَّابق الدكتور هاوبتمان، لفت انتباهنا إلى التَّضارب. لقد رتب أمر إرسالك إلى قسم تقني خاص في القوات المسلحة، فيرماخت[1].

- قسم، سيدي؟

- لقد كنت هنا بمقتضى حجة زائفة.

صوته لزج وسعيد، تختفي ذقنه. من نافذة، يرى فرقة المدرسة الموسيقية تتمرن على مارش النصر. يشاهد فرنر فتى يبدو شمالياً يترنح نحت ثقل بوق التوبا.

- أصر القائد على إجراء تأديبي، لكن الدكتور هاوبتمان اقترح أنك قد تكون متحمساً لتقديم مهاراتك للرايخ.

من خلف مكتبه، يخرج المساعد زياً رسمياً مطوياً - رمادياً بلون صخر الإردواز، نسر ألماني على الصَّدر، ضفائر على الياقة. ثم خوذة ذات لون أسود مخضر على شكل دلو الفحم، من الواضح أنها كبيرة جداً.

الفرقة تدوي، ثم تتوقف. يصرخ مدرب الفرقة بالأسماء. يقول مساعد القائد:

- أنت محظوظ للغاية أيها الغر. الخدمة شرف.

- متى سيدي؟

- سوف تتلقى التعليمات خلال أسبوعين. هذا كل شيء.

---

(1) تترجم «قوة الدفاع» هو اسم القوات المسلحة الموحدة لألمانيا. (م).

ذات الرئة

ربيع بريتون، وهجمة عظيمة من الرطوبة تجتاح السَّاحل. ضباب على البحر، ضباب في الشَّوارع، ضباب في العقل. تعتل صحة السَّيدة مانك. عندما تضع ماري لور يدها على صدر السَّيدة مانك، يبدو أن الحرارة تجيش من عظم القص كما لو أنها تُطهى من الداخل. تنفسها يسيل في قوافل من سعال عظيم.

تتمتم السَّيدة: «أشاهد السَّردين، والنمل الأبيض، والغربان...».

يستدعي إيتيين طبيباً يصف لها الراحة، الأسبرين، والفاكهة المجففة العطرية بنفسجية اللون. تجلس ماري لور مع السَّيدة خلال أشد أوقات مرضها سوءاً، ساعات غريبة عندما تبرد يدا السَّيدة المسنة كثيراً وتتحدث عن كونها مسؤولة عن العالم. هي مسؤولة عن كل شيء، لكن لا أحد يعلم. تقول: إنه حمل جسيم، أن تكون مسؤولاً عن كل شاردة وواردة، كل طفل مولود، كل ورقة تسقط من كل شجرة، كل موجة تتكسر على الشَّاطئ، كل نملة في رحلتها.

عميقاً في صوت السَّيدة، تسمع ماري لور المياه: جزر مرجانية وبحيرات ضحلة وأزقة بحرية.

يثبت إيتيين أنه ممرض رؤوم. يغسل الثياب، الحساء، بين الحين

والآخر صفحة من باستور أو روسو. يبدو من سلوكه أنه صفح عن كل تجاوز لها في الماضي والحاضر. يلف السَّيدة باللحاف، لكنها ترتعش أخيراً بعمق وبشدة، حتى أنه يرفع البساط الكبير الثقيل عن الأرض ويضعه عليها.

عزيزتي ماري لور

تسلَّمت الطُّرود التي أرسلتها، اثنين، يفصل بين تاريخ إرسال كل واحد منهما شهور. كلمة فرح ليست معبرة بقوة كافية. لقد سمحوا لي بالاحتفاظ بفرشاة الأسنان والمشط، لكن ليس الورقة التي كانا ملفوفين بها، ولا الصَّابون. كم أتمنى لو أنهم يسمحون لنا أن نمتلك الصابون! قالوا إن إرسالنا التالي قد يكون إلى مصنع للشوكولا، لكنه كان لصنع الورق المقوى. كل يوم نصنع الورق المقوى. ما الذي يفعلونه بكل هذه الكمية؟

كنت طوال حياتي من يحمل المفاتيح يا ماري لور. الآن أسمعهم يخشخشون في الصَّباحات عندما يأتون إلينا، وكل مرة أمد يدي نحو جيبي فأجده فارغاً.

عندما أحلم، أحلم بأني في المتحف.

أتذكرين أعياد ميلادك؟ كيف كان هناك دوماً شيئان على الطاولة عندما تستيقظين؟ أنا آسف لأن الأمر انتهى على هذا الشَّكل. إذا ما رغبت يوماً في أن تفهمي، انظري داخل منزل إيتيين، داخل المنزل. أعرف أنك ستفعلين الأمر الصَّائب. ولو أني أتمنى لو أن الهدية كانت أفضل.

ملاكي يغادر، لذا إذا أستطيع أن أوصل هذه لك، سأفعل. لست قلقاً بشأنك لأني أعلم أنك حادة الذكاء وتحافظين على سلامتك. أنا آمن أيضاً لذا ليس عليك أن تقلقي. شكراً لإيتيين على قراءة هذه لك. اشكري في قلبك الروح الجسورة التي تحمل هذه الرسالة مني وفي طريقها إليك.

والدك

علاجات

يقول طبيب فون رومبل إن بحثاً آسراً يتم إنجازه على غاز الخردل. وأنه يجري استكشاف الخواص المضادة للورم لأي عدد من المواد الكيميائية. ترتفع نسبة احتمالات الشِّفاء: شوهد في الحالات قيد الاختبار، أن الأورام اللمفاوية يتناقص حجمها. لكن الحقن تجعل فون رومبل خدراً وضعيفاً. في الأيام التالية، يمكنه بالكاد تدبر أمر تسريح شعره أو إقناع أصابعه بتزرير معطفه. عقله يخادعه أيضاً: يمشي نحو غرفة وينسى سبب ذهابه إليها. يحدق في رئيس أعلى وينسى ما قاله الرجل لتوه. أصوات السيارات العابرة مثل أسنان أشواك جرّت على امتداد أعصابه.

الليلة يلف نفسه في أغطية الفندق ويطلب حساء ويفك الحزمة من فيينا. أمينة المكتبة السمراء أرسلت نسخاً من كتابي تافيرنيه وستريتر وأيضاً - وهي الأبرز - نسخاً مطابقة على ورق رقيق من كتاب قصة الأحجار الكريمة من تأليف «دو بوت» عام 1604 مكتوب كلياً باللغة اللاتينية. كل ما استطاعت العثور عليه مما يتعلق ببحر اللهب. تسع فقرات بالمجمل.

يتطلب الأمر أن يبذل كامل تركيزه كي تصبح النصوص مرئية من خلال العدسة. آلهة الأرض التي تقع في حب إله البحر. أمير يتعافى من إصابات كارثية، حكم من خلال غشاوة الضوء. يغمض فون رومبل عينيه ويرى آلهة شعرها من لهب تندفع عبر أنفاق الأرض، تتوهج قطرات اللهب في

إثرها. يسمع كاهناً مقطوع اللسان يقول: مالك الحجر سيعيش إلى الأبد. يسمع والده يقول: انظر إلى العقبات باعتبارها إمكانات، يا رينهولد. انظر إلى العقبات على أنها إلهام.

الجنة

تتحسَّن صحَّة السَّيدة مانِك لبضعة أسابيع. تعد إيتيين أنها سوف تتذكر أنها مسنَّة، ولن تحاول أن تكون كل شيء لكل شخص، ولن تجابه الحرب بنفسها. ذات يوم في بداية شهر حزيران، بالضبط بعد مرور سنتين تقريباً على غزو فرنسا، كانت هي وماري لور تمشيان عبر حقل من زهور «دانتيل الملكة آن» شرق سان مالو. قالت السَّيدة مانك لإيتيين إنهما ذاهبتان لتريا إذا كانت فاكهة الفريز متوفرة في سوق سان سيرفان، لكن ماري لور متأكدة من أنهما عندما توقفتا لتحية امرأة في الطريق، رمت السَّيدة مغلفاً والتقطت آخر.

بناء على اقتراح السَّيدة، تمددتا على العشب، وأصغت ماري لور إلى نحل العسل ينقِّب في الزهور، وحاولت أن تتخيل رحلاتها كما وصفها إيتيين: تتبع كل عاملة جدولاً من الرائحة، تبحث عن عينات فوق بنفسجية في الزهور، تملأ سلالاً على سيقانها الخلفية بحبوب الطلع، ثم تسافر ثملة ومثقلة عائدة إلى البيت.

كيف تعرف تلك النَّحلات الصَّغيرات أي دور تؤدي؟ تخلع السَّيدة مانِك حذاءها، وتشعل سيجارة، وتطلق أنَّة تعبيراً عن الرضى. حشرات تدندن: دبابير، سرفيات، يعاسيب عابرة - علَّم إيتيين ماري لور أن تميز كل واحدة من صوتها.

- ماهي آلة رونيو يا سيدة؟
- شيء يساعد على صنع المناشير.
- ما علاقتها بتلك المرأة التي التقيناها؟
- لا شيء مهم لتقلقي نفسك به عزيزتي.
خيول تصهل، والريح تتنسم من البحر رقيقة وباردة ومفعمة بالروائح.
- سيدتي، كيف يبدو شكلي؟
- لديك الكثير من النمش.
- أبي كان يقول إنها مثل نجوم في السماء. مثل تفاح في شجرة.
- هي نقاط صغيرة بنية. يا طفلتي. آلاف من نقاط صغيرة بنية.
- هذا يبدو قبيحاً.
- لكنها جميلة عليك.
- هل تظنين يا سيدة أننا سوف نرى الله في الجنة وجهاً لوجه؟
- ربما.
- ماذا لو كنت عمياء؟
- أتوقع أنه إذا كان الله يريدنا أن نرى شيئاً فسوف نراه.
- يقول العم إيتيين إن الجنة مثل غطاء يتعلق به الأطفال. يقول إن الناس طيروا الطائرات عشرة كيلومترات فوق الأرض ولم يجدوا ممالك هناك. ما من بوابات، ما من ملائكة.
تشرع السّيدة مانك بسلسلة متقطعة من السُّعال، فتسري رجفات من الخوف عبر ماري لور.
تقول أخيراً: «أنت تفكرين في والدك، عليك أن تؤمني بعودة والدك».
- هل حاولت يوماً أن تؤمني، ألم ترغبي يوماً في وجود دليل؟

تضع السَّيدة مانك يدها على جبهة ماري لور. اليد السميكة التي ذكرتها بداية بيد بستاني أو جيولوجي.

- عليك ألا تتوقفي عن الإيمان. هذا هو المهم.

تمايل زهور «دانتيل الملكة آن» على سيقانها، والنحلات تثابر في عملها الدؤوب. تفكر ماري لور: ليت أن الحياة كانت مثل رواية جول فيرن، ويمكنك أن تقلب صفحة عندما تحتاج إلى ذلك، وتعلم ما الذي قد يحدث.

- سيدتي؟

- نعم ماري.

- ماذا تظنين أنهم يأكلون في الجنة؟

- أنا لست واثقة كثيراً من أنهم يحتاجون إلى الطعام في الجنة.

- لا يأكلون! لن تحبي ذلك، أليس كذلك؟

لكن السَّيدة مانك لا تضحك كما تتوقع ماري لور منها أن تفعل. لا تقول أي شيء على الإطلاق. نفسها يخشخش شهيقاً وزفيراً.

- هل أزعجتك يا سيدتي؟

- لا يا طفلتي.

- هل نحن في خطر؟

- ليس أكثر من المعتاد.

يتقلب العشب ويرتعد، تصهل الخيول. تقول السَّيدة مانك هامسة تقريباً: «الآن وأنا أفكر فيها، يا طفلتي، أتوقع أن الجنة تشبه هذا كثيراً».

فريدريك

ينفق فرنر آخر ما يملك من نقود ثمناً لتذكرة قطار. الأصيل نيِّر بما فيه الكفاية، لكن يبدو أن برلين ليست راغبة في تقبُّل ضوء الشَّمس، كما لو أن مبانيها ازدادت ظلمة وقذارة وتلطخاً في الشُّهور التي مضت منذ زيارته الأخيرة. مع ذلك ما تغير ربما هي العيون التي تراها. بدل من أن يرن الجرس مباشرة، يلف فرنر الشَّارع ثلاث مرات. نوافذ الشَّقة مظلمة بشكل موحد، لا يمكنه أن يعرف ما إذا كانت غير مضاءة أو مغمَّاة. عند نقطة معينة من كل دورة، يمر بواجهة متجر مليئة بمانيكانات عارية، ولو أنه يعرف كل مرة أنها مجرد خدعة ضوئية، لا يمكنه أن يمنع عينيه عن رؤيتها كجثث معلقة بأسلاك.

أخيراً يرن جرس الطابق الثَّاني. لا يسمع حركة من أحد، ويلاحظ من البطاقات الاسمية أنه لم يعد اسمه هناك في الطابق الثاني، بل عند الرقم #5.

يرن، يسمع صدى الرنين من الدَّاخل.

المصعد معطَّل، لذا يصعد على قدميه.

ينفتح الباب. فراني. بوجه زغب، تتلاطم طبقات رقيقة من الجلد تحت ذراعيها. ترمقه بتلك النظرة التي يتبادلها شخصان واقعان في فخ، ثم والدة فريدريك تهسهس خارجة من غرفة جانبية ترتدي ثياب التنس.

«عجباً، فرنر...».

تغيب للحظة في حلم يقظة مكدَّر، محاطة بأثاث صقيل، بعض منه ملفوف بأغطية صوفية سميكة. هل تلومه؟ هل تظن أنه مسؤول إلى حدٍّ ما؟ ربما هو كذلك؟ لكن حينئذٍ تفيق وتقبله على خديه، وشفتها السُّفلى ترتعش قليلاً. كما لو أن تجسده يمنعها من إبقاء ظلال معينة بعيداً.

- هو لن يعرفك. لا تحاول أن تذكره. هذا سوف يزعجه فحسب. لكنك هنا. أفترض أن هذا أمراً جيداً. كنت على وشك الذهاب، آسفة جداً، لا يمكنني البقاء. رافقيه فراني.

تقوده الخادمة إلى غرفة استقبال كبيرة، سقفها مكسو بالزخارف الجصية، جدرانها مطلية بأزرق رقيق ناعم. لم يعد هناك لوحات معلقة والرفوف فارغة وصناديق من الورق المقوى مفتوحة على الأرض. يجلس فريدريك إلى طاولة ذات سطح زجاجي في مؤخرة الغرفة، يبدو كل من الطاولة والفتى صغيرين وسط الفوضى. شعره مسرح بشدة إلى جانب واحد، وقميصه الفضفاض القطني محزم خلف كتفيه لذا فياقته مائلة. عيناه لا ترتفعان لتلاقيا عيني زائره.

يرتدي نظارته القديمة ذات الإطار الأسود نفسها. شخص ما كان يطعمه، والملعقة موضوعة على الطاولة الزجاجية، ونقاط من الثَّريد عالقة على شاربي فريدريك وحصيرته، وهي من الصُّوف مرسوم عليها أطفال سعداء، متوردي الخدود، ينتعلون القباقيب. لا يستطيع فرنر النظر إليها.

تنحني فراني وتدفع ثلاث ملاعق في فم فريدريك وتمسح ذقنه، تطوي مفرش الطاولة، وتذهب عبر باب دوار نحو ما يجب أن يكون مطبخاً. يقف فرنر ويداه متصالبتان أمام حزامه.

سنة واحدة، أكثر من ذلك. يدرك فرنر أن على فريدريك الآن أن يحلق ذقنه، أو شخص ما توجب عليه أن يحلق له.

- مرحباً فريدريك!

يدير فريدريك رأسه وينظر نحو فرنر من خلال نظارته الملطخة المنزلقة على خط أنفه.

- أنا فرنر. قالت والدتك إنك قد لا تتذكر؟ أنا صديقك من المدرسة.

لا يبدو فريدريك أنه ينظر إلى فرنر، بل كما لو أنه ينظر من خلاله. على الطاولة كومة من الأوراق، على الورقة أعلاها لولب أخرق وسميك مرسوم بيد ثقيلة.

- هل تصنع هذا؟

يرفع فرنر الرسمة العلوية. تحت تلك الصَّفحة رسم آخر، ثم آخر، ثلاثون أو أربعون لولباً، كل واحد يشغل صفحة كاملة، لجميعها الرأس الحاد نفسه. يرمي فريدريك بذقنه على صدره، يحتمل أن تكون إيماءة. يجيل فرنر نظره من حوله: حقيبة كبيرة، صندوق من الملابس الكتانية، الأزرق الشَّاحب في الجدران والأبيض الكثيف للكسوة الخشبية. ينزلق ضوء شمس متأخر عبر نوافذ فرنسية طويلة، وللهواء طعم طلاء فضي. شقة الطابق الخامس هي حقاً أجمل من شقة الطابق الثاني - السُّقوف عالية ومزينة بقصدير مثقَّب وزخارف جصيَّة: فاكهة، زهور، أوراق الموز.

شفة فريدريك مغضَّنة وأسنانه العلوية ظاهرة وخيط لعاب يلوح من ذقنه ويمس الورقة. ينادي فرنر الخادمة، عاجزاً عن احتمال الأمر ولو لثانية واحدة. تطل فراني من الباب الدَّوار.

يسأل: «أين ذلك الكتاب؟ كتاب الطيور ذو الغلاف الذهبي؟».

- لا أظن أننا نملك كتاباً مثل ذلك.

- لا. لديكم.

تكتفي فراني بهز رأسها وتعقد أصابعها عبر مئزرها. يرفع فرنر ألسنة الصَّناديق، ينظر في داخلها.

- بالتأكيد هو هنا.

بدأ فريدريك يرسم لولباً آخر على صفحة فارغة.

- ربما في هذا؟

تقف فراني بجانب فرنر وتنزع يده عن صندوق كان على وشك أن يفتحه. تكرر: «لا أظن، نحن لم نملك يوماً كتاباً مثل ذلك».

بدأ جسد فرنر كله يحكه. من النوافذ الكبيرة، أشجار الزيزفون تتأرجح جيئة وذهاباً. الضوء يتلاشى. لافتة غير مضاءة فوق مبنى يبعد مسافة شارعين تقول: برلين تدخن سجائر اليونَس. عادت فراني الآن إلى المطبخ. يراقب فرنر فريدريك وهو يبتكر لولباً آخر بغير إتقان، القلم عالق في قبضته.

«سأغادر شولبفورتا، فريدريك. لقد غيروا عمري وقرروا إرسالي إلى الجبهة»، يرفع فريدريك القلم، يتفحص ثم يعيده «خلال أقل من أسبوع».

يحرك فريدريك فمه كما لو أنه يمضغ الهواء. يقول من دون أن ينظر مباشرة نحو فرنر، وكلماته أقرب ما تكون إلى الأنين: «تبدين جميلة، تبدين جميلة، جميلة جداً أمي».

يهمس فرنر: «أنا لست والدتك، كفاك الآن». تعبير فريدريك يفتقر كلياً إلى الخداع. في مكان ما في المطبخ، الخادمة تصغي. ما من صوت آخر، ما من حركة مرور أو طائرات أو قطارات أو أجهزة راديو أو شبح السَّيدة شفارتزنبرغر يقرقع في قفص المصعد. ما من شدو أو غناء أو أعلام حريرية أو فرق أو آلات نفخ موسيقية، ما من أم ولا أب ولا قائد بأصابع حريرية يجر إصبعاً على ظهره. تبدو المدينة ساكنة تماماً كما لو أن الجميع يصغي، في انتظار شخص ما أن يتعثر.

ينظر فرنر نحو الجدران الزرقاء ويفكِّر في طيور أمريكا، البلشون ذي العرف الأصفر، طائر كنتاكي الشَّادي، تانيجر القرمزي، طائر بهي بعد آخر، ونظرة فريدريك تظل عالقة في أرض رهيبة وسطى، كل عين بركة آسنة لا يحتمل فرنر أن ينظر فيها.

انتكاسة

في أواخر شهر حزيران عام 1942، للمرة الأولى منذ أن أصابتها الحمَّى، لا تجد ماري لور السَّيدة مانك في المطبخ عندما تستيقظ. هل يمكن أن تكون الآن في السُّوق؟ تخبط ماري لور على بابها، تنتظر مئة دقَّة قلب. وتفتح الباب الخلفي وتنادي في الزقاق. فجر حزيراني دافئ وبهي. حمائم وقطط. ضحك صاخب من النَّافذة المجاورة.

- سيدتي؟

يتسارع نبض قلبها. تخبط ثانية على باب السَّيدة مانِك.

- سيدتي؟

عند دخولها، تسمع الخشخشة أولاً. كما لو أن مداً ضجراً يحرك أحجاراً في رئتي السَّيدة المسنَّة. تصعد روائح العرق والبول الحامضية من السَّرير. تعثر يداها على وجه السَّيدة، وخدُّ المرأة المسنة حار جداً حتى أن أصابع ماري لور ترتد كما لو أنها احترقت. تتسلق زاحفة إلى الطابق الأعلى، تتعثر، تصرخ: «عمي! عمي!». يتحول المنزل برمته قرمزياً في عقلها، يتحول السَّقف إلى دخان، ألسنة نارك تلوك الجدران.

يجثم إيتيين على ركبتيه المطقطقتين بجانب السَّيدة، ثم يعدو مسرعاً نحو الهاتف، ويتحدث ببضع كلمات. يعود إلى جانب السَّيدة مانِك مهرولاً. خلال السَّاعة التالية يمتلئ المطبخ بالنساء: السَّيدة رويل، السيدة

فونتينو، السَّيدة هيرار. يزدحم الطَّابق الأول، تذرع ماري لور الأدراج صعوداً ونزولاً، كما لو أنها تشق طريقها صعوداً نزولاً من قمة صدفة هائلة. يأتي الطبيب ويذهب، تطبق امرأة يدها النَّحيلة حول كتف ماري لور، وعند السَّاعة الثانية تماماً، مع قرع أجراس الكاتدرائية، يعود الطبيب بصحبة رجل لا يقول شيئاً سوى تحية المساء، تفوح منه رائحة القذارة والبرسيم، يرفع السَّيدة مانِك ويحملها إلى الشَّارع ويضعها على عربة حصان، كما لو أنها كيس من دقيق الشَّوفان، وتسمع صوت طقطقة حوافر الحصان عندما يبتعد، والطبيب يعرِّي السَّرير من الملاءات، وتعثر ماري لور على إيتيين في زاوية المطبخ يهمس: «السَّيدة ماتت، السَّيدة ماتت».

ستة

8 آب 1944

شخص ما في المنزل

حضور، شهيق. تصوّب ماري لور حواسها جميعاً نحو المدخل تحت ثلاث مجموعات من الأدراج. تئن البوابة الخارجية منغلقة، ثم ينغلق الباب الأمامي.

في رأسها توضيحات والدها: إذا انغلقت البوابة قبل الباب، وليس بعده. يعني أن الشخص الذي أغلق البوابة أولاً ثم أغلق الباب، هو في الداخل.

ينتصب الشَّعر كله على ظاهر عنقها.

يعلم إيتيين أن عليه أن يرنّ الجرس، ماري. إيتيين كان ليناديك الآن.

نعال في البهو. حطام أطباق تقرقش تحت الأقدام.

إنه ليس إيتيين.

الألم مبرح للغاية، لا يطاق إلا بالكاد. تحاول تصفية أفكارها، تحاول التركيز على صورة لهب شمعة يحترق في وسط قفصها الصَّدري، حلزون ينسحب نحو لفائف قوقعته، لكن قلبها يخبط في صدرها ونبضات الخوف تدور حول عمودها الفقري، وهي فجأة ترتاب فيما إذا كان بسع شخص مبصر في البهو أن يرفع بصره نحو منحنيات بيت الدَّرج ويرى حتى الطابق الثالث تماماً. تتذكر قول عمها عن أنه سيتوجَّب عليهم أن يحذروا من

اللصوص، والهواء يمتزج بغشاوات وهمية وحفيف، وماري لور تتخيل أنها تعبر بالحمَّام سريعاً نحو غرفة الخياطة المكتظة هنا في الطابق الثالث وترمي نفسها من النَّافذة.

أصوات خطوات في القاعة. انزلاق طبق على الأرضية كما لو أن أحداً ركله. رجل إطفاء، جار، جندي ألماني يتصيد الطعام؟

لو كان مسعفاً لكان ينادي على الناجين، يا عزيزتي. عليك أن تتحركي. عليك أن تختفي.

ينتقل وقع الأقدام نحو غرفة السَّيدة مانِك. تمضي ببطء، ربما بسبب الظلمة. هل يمكن أن يكون الليل قد حلَّ الآن؟

أربعة أو خمسة أو ستة أو مليون دقة قلب. معها عصاها، معطف إيتيين، العلبتان، السِّكين، القرميدة. مجسَّم المنزل في جيب فستانها. الحجر في داخله. ماء في الحوض في آخر القاعة.

تحركي، اذهبي.

قدر أو مقلاة، قد تكون وقعت عن علاقتها في القصف، تتقلب على بلاط المطبخ. يخرج من المطبخ، يعود إلى البهو.

قفي عزيزتي، انهضي الآن.

تقف، تعثر يمناها على الدرابزين. هو عند أسفل الدرج، تكاد تصرخ. لكن حينها تدرك – تماماً وهو يضع قدمه على الدرجة الأولى – أن خطوته متواترة. واحد – وقفة – اثنان واحد – وقفة – اثنان. إنها مشية قد سمعتها من قبل. عرج رقيب ألماني ذو صوت جامد.

اذهبي.

تخطو ماري لور كل خطوة بتأن قدر استطاعتها. ممتنة الآن لأنها لا

تنتعل حذاءها. قلبها يطرق باهتياج شديد على قفصها الصَّدري، حتى أنها تشعر بأن الرجل في الأسفل لا بد سوف يسمعه.

تصعد إلى الطابق الرابع. كل خطوة همسة. الخامس. على سفرة درج الطابق السَّادس، تتوقف تحت الثريا وتحاول أن تصغي. تسمع الألماني يصعد ثلاث أو أربع درجات ويأخذ استراحة قصيرة للتنفس بجهد. ثم يواصل ثانية. تشتكي درجة خشبية تحت ثقله، تبدو لها مثل حيوان صغير يدهس. يتوقف على ما تعتقد أنها سفرة درج الطابق الثالث. حيث كانت تجلس للتو. حرارتها لا تزال هناك على الأرض الخشبية بجانب طاولة الهاتف. نفَسها المبدد.

أين بقي لها مكان تهرب إليه؟

اختبئي.

إلى يسارها غرفة جدها القديمة. إلى يمينها غرفة نومها الصَّغيرة، زجاج النَّافذة مخلوع. في مواجهتها يوجد المرحاض. لا تزال رائحة الدُّخان الخفيفة في كل مكان.

وقع أقدامه يعبر السُّفرة. واحد - وقفة - اثنان واحد - وقفة - اثنان. يتنفس بجهد، يصعد ثانية.

تفكر: لو يمسني سوف أقلع عينيه.

تفتح باب غرفة نوم جدها وتتوقف. تحتها يتوقف الرجل ثانية. هل سمعها؟ هل يصعد بهدوء أكبر؟ في العالم هناك وفرة من الملاجئ - الحدائق تزخر بالريح الخضراء السَّاطعة، ممالك الأسيجة، أحواض عميقة من ظلال الغابة تحوم عبرها الفراشات لا تفكر إلا في الرحيق. لا تستطيع الوصول إلى أي منها.

تجد الخزانة الضَّخمة في الطرف القصي من غرفة هنري، وتفتح

البابين المزودين بالمرايا، وتزيح القمصان القديمة المعلقة في الداخل، وتزلق الباب المستعار الذي صنعه إيتيين في مؤخرتها. تحشر نفسها في المكان الصَّغير حيث يرتفع السُّلم نحو السَّندرة. ثم تعود عبر الخزانة تعثر على بابيها وتغلقهما.

احمني الآن أيها الحجر، إذا كنت حامياً.

«بهدوء». يقول صوت والدها في صمت: «لا تصدري أي ضجة». تعثر يد على المقبض الذي زود إيتيين اللوح المستعار به على مؤخرة الخزانة. تغلقه رويداً رويداً، كل مرة سنتيمتراً واحداً، إلى أن ينغلق تماماً مصدراً صوت نقرة، ثم تأخذ نفساً وتحبسه لأطول مدة ممكنة.

موت فالتر بيرند

تمتم بيرند بكلام مبهم طيلة ساعة كاملة. ثم صمت وقال فولكهايمر: «يا إلهي ارحم عبدك». لكن الآن بيرند يجلس ويطلب منهما أن يشعلا الضوء. يلقمانه بقايا الماء الأخيرة في المطرة الأولى. يجري خيط وحيد منها عبر شاربيه ويراه فرنر يمضي.

يجلس بيرند في بصيص ضوء الكشّاف ينقّل بصره بين فولكهايمر وفرنر.

يقول: «زرت والدي في إجازة السّنة الماضية. كان مسناً، كان مسناً طوال حياتي. لكن الآن بدا مسناً على نحو خاص. استغرقه وقت طويل للغاية فقط ليعبر مطبخه. كان لديه علبة من الكعك المحلى، كعك صغير باللوز. أفرغها على طبق، فقط العلبة موضوعة بالعرض. لم يأكل أي منا شيئاً وقال: «ليس عليك البقاء. أحب أن تبقى لكن لا ينبغي عليك ذلك، ربما لديك أموراً تود القيام بها». ظل يقول ذلك، يمكنك الذهاب مع أصدقائك إذا كنت راغباً».

يطفئ فولكهايمر المصباح، وفرنر يتوجس من شيء مبرح محصور هناك في الظلمة.

يقول بيرند: «غادرت، هبطت الدّرج وخرجت إلى الشّارع. لم يكن لدي مكان أذهب إليه ولا أحد لأراه، لم يكن لديّ أصدقاء في تلك البلدة،

لقد أمضيت النهار مسافراً على متن القطارات كي أراه لكنني غادرت فقط هكذا».

ثمَّ يصمت. يسوِّي فولكهايمر موضعه على الأرض وغطاء فرنر عليه، وبعد فترة ليست بطويلة بعد ذلك يفارق بيرند الحياة.

يعمل فرنر على الراديو. ربما هو يعمل من أجل يوتا، كما اقترح فولكهايمر، أو ربما يعمل فلا يتوجب عليه أن يفكر في فولكهايمر الذي يحمل بيرند إلى زاوية ويضع القرميد فوق يديه، صدره، وجهه. يمسك فرنر الكشَّاف في فمه ويجمع ما يمكنه: مطرقة صغيرة، ثلاث أوان من البراغي، سلكاً كهربائياً بعرض ثمانية عشرة من مصباح مكتبي محطَّم. داخل درج خزانة مشوه يكتشف بمعجزة بطارية التوتياء - الكربون 11 فولط مطبوع على جانبها صورة قطة سوداء. بطارية أميركية يعرض شعارها «تسعة أرواح». يسلِّط فرنر عليها الضَّوء في الوهج البرتقالي الوامض مندهشاً. يتفحَّص طرفيها. لا تزال ممتلئة بوفرة. يفكِّر: عندما تفرغ بطارية الكشَّاف سيكون لدينا هذه.

يسوِّي الطاولة المقلوبة. يضع جهاز المرسل المستقبل المكسور على سطحها. فرنر لا يصدق أن هناك أملاً كبيراً في إصلاحه، لكن ربما يكفي ليمنح العقل شيئاً يشغله، مسألة ليحلها. يسوِّي ضوء فولكهايمر في أسنانه. يحاول ألا يفكر في الجوع أو العطش، الفجوة المسدودة في أذنه اليسرى، بيرند في الزاوية، النمساويون في الطابق العلوي، فريدريك، السَّيدة إلينا، يوتا، أي منهم.

هوائي، مدوزن، مكثف كهربائي. بينما هو يعمل عقله هادئ تقريباً، ساكن تقريباً. هذا عمل للذَّاكرة.

غرفة نوم الطابق السَّادس

يتقدَّم فون رومبل ببطء عبر الغرف بقوالبها البيضاء الباهتة والقناديل القديمة التي تعمل على الكيروسين والسَّتائر المطرزة ومرايا من الحقبة الجميلة[1]، وسفن داخل قوارير زجاجية ومفاتيح كهربائية ذات أزرار تعمل بالضَّغط، كلها خامدة. فجر شاحب ينعرج عبر الدُّخان والمصاريع في خطوط حمراء مكفهرة.

هذا المنزل معبد للإمبراطورية الثَّانية. حوض استحمام مملوء حتى ثلاثة أرباعه بالماء البارد في الطابق الثالث، غرف تعج بأشياء مبعثرة في الطابق الرابع. ما من بيوت دمى بعد. يصعد إلى الطابق الخامس، يتعرَّق، قلقٌ من أنه قد يكون فهم كل شيء بشكل خاطئ. يتمايل الثقل في بطنه متهدِّلاً. هنا غرفة كبيرة مزخرفة مكتظة بالحلي الرخيصة والصَّناديق والكتب والقطع الميكانيكية. مكتب، سرير، أريكة، ثلاث نوافذ على كل جانب. ما من مجسَّم.

إلى الطابق السَّادس. إلى اليسار، غرفة نوم مرتبة، فيها نافذة وحيدة وستائر طويلة. تتدلى قبعة فتى على الجدار، في الخلف تلوح خزانة هائلة، قمصان محفوظة بالنفتالين معلَّقة في داخلها.

---

(1) يقصد بها الفترة المشرقة في التاريخ الغربي الممتدة من نهاية الحرب الفرنسية البروسية إلى بداية الحرب العالمية الأولى. (م).

بالعودة إلى أرضية الدَّرج. دورة مياه صغيرة، المرحاض مليء بالبول. من خلفه، غرفة نوم أخيرة. القواقع مصفوفة على امتداد كل سطح متوفِّر، قواقع على العتبات وعلى الخزانة وجرار مليئة بالحصى مصفوفة على الأرض، كلها مرتبة بنظام يتعذر تمييزه، وهنا، هنا! هنا على الأرض عند قدم السَّرير يوجد ما كان يبحث عنه، مجسَّم خشبي للمدينة، معشَّش مثل هدية. بحجم طاولة طعام. يزخر بالمنازل الصَّغيرة. فيما عدا رقائق الجبس في شوارعه، المدينة الصَّغيرة سليمة تماماً. الصُّورة الزائفة الآن أكثر اكتمالاً من الأصل. عمل على قدر جلي من الفخامة.

في غرفة الابنة، من أجلها، بالطبع.

يشعر فون رومبل كما لو أنه وصل إلى النصر بعد رحلة طويلة، وفيما هو جالس على حافَّة السَّرير تصعد انفجارات مزدوجة من الألم من رأس فخذه، شعر بإحساس غريب أنه سبق أن كان هنا من قبل، أنه عاش في غرفة شبيهة بهذه، نام في سرير متكتل مثل هذا، جمع أحجار مصقولة وصفَّها مثل هذه. كما لو أن هذه المجموعة بكاملها، كانت بطريقة ما، تنتظر عودته.

يفكِّر في ابنتيه، كم ستحبان أن تريا مدينة على طاولة. قد ترغب ابنته الصُّغرى في أن يجثم بجانبها. قد تقول: لنتخيل جميع الناس يتناولون عشاءهم، لنتخيلنا، أبي.

خارج النَّافذة المحطمة، خارج المصاريع المقفلة، يسود هدوء شديد على سان مالو حتى أن في وسع فون رومبل سماع حفيف دقَّات قلبه، وحركة الشُّعيرات في أذنه الداخلية. يهبُّ دخان على السَّطح. يتساقط رماد بخفة. في أي لحظة سوف تنطلق المدافع ثانية. هادئة الآن. سوف يكون هنا في مكان ما. إنه تماماً كما لو أن صانع الأقفال يردد لنفسه. المجسَّم - سيكون داخل المجسَّم.

صنع راديو

يثني فرنر أحد طرفي سلك حول أنبوب مقصوص منتصب بشكل قطري من الأرض. ينظف بلعابه قطعة السِّلك ويلفها مئة مرة حول قاعدة الأنبوب، صانعاً ملفاً جديداً للتوليف. يقذف الطرف الآخر عبر ذراع مقوسة محشورة في مجموعة من خشب، حجر، وجبس التي أصبحت تشكل سقفهما.

يراقب فولكهايمر من الظِّلال. تنفجر قذيفة هاون في مكان ما في المدينة، وتهطل دفعة من الغبار.

يصل الصَّمام الثنائي بين النهايتين الحرتين لسلكين ويلاقي سلكي البطارية ليكمل الدَّارة. يمرر فرنر شعاع مصباح فولكهايمر على العملية كاملة. أرض، هوائي، بطارية. أخيراً يحصر المشعل الكهربائي بين أسنانه ويرفع سلك السَّماعة المزدوج أمام عينيه ويقشره بواسطة مسننات البرغي ويمس الطرفين العاريين مع الصَّمام. على نحو غير مرئي، تئز إلكترونات عبر الأسلاك.

يصدر الفندق فوقهما، أو ما بقي منه، سلسلة من الأنّات الغريبة. شظايا خشبية، كما لو أن الحطام يترنح على نقطة ارتكاز أخيرة ما. كما لو أن يعسوباً واحداً لو حط عليه فسيحدث انهياراً ثلجياً يدفنهم إلى الأبد. يضغط فرنر برعم السَّماعة على أذنه اليمنى.

لا يعمل.

يقلب صندوق الراديو المبعوج، يحدِّق في داخله. ينقر على مصباح فولكهايمر المضمحل فيضيء. فكَّر بروية. تصوَّر توزع التيار. يفحص ثانية الصَّمامات الكهربائية والإلكترونية، مسامير القابس، يثبِّت مفتاح المرسل المستقبل، ينفخ الغبار عن مقياس المنتخِب. يستبدل أسلاك توصيل البطارية، يجرب السَّماعة ثانية.

وها هو ذا، كما لو أنه يبلغ من العمر ثمانية أعوام ثانية، جاثم بجانب أخته على أرض منزل الأطفال: تشويش. وفير ومستمر. في ذاكرته، تنادي يوتا باسمه، تلحق بها صورة أقل توقعاً: حبل مزدوج ينتظم من أمام منزل السَّيد سيدلر، الراية القرمزية الملساء الكبيرة تتدلى منه حمراء غير ملطخة.

يبحث فرنر عبر الترددات باللمس. ما من دارة لعزل التشويش، ما من طقطقات إشارة مورس، ما من أصوات. تشويش تشويش تشويش. في أذنه السَّليمة، في الراديو، في الهواء. عينا فولكهايمر مركزتان عليه. يحوم غبار عبر شعاع الكشاف الكليل: عشرة آلاف شذرة تدور برفق، تومض.

في العلية

يغلق الألماني أبواب الخزانة ويعرج مبتعداً، وماري لور تبقى على درجة السُّلم السُّفلية وتعد حتى الرقم أربعين. ستين، مئة. القلب يجهد ليرسل دماً مزوداً بالأوكسجين، العقل يجهد لتحليل الحالة. تعود عبارة قرأها إيتيين مرة جهاراً: حتى القلب، الذي ينبض بطاقة متعاظمة عند حيوانات أكثر تطوراً، لدى اضطرابها، يخفق عند الحلزون بحركة أبطأ، تحت تأثير إثارة مماثلة.

هدِّئي من روع قلبك. اثني قدميكِ. لا تصدري ضجيجاً. تضغط أذنها على اللوح المستعار على ظهر الخزانة. ماذا تسمع؟ عث يقضم ملابس جدها القديمة؟ لا شيء.

ببطء، وبشكل غير متوقع، تجد ماري لور أن النعاس ينال منها.

تتلمس علبتيها في جيوبها. كيف تفتح واحدة الآن من دون أن تصدر ضجيجاً؟

الأمر الوحيد الذي يسعها فعله هو الصعود. سبع درجات نحو نفق العلية الطويل مثلث الشَّكل. يرتفع السَّقف الخشبي على كلا الجانبين نحو القمَّة، أعلى بقليل من قمَّة رأسها.

الحرارة تملأ المكان. ما من نوافذ، لا مخرج. ما من مكان آخر للهرب. ما من سبيل للخروج فيما عدا الطريق الذي أتت منه.

تعثر أصابعها المبسوطة على وعاء حلاقة قديم، دعامة مظلة، وصندوق مليء بما لا يعرفه أحد. ألواح أرضية العليَّة تحت قدميها بعرض يديها. تعرف عن سابق تجربة، كم تصدر من ضجيج عندما يسير أحد عليها.

لا تسقطي أي شيء.

ماذا ستفعل؟ لو فتح الألماني الخزانة ثانية، وأزاح جانباً الملابس المعلَّقة، وحشر نفسه عبر الباب ثم صعد إلى العلية، تضربه على رأسه بدعامة المظلة؟ تطعنه بسكين التقشير؟

صرخة.

موت.

أبي.

تزحف على طول الرافدة المركزية التي تنبثق منها ألواح الأرضية الضَّيقة، باتجاه الجسم الحجري للمدخنة عند الطرف القصي. الرافدة المركزية هي الأكثر سماكة وستكون أهدأ. تأمل أنها لن تفقد الاتجاه. تأمل أنه ليس واقفاً خلفها، يصوِّب مسدساً إلى ظهرها.

خفافيش تصرخ على نحو غير مسموع تقريباً خارج فتحة العلية. وفي مكان ما بعيد، ربما على سفينة بحرية، أو مخرج بحذاء «باراميه»، يطلق مدفع ثقيل النَّار.

قصف. صمت. قصف. صمت. ثمَّ الصَّرخة الطويلة عندما تطير القذيفة، ثمَّ صوتها عندما تنفجر على جزيرة خارجية.

رعب زاحف مريع يصعد من مكان خلف الأفكار. ثمَّة باب أرضي أكثر عمقاً لا بد من أن تقفز عليه في الحال وتستند عليه بكل ثقلها وتقفله. تخلع المعطف وتفرده على الأرضية. لا تجرؤ على سحب نفسها للأعلى خوفاً من الضَّجة التي قد تصدرها ركبتاها على الألواح. الوقت يمر. لا

صوت من الطوابق السُّفلية. هل يمكن أن يكون قد رحل؟ بهذه السُّرعة؟ بالتأكيد لم يرحل، هي تعرف في النهاية سبب وجوده هنا.

إلى يسارها، عدد من الأسلاك الكهربائية منتشرة على الأرضية. وأمامها مباشرة صندوق تسجيلات إيتيين القديمة، فونوغراف من نوع «فيكترولا»، آلة التسجيل القديمة. الرافعة التي يستعملها ليرفع الهوائي على طول المدخنة. تضم ركبتيها إلى صدرها وتحاول أن تتنفس من جلدها. بصمت مثل حلزون. تملك العلبتين، والقرميدة، والسُّكين.

سبعة

آب 1942

سجناء

راجلاً، يأتي إلى فرنر عريف هزيل الوزن على نحو مُهلك، يرتدي بزّة ميدانية رثّة. أصابع طويلة، يبدو شعره، من تحت قبعته، خفيفاً كالقش. إحدى فردتي جزمته بلا شريط، يتدلّى لسانها بشكل وحشي.

يقول: «أنت صغير».

يعيد فرنر كتفيه إلى الوراء، في سترة الميدان الجديدة وخوذة كبيرة الحجم، وحزام على قفله العبارة المعتادة «الله معنا». ينظر الرجل شزراً نحو المدرسة الضّخمة في الفجر، ثمّ ينثني ويفتح سحّاب كيس عدّة فرنر وينقّب في البدل الرسمية الثلاث المطوية بعناية، والتي تخص طلبة المعاهد السّياسية الوطنية للتربية. يرفع بنطالاً نحو الضّوء ويبدو خائباً لأنه لا يناسب مقاسه بأي شكل من الأشكال. بعد أن يغلق الكيس، يرميه على كتفه، لا يستطيع فرنر أن يخمّن ما إذا فعل ذلك كي يحتفظ به أو ليحمله فقط.

«أنا نيومان، يدعونني اثنان. هناك نيومان آخر، السّائق. هو واحد. ثمّ هناك المهندس والرقيب وأنت، مهما عنى الأمر لك، فهذه خمسة من جديد».

ما من أبواق، ما من احتفال. هذا هو تنصيب فرنر في القوّات المسلّحة الألمانية. يقطعان الأميال الثلاثة من المدرسة إلى القرية سيراً على الأقدام.

في محل لبيع الأطعمة المعلبة، يحوم ذباب أسود فوق نصف دستة من الطاولات. يطلب نيومان اثنان طبقين من كبد العجل ويأكلهما، يغمِّس الدَّم مستعملاً لفائف خبز أسمر صغيرة. شفتاه تلمعان. ينتظر فرنر شروحاً: إلى أين هما ذاهبان، إلى أي وحدة سوف ينضم - لكن أي منها ليس بآتٍ. لون الأذرع المثبتة تحت أحزمة كتف العريف وعُرى الياقة، أحمر نبيذي، لكن فرنر لا يستطيع تذكُّر ما يفترض بذلك أن يفيد. كتيبة المشاة المدرَّعة؟ الأسلحة الكيميائية؟ ترفع السَّيدة المسنَّة الأطباق. يخرج نيومان اثنان علبة صغيرة من الصَّفيح من معطفه، ويفرغ ثلاث حبات مدوَّرة على الطاولة، ويبتلعها. ثمَّ يعيد العلبة إلى معطفه وينظر إلى فرنر.

- أقراص مسكنة لألم الظهر، هل تملك نقوداً؟

يهزُّ فرنر رأسه. يخرج نيومان اثنان من جيبه بعض الماركات الألمانية القذرة والمجعَّدة. قبل أن يغادرا، يطلب من السَّيدة أن تجلب اثنتي عشرة بيضة مسلوقة جيداً ويعطي لفرنر أربعة منها. من شولبفورتا يستقلان قطاراً عبر لايبزغ ويترجلان عند محطة تحويل غربَ مدينة «وودج». يتمدَّد جنود من فوج المشاة على طول المصطبة، جميعهم نيام، كما لو أن ثمَّة ساحرة أطلقت عليهم تعويذة. تبدو بزاتهم حائلة اللون شبحية في الظَّلام، كما تبدو أنفاسهم متزامنة، والأثر شبحي ومهول. بين الحين والآخر يتمتم مكبر للصَّوت بأسماء أماكن لم يسبق لفرنر أن سمع بها: جريما، فورزن، جروزنهاين - مع ذلك ما من قطارات تصل أو تغادر، والرجال لا يأتون بأي حركة.

يجلس نيومان اثنان متباعد السَّاقين ويأكل البيض واحدة تلو الأخرى، يراكم القشور على شكل برج داخل قبعته المقلوبة. يهبط الغسق. يصدر شخير مدِّي خافت من أفراد فرقة المشاة النائمين. يحس فرنر كما لو أنه ونيومان اثنان الشَّخصان الوحيدان المستيقظان في العالم.

بعد فترة من هبوط الظلام، تُسمع صفَّارةٌ من الشَّرق ويتحرَّك الجنود الناعسون. يخرج فرنر من شبه الحلم، ويستقيم في جلسته. نيومان اثنان الآن منتصب بالقرب منه، راحتا يديه مكوَّبتان إزاء بعضهما البعض كما لو في محاولة منه للإمساك بكرةٍ من العتمة في تجويف يديه.

توصيلات تجلجل، مجموعة فرامل تطحن عكس اتجاه العجلات، ويبرز قطار من الظلام، يتحرك بسرعة. تصل أولاً قاطرة مغمَّاة، مغطاة بدرع، تزفر نافورة كثيفة من الدخان والبخار. عدد من العربات المغلقة تهدر خلف القاطرة من ثمَّ مدفع رشاش محمي، يجثم جنديان من سلاح المدفعية بجانبه.

جميع العربات التي تتبع عربة المدفعيين هي شاحنات مكشوفة محمَّلة بالناس. البعض واقف، ومعظمهم راكعون. تمر عربتان، ثلاث، أربع. يبدو أن في كل واحدة جداراً من الأكياس على طول المقدمة كمصدٍّ للرياح. تلمع السِّكك الحديدية تحت المصطبة بفتور، وهي ترتد تحت الثقل. تسع شاحنات، عشر، إحدى عشرة شاحنة... جميعها مكتظة. تبدو الأكياس، وهي تمر، غريبة: كما لو أنها منحوتة من طين رمادي. يرفع نيومان اثنان ذقنه: «سجناء».

يحاول فرنر أن يميز الأشخاص عندما تمر العربات: خدٌّ غائر، كتف، عين تبرق. هل يرتدون زياً رسمياً؟ كثيرون منهم يستندون بظهورهم على الأكياس عند مقدمة العربة: يبدون مثل فزاعات تشحن غرباً لتثبَّت في حديقة مريعة.

بعض السجناء، كما يرى فرنر نائمون.

وجه يومض، شاحباً وشمعياً، أذن ملتصقة بأرضية العربة.

يطرف فرنر. تلك ليست أكياساً، وهذا ليس نوماً. في كل سيارة جدار من الجثث المكوَّمة في المقدمة.

عندما يتَّضح أن القطار لن يتوقف، يستقر جميع الجنود من حولهما ويغمضون أعينهم مرة أخرى. يتثاءب نيومان اثنان. يتوافد السُّجناء في عربة بعد أخرى، نهر من الكائنات البشرية ينصبُّ من الليل. ستة عشر سبعة عشر ثمانية عشر: لماذا العد؟ مئات ومئات من الرجال. آلاف. تندفع أخيراً من الظلمة شاحنة أخيرة حيث يتَّكئ الحي على الميت ثانية، متبوعة بظل مدفع آخر وأربعة أو خمسة رماة، وعندئذٍ يرحل القطار.

يخبو صوت محاور العجلات، يطبق الصَّمت مجدداً على الغابة. في مكان ما في ذلك الاتجاه تقع شوبلفورتا بذراها المعتمة، بمن يتبولون ليلاً في أسرتهم وبالمسرنمين والمتنمِّرين. وفي مكان ما خلف ذلك اللوياثان[1] المتأوه تقبع زولفرين. نوافذ منزل الأطفال المجلجلة. يوتا.

يقول فرنر: «كانوا جالسين على موتاهم؟».

يغمض نيومان اثنان عيناً ويميل رأسه مثل رامٍ يصوِّب في الظلمة حيث انسحب القطار.

«بانج»، يقول، «بانج، بانج».

---

(1) وحش بحري توراتي أشير إليه في العهد القديم. (م).

الخزانة

لم يغادر إيتيين مكتبه في الأيام التي تلت وفاة السَّيدة مانِك. تتخيله ماري لور محدَّباً على الأريكة، يهمس ترانيمَ للأطفال ويشاهد أشباحاً تذرع الجدران. خلف الباب، صمته مطبق للغاية حتى أنها تخشى أن يكون قد غادر العالم بمجمله.

- عمي إيتيين؟

ترافق السَّيدة بلانشار ماري لور إلى كاتدرائية سان فانسان لإحياء ذكرى السَّيدة مانِك. تطهو السَّيدة فونتينو كمية من حساء البطاطا تكفي لأسبوع. تجلب السَّيدة جيبو المربَّى، بطريقة ما خبزت السَّيدة رويل كعكة من الفتات.

تنقضي السَّاعات وتمضي. تضع ماري لور طبقاً مليئاً عند باب إيتيين ليلاً، وتأخذ الطبق الفارغ في الصَّباح. تقف وحيدة في غرفة السَّيدة مانِك وتشم رائحة النعناع، الشَّمع، ستة عقود من الإخلاص. خادمة، ممرضة، أم، حليفة، مستشارة، طاهية، أي عشرة آلاف شيء كانت السَّيدة مانِك بالنسبة إلى إيتيين؟ جميعها؟ يغني بحَّارة ألمان أغنية للسكارى في الشَّارع، ويحوك عنكبوت منزلي فوق الموقد شبكة جديدة كل ليلة، تجد ماري لور أن هذه وحشية مضاعفة: أن كل شيء آخر يستمر في العيش، وأن دوران الأرض لا تتوقف، ولو لوهلة، في رحلتها حول الشَّمس.

طفلة مسكينة.

مسكين السَّيد لوبلان.

كما لو أنهم أصيبوا بلعنة.

لو أن والدها يدخل من باب المطبخ. يبتسم للسيدات، يضع راحتيه على خدي ماري لور. خمس دقائق معه، دقيقة واحدة.

بعد أربعة أيام، يخرج إيتيين من غرفته، يصرُّ الدَّرج وهو يهبط، ويرين الصَّمت على النِّسوة في المطبخ. يطلب بصوت رزين المغادرة من الجميع: «احتجت إلى بعض الوقت لأودعها، والآن يجب أن أعتني بنفسي وبابنة أخي. شكراً لكنّ».

حالما ينغلق باب المطبخ يقفل الباب بالمزلاج ويمسك بيدي ماري لور.

- جميع الأضواء مطفأة الآن. جيد جداً. من فضلك، قفي هنا.

تزاح كراس بعيداً. تزاح طاولة المطبخ. يمكنها سماعه يتلمَّس الحلقة في مركز الأرضية: يرتفع الباب الأرضي. ينزل إلى القبو.

- عمي؟ ماذا تحتاج؟

يهتف: «هذا».

- ما هذا؟

- منشار كهربائي.

يمكنها أن تحس بشيء يتوهَّج ساطعاً في جوفها. يشرع إيتيين بصعود الدَّرج، تتبعه ماري لور. الطابق الثَّاني، الثَّالث، الرابع، الخامس السَّادس، انعطافة نحو اليسار نحو غرفة جدها. يفتح أبواب الخزانة الضَّخمة، يخرج ملابس أخيه القديمة، ويضعها على السَّرير. يمد وصلة من حبل خارجاً على سفرة الدَّرج ويصله بالكهرباء. يقول: «سيكون صاخباً».

تقول: «جيد».

يصعد إيتيين إلى مؤخرة الخزانة، ويعوي المنشار عندما يبدأ بالعمل. صوت يتخلل الجدران، الأرض، صدر ماري لور. تتساءل كم من الجيران يسمعونه، وإذا ما أمال ألماني يتناول فطوره في مكان ما رأسه ليصغي.

يقتطع إيتيين مستطيلاً من ظهر الخزانة، ثمَّ ينفذ عبر باب العليَّة من خلفه. يوقف المنشار عن العمل ويتلوَّى عبر الفجوة، ويصعد السُّلم وراءها، ويدخل العليّة. تتبعه. طوال فترة الصَّباح يزحف إيتيين على امتداد أرض العليَّة بالحبال والكمَّاشات وأدوات لا تفهمها أصابعها، يشق طريقه في مركز ما تتخيله مثل شبكة إلكترونية معقَّدة. يتمتم لنفسه، يجلب كراسات سميكة أو مكونات كهربائية من غرف مختلفة في الطوابق السُّفلية. تصدر العليَّة صريراً، يرسم ذباب حلقات كهربائية زرقاء في الهواء. في وقت متأخر من المساء، تهبط ماري لور السُّلم وتنام في سرير جدِّها ويتناهى إلى سمعها صوت عمِّها وهو يعمل في الطابق الأعلى.

عندما تستيقظ، تصرصر طيور خطاف المخازن تحت الأفاريز وتنهمر موسيقى من السَّقف.

أغنية «ضوء القمر» تجعلها تفكِّر في أوراق شجر مرفرفة، وبأشرطة خشنة من الرمل تحت قدميها عند المد المنخفض. تنخفض الموسيقى وترتفع وتعود لتحط على الأرض، وعندها يتحدَّث صوت جدها الفتي الراحل منذ زمن طويل: يبلغ طول أوردة الدم في الجسم البشري ستة وتسعين ألف كيلومتر أيها الأطفال! تقريباً ما يكفي للدوران حول الأرض مرتين ونصف...

ينزل إيتيين درجات السُّلم السَّبع ويخرج بصعوبة من مؤخرة الخزانة، ويمسك يديها بيديه. قبل أن يتحدَّث تعرف ما سيقول:

- طلب مني والدك أن أحافظ على سلامتك.

- أعلم.

- هذا سوف يكون خطراً، إنها ليست لعبة.

- أريد أن أفعلها. كانت السَّيدة لترغب...

- أخبريني. قولي لي ترتيب العملية كاملاً.

- اثنتان وعشرون خطوة من شارع فوبوريل إلى شارع ديستريه. ثمَّ إلى اليمين مسافة ست عشرة مصرفاً. إلى اليسار نحو شارع روبرت سوركوف. تسعة مصارف أخرى إلى المخبز. أذهب إلى النضد وأقول: «رغيف عادي واحد من فضلك».

- كيف سيكون ردها؟

- سوف تتفاجأ لكن يفترض بي أن أقول: رغيف عادي واحد، ومن المفترض أن تقول: وكيف حال عمك؟

- سوف تسأل عني؟

- يفترض بها أن تفعل. وهكذا سوف تعرف أنك راغب في المساعدة. هذا ما اقترحته السَّيدة. جزء من الاتفاقية.

- وأنت سوف تقولين؟

- سأقول: عمي بخير شكراً لك. وسوف آخذ الرغيف وأضعه في حقيبة الظهر وأعود إلى البيت.

- هل سيحدث حتى في الوقت الحاضر؟ من دون السَّيدة؟

- ولم لا؟

- كيف سوف تدفعين؟

- بواسطة بطاقة تموينية.

- هل نملك أياً منها؟

- في الدُّرج في الطابق السفلي. وأنت تملك المال، صحيح؟

- نعم نملك بعض المال، كيف ستعودين إلى البيت؟

- مباشرة.

- عن أي طريق؟

- تسعة مصارف في شارع روبرت سوكورف. يميناً نحو شارع ديستريه. ستة عشر مصرفاً إلى شارع فوبوريل. أعرفه كله، يا عم، لقد استظهرته. ذهبت إلى المخبز ثلاثمئة مرة.

- يجب عليك ألا تذهبي إلى أي مكان آخر. ألا تذهبي إلى الشواطئ.

- سأعود مباشرة.

- هل تعدين؟

- أعدك.

- إذاً اذهبي ماري لور. اذهبي كالريح.

شرق

يستقلون عربات نقل عبر ودج، وارسو، بريست. لأميال، من الباب المفتوح، لا يرى فرنر شيئاً يدل على وجود بشر، ما عدا عربة قطار مقلوبة بجانب السِّكك كل حين، معوجَّة ومتآكلة إثر انفجار ما. جنود يتسلقون بجهد من آن لآخر، ضامرين، شاحبين، كل واحد يحمل صرَّة، بندقية، وخوذة فولاذية. ينامون على الرغم من الصَّخب والبرد والجوع، كما لو أنهم مستميتون كي يظلوا بعيدين عن العالم الواقعي لأطول مدة ممكنة.

صفوف من أشجار الصَّنوبر تقطع سهولاً متصلة معدنية اللون. النهار غائم. يستيقظ نيومان اثنان ويتبوَّل عند الباب ثم يخرج علبة الحبوب من معطفه ويبتلع حبتين أو ثلاثاً. يقول: «روسيا»، ولو أن فرنر ليس في وسعه أن يخمِّن بماذا وسمَ التحول.

يفوح الهواء برائحة الفولاذ.

يتوقَّف القطار عند حلول الغسق، ونيومان اثنان يقود فرنر سيراً على الأقدام عبر صفوف من المنازل المدمرة، روافد خشبية وبلاط من الآجر ممددة في أكوام متفحِّمة. كل الجدران الصَّامدة مخططة بتظليلات متعارضة سوداء من نيران الأسلحة الرشاشة. كانت الظلمة شبه تامة عندما أرسل فرنر إلى نقيب متضخم العضلات يتناول الطعام وحيداً على أريكة تتألَّف من هيكل خشبي ونوابض. في طبق من الصَّفيح، في حضن النقيب،

تتبخر أسطوانة من لحم رمادي مسلوق. يرنو إلى فرنر حيناً من دون أن ينبس بكلمة، ليس في نظرته خيبة بل تفكُّه متعب.

- لا يزيدون حجمهم بأي قدر، أليس كذلك؟

- لا سيدي.

- كم عمرك؟

- ثمانية عشرة سيدي.

يضحك النقيب.

- أكثر شبهاً بفتى في الثانية عشرة.

يقطع دائرة من اللحم ويمضغ لوقت طويل، وأخيراً يمد يده إلى فمه بإصبعين ويقذف بغضروف رفيع. «سوف ترغب في أن تتعرف على العدَّة. وترى إذا كان في وسعك أن تعمل أفضل ممن أرسلوهم سابقاً».

يقود نيومان اثنان فرنر إلى المؤخرة المفتوحة لسيارة «أوبل بليتز» غير مغسولة، شاحنة حقلية تزن ثلاثة أطنان ذات هيكل خشبي على المؤخرة. علب بنزين معوجة ربطت إلى أحد الجانبين. آثار رصاص تركت ثقوباً طائشة على الجانب الثَّاني. يتبدد الغسق الرصاصي. يجلب نيومان اثنان لفرنر فانوساً يعمل على الكيروسين.

- الأدوات في الدَّاخل.

ثمَّ يختفي. ما من شروحات. مرحباً بك في الحرب. عثٌّ بالغ الصِّغر يدوِّم في ضوء الفانوس. التعب يحل في كل عضو من جسم فرنر. هل هذه فكرة الدكتور هاوبتمان عن مكافأة أو عن عقاب؟ يتوق إلى الجلوس على المقاعد في منزل الأطفال ثانية، أن يسمع أغاني السَّيدة إلينا، أن يشعر بالحرارة تنضح من الموقد الكبير، وصوت زيغفريد فيشر المرتفع وهو يتحدَّث بحماسة مفرطة عن الغوَّاصات الألمانية والطائرات المقاتلة، أن

يرى يوتا ترسم عند الطرف القصي للطاولة، تخطط نوافذ مدينتها المتخيلة الألف.

تفوح رائحة داخل صندوق الشَّاحنة: طين، ديزل مسكوب ممزوج بشيء متعفن. ثلاث نوافذ مربعة تعكس ضوء الفانوس. إنها شاحنة بث راديوي. على مقعد على طول الجدار الأيسر يستقر زوج متسخ من وحدات التَّنصت كل واحد بحجم وسادة السَّرير. هوائي قابل للطي يمكن رفعه وخفضه من الداخل. ثلاث سمَّاعات للرأس، منصبٌ للسلاح، خزائن بأقفال. أقلام شمعية، بوصلات، خرائط. وهنا، في صناديق محطمة، ينتظر جهازي مرسل مستقبل اللذين صممها مع الدكتور هاوبتمان.

أن يراها كلها هنا يبعث في نفسه السُّكون، كما لو أنه التفت ووجد صديقاً قديماً يعوم بجانبه في خضَّم البحر. يسحب جهاز المرسل المستقبل الأول من علبته ويفك براغي اللوح الخلفي. عداده مكسور، عدة صمَّامات تالفة، وقابس المرسل مفقود. يفتِّش عن أدوات، مفتاح مقبس، سلك نحاسي. يتطلع من الباب المفتوح عبر المخيم الصَّامت إلى حيث تدوِّم النجوم بالآلاف عبر السَّماء.

هل تنتظر مدرعات روسية هناك؟ يدربون مدافعهم على ضوء الفانوس؟

يتذكَّر جهاز الراديو الكبير «الفيلكو» المصنوع من خشب الجوز لدى السَّيد سيدلر. يحدِّق في الأسلاك، يركِّز، يخمِّن. في نهاية المطاف سوف يكشف النمط عن نفسه.

عندما يرفع بصره لاحقاً، يظهر وهج خفيف خلف صف أشجار بعيدة، كما لو أن شيئاً يحترق هناك. الفجر. على بعد نصف ميل، فتيان اثنان يحملان عصياً يمشيان بتكاسل خلف قطيع ماشية هزيلة. يفتح فرنر جهاز المرسل المستقبل الثاني عندما يظهر عملاق في مؤخرة هيكل الشَّاحنة.

- بفينغ.

يعلّق الرجل ذراعيه الطويلتين بالقضيب العلوي لخيمة الشّاحنة، يحجب القرية المدمرة، الحقول، الشّمس المشرقة.

- فولكهايمر؟

رغيف خبز عادي

يقفان في المطبخ والسَّتائر مسدلة. لا تزال تشعر بابتهاج مغادرة المخبز، ووزن الرغيف السَّاخن في حقيبتها.

يقسم إيتيين الرَّغيف.

«هاكِ». يضع لفافة ورقية صغيرة لا يزيد حجمها عن ودَعة في راحة يدها.

- ماذا تقول؟

- أرقام. الكثير منها. يمكن لأول ثلاثة أرقام أن تكون ترددات، ليس في وسعي التأكد. الرابع - عشرون - ثلاثمئة - قد تكون توقيتاً.

- سنفعل هذا الآن؟

- سوف ننتظر حتى حلول الظَّلام.

يرفع إيتيين الأسلاك عبر المنزل، ناظماً إياها خلف الجدران، يصل واحداً إلى جرس في الطَّابق الثَّالث، تحت طاولة الهاتف، وآخر إلى جرس ثانٍ في العليَّة، وثالث إلى البوابة الرئيسة. جعل ماري لور تجربه ثلاث مرات: تقف في الشَّارع، وتفتح البوابة الخارجية، وتنبعث عميقاً من داخل المنزل رنتان خافتتان.

ثم يبني مخزناً سرياً في خزانة الملابس عبر تركيب لوح إضافي كظهر

للخزانة، مركباً إياه على مسار منزلق فيمكن فتحه من كلا الجانبين. عند الغسق يشربان الشَّاي، ويمضغان الخبز السَّميك المتفتت من مخبز عائلة رويل. عندما تظلم تماماً، تتبع ماري لور عمَّ والدها على الدَّرج، عبر غرفة الطابق السَّادس، وعلى السُّلم نحو العليَّة. يرفع إيتيين الهوائي المتداخل الثقيل على امتداد خط المدخنة. ينقف مفاتيح، وتمتلئ العلية بطقطقة ضعيفة.

- جاهزة؟

يبدو مثل والدها عندما يكون على وشك التَّفوه بأمر سخيف. في ذاكرتها، تسمع ماري لور رجلي الشرطة: اعتِقل النَّاس لأسباب أوهى من هذه. والسيدة مانِك: ألا تريد أن تكون حياً قبل أن تموت؟

- نعم.

ينظف حنجرته. يشغِّل مكبر الصَّوت ويقول: «567. 32. 3011. 50506. 110. 90. 146. 775».

تسير الأرقام، تطير عبر سقوف المنازل، عبر البحر، تطير إلى وجهات لا يعلم أحد بها. إلى إنكلترا، باريس، إلى الموتى.

يحول إلى تردد ثانٍ ويكرر البث. ثالث، ثم يغلق الشيء برمته. تتكتك الآلة وهي تبرد.

- ماذا تعني، يا عم؟

- لا أعلم.

- هل تُترجَم إلى كلمات؟

- أفترض ذلك.

ينزلان السُّلم ويخرجان من الخزانة. ما من جنود ينتظرون في القاعة بأسلحة مسلولة. لا شيء يبدو مختلفاً على الإطلاق. تتذكر ماري لور

سطراً من كتاب جول فيرن: العلم، يا فتاي، مجبول من الأخطاء، لكنها أخطاء من المفيد اقترافها، لأنها تقود، شيئاً فشيئاً، إلى الحقيقة.

يضحك إيتيين وهو يكلم نفسه.

- هل تتذكرين ما قالته السَّيدة مانِك عن الضِّفدع المسلوق؟

- نعم يا عم.

- أتساءل من كان يفترض به أن يكون الضِّفدع؟ هي؟ أم الألمان؟

فولكهايمر

المهندس رجل صموت، لاذعٌ، يدعى فالتر بيرند، بؤبؤا عينيه منحرفان عن موضعيهما. يبلغ السَّائق من العمر ثلاثين عاماً، هناك فجوات بين أسنانه، يدعى نيومان واحد. يعلم فرنر أن فولكهايمر، الرقيب، لا يمكن أن يتجاوز عمره عشرين عاماً، لكنه يبدو في ضوء الفجر الرمادي القاسي في الأربعين من عمره.

يشرح: «الأنصار يضربون القطارات، إنهم منظَّمون، والنقيب يعتقد أنهم ينسقون حملاتهم من خلال البث الإذاعي».

«التقني السابق»، يقول نيومان واحد: «لم يستطع العثور على أي شيء».

«إنها عدَّة جيدة»، يقول فرنر: «سأكون قادراً على تشغيلهما خلال ساعة».

تتدفق رقَّة في عيني فولكهايمر، وتلبث هناك لوهلة. «بفينغ»، يقولها وهو ينظر إلى فرنر: «لا يشبه التقني الأخير في شيء».

ينطلقون. تثب سيارة الأوبل على الطرقات التي ليست إلا ممرات لقطعان الماشية. يتوقفون كلَّ بضعة أميال ويضعون جهاز مرسل مستقبل على رابية ما أو نتوء جبلي. يتركون بيرند ونيومان إثنان النَّحيل الأحول - واحد مع بندقية، والآخر يضع سماعتي رأس. ثم يقودون بضع مئات من الياردات، بما يكفي لتشكيل قاعدة مثلَّث، يحسبون المسافة على طول

الطريق، وفرنر يشغِّل المستقبل الأساسي. يرفع هوائي الشَّاحنة، يضع سماعتي الرأس، ويمسح الطيف الترددي، محاولاً العثور على أي شيء غير مرغوب، أي صوت ممنوع.

على امتداد الأفق المسطح الضَّخم، نيران مضاعفة تبدو أنها تلتهب باستمرار. يركب فرنر معظم الوقت ملتفتاً إلى الخلف، ينظر إلى الأرض التي يغادرونها، عائدين نحو بولندا، عائدين نحو الرايخ.

لا يطلق أحد عليهم النار. تنبعث بضعة أصوات تقطع التشويش، والأصوات التي يسمعها ألمانية. ليلاً، يخرج نيومان واحد علب نقانق صغيرة من صناديق الذَّخيرة، ويلقي نيومان اثنان نكاتاً مملَّة عن العاهرات، إما يتذكرها أو يبتكرها، وفي كوابيس يشاهد فرنر أشكال الفتيان المتجمهرين حول فريدريك، ولو أنه عندما يقترب أكثر، يتحوَّل فريدريك إلى يوتا، وتحدِّق في فرنر بنظرة اتهامية، بينما يرفع الفتيان أطرافها واحداً واحداً.

في كل ساعة يكز فولكهايمر رأسه بمؤخرة الأوبل ويلاقي عيني فرنر. «لا شيء؟».

يهزُّ فرنر رأسه. يعبث بالبطاريات، يفحص الهوائي ثانية، يعيد التَّحقق من الصَّمامات. كان الأمر في شولبفورتا مع الدكتور هاوبتمان لعبةً. يستطيع أن يحزر تردد فولكهايمر، عرف دوماً ما إذا كان مرسل فولكهايمر يبث. هنا لا يعرف كيف أو متى أو أين، أو حتى إذا كانت الإرسالات تُبث، هنا يلاحق الأشباح. كلُّ ما يفعلونه هو إهدار الوقود، يقودون عبر أكواخ تحترق من غير لهب، وقطع مدفعية مطحونة، وقبور من دون شواهد، بينما يمرر فولكهايمر يده الضَّخمة فوق شعره المقصوص قصيراً جداً، يصبح أكثر انزعاجاً مع حلول النهار. من على بعد أميال يسمع قصف أسلحة

ثقيلة، ولا تزال قطارات النقل الألمانية تضرب، مسارات مقوَّسة وعرباتٌ ماشية مقلوبة، تشوِّه جنود الفوهرر وتملأ ضباطه بالغضب.

هل هو من الأنصار، ذلك الرجل المسن الذي يحمل منشاراً يقطع الأشجار؟ ذلك الذي ينحني على محرك تلك السَّيارة؟ ماذا عن أولئك النسوة الثلاث اللاتي يجلبن الماء من النهر؟

يظهر جليد ليلاً، ويلقي بصفائح فضية عبر الريف، وفرنر يستيقظ في مؤخرة الشَّاحنة وأصابعه مهروسة تحت إبطيه، يلتقط أنفاسه ويرى أنابيب المرسل المستقبل تتوهَّج بلون أزرق شاحب. كم سيكون الثلج عميقاً؟ ستة أقدام، عشرة؟ مئة؟

عمق أميال، يفكر فرنر: سوف نقود فوق كل ما كان سابقاً.

الخريف

عواصف تغسل السَّماء، الشَّواطئ، الشَّوارع، وشمس حمراء تغطس في البحر، محرقة جميع واجهات المباني الغرانيتية المتَّجهة غرباً في سان مالو، تنحدر ثلاث سيارات ليموزين العادمات فيها ملفوفة كي تكتم الصوت، في شارع «دو لا كروس» مثل أشباح، وما يقارب من دستة ضباط ألمان، في رفقة رجال يحملون أضواء مسرحية وآلات تصوير سينمائية، يصعدون الدَّرج إلى «باسيتون دي هولاند» ويطوفون على الأسوار في البرد.

من نافذة الطَّابق الخامس، يشاهدهم إيتيين بواسطة تلسكوب نحاسي، عددهم بالمجمل عشرون تقريباً: ضباط من رتبة نقيب ورائد، وأيضاً مقدَّم يمسك معطفه عند الياقة ويومئ نحو حصون على الجزر الخارجية، يحاول واحد من الرجال المجندين أن يشعل سيجارة في الريح، يضحك الآخرون عندما تطير قبعته فوق شرفات الحصن.

عبر الشَّارع، من الباب الرئيس لمنزل كلود ليفيت، تنفجر ثلاث نساء بالضَّحك. مصابيح مضاءة في نوافذ كلود، ولو أن التيار الكهربائي مقطوع عن بقية الشَّارع. شخص ما يفتح نافذة في الطابق الثَّالث ويرمي كأساً صغيرة، فتنزل مدوَّمة مراراً وتكراراً نحو شارع فوبوريل، وتتوارى عن الأنظار.

يوقد إيتيين شمعة، ويصعد إلى الطابق السَّادس. غطَّت ماري لور في النَّوم. يخرج من جيبه لفافة ورقية ويفردها. هو يئس الآن من محاولة فك الشِّيفرة: كان قد دوَّن الأرقام، رتبها في شبكة، جمعها، ضاعفها، لم ينتج عنها شيء، على الرغم من محاولاته. ولأن إيتيين كفَّ عن الشُّعور بالغثيان في الأصائل، ظلَّ بصره صافياً، وقلبه مطمئناً. بالفعل، مر أكثر من شهر منذ أن تكوَّر إزاء الجدار في مكتبه، وابتهل ألا يرى أشباحاً تمشي عبر الجدران متثاقلة. يشعر بالثَّبات عندما تدخل ماري لور عبر الباب الرئيس، حاملة رغيف الخبز، عندما يفتح اللفافة الصغيرة في أصابعه، مقرباً فمه من مكبر الصَّوت، يشعر بأنه حي.

56778.21.4567.1094.467813

ثم الوقت والتردد للبث التالي.

مضت عدة أشهر وهما على هذا المنوال، تصل قصاصات ورقية جديدة داخل رغيف الخبز كل عدَّة أيام، ومؤخراً إيتيين يشغل موسيقى. دوماً ليلاً، وأبداً ليس أكثر من مقطع صغير من أغنية: ستون أو تسعون ثانية على الأكثر. ديبوسي أو رافيل أو ماسينت أو كاربنتيه. يضع مكبر الصَّوت في جرس جهاز الحاكي، كما فعل قبل سنوات، ويدع الأسطوانة تدوِّم.

من يستمع؟ يتخيل إيتيين مستقبلات الموجة القصيرة مموَّهة على هيئة صناديق دقيق الشُّوفان أو مخبَّأة تحت ألواح الأرضية، مستقبلات مدفونة تحت البلاط، أو مخفيَّة داخل أسرَّة الأطفال. يتخيَّل دزينتين أو ثلاثاً من المستمعين يذرعون السَّاحل جيئة وذهاباً - ربما المزيد يقلِّبون في موجات الراديو عند البحر - جهاز القبطان موضوع على سفن حرة تنقل الطماطم أو اللاجئين أو الأسلحة - رجال إنجليز ينتظرون الأرقام لكن ليس الموسيقى، الذين لا بد من أنهم يتساءلون: لماذا؟

يشغِّل هذه الليلة مقطوعة لفيفالدي: «الخريف - آليجرو». تسجيل اشتراه شقيقه من متجر في شارع سان مارغريت، قبل عقود، مقابل خمسة وخمسين سنتيماً.

تتواصل أصوات البيانو القيثاري، تعزف الكمنجات زخارف منمَّقة كبيرة باروكيَّة - يطفح فضاء العليَّة المنخفض والمزوَّى بالصَّوت. بعيداً عن إردواز السَّطح، على بعد شارع وثلاثين ياردة إلى الأسفل، يبتسم اثنا عشر ضابطاً ألمانياً لآلات التَّصوير.

اسمعوا هذا، يفكِّر إيتيين: اسمعوا هذا.

يمسُّ شخص ما كتفه. كان عليه أن يستجمع قواه تجاه الجدار المائل ليتفادى السُّقوط. تقف ماري لور خلفه في قميص نومها.

تهبط نغمات الكمنجات حلزونياً، ثم ترتفع من جديد. يأخذ إيتيين يد ماري لور، ومعاً، تحت السَّطح المنخفض المائل - التسجيل يدوِّم، يبثه جهاز الإرسال فوق الأسوار، تماماً عبر أجساد الألمان، ومنها نحو البحر - يرقصان. يدوِّمها، ترفرف أصابعها عبر الهواء. تنظر في ضوء الشَّمعة، إلى عالم آخر، وجهها مليء بالنَّمش، وفي وسط النَّمش تلك العينان معلَّقتان من دون حراك مثل علب بيوض العناكب. لا تتبعانه، لكنهما لا تفقدانه شجاعته، أيضاً، تبدوان تقريباً أنهما تنظران نحو مكان منفصل، أكثر عمقاً، عالم لا يحتوي إلا على الموسيقى.

جميلة، نحيلة. متناسقة وهي تدوِّم، لن يكون في وسعه مطلقاً أن يخمِّن مع ذلك كيف تعرف ما هو الرقص.

تتواصل الأغنية. يتركها تستمر طويلاً جداً. لا يزال الهوائي مرفوعاً، ربما مرئي على نحو خافت إزاء السَّماء، ربما تشع العليَّة بكاملها أيضاً مثل منارة. لكن في ضوء الشَّمعة، في اندفاعة الكونشرتو العذبة، تعضُّ

ماري لور شفتها السُّفلى، وينبعث من وجهها وهج إضافي، مذكراً إياه بالمستنقعات خلف جدران البلدة، في الأمسيات الشتائية تلك، بعد أن تكون الشَّمس قد غربت لكنها لم تبتلع تماماً، ورقع واسعة من القصب تتلقَّف بركاً حمراء من الضُّوء وتحترق - أماكن اعتاد ارتيادها مع أخيه، قبل ما يبدو كما لو أنها أعمار مضت.

يفكِّر: هذا ما تعنيه الأرقام.

ينتهي الكونشرتو. يواصل دبُّور الطقطقة على امتداد السَّقف. يظلُّ جهاز الإرسال مشغلاً، مكبِّر الصَّوت مثني في جرس جهاز الحاكي الكهربائي، بينما تتبع الإبرة الثُّلم الأبعد. تتنفس ماري لور بصعوبة، مبتسمة.

بعد أن عادت إلى النَّوم، بعد أن أطفأ إيتيين شمعته، يركع لفترة طويلة بجانب سريره. الإصبع العظمي للموت يذرع الشَّوارع في الأسفل، موقفاً مطيَّته بين الحين والآخر ليسترق النَّظر من النَّوافذ. قرون من نار على رأسه ودخان يتسرَّب من منخريه وفي يده الهزيلة، قائمة حفلت مؤخراً بالعناوين. محدِّقاً أولاً في مجموعة الضُّباط الذين يترجلون من سياراتهم نحو القصر.

ثم نحو غرف العطَّار كلود ليفيت المتوهِّجة.

ثم نحو منزل إيتيين لوبلان، المرتفع المعتم.

تجاوزنا يا أيها الفارس، تجاوز هذا المنزل.

زهور عباد الشَّمس

يقودون على طريق مغبرٍّ محاط بأميال من زهور عباد الشَّمس الذَّاوية، طويلة للغاية حتى أنها تبدو مثل أشجار. السِّيقان جفت وتصلَّبت، والوجوه تهتز كرؤوس تصلي، وعندما تهدر الأوبل متجاوزة إياها، يشعر فرنر كما لو أنهم تحت أنظار عشرة آلاف عين سايكولوبية. يوقف نيومان واحد الشَّاحنة، وبيرند ينزع بندقيته ويأخذ جهاز المرسل المستقبل الثاني ويخوض وحيداً في الأدغال لينصبه. يرفع فرنر الهوائي الكبير ويضعه في بقعته المعتادة في صندوق الأوبل وهو يضع سماعتي الرأس.

في السَّيارة، يقول نيومان اثنان: «أنت لم تمارس الجنس يوماً معها أيها العذراء المسن».

يقول نيومان واحد: «اخرس».

– أنت تستمني لتنام ليلاً. تضاجع نفسك. تستمني.

– وهكذا يفعل نصف أفراد الجيش. الألمان والروس على حدٍّ سواء.

– الشَّاب الآري هناك في الخلف قطعاً ممن يفعلون ذلك.

فوق جهاز الناقل يقرأ بيرند الترددات. لا شيء لا شيء لا شيء.

يقول نيومان واحد: «الآري الحقيقي أشقر مثل هتلر، ونحيل مثل جورينج، وطويل مثل جوبلز».

يضحك نيومان اثنان: «اللعنة إذا...».

يقول فولكهايمر: «كفى».

إنه أصيل متأخر. تقدموا طوال النهار عبر هذه المنطقة الغريبة والمقفرة ولم يروا شيئاً سوى زهور عباد الشَّمس. يمرز فرنر الإبرة عبر الترددات، يبدِّل النطاقات، يعيد توليف المرسل المستقبل ثانية، يعمل على تنقية التشويش. يحتشد الهواء به ليل نهار، تشويش أوكراني مشؤوم حزين عظيم يبدو أنه وجد هنا قبل أن يكتشف الإنسان طريقة لسماعه بوقت طويل.

يخرج فولكهايمر من الشَّاحنة بصعوبة، وينزل سرواله ويتبوَّل على الزهور، ويعقد فرنر العزم على تشذيب الهوائي، لكن قبل أن يفعل، يسمع - سيلٌ من الكلمات الروسية، حادة وواضحة ومتوعدة مثل نصل سكين يلمع في الشَّمس. واحد، ستة، ثمانية. تستنفر ألياف جهازه العصبي.

يرفع الصَّوت حتى أقصاه، ويضغط السَّماعات على أذنيه. يأتي ثانية: بوني... فيشكي، شيرو..دوروشو... يتطلع فولكهايمر إليه عبر مؤخرة هيكل الشَّاحنة المفتوحة كما لو أنه يستطيع أن يحس به، كما لو أنه يستيقظ لأول مرة منذ شهور، كما فعل تلك الليلة في الثلج، عندما أطلق هاوبتمان النار من مسدسه، عندما أدركا أن جهازي استقبال فرنر يعملان.

يدير فرنر قرص الموالفة الدقيقة جزئياً، وفجأة يدوي الصَّوت في أذنيه، اثنا عشر، ست عشرة، عشرون، كلام بلا معنى، لغو رهيب، انصبَّ مباشرة في رأسه، إنه أشبه بمد اليد إلى كيس مليء بالقطن والعثور على شفرة في الداخل، كل شيء مستقر وثابت ومن ثم ذلك الشَّيء الخطير، حاد للغاية فلا يسعك الشُّعور به وهو يفتح جلدك، إلا بالكاد.

يخبط فولكهايمر بقبضته الهائلة على جانب السَّيارة كي يصمت كل من نيومان واحد ونيومان اثنان، وفرنر يعيد تحويل القناة إلى بيرند على جهاز المرسل المستقبل البعيد، وبيرند يعثر عليها ويقيس الزاوية ويعيد

تحويلها، وفرنر يستقر في الدَّاخل ليجري العملية الحسابية. المسطرة المنزلقة، حساب المثلثات، الخارطة. عندما يسحب فرنر سماعتيه حول عنقه كان الروسي لا يزال مستمراً في الحديث.

- شمال الشَّمال الغربي.

- كم يبعد؟

فقط أعداد. رياضيات بحتة.

- فقط كيلومتر واحد ونصف.

- هل يبثون الآن؟

يضع فرنر إحدى سماعتي الرأس على إحدى أذنيه. يومئ. يشغل نيومان واحد الأوبل فتهدر وبيرند يعود شاقاً طريقه عبر الزهور حاملاً جهاز المرسل المستقبل الأول، وفرنر يسحب سلك الهوائي ويخرجون عن الطريق، ومباشرة عبر زهور عباد الشَّمس، يخترقونها فيما هم ماضون. يساوي ارتفاع أطولها تقريباً ارتفاع الشَّاحنة، ورؤوسها الكبيرة الجافة تخبط على سطح وجانبي الشَّاحنة.

يراقب نيومان واحد العدَّاد وينادي بالمسافات. يوزع فولكهايمر الأسلحة. بندقيتان من نوع كاريينر كروز 98. الوالتر نصف أوتوماتيكية مع المنظار. بجانبه، يحشو بيرند الخرطوش في مخزن مسدس الماوزر. بونج، ترتطم زهور عباد الشَّمس. بونج بونج بونج. تنحرف الشَّاحنة مثل سفينة في البحر عندما يقودها نيومان واحد برفق فوق الأخاديد.

ينادي نيومان واحد: «ألف ومئة متر»، ويتسلق نيومان اثنان غطاء محرك الشَّاحنة، ويحدق النظر فوق الحقل بمنظار. نحو الجنوب، تفسح الزهور المكان لرقعة مكشوفة مزروعة بالخيار الصَّغير. خلفها، مطوَّق بقذارة جرداء، ينتصب كوخ جميل سقفه من القش وجدرانه من الجص.

- صفّ من القيصوم[1]. نهاية الحقل.

يرفع فولكهايمر منظاره.

- هل من دخان؟

- لا.

- هوائي؟

- لست متأكداً.

- أطفئ المحرك. سنكمل مشياً على الأقدام.

يصمت كل شيء.

يحمل كل من فولكهايمر، نيومان اثنان، وبيرند، أسلحتهم نحو الزهور التي تبتلعهم. يظل نيومان واحد خلف العجلة، فرنر داخل الشّاحنة. ما من ألغام أرضية تنفجر أمامهم. تحيط بالأويل من كل اتجاه، زهور تصرصر على سيقانها، وتومئ بوجوهها الثابتة كما لو في تناغم حزين.

يهمس نيومان واحد: «الملاعين سوف تصعقهم المفاجأة». يهتز فخذه الأيمن صعوداً ونزولاً عدة مرات في الثانية. من خلفه، يرفع فرنر الهوائي عالياً بقدر ما تواتيه الجرأة، ويثبت سماعتي الرأس ويشغل المرسل المستقبل. يقرأ الروسي ما يبدو مثل أحرف أبجدية. به زه كا شه يو مياكي زناك. تبدو كل لفظة أنها تنبعث من السماعات القطنية فقط إلى لأذني فرنر، ثم تتبدد. تهز ساق نيومان واحد المتذبذبة الشّاحنة قليلاً، والشّمس تضطرم عبر بقايا الحشرات التي تلطخ النوافذ، وريح باردة تهبّ فيسمع للحقل كافّة صوت خشخشة.

ألن يكون هناك حراسة؟ خفراء؟ أنصار مسلحون يمشون جانبياً الآن خلف الشّاحنة؟ صوت الروسي من الراديو دبور في كل أذن، زفو كزا

---

(1) نبات عشبي ذو ساق منتصبة ارتفاعها 20-80 سم. (م).

فوكالوف - من يعلم أي رعب يوزع، مواقع القوات، مواعيد قطارات، ربما يعطي لجنود سلاح المدفعية إحداثيات مكان الشَّاحنة الآن - وفولكهايمر يخرج من بين زهور عباد الشَّمس، هدف بشري في أضخم صورة له على الإطلاق، ممسكاً ببندقيته مثل هراوة، يبدو مستحيلاً أن يتمكَّن الكوخ من إيوائه بأي شكل من الأشكال، كما لو أن فولكهايمر سوف يبتلع المنزل وليس العكس.

أولاً تسمع الطلقات عبر الهواء من حول سماعتي الرأس. بعد جزء من الثانية، تسمع عبر سماعتي الرأس بالذَّات، صوتها مرتفع للغاية حتى أن فرنر كاد يمزقهما عن أذنيه. من ثم حتى التشويش توقف، والصَّمت في سماعتي الرأس يبدو مثل شيء ضخم يتحرك عبر الفراغ، سفينة هوائية شبحية تهبط ببطء.

يفتح نيومان واحد صاعق بندقيته ويغلقه.

يتذكَّر فرنر جثومه قرب مهده مع يوتا بعد ينهي الرجل الفرنسي بثه، النوافذ تخشخش عند مرور قطار للفحم، صدى البرنامج الإذاعي يبدو أنه يبرق في الهواء للحظة، كما لو أنه تمكَّن من التقاطه وتركه يعوم بين يديه.

يعود فولكهايمر ووجهه ملطَّخ بالحبر. يرفع إصبعين ضخمين إلى جبهته، يدفع خوذته إلى الخلف، وفرنر يمكنه أن يرى أن ذلك ليس حبراً.

يقول: «أحرقوا المنزل، بسرعة. لا تهدروا الوقود». ينظر إلى فرنر. يقول بصوت رقيق، كئيب تقريباً: «أنقذ المعدَّات».

يخلع فرنر سماعتي الرأس، ويرتدي خوذته. بسرعة ينقض عبر زهور عباد الشَّمس. يقفز بصره قفزات بطيئة كما لو أن توزانه قد اضطرب. يهمهم نيومان واحد أمامه وهو يحمل صفيحة وقود عبر السُّويقات. يخترقون زهور عباد الشَّمس نحو الكوخ، يخطون عبر نبات البوصير،

جزر بري، أصبحت كل الأوراق بنية اللون بسبب الصَّقيع. بجانب الباب الرئيس يستلقي كلب في الغبار، ذقنه على قدميه، ولوهلة يفكِّر فرنر: إنه نائم فحسب.

الرجل الميت الأول على الأرض وذراعه عالقة تحته وفوضى قرمزية اللون حيث يجب أن يكون رأسه. على الطاولة رجل ثان: منهار كما لو أنه نائم على أذنه، تظهر حافات جرحه فقط، أرجواني فاقع. تكثف الدَّم المنتشر على الطاولة مثل شمع مبرَّد. يبدو أسود اللون تقريباً. من الغريب أن تفكر في أن صوته لا يزال مرفرفاً عبر الهواء، يعبر البلاد، ويزداد ضعفاً مع كل ميل.

بنطال ممزق، ستر متسخة، يرتدي أحد الرجلين بنطالاً بحمَّالات. لا يرتديان بذلتين رسميتين.

يخلع نيومان واحد ستارة مصنوعة من كيس بطاطا ويحملها إلى الخارج، وفرنر يمكنه سماعه يرشها بالوقود. يسحب نيومان اثنان الحمَّالات عن الميت الثَّاني، ويأخذ بعض جدائل البصل من العتبة ويحزمها إلى صدره ويغادر.

في المطبخ، نصف قالب جبن صغير. بجانبه سكين ذات مقبض خشبي باهت اللون. يفتح فرنر خزانة مفردة. في داخلها وكرٌ من الخرافات: جرار سوائل داكنة اللون، أدوية مسكنة للألم غير موسومة، دبس السُّكر، ملاعق مائدة ملتصقة بالخشب، شيء ما معلَّم، باللاتينية، بيلَّادونا، شيء آخر معلَّم بحرف إكس X.

جهاز الإرسال سيء، عالي التردد: ربما أنقذ من مدرَّعة روسية. يبدو أفضل بقليل من حفنة من المكونات أقحمت داخل صندوق. الهوائي المزروع في الأرض والمنصوب بجانب الكوخ، ربما أرسل البث على بعد ثلاثين ميلاً، كحد أقصى.

يخرج فرنر، ينظر إلى المنزل، أبيض عظمي في الضُّوء المتلاشي. يفكر في خزانة المطبخ ومكوناتها الغريبة. الكلب الذي لم يؤدِّ عمله. ربما كان هؤلاء الأنصار متورطين في أعمال سحر الغابات الأسوَد، لكن لم يكن عليهم أن يشغلوا أنفسهم بسحر الراديو الأعظم. يقذف بندقيته ويحمل جهاز الإرسال الكبير المحطم - أسلاك التوصيل، مصدحه الرديء - عبر الزهور إلى سيارة الأوبل، محركها يشتغل، نيومان اثنان وفولكهايمر الآن في السَّيارة. يسمع الدكتور هاوبتمان: عمل العالِم يتحدد من أمرين: مصالحه ومصالح زمنه.

كل شيء أفضى إلى هذا: موت والده، كل تلك السَّاعات المتواصلة مع يوتا يصغيان إلى الراديو الكريستالي في العليَّة، يرتدي هانز وهيربرت شاراتهما العسكرية الحمراء تحت قمصانهما كي لا تراها السَّيدة إلينا، أربعمئة ليلة مظلمة، متلألئة أمضاها في شولبفورتا يركِّب مرسلات/مستقبلات من أجل الدكتور هاوبتمان. دمار فريدريك. كل شيء يفضي إلى هذه اللحظة عندما يكوِّم فرنر عدَّة القوزاق العشوائية في هيكل الشَّاحنة، ويجلس مسنداً ظهره إلى المقعد ويشاهد الضُّوء المنبعث من احتراق الكوخ يرتفع فوق الحقل. يصعد بيرند إلى جانبه، البندقية في حجره، ولا يكلِّف أحدهما نفسه عناء إغلاق الباب الخلفي عندما تهدر الأوبل.

أحجار

استدعي الرقيب الأول فون رومبل إلى عنبر في ضواحي مدينة «ودج». إنها أولى أسفاره بعد أن أنهى علاجه في شتوتغارت، ويشعر كما لو أن كثافة عظامه قد نقصت. ستة حراس في خوذ فولاذية ينتظرون خلف سلك شائك. كثير من خبطات الكعوب ثم تحية تتبع. يخلع معطفه ويرتدي بزة طيار ذات سحاب من دون جيوب. تنفتح ثلاثة أقفال. عبر باب، أربعة رجال مجنَّدين يرتدون بزة طيار مشابهة يقفون خلف طاولات مثبت على كل واحدة منها مصباح الجوهري، خشب رقائقي مثبَّت على النوافذ.

يشرح البروتوكول جندي أول[1] داكن الشَّعر. رجل يحدِّق في الأحجار في مواضعها بإمعان. وثانٍ يغسلها واحداً واحداً في غسول من مادة منظِّفة. ثالث سوف يزنها، معلناً عن وزنها، ويمررها إلى فون رومبل، الذي يتفحَّص الحجر بواسطة عدسة مكبرة ويعلن عن درجة الصَّفاء - متضمنة نظافة العدسة بعض الشَّيء، تقريباً. رجل خامس يسجل التخمينات، الجندي الأول.

- سوف نعمل في نوبات مدتها عشر ساعات حتى ننتهي.

يومئ فون رومبل. يشعر كما لو أن عموده الفقري قد ينكسر.

---

(1) Gefreite: أول رتبة عسكرية يُرفع إليها الجندي الألماني، وهي أقل من عريف. (م).

يجر الجندي الأول كيساً مقفلاً من تحت طاولته، يسحب سلسلة من رقبة الكيس، ويقلبه على صينية مبطنة بالمخمل. تراق آلاف الجواهر: زمرد، ياقوت أزرق، ياقوت أحمر، حجر السيترين، زبرجد، كريسوبيرل. تلمع فيما بينها مئات الماسات الصَّغيرة، معظمها لا تزال في قلائد، أساور، أزرار أكمام، وأقراط. يحمل الرجل الأول الصَّينية إلى محطته، يضع خاتم خطوبة في ملزمته، ويرفع الأسنان بملقط صغير. تخرج الماسة بتمامها. يعد فون رومبل الأكياس الأخرى تحت الطاولة: تسعة. «أين»، يبدأ بالسؤال: «هل كلها...».

لكنه يعلم من أين أتت.

كهف

بعد شهور على وفاة السَّيدة مانِك، لا تزال ماري لور تنتظر سماع صوت المرأة المسنة تصعد الدَّرج، أنفاسها المجهدة، تشدُّقها بالكلام. يا والدة يسوع، يا طفلتي، الطقس بارد للغاية! لا يأتي أبداً.

حذاء عند قدم السَّرير، تحت المجسَّم، عصا في الزاوية. تنزل إلى الطابق الأول، حيث حقيبة ظهرها معلَّقة على وتدها. إلى الخارج. اثنتان وعشرون خطوة في شارع فوبوريل. ثم يميناً نحو المصارف الستة عشر. تنعطف يساراً على شارع «روبرت سوركوف»، تسعة مصارف أخرى نحو المخبز.

- من فضلك رغيف واحد عادي.

- وكيف حال عمّك؟

- عمي بخير، شكراً لك.

في بعض الأحيان يحوي الرغيف على لفافة بيضاء، وفي أحيانٍ أخرى لا يحوي شيئاً. تمكَّنت السَّيدة رويل أحياناً من الحصول على بعض المواد من أجل ماري لور: الملفوف، الفلفل الأحمر، الصَّابون. تعود إلى التَّقاطع مع شارع «ديستريه». بدلاً من أن تنعطف إلى اليسار نحو شارع فوبوريل، تواصل ماري لور المضي قدماً. خمسون خطوة نحو الأسوار، مئة تقريباً على طول قاعدة الجدران، إلى مدخل الزُّقاق الذي يزداد ضيقاً على الدوام.

تعثر أصابعها على القفل، تسحب من معطفها المفتاح الحديدي الذي أعطاها إياه هارولد بازان قبل سنة. الماء ثلجي ويصل حتى قصبتي ساقيها، تتخدَّر أصابع قدميها على الفور. لكن الكهف نفسه يحوي كونه الخاص الأملس، وفي داخل هذا الكون تدور مجرَّات لا تعد: هنا، في النصف المقلوب لقوقعة بلح البحر، يعيش برنقيل وصدفة صغيرة مغزلية يشغلها سرطان صغير. وعلى قوقعة هذا السرطان؟ برنقيل أصغر أيضاً. وعلى ذلك البرنقيل؟

في الصندوق الرطب الذي يشكله وجار الكلب القديم، يغمر صوت البحر جميع الأصوات الأخرى، تميل نحو الحلزونات كما لو أنها نباتات في حديقة. من مد إلى مد، لحظة إلى لحظة: تأتي لتسمع المخلوقات، تشفط وتنزاح وتصر، لتفكر في والدها في زنزانته، وفي السَّيدة مانِك في حقل زهور «دانتيل الملكة آن»، وفي عمها محتجزاً طوال عقدين داخل منزله.

ثم تتلمس طريق عودتها إلى البوابة وتقفلها من خلفها. التيار الكهربائي مقطوع معظم الوقت ذلك الشِّتاء، يصل إيتيين زوجاً من البطاريات إلى جهاز الإرسال، فيمكنه أن يبث عندما يكون التيار الكهربائي مقطوعاً. يحرقان صناديقَ وأوراقاً وحتى أثاثاً عتيقاً كي يشعرا بالدِّفء. تجرُّ ماري لور البساط الثَّقيل من أرضية شقَّة السَّيدة مانِك إلى الطابق السَّادس، وتضعه فوق لحافها. منتصف الليل تصبح غرفتها شديدة البرودة أحياناً، حتى أنها تكاد تصدِّق أن في وسعها سماع صوت الصَّقيع وهو يستقر على الأرض.

كل وقع أقدام في الشَّارع يمكن أن يكون لشرطي، أي دمدمة محرك قد تكون كتيبة أرسلت لأخذهما بالقوة.

في الطَّابق العلوي يعاود إيتيين البث، وتفكِّر: يجب أن أقف بنفسي عند الباب الأمامي، يمكن أن أؤخرهم عنه بضع دقائق فيما لو جاؤوا. لكن البرد قارس. تفضل البقاء في السَّرير تحت ثقل البساط وتحلم بأنها في المتحف، تجر أصابعها على طول جدران تتذكرها، وتشق طريقها مجتازة «الغراند غاليري» حيث يرجع الصَّدى، نحو مكتب حفظ المفاتيح. كل ما عليها فعله هو اجتياز الأرضية المبلطة لتنعطف نحو اليسار وهناك سوف يكون أبي خلف النضد، واقفاً إلى قطَّاعة المفاتيح.

سوف يقول: لماذا تأخرت أيها الطائر الأزرق؟

سوف يقول: لن أتركك أبداً، ليس بعد مليون سنة.

صيد

في شهر كانون الثاني من عام 1943، يعثر فرنر على بث آخر غير قانوني آتٍ من بستان سقطت عليه قذيفة، فانقلعت معظم الأشجار نصفين. بعد أسبوعين، يجد ثالثاً، ثم رابعاً. كل اكتشاف جديد يبدو فقط تنويعاً على الذي سبقه: المثلث ينطبق، تنكمش الأضلاع بشكل متزامن، تتقارب الرؤوس، إلى أن تختزل إلى نقطة واحدة، إسطبل أو كوخ أو قبو مصنع أو ثمَّة معسكر مقزز في الجليد.

- هو يبث الآن؟

- نعم.

- في ذلك الكوخ؟

- هل ترى الهوائي على طول الجدار الشرقي؟

يسجِّل فرنر ما يقوله الأنصار على شريط مغنطيسي كلما أمكنه ذلك. يكتشف أن الجميع يحبون سماع أنفسهم يتحدثون. غطرسة، مثل القصص القديمة. يرفعون الهوائي عالياً جداً، يبثون لفترة طويلة وفي ظنهم أن العالم يوفر الأمان والعقلانية في حين أنه، بالتأكيد، لا يفعل.

يرسل النقيب رسالة مفادها أنه مفتون بنجاحهم، يعد بإجازات، بشرائح لحم، بالبراندي، طوال فصل الشتاء تجوب سيارة الأوبل أصقاعاً

محتلة، تنبعث الحياة في مدن دونت يوتا أسماءها في سجل الراديو: براغ، مينسك، ليوبليانا.

أحياناً تمر الشَّاحنة بمجموعة من السُّجناء، ويطلب فولكهايمر من نيومان واحد أن يبطئ. يجلس باستقامة شديدة، باحثاً عن أي رجل في مثل حجمه. عندما يرى واحداً، يطرق على لوحة القيادة. يفرمل نيومان واحد ويخوض فولكهايمر في الثلج، يتحدث إلى الحارس، ويتقدَّم وسط السجناء، مرتدياً قميصاً فقط ليقيه من البرد كعادته.

«بندقيته في الشَّاحنة»، سيقول نيومان واحد. «لقد ترك بندقيته اللعينة هنا».

أحياناً يكون بعيداً جداً. أوقات أخرى يسمعه فرنر تماماً. «اخلعه»، يقوله فولكهايمر وأنفاسه تنتشر أمامه مثل الدخان، وتقريباً في كل مرة، الروسي الضخم سوف يفهم. اخلعه. فتى روسي طويل وضخم له وجه شخص لم يبق من شيء على الأرض يمكن أن يكون مفاجئاً له. فيما عدا هذا ربما: عملاق آخر يتقدم نحوه.

وهكذا ينجح بالحصول على قفازات، قميصٍ صوفي، معطف رث. فقط عندما يطلب أحذيتهم تمتقع وجوههم: يهزُّون رؤوسهم، يرفعون بصرهم أو يخفضونه، يدورون عيونهم مثل أحصنة فزعة. يفهم فرنر أن فقدانهم أحذيتهم يعني أنهم سيموتون. لكن فولكهايمر يقف وينتظر، رجل ضخم إزاء رجل ضخم، ودوماً ينهار السَّجين. يقف بجواربه التالفة في الثلج الموطوء ويحاول أن ينظر في أعين السجناء الآخرين، لكن ما من أحد سينظر إليه. يتناول فولكهايمر عدة أشياء، يحاول أن يقيسها، يعيدها إذا لم تكن على مقاسه. ثم يعود إلى الشَّاحنة، ونيومان واحد يدير محرك الأوبل.

ثلج يتكسر، قرى تحترق في الغابات، ليالٍ شديدة البرودة إلى درجة

أنها لا تثلج - يمثل ذلك الشتاء فصلاً غريباً ومسكوناً، يطوف فرنر في أثنائه الترددات، كما اعتاد أن يطوف الأزقة مع يوتا، ساحباً إياها في العربة عبر مستعمرات زولفرين. يتجسّد صوت من التشوه في سماعتي الرأس، ثم يختفي، ويمضي باحثاً عنه. يفكر فرنر عندما يجده ثانية: هناك، هناك. شعور مثل إغماض عينيك متلمساً طريقك على امتداد خيط بطول ميل إلى أن تعثر أظافرك على الكتلة البالغة الصغر لعقدة.

أحياناً تمر أيام بعد سماع أول بث قبل أن يقع فرنر على التالي، هذا يقدم له مسألة كي يحلها، شيء ليشغل عقله به: بالتأكيد أفضل من القتال في خندق متجمد كريه الرائحة، مليء بالقمل، كما قاتل المدربون الكبار في السن في شولبفورتا في الحرب الأولى. هذه أكثر نظافة، أكثر ميكانيكية، حرب شنت عبر الجو، غير مرئية، وخطوط الجبهة في كل مكان. أليس هناك نوع من البهجة الساحرة في مطاردتها؟ تثب الشّاحنة عبر الظلمة، الإشارات الأولى لهوائي عبر الأشجار؟

أسمعك.

إبر في كومة قش. أشواك في مخلب الأسد. يعثر عليها، وفولكهايمر ينتزعها.

يقود الألمان طوال الشتاء خيولهم وزلاجاتهم ومدرعاتهم وشاحناتهم، على الطرق نفسها، يرصّون الثلج، محولين إياه إلى إسمنت ثلجي زلق، ملطخ بالدم. وعندما يزف شهر نيسان أخيراً، تنبعث منه رائحة النشارة والجثث، تنزاح جدران الوهاد الثلجية، بينما يظل الثلج على الطرقات ثابتاً بعناد، شبكة منيرة ضروس من الاجتياح: سجل لمحنة روسيا القاسية. ذات ليلة يعبرون جسراً على نهر «الدنيبر» تضيء قبب وأشجار كيف المزهرة قدماً، ورماد يهب في كل مكان، ومومسات يجتمعن في الأزقة.

في مقهى، يجلسون على مسافة طاولتين من جندي من كتيبة المشاة، لا يفوق فرنر عمراً. يحدق في جريدة بمقلتين مرتعشتين، ويرتشف القهوة ويبدو متفاجئاً بشدة. مندهشاً.

فرنر لا يمكنه التوقف عن تفحصه. أخيراً ينحني نيومان واحد قدماً ويقول:

- هل تعلم لماذا يبدو كذلك؟

يهزُّ فرنر رأسه.

- الصَّقيع قضم جفنيه. وغد مسكين.

البريد لا يصلهم. تمر أشهر وفرنر لم يكتب إلى أخته.

الرسائل

تقضي سلطات الاحتلال بتثبيت قائمة بأسماء المقيمين على باب كل منزل:

السَّيد إيتيين لو بلان العمر 62 عاماً.

الآنسة ماري لور لو بلان العمر 15 عاماً.

تعذِّب ماري لور نفسها بأحلام اليقظة، عن ولائم على موائد طويلة: أطباق كبيرة من شرائح خاصرة الخنزير، تفَّاح محمَّص، موز فلامبيه، أناناس مع القشدة المخفوقة.

ذات صباح من صيف عام 1943 تسير إلى المخبز تحت رذاذ مطر خفيف. يمتد الطابور خارج الباب. عندما تصل ماري لور أخيراً إلى مقدمة الطابور، تمسك السَّيدة «رويل» بيديها وتتحدث بصوت منخفض:

– اسألي إذا كان في وسعه أيضاً أن يقرأ هذه.

تحت الرغيف تأتي قصاصة ورقية مطوية. تضع ماري لور الرغيف في حقيبة الظهر وتضم الورقة في قبضتها. تمرر بطاقة التموين، تجد طريقها مباشرة إلى البيت، وتقفل الباب من خلفها.

يخطو إيتيين متثاقلاً إلى الطابق الأرضي.

– ماذا تقول، يا عمي؟

- إنها تقول: السَّيد «دروجيه» يريد أن تعرف ابنته في سان كولومب أنه يتماثل للشفاء.

- قالت إنها مهمة.

- ماذا يعني هذا؟

تنزل ماري لور الحقيبة وتمد يدها إلى الداخل وتمزق قطعة من رغيف الخبز. تقول: «أظن أنها تعني أن السَّيد «دروجيه» يريد أن تعلم ابنته أنه بخير».

يرد خلال الأسابيع التالية عدد آخر من المكاتيب: ولادة في سان فانسان، جدة تحتضر في لا مار، السَّيدة «جاردينيه» في «لا رابينيه» ترغب في أن يعلم ابنها أنها تغفر له. إذا كانت رسائل سرية تتربص داخل تلك الرسائل الخطية - إذا كانت «أصيب السَّيد «فايو» بجلطة ورحل بسلام» تعني «فجروا ساحة التحويل في رين» - فليس في وسع إيتيين القول. ما يهم هو أن الناس لا بد من أنهم يصغون، أن مواطنين عاديين لا بد من أنهم يملكون أجهزة راديو، ويبدو أنهم في حاجة إلى أن يتبادلوا سماع أخبار بعضهم الآخر. هو لم يغادر أبداً منزله، ولم يرَ أحداً، ما عدا ماري لور، ومع ذلك، بطريقة ما، وجد نفسه مركز ربط لشبكة معلومات.

يفتح مكبر الصوت ويقرأ الأرقام، ثم الرسائل. يبثها عبر خمس مجموعات مختلفة، يعطي التعليمات للبث التالي، ويشغل قليلاً من تسجيل قديم. غالباً ما يستغرق الأمر كله ست دقائق. طويل جداً، طويل جداً بالتأكيد.

ومع ذلك لا يأتي أحد. الجرسان لا يرنان. ما من دوريات ألمانية تأتي تخبط على الدرج لتطلق الرصاص على رأسيهما.

معظم الليالي، تطلب ماري لور من إيتيين أن يقرأ لها رسائل والدها، على الرغم من أنها استظهرتها. الليلة يجلس على حافَّة سريرها.

رأيت اليوم شجرة بلوط تتخفَّى في هيئة شجرة كستناء.

أعرف أنك ستقومين بالأمر الصَّائب.

إذا تمنيت يوماً أن تفهمي، انظري داخل منزل إيتيين، داخل المنزل.

- ماذا تظن أنه يعني بكتابة داخل المنزل مرتين؟

- تحدَّثنا في هذا مرات عديدة، ماري.

- ماذا تظن إنه يفعل الآن؟

- نائم يا طفلتي، أنا واثق من ذلك.

تنقلب على جنبها، ويشد حاشية لحافها على كتفيها، ويطفئ الشَّمعة ويحدق في سطوح المجسَّم المنمنمة والمداخن عند قدم سريرها. ترده ذكرى: كان إيتيين في ميدان شرق المدينة مع أخيه. كان الفصل صيفاً عندما بدأت اليراعات بالظهور في سان مالو، ووالدهما كان شديد الحماس، يصنع شباكاً ذات مقابض طويلة لولديه ويعطيهما أوانيَ مع أسلاك ليثبتوها عالياً، ركض إيتيين وهنري عبر العشب الطويل فحامت اليراعات مبتعدة عنهما، تضيء وتنطفئ وتبدو أنها ترتفع دوماً تماماً بعيداً عن متناولهما، كما لو أن الأرض كانت تحترق، و تلك الشرارات أطلقتها خطواتهما.

قال هنري إنه أراد أن يضع الكثير من الخنافس في نافذته، فيمكن للسفن أن ترى غرفة نومه على بعد أميال.

إذا كان يوجد يراعات هذا الصَّيف، فإنها لن تأتي إلى شارع فوبوريل. يبدو الآن أنه لا يوجد سوى ظلال وصمت. الصَّمت فاكهة الاحتلال، إنه يعلق في الأغصان، يتشرَّب من المزاريب. غادرت السَّيدة «جيبو» والدة صانع الأحذية، البلدة، كما فعلت السَّيدة بلانشار العجوز. الكثير من النوافذ أصبحت معتمة. كما لو أن المدينة تحولت إلى مكتبة بكتب

مخطوطة بلغة مجهولة، المنازل رفوف كبيرة من مجلدات غير مقروءة، المصابيح جميعها مطفأة.

لكن هناك الآلة في العلية تعمل ثانية. شرارة في الليل.

ينبعث صوت قرقعة خفيف من الزقاق، وإيتيين يحدّق عبر مصاريع غرفة نوم ماري لور، نزولاً مسافة ستة طوابق، ويرى شبح السَّيدة مانِك واقف هناك في ضوء القمر. تمد يداً، وعصافير دوري تحط واحداً تلو الآخر على ذراعيها، وتدسها جميعاً في معطفها.

لودونفييل

تتألق جبال البيرنيه. يقف قمر منذَّب على ذراها كما لو على خازوق. يستقل الرقيب الأول فون رومبل سيارة عبر ضوء القمر البلاتيني إلى مفوضية ويقف مقابل نقيب شرطة يسحب باستمرار سبابة وإصبع يده اليسرى الوسطى، عبر شاربه المعتبر.

كان الشُّرطي الفرنسي قد أوقف شخص ما سطا على شاليه متبرع بارز تربطه علاقة بمتحف التاريخ الطبيعي في باريس، والسارق أوقف وهو يحمل حقيبة سفر مليئة بالأحجار الكريمة.

ينتظر وقتاً طويلاً. يتأمل النقيب أظافر يده اليسرى، ثم اليمنى، ثم اليسرى مجدداً. يلم بفون رومبل هذه الليلة وهن شديد، مسبب للغثيان، يقول الطبيب إنَّ العلاج انتهى، وإنهم قاموا بهجومهم على الورم والآن عليهم الانتظار، لكن في بعض الصَّباحات لا يمكنه أن يجلس باستقامة بعد أن ينهي ربط شريطتي حذائه.

تصل سيارة. يخرج النقيب لتحيتها. يشاهد فون رومبل من خلال النَّافذة.

من المقعد الخلفي، يُخرج شرطيان رجلاً ضعيف الهيئة في بذلة لونها بيج وكدمة أرجوانية اللون تامة حول عينه اليسرى. مغلول اليدين. لطخ من الدم على ياقته. كما لو أنه أنهى للتو أداء دور الشِّرير في فيلم ما. يرافق

رجلا الشُّرطة السَّجين إلى الدَّاخل، بينما يأخذ النقيب حقيبة من صندوق السَّيارة.

يخرج فون رومبل قفازيه الأبيضين من جيبه. يغلق النقيب باب مكتبه. يضع الحقيبة على مكتبه، ويسحب ستائره المعدنية. يميل غطاء مصباح المكتب. من غرفة في مكان ما في الخلف، يمكن لفون رومبل سماع صوت باب قبو ينغلق. من حقيبة اليد، يخرج النقيب دفتر عناوين، كومة رسائل، وعلبة بودرة نسائية. ثم يقتلع القعر المستعار متبوعاً بست حزم مخملية.

يفكها واحدة تلو أخرى. تحتوي الأولى على ثلاث قطع باهرة من الزمرد المصري: زهرية اللون، بدينة، سداسية الشَّكل. في داخل الثانية عنقود وحيد من حجر الأمازون أزرق مخضر اللون، محزز برفق بالأبيض. في داخل الثالثة ماسة على شكل إجاصة.

تثب رعشة في أنامل فون رومبل. يسحب النقيب من جيب عدسة مكبرة، تسطع نظرة جشع صرف على وجهه. يتفحص الماسة طويلاً، مقلباً إياها. تبحر رؤى عبر عقل فون رومبل عن خزائن متحف الفوهرر اللماعة، مظلات تحت الأعمدة، جواهر خلف زجاج، وشيء آخر أيضاً: قوة خائرة، مثل كهرباء خفيفة، تنبعث من الحجر. هامساً له، واعداً أن يمحو مرضه.

أخيراً يرفع النقيب بصره، تخلِّف عدسته المكبرة حلقة زهرية اللون حول عينه. المصباح يرمي بوهج على شفتيه النَّديتين. يعيد الجوهرة على المنشفة.

على جهة المكتب الأخرى، يلتقط فون رومبل الماسة. تماماً الوزن الصَّحيح. برودتها تصل أصابعه، حتى عبر قطن القفازات، مشبعة بشدة بالأزرق عند حافاتها.

هل يصدق؟

يكاد دوبون يرى ناراً في داخل الحجر. لكن والعدسة إلى عينه، يمكن لفون رومبل أن يرى أن الحجر مطابق لذلك الذي تفحَّصه في المتحف منذ سنتين. يعيد وضع النسخة المطابقة على المكتب.

«لكن على الأقل»، يقول النقيب بالفرنسية خافضاً وجهه: «علينا أن نفحصها باستخدام أشعة إكس، أليس كذلك؟».

– افعل ما تريد، بكل ما تحمله الكلمة من معنى. سوف آخذ تلك الرسائل، من فضلك.

يصل إلى فندقه قبل منتصف الليل. اثنان مزيفان. هذا تقدُّم. اثنان وُجدا، ويجب العثور على اثنين آخرين، ولا بد من أن يكون واحد منهما حقيقياً. على العشاء، يطلب خنزيراً برياً مطهواً مع فطر طازج. وزجاجة من نبيذ البوردو. مثل هذا الأشياء تظل مهمة لاسيما في زمن الحرب، هي ما يميز الرجل المتمدن عن الهمجي.

الفندق عرضة للتيارات الهوائية وغرفة الطَّعام فارغة، لكن النَّادل ممتاز. يصبُّ برشاقة ويبتعد. ما أن يصبح في الكأس، داكناً بلون الدم، يبدو النبيذ تقريباً كما لو أنه كائن حي. يستمتع فون رومبل بمعرفة أنه الشَّخص الوحيد في العالم الذي سوف يحظى بتذوقه قبل أن ينتهي.

رمادي

كانون الأول عام 1943. البرد يغرق المنازل مثل سيل. الغابة الوحيدة المتبقيَّة للحرق خضراء، والمدينة بأسرها تعبق برائحة دخان الخشب. سائرة إلى المخبز، تشعر ماري لور، في الخامسة عشرة من عمرها، ببرد لم تشعر به في حياتها. داخل البيت أفضل بقليل. ندف ثلج طائشة تبدو أنها تنجرف عبر الغرف، تهبُّ عبر الفجوات في الجدران.

تصغي إلى وقع أقدام عمها عبر السَّقف، وصوته - 310 1467 507 2222 576881 - ومن ثم أغنية جدِّها، «ضوء القمر»، تتمدد فوقها مثل ضباب أزرق.

تمر طائرات فوق المدينة ببلادة على ارتفاع منخفض. تبدو أحياناً قريبة جداً حتى أن ماري لور تخشى من أنها قد تحف بالأسطح، وترتطم بطونها بالمداخن. لكن ما من طائرات تتحطم، ما من منازل تنفجر، لا يبدو أن شيئاً يتغير على الإطلاق، فيما عدا أن ماري لور تكبر: لم يعد في وسعها ارتداء أي قطعة من الثياب التي حملها والدها إلى هنا في الحقيبة قبل ثلاث سنوات. وحذاؤها ضيِّق، أخذت بارتداء ثلاثة أزواج من الجوارب وخف إيتيين القديم المزين بشرَّابة.

تقول الشَّائعات إن الموظفين الأساسيين فقط، إضافة إلى الذين لديهم أسباب طبية، سوف يسمح لهم بالبقاء في سان مالو. يقول إيتيين: «نحن

لن نغادر. ليس ونحن ربما نقوم أخيراً بعمل مفيد. إذا رفض الطبيب منحنا تقارير طبية، سوف ندفع لهم بطريقة أخرى».

تمضي فترات من يومها غارقة في عوالم الذكريات: الانطباعات الباهتة عن العالم البصري قبل أن تبلغ السَّادسة، عندما كانت باريس مثل مطبخ فسيح، أهرامات من الملفوف والجزر في كل مكان، نصب الخبازين تفيض بالحلويات، السَّمك مكدَّس مثل الحطب في أكشاك بائعي السَّمك، السَّواقي مغمورة بحراشف فضية، تنقض نوارس مرمرية اللون لتحمل الأحشاء. كل ركن تلتفت إليه يموج بالألوان: أخضر الكرَّاث، الأرجواني القاني للباذنجان.

الآن تحوَّل عالمها إلى رمادي. وجوه رمادية وصمت رمادي ورعب رمادي قلق يتدلى على الطابور في المخبز واللون الوحيد في العالم يتوهَّج باقتضاب عندما يصعد إيتيين الدَّرج إلى العليَّة، ركبتاه تصدران صريراً، ليقرأ سلسلة أخرى من الأرقام عبر الأثير، ليرسل رسالة أخرى من رسائل السَّيدة رويل، ليشغل أغنية. تنفجر تلك العلية الصَّغيرة بألوان الأرجواني والأزرق المخضر والذَّهبي طوال خمس دقائق، من ثم ينطفئ الراديو، وسرعان ما يعود الرمادي، وعمها ينزل الدرج من جديد.

حمَّى

ربما بسبب اليخنة التي تأتي من مطبخ أوكراني مجهول، ربما سمَّم الأنصار الماء، ربما ببساطة بسبب جلوس فرنر فترة طويلة جداً في أماكن رطبة والسَّماعات على أذنيه. مهما كان السبب فإنه أصيب بالحمَّى، ومعها إسهال رهيب، وعندما يجثم فرنر في الوحل خلف الشَّاحنة، يشعر كما لو أنه يطرح آخر ما فيه من تحضُّر. تمر ساعات كاملة لا يمكنه أن يفعل شيئاً خلالها أكثر من أن يضغط خده على جدار هيكل الشَّاحنة، ينشد شيئاً بارداً. ثم تعتريه القشعريرة، قاسية وسريعة، ولا يمكنه أن يدفئ جسده، يريد أن يقفز في نار.

يعرض عليه فولكهايمر القهوة، يقدِّم نيومان اثنان حبوب الدَّواء التي يعرف فرنر في الوقت الحالي أنها ليست لعلاج ألم الظهر، يرفض العرضين، وينتهي عام 1943 ليأتي عام 1944. لم يكتب فرنر ليوتا منذ سنة تقريباً. آخر رسالة تسلَّمها منها يعود تاريخها إلى ستة أشهر وتبدأ بـ: لماذا لا تكتب؟

مع ذلك يتمكَّن من العثور على محطات بث غير قانونية، واحدة كل أسبوعين تقريباً. ينقذ التجهيزات السُّوفيتية الرديئة، مصنوعة من الفولاذ الحدِّي، ملحومة بغير إتقان، جميعاً غير نظامية. كيف يمكنهم أن يحاربوا بمثل هذه التجهيزات السَّيئة؟ طُرحت المقاومة لفرنر على أنها منظمة

للغاية، إنهم ثوّار خطرون منضبطون، يتبعون كلمات قادة قساة وقتلة. لكنه يرى بأم عينه كيف أنهم بتعاونهم المتهدل معدون ليكونوا غير نافعين - إنهم بؤساء وقذرون، يعيشون في حفر. مجرمون، يائسون، ملابسهم رثة، ليس لديهم ما يخسرونه.

ويبدو أنه لا يستطيع أبداً إحراز تقدم في فهم أي النظريتين هي أقرب إلى الحقيقة. يفكّر فرنر: لأنهم حقاً جميعاً متمردون، جميعهم أنصار، كل شخص يرونه. أو كل من هو ليس ألمانياً يريد الموت للألمان، حتى أكثرهم مسالمةً. يجفلون من الشَّاحنة عندما تجلجل داخلة بلدة، يخفون وجوههم، عائلاتهم، متاجرهم طافحة بأحذية انتزعت من أقدام الموتى.

انظر إليهم.

في أسوأ أيام ذلك الشِّتاء القاسي - بينما يستعمر الصَّدأ الشَّاحنة والبنادق وأجهزة الراديو، بينما تتراجع المقاطعات الألمانية من حولهم - يلمُّ به ازدراء عميق لكل البشر الذين يمرون بهم. القرى المدمرة التي يصّاعد منها الدخان، شظايا الآجر في الشَّارع، الجثث المتجمدة، الجدران المحطمة، السَّيارات المقلوبة، الكلاب النَّابحة، الجرذان التي تعدو مسرعة، والقمل: كيف يمكنهم أن يعيشوا بتلك الطريقة؟ هنا في الغابات، في الجبال، في القرى، يفترض أنهم يقتلعون الفتنة من جذورها. قال الدكتور هاوبتمان: لن تنخفض الانتروبيا الكلية لأي منظومة، إلا في حال ارتفعت إنتروبيا منظومة أخرى. الطبيعة تتطلب التناسق. وكذلك يجب أن يكون النظام.

ولكن أي نظام يلاحظونه هنا؟ الحقائب، الطوابير، الأطفال المنتحبين، الجنود المنهمرين عائدين إلى المدن يتطلعون إلى الخلود - في أي منظومة يتنامى النظام؟ بالتأكيد ليس في كييف، أو لفوف، أو وارسو. إنها جحيم كلها. إنهم فقط الكثير من البشر، كما لو أن المصانع الروسية الضخمة تطرح رجالاً جدد كل دقيقة. اقتل ألفاً وسوف نصنع عشرة آلاف.

مع حلول شهر شباط يصلون إلى الجبال. يرتعش فرنر في مؤخرة الشَّاحنة بينما يطحن نيومان واحد الطرق المتعرجة. تزحف خنادق من تحتهم كالأفاعي في شبكة دائرة، يتموضع الألمان على جانب، والروس من ورائهم. تخط أشرطة سميكة من الدخان الوادي، تحلِّق اندلاعات من مدفعية بين الحين والآخر مثل كرات الريش.

يفرد فولكهايمر غطاءً ويلف به كتفي فرنر. يجول دمه جيئة وذهاباً داخله مثل زئبق، ومن النوافذ، في فجوة في الضَّباب، شبكة من الخنادق والمدافع في الأسفل تظهر نفسها بوضوح شديد لوهلة، وفرنر يحس بأنه يحدِّق في دوائر كهربية لراديو ضخم، كل جندي هناك في الأسفل، إلكترون يتبع ملفاً على مساره الإلكتروني، وليس لديهم رأي في أكثر مما لدى الإلكترون. ثم هم حول منحنى، ويشعر فقط بحضور فولكهايمر بالقرب منه، غسق بارد من النوافذ، جسر بعد آخر، تلة بعد تلة، طوال الوقت يهبطون. يتبعثر ضوء قمر معدني سِمِل عبر الطريق، وحصان أبيض واقف في حقل يمضغ العشب، وكشاف يفتش في السَّماء، وفي نافذة كوخ جبل مضاءة، لجزء من الثانية، وهم يمرون، يرى فرنر يوتا جالسة إلى طاولة، وجوه الأطفال الآخرين المنيرة من حولها، لوحة تطريز السَّيدة إلينا فوق المغسلة، جثث اثني عشر طفلاً مكومة في وعاء قرب الموقد.

الحجر الثالث

يقف في قصر في ضواحي «أميان»، شمال باريس. يزحر المنزل الكبير القديم في العتمة. مالك البيت عالم حفريات قديمة، متقاعد، وفون رومبل يعتقد أن مسؤول أمن المتحف في باريس هرب إلى هنا خلال الفوضى العارمة التي تلت غزو فرنسا، قبل ثلاث سنوات. مكان هادئ، معزول بالحقول، تطوقه الأسيجة. يصعد درجاً إلى مكتبة. رفُّ كتب مخلوع، الخزنة من خلفه. خبير فتح الخزائن من البوليس السِّري النازي جيد: يضع سماعة، لا يكلف نفسه عناء استعمال المصباح. فتحها خلال بضع دقائق.

مسدس قديم، صندوق يحتوي على شهادات، كومة من قطع نقدية فضية ملطخة. وفي داخل صندوق مخملي، ألماسة زرقاء على شكل إجاصة.

يظهر القلب الأحمر داخل الحجر نفسه لثانية، ثم في اللحظة التالية يصبح بعيد المنال كلياً. في حنايا فون رومبل، أمل مجدول باليأس: كاد يصل تقريباً. الاحتمالات ترجح في صالحه، أليست كذلك؟ لكنه يعلم قبل أن يضعه تحت المصباح. أن شعوره بالانتشاء سرعان ما يخمد في داخله. الماسة ليست حقيقية، هي أيضاً من صنع دوبون.

لقد وجد الأحجار الثلاثة المزيفة جميعاً. أنفق كل ما يملك من حظ. يقول الطبيب إن حجم الورم ينمو ثانية. آفاق الحرب تتلاشى- الألمان

يتراجعون عبر روسيا، في أوكرانيا، حتى كعب إيطاليا. قريباً جميع من يتتمون إلى تنظيم «وحدة روزنبرغ شبه العسكرية للمهام الخاصة»، الرجال الذين يجوبون القارة بحثاً عن المكتبات السرية، لفائف الصَّلوات المخفية، لوحات الانطباعيين المخبأة - سوف يسلمون بنادق ويرسلون إلى الجبهة. بمن فيهم فون رومبل.

طالما في وسعه الاحتفاظ به، فسوف يعيش مالك الحجر إلى الأبد.

لا يمكنه الاستسلام. ومع ذلك يديه تصبحان ثقيلتين للغاية. رأسه ثقيل كالصخر.

واحدة في المتحف، واحدة في بيت أحد داعمي المتحف، واحدة أرسلت مع مدير الأمن. أي نوع من الرجال قد يختارون ليكون المبعوث الثالث؟ يراقبه رجل البوليس السِّري، تركيزه على الحجر، يده اليسرى على باب الخزنة. ليست المرة الأولى التي يفكِّر فون رومبل فيها في الجوهرة الاستثنائية آمنة في المتحف. مثل صندوق أحجية. لم يرَ لها مثيلاً في كل أسفاره. من كان له أن يتخيلها؟

الجسر

في قرية فرنسية تقع أقصى جنوب سان مالو، تنفجر شاحنة ألمانية في أثناء عبورها جسراً. يلقى ستة جنود ألمان حتفهم. اتهم الإرهابيون بالعملية. تهمس النِّسوة اللاتي تمر لتفقُّد ماري لور: سياسة «الليل والضَّباب[1]»: مقابل كل ألماني مفقود، سوف يقتلون عشرة منّا. يتجول رجال الشُّرطة من باب إلى باب مطالبين كل رجل يتمتع بجسم سليم بالخروج للعمل مدة يوم واحد. حفر الخنادق، إفراغ حمولة عربات السِّكك الحديدية، دفع عربات محمَّلة بأكياس الإسمنت، تشييد عوائق دفاعية في حقل أو على شاطئ. على كل قادر أن يعمل لتمتين الجدار الأطلسي. يقف إيتيين ينظر في العتبة وإخطار طبيبه في يده. يهب هواء بارد عليه وخوف يموج مرتداً نحو القاعة.

تهمس السَّيدة رويل قائلة إن سلطات الاحتلال تلقي بملامة الهجوم على شبكة بث إذاعي متطورة مناهضة للاحتلال. تقول إن طواقم عمل منشغلة بإغلاق الشواطئ خلف شبكة أسلاك الـ «كونسرتينا» الشَّائكة ودفاعات خشبية ضخمة تدعى «خيول الفريزيان». وبالفعل، حُظر الدُّخول إلى الممرات التي تعلو الأسوار.

---

(1) سياسة اعتمدها هتلر لمعاقبة الأنصار ومن يساعدهم. (م).

تناول ماري لور رغيفاً فتحمله إلى البيت. عندما يفتحه إيتيين، يجد قصاصة ورقية أخرى في الداخل. تسعة أرقام أخرى.

يقول: «اعتقدت أنهم قد يستريحون لبعض الوقت».

«ربما»، تفكر ماري لور في والدها وتقول: «الأمور أصبحت أكثر أهمية الآن؟».

ينتظر حتى حلول الظلام. تجلس ماري لور في فتحة الخزانة، الظهر الزائف مفتوح، وتصغي إلى عمها يفتح مكبر الصَّوت ويبث في العلية. يتلو بصوته اللطيف أرقاماً في السَّندرة. ثم تصدح الموسيقى، ناعمة ومنخفضة، مفعمة بأنغام التشيلّو الليلة، وتنقطع في وسط المجرى.

- عمّي؟

يستغرقه نزول السُّلم وقتاً طويلاً. يمسك بيدها ويقول: «الحرب التي قتلت جدك، قتلت ستة عشر مليون شخصاً آخر، مليوناً ونصف مليون من الفتيان الفرنسيين فقط، كان معظمهم يصغرني سناً، ومليونين من الجانب الألماني. إذا سار الموتى في صف واحد، لبقيوا يمرون من أمام باب بيتنا لمدة أحد عشر يوماً وإحدى عشرة ليلة. ما نفعله يا ماري ليس العبث بلافتات الشوارع، وليس إخفاء رسائل في مكتب البريد، هذه الأرقام ليست مجرد أرقام. هل تفهمين؟».

- لكننا أصحاب الحق. ألسنا كذلك يا عمي؟

- آمل ذلك. آمل أننا كذلك.

شارع دي باتريرش

يدخل فون رومبل شقَّة سكنية في الدَّائرة الخامسة. تأخذ مالكة الطابق الأول بابتسامة متكلفة رزمة البطاقات التموينية التي يقدمها وتخفيها في ثوبها المنزلي. تدوِّم قطط حول كاحليها. من خلفها، سطح مزدان بإفراط، تفوح منه روائح زهور تفاح ذابلة كريهة، حيرة، هَرَم.

- متى غادروا يا سيدة؟
- صيف عام 1940.

تبدو كما لو أنها على وشك أن تصفرٍّ.

- من يدفع الإيجار؟
- لا أعرف يا سيدي.
- هل ترد الشِّيكات من متحف التاريخ الطبيعي؟
- لا أعرف.
- متى كانت آخر مرة جاء فيها أحدهم؟
- لا يأتي أحد. أرسلت الشيكات بالبريد.
- من أين؟
- لا أعرف.
- ولا يغادر أحد الشَّقة أو يدخلها؟

- ليس منذ ذلك الصَّيف.

وتتراجع بوجهها الجشع وأظافرها الجشعة، نحو الظلمة العابقة.

يصعد. قفل باب واحد عند الطابق الرابع يسمُ شقَّة صانع الأقفال. في الدَّاخل، النوافذ مكسوَّة بألواح من قشر الخشب، وضوء شفيف ساكن ينسرب عبر ثقوب العُقد. كما لو أنه صعد إلى صندوق معتم معلَّق داخل عمود من ضوء صرف. خزائن مفتوحة، وسائد مائلة قليلاً، كرسي مطبخ مقلوب على جنبه. كلُّ شيء ينبي عن رحيل على عجل، أو تفتيش عنيف، أو كلاهما. تحيط حافَّة سوداء من الطحلب بحوض المرحاض حيث رشح الماء. يعاين غرفة النَّوم، الحمَّام، المطبخ، يندلع أمل شيطاني غير قابل للتهدئة في داخله: ماذا لو...؟

على امتداد سطح طاولة الحرفي تنتصب مقاعد صغيرة، أعمدة إنارة صغيرة، أشباه منحرفات صغيرة من خشب ملمَّع. ملزمة صغيرة، صندوق صغير للمسامير، قوارير صغيرة تحتوي على غراء تيبَّس منذ وقت طويل. بجانب المقعد، تحت شرشف، مفاجأة: مجسَّم معقد للدائرة الخامسة. المباني غير مطليَّة، لكن بخلاف ذلك، مفصَّلة على نحو جميل. مصاريع، أبواب، نوافذ، مصارف مياه. ما من أناس. لعبة؟

في الخزانة عدد من الفساتين البنَّاتية معلقة، تبدو عليها آثار العث، وسترة مطرز عليها عنزات تمضغ الزهور. أكواز صنوبر مغبرَّة تخطُّ عتبة النافذة، مرتَّبة من الأكبر إلى الأصغر حجماً. على أرض المطبخ، شرائط احتكاك تمَّ تثبيتها بمسامير في الخشب. مكان على أتمِّه من الدقة. سكون، ترتيب. خيط وحيد من فتيل يمتد بين الطاولة والحمَّام. ساعة متوقِّفة من دون زجاج على واجهتها. ما إن يعثر على ثلاث ورقات ضخمة من كتاب جول فيرن بلغة البريل حتى يفهم.

صانع خزائن، بارع في صنع الأقفال، يقيم قريباً من المتحف. عمل

هناك طوال حياته. متواضع، ما من مطامع ظاهرة بالثروة، ابنة كفيفة، كثير من الأسباب ليكون مخلصاً.

«أين تختبئ؟»، يقولها بصوت مسموع. يدوِّم الغبار في الضُّوء الغريب.

في داخل كيس أو صندوق. متوارٍ خلف لوح قاعدة، أو محفوظ في حجرة تحت ألواح الأرضية أو ملصق داخل جدار. يفتح جوارير المطبخ وينظر خلفها. لكن لا بد أن من بحث قبله قد تحقق من كل هذا.

يعود انتباهه ببطء إلى مجسَّم الحي. مئات المنازل بالغة الصِّغر بأسطح ذات منحدرين وشرفات. يدرك أنه هذا الحي تماماً، بلا لون وخالٍ من السُّكان ومصغَّر. نسخة صغيرة طيفية منه. يبدو بناءٌ واحد على وجه الخصوص مصقولاً وبالياً من إلحاح الأصابع: المبنى الذي هو فيه. البيت.

يضع عينه على مستوى الشَّارع، يصبح إلهاً يلوِّح على الحي اللاتيني. بإصبعين، يمكنه أن يقبض على أي شخص يريد، ويدفع نصف مدينة نحو الظلال. يقلبها رأساً على عقب. يضع أصابعه على سطح الشَّقة التي يركع فيها. يهزُّه جيئة وذهاباً. يرتفع متحرراً من المجسَّم بسهولة، كما لو أنه صمم لذلك. يديره أمام عينيه: ثمانية عشرة نافذة صغيرة، ست شرفات، باب دخول صغير. هنا في الأسفل: خلف هذه النافذة - تتربص المالكة الصَّغيرة مع قططها. وهنا، في الطابق الرابع، هو بذات نفسه.

يعثر في قعره على فجوة متناهية في الصِّغر، ليست مختلفة على الإطلاق عن ثقب المفتاح في خزنة الجواهر في المتحف التي رآها قبل ثلاث سنوات. يدرك أن المنزل إناء؛ حاوية. يعبث به إلى حين، محاولاً سبره. يقلبه، يجرب القعر، الجانب.

تتسارع دقَّات قلبه. يندفع شيء ما رطب ومحموم على لسانه.

هل تملك شيئاً في داخلك؟

يضع فون رومبل المنزل الصَّغير على الأرض، يرفع قدمه، ويسحقه.

مدينة بيضاء

في شهر نيسان من العام 1944 تقعقع الأوبل عند دخولها مدينة بيضاء مليئة بالنوافذ الفارغة. يقول فولكهايمر: «فيينا»، يثرثر نيومان اثنان لاعناً قصور هابسبورغ وفطائر «فينر شنيتزل» وفتيات لفروجهن طعم فطيرة التفاح. يبيتون فيما كان سابقاً جناح «العالم القديم» وأثاث مسنود إلى الجدران وريش الدَّجاج يسدُّ مغاسل الرخام، وصحف ثبتت بغير إتقان على النَّوافذ. في الأسفل، محطة تحويل لعدد كبيرٍ من السكك الحديدية، يفكِّر فرنر في الدكتور هاوبتمان، في قفازاته المجعدة المبطنة بالفراء، الذي تخيل فرنر شبابه في فيينا وقد أمضاه في مقاهٍ نابضة بالحياة، حيث كانت تجري مناقشة عالمين: بوهر، وشوبنهاور، حيث تماثيل رخامية غضَّت أبصارها من أفاريز مثل عرَّابين عطوفين.

هاوبتمان الذي من المحتمل أنه لا يزال في برلين. أو على الجبهة، مثل الجميع.

ليس لدى حاكم المدينة وقت للقائهم. يخبر مرؤوسٌ فولكهايمر أن هناك تقارير عن برامج مقاومة تبث بكثرة في ليوبولدشتات. يدورون حول الحي مرات كثيرة. يعلق ضباب بارد في الأشجار المزهرة، وفرنر يجلس في مؤخرة الشَّاحنة ويرتعش. يشمُّ في المكان رائحة مذبحة.

طوال خمسة أيام لا يسمع شيئاً على جهاز المرسل المستقبل سوى

ترانيم ودعاية مسجلة وبث من عقداء محاصرين يطلبون المؤن، البنزين، الرجال. كل شيء مفكك، يستطيع فرنر أن يشعر به، نسيج الحرب يتهتك.

يقول نيومان اثنان ذات ليلة: «هذه دار الأوبرا». تبرز واجهة مبنى كبير بخفَّة، بأعمدة ناتئة وشرفات. أجنحة فخيمة ترتفع على كل جانب، ثقيلة وخفيفة في آن بطريقة ما. حينئذٍ تماماً يخطر لفرنر أنه عمل عقيم بشكل غير معتاد أن تشيد مبان بهيَّة، أن تؤلف الموسيقى، أن تنشد الأغاني، أن تطبع كتباً ضخمة عن طيور ملونة في عالم يجتاحه زلزالٌ من اللامبالاة - أي بشر متغطرسين لدينا! لماذا تكلِّف نفسك عناء تأليف الموسيقى في حين أن صوت الصَّمت والريح أعلى بكثير؟ لماذا تضيء المصابيح إذا كانت الظلمة ستطفئها حتماً؟ عندما يكون السُّجناء الروس مقيدين ثلاثاً ورباع إلى الأسوار، ويقوم الجنود الألمان بدس القنابل المشتعلة في جيوبهم والهرب؟

دور أوبرا! مدن على القمر! سخف. كان من الأفضل لو يضعوا وجوههم على المكابح وينتظروا الفتيان القادمين عبر المدينة يجرون مزالج تتكدس عليها الجثث.

عند الضُّحى يأمرهم فولكهايمر أن يتوقفوا عند المتنزه. الشَّمس تحرق الضَّباب مزيحة إياه، وتظهر أولى الأزهار على الأشجار. في وسع فرنر الشُّعور بالحمى تومض في داخله، موقد بباب مقفل. نيومان واحد الذي، إن لم يكن مقدراً له أن يقضي نحبه بعد عشرة أسابيع من غزو الحلفاء للنورماندي، لكان امتهن الحلاقة لاحقاً في الحياة، وكانت لتفوح منه رائحة مسحوق البودرة والويسكي ويضع سبابته في أذني الرجال ليسوي وضعية رؤوسهم، ولكانت سراويله وقمصانه دوماً مكسوَّة بالشعر المقصوص، ولكان علَّق في محله بطاقات بريدية تصور جبال الألب حول محيط مرآة

كبيرة رخيصة متموجة، ولكان مخلصاً لزوجته السمينة لبقية حياته - يقول نيومان واحد: «حان وقت قص الشَّعر».

يضع كرسياً بلا ظهر على الرصيف ويرمي بمنشفة نظيفة تقريباً على كتفي بيرند ويقصّ. يجد فرنر محطة تابعة للحكومة تبثُّ رقصات الفالس، ويضع مكبر الصَّوت في باب الأوبل الخلفي المفتوح، كي يتمكن الجميع من السَّماع. يقص نيومان واحد شعر بيرند، ثم فرنر، ثم شعر نيومان اثنان المتقصِّف المنكوش. يراقب فرنر فولكهايمر يجلس على المقعد ويغمض عينيه، خاصة عندما ينبعث فالس حزين، فولكهايمر الذي قتل مئة رجل حتى الآن على الأقل، وربما أكثر، يدخل أكواخ البث الإذاعي المثيرة للشفقة بجزمته الضَّخمة المسروقة، يتسلل خلف أوكراني هزيل يضع السَّماعات على أذنيه، ومكبِّر صوت إلى شفتيه، ويرديه قتيلاً بطلقة في مؤخرة رأسه، ثم يذهب إلى الشَّاحنة ليخبر فرنر أن يأخذ جهاز الإرسال، مصدراً الأمر بهدوء، بنعاس، حتى مع وجود أشلاء من الرجل على جهاز الإرسال.

فولكهايمر الذي يحرص دوماً على وجود طعام من أجل فرنر، يجلب له البيض، ويشاطره الحساء، يظل حنانه على فرنر فيما يبدو ثابتاً.

يثبت المنتزه على أنه مكان يصعب البحث فيه، شوارع ضيِّقة ومبان سكنية مرتفعة. تمر الترددات عبر المباني وتنعكس عنها، على حدٍّ سواء. ذلك الأصيل، بعد وقت طويل من إبعاد الكرسي وتوقُّف رقصات الفالس، بينما يجلس فرنر مع جهاز الإرسال يصغي إلى لا شيء، تنبثق فتاة صغيرة حمراء الشَّعر في رداء كستنائي اللون من عتبة باب، ربما تبلغ من العمر ست أو سبع سنوات، ضئيلة بالنسبة إلى عمرها، عيناها واسعتان صافيتان تذكِّرانه بعيني يوتا. تركض عبر الشَّارع نحو المنتزه وتلعب هناك وحيدة

تحت الأشجار المزهرة، بينما تقف والدتها على النَّاصية تقضم أطراف أصابعها. تصعد الفتاة الأرجوحة وتنوس جيئة وذهاباً، ترفع ساقيها وتخفضهما، ومشاهدتها تفتح مصراعاً في روح فرنر. يفكِّر: هذه حياة، هذا ما نعيش من أجله، لنلعب مثل هذه، ذات يوم، عندما يطلق الشتاء سراحنا أخيراً من قبضته. ينتظر أن يأتي نيومان اثنان من حول السَّاحة ويتفوه بأمر فظ، أن يفسد هذا المشهد، لكنَّه لا يفعل، ولا بيرند كذلك، ربما لا يريانها على الإطلاق، ربما سوف يفلت هذا الشَّيء النقي من تدنيسهما، والفتاة تنشد بصوت مرتفع، وهي تتأرجح، أغنية يتعرَّف عليها فرنر، أغنية حسابية كانت تغنيها الفتيات في أثناء لعبة نط الحبل في الزقاق، خلف منزل الأطفال، واحد، اثنان، شرطيان، ثلاثة، أربعة، ضابط، وكم يودُّ لو ينضم إليها بالغناء: خمسة، ستة، ساحرة شريرة، سبعة، ثمانية، ليلة سعيدة! ويدفعها أعلى وأعلى، ثم تقول والدتها شيئاً لا يستطيع فرنر سماعه، وتمسك بيد الفتاة. تنعطفان عند النَّاصية، ورداء مخملي صغير يقطر في الخلف ثم تختفيان.

لا تكاد تمر ساعة من الوقت، حتى يقع على شيء يخترق التشويش محلقاً: برنامج إذاعي بسيط بالألمانية السويسرية. اختر تسعة، البث على 1600، هذا KX46\، هل تسمعني؟ هو لا يفهم منه شيئاً. ثم يختفي. يعبر فرنر السَّاحة ويولِّف المرسل المستقبل الثَّاني بنفسه. عندما يتحدثون ثانية، يثلِّث ويعمل على الأرقام في المعادلة، ثم يرفع بصره ويرى بعينيه المجردتين ما يبدو مثل سلك هوائي ينسحب على جانب شقة سكنية على طرف السَّاحة.

في غاية السُّهولة.

الآن انبعثت الحياة في عيني فولكهايمر، أسد التقط الرائحة. كما لو أنه وفرنر بالكاد بحاجة إلى الكلام للتواصل.

يسأل فرنر: «هل ترى السِّلك الذي يمتد هناك؟».

ينظر فولكهايمر إلى المبنى بواسطة المنظار: «تلك النافذة؟».

- نعم.

- أليس المكان مكتظ للغاية هنا؟ كل تلك الشقق؟

- هذه هي النافذة.

يدخلان. لا يسمع صوت إطلاق نار. ينادونه، بعد خمس دقائق، إلى شقة في الطابق الخامس مكسوة بورق جدران عليه زهور مدوَّخة. يتوقَّع أن يطلب منه الإشراف على المعدات، كما جرت العادة، لكن لا يوجد شيء: ما من جثث، ما من جهاز إرسال، ليس حتى جهاز استماع بسيط. فقط مصابيح مزخرفة وأريكة مطرزة وورق جدران يعج بزخرفة الروكوكو.

يأمر فولكهايمر: «اخلعوا ألواح الأرضية»، لكن بعد أن يخلع نيومان اثنان عدة ألواح ويحدق، من الواضح أن الشيء الوحيد تحت الألواح هو شعر ذيل الفرس المستخدم للعزل قبل عقود.

- شقة أخرى، ربما؟ أرضية أخرى؟

يعبر فرنر إلى غرفة نوم ويفتح النافذة ويحدق من شرفة حديدية. ما اعتقد أنه هوائي ليس سوى ذراع مطلية على جانب عمود مستطيل، ربما القصد منها أن تكون مسنداً لحبل الغسيل. ليس هوائياً على الإطلاق. لكنه سمع صوت بث إذاعي، أليس كذلك؟

ألمٌ يصعد عبر قاعدة جمجمته. يعقد يديه خلف رأسه ويجلس على حافَّة سرير غير مرتب، وينظر إلى الثِّياب هنا - سروال داخلي مطوي على مسند كرسي، فرشاة شعر على منضدة الكتابة، صفوف من قوارير غاية في الصِّغر متجمدة وعلب للزينة، كلها في نظره أنثوية بشكل يعجز الوصف

عنه، غامضة ومربكة، كما أربكته بطريقة ما زوجة السَّيد سيدلر قبل أربع سنوات عندما رفعت تنورتها وانحنت أمام جهاز الراديو الكبير خاصتها.

غرفة امرأة. ملاءات مجعَّدة، في الهواء رائحة مثل غسول للبشرة، وصورة لشاب – ابن أخ؟ حبيب؟ أخ؟ – على منضدة للزينة. ربما حسابه كان خاطئاً. ربما الإشارة تبعثرت عن المباني. ربما الحمَّى شوَّشت نباهته. على ورق الجدران أمامه، يبدو أن زهوراً تنجرف، تنكفئ، تتبادل أماكنها.

ينادي فولكهايمر من الغرفة الأخرى: «لا شيء؟».

ويرد عليه بيرند: «لا شيء».

يفكِّر فرنر: في كون موازٍ ما، ربما أمكن لهذه المرأة والسَّيدة إلينا أن تكونا صديقتين، واقع أكثر إمتاعاً من هذا الواقع.

ثم يرى، معلَّقاً على مقبض الباب، مربَّعاً كستنائياً من المخمل، طاقيَّة مرفقة، رداء طفلة، وتماماً عند تلك اللحظة في غرفة النَّوم الأخرى، يصرخ نيومان اثنان بمثل حشرجة عالية متفاجئة، ويسمع صوت طلقة وحيدة، ثم صرخة امرأة، ثم المزيد من الطلقات، ويوسِّع فولكهايمر الخطو مسرعاً، ويسير الباقون في إثره، ويجدون نيومان اثنان واقفاً أمام خزانة وكلتا يديه على بندقيته ورائحة البارود تعمُّ المكان. على الأرض امرأة، ذراع إلى الخلف كما لو أنها رفضت دعوة إلى الرقص، وداخل الخزانة ليس راديو، لكن طفلة جالسة على مؤخرتها ورصاصة في رأسها. عيناها القمريتان مفتوحتان ونديتان، وفمها امتد إلى الخلف على شكل بيضوي متفاجئاً، فتاة الأراجيح، والتي لا يمكن أن يتجاوز عمرها سبع سنوات.

ينتظر فرنر أن تطرف الطفلة. يفكِّر: اطرفي بعينيكِ، اطرفي. يغلق فولكهايمر باب الخزانة، لكنها لا تنغلق تماماً لأن قدم الفتاة تبرز منها، ويغطي بيرند المرأة على السَّرير بغطاء، وكيف أمكن لنيومان اثنان ألا ينتبه،

لكنه بالتَّأكيد لم ينتبه، لأن هذا ما هي عليه الأمور مع نيومان اثنان، مع كل شخص في هذه الوحدة، في هذا الجيش، في هذا العالم. هم يطيعون الأوامر، خافوا، يتحركون وليس في عقلهم سوى أنفسهم. سمِّ لي شخصاً لا يفعل هذا!

يلوي نيومان واحد كتفيه، شيء منتن في عينيه. يقف نيومان اثنان هناك بقصَّة شعره الجديدة، ترتعش أصابعه فاقدة الحس على مخزن بندقيته.

يقول: «لماذا توارتا؟».

يعيد فولكهايمر قدم الطفلة برفق داخل الخزانة.

يقول: «ما من راديو هنا»، ويغلق الباب. تلتف خيوط من الغثيان حول رغامى فرنر. ترتعد في الخارج مصابيح الشَّارع في ريح متأخرة. سحب تتجه غرباً فوق المدينة.

يصعد فرنر سيارة الأوبل، ويشعر كما لو أن المباني تهدر من حوله، تزداد طولاً واعوجاجاً. يجلس وجبهته على وحدات التنصت ويفرغ ما في جوفه بين فردتي حذائه.

إذاً حقّاً أيها الأطفال، رياضياً، الضُّوء كله غير مرئي.

يصعد بيرند ويغلق الباب وتنبعث الحياة في الأوبل، تميل وهي تنعطف ويستطيع فرنر أن يشعر بالشَّوارع ترتفع من حولهم، تلتف ببطء في لولب عمودي، في نقطة مركزية منه سوف تنحني الشَّاحنة نحو الأسفل، لتقتفي الآثار أعمق وأعمق طوال الوقت.

عشرون ألف فرسخ تحت سطح البحر

على الأرض عند باب غرفة نوم ماري لور شيء كبير ملفوف بورق الصُّحف وخيط قنَّب. من بيت الدَّرج يقول إيتيين: «عيد ميلاد سادس عشر سعيد».

تمزق الورق. كتابان، واحد فوق الآخر. مرت ثلاث سنوات وأربعة أشهر منذ أن غادر والدها سان مالو، ألف ومئتان وأربع وعشرون يوماً. تقريباً، مرت أربع سنوات منذ أن تلمَّست أحرف البريل، ومع ذلك ترتفع الأحرف في ذاكرتها كما لو أنها توقفت البارحة فقط عن القراءة.

جول. فيرن. عشرون. ألف. فرسخ. الجزء. الأول. الجزء. الثاني.

ترمي نفسها على عمها وتلف عنقه بذراعيها.

- قلت إنك لم تتمكني يوماً من إنهائها. اعتقدت، أنك بدلاً من قراءتي لك، ربما قد تقرئين لي؟

- لكن كيف؟

- السَّيد هيبرار، بائع الكتب.

- لكن لا شيء متوفر! وهي باهظة الثمن كثيراً.

- لقد صنعتِ الكثير من الأصدقاء في هذه البلدة، ماري لور.

تتمدد على الأرض وتفتح الصفحة الأولى: «سأبدأ من جديد، منذ البداية».

- ممتاز.

تقرأ: «الفصل الأول، حيِّد بحري متبدِّل» اتَّسمت سنة 1866 بحدث غريب، حادثة غير قابلة للتفسير، لا يزال بلا شك حياً في ذاكرة الجميع... تسرع عبر الصَّفحات العشر الأولى، تتداعى إليها أحداث القصَّة: فضول عالمي حول ما لا بد أن يكون شبحاً بحرياً أسطورياً، يستعد عالم الأحياء البحرية الشَّهير، البروفسور بيير آروناكس، لاكتشاف الحقيقة. هل هو وحش أو حيِّد بحري متبدِّل؟ شيء آخر؟ في أي صفحة الآن، سوف يغطس آروناكس من فوق حاجز البارجة، وليس بعد وقت طويل، سوف يجد نفسه هو وصائد الحيتان الكندي نيد لاند على غوَّاصة القبطان نيمو.

خلف النافذة المكسوَّة بالورق المقوّى، ينهمر المطر من سماء بلاتينية اللون. حمامة تخدش المزراب منادية هور هور هور. في المرفأ، تقفز سمكة حفش قفزة وحيدة مثل حصان فضي، من ثم اختفت.

برقية

وصل قائد جديد للحامية على السَّاحل الزمردي، عقيد. أنيق، ذكي، كفء. نال أوسمة في ستالينغراد. يرتدي نظَّارة لعين واحدة. مصحوباً دوماً بسكرتيرة مترجمة جميلة فرنسية، والتي ربما عاشرت الأسرة المالكة الروسية أو ربما لا.

هو متوسط الحجم وأشيب قبل الأوان، لكن بحيلة ما، بين مشية ووضعية فإنه يجعل الرجال الذين يقفون أمامه يحسون بأنهم أقصر منه قامة. الشَّائعة هي أن هذا العقيد أدار شركة سيارات بأكملها قبل الحرب. وأنه رجل يفهم قوَّة الطبيعة الألمانية، وتسري في خلاياه قوتها القائمة منذ عصور ما قبل التاريخ. وأنه لن يقبل الخضوع يوماً.

يرسل كل ليلة برقيات من مكتب الحي في سان مالو. بين البلاغات الرسمية الستة عشر التي أرسلت في الثلاثين من شهر نيسان عام 1944 خطاب رسمي إلى برلين.

=بيان عن بثٍّ إذاعي إرهابي في كوت دارمور نعتقد سان لونير أو دينار أو سان مالو أو كانكال= نطلب المساعدة لتحديد مكانه وإزالته.

نقطة نقطة شرطة شرطة، وتذهب عبر الأسلاك التي تربط أوروبا.

ثمانية

9 آب 1944

فورت ناسيونال

يهدأ القصف إلى حين في أصيل اليوم الثَّالث من حصار سان مالو، كما لو أن جميع جنود المدفعيَّة غطوا فجأة في النَّوم عند مدافعهم. أشجار تحترق، سيارات تحترق، منازل تحترق. يحتسي جنود ألمان النَّبيذ في الحصون. كاهن في قبو الكليَّة يرشُّ الماء المقدَّس على الجدران. حصانان، جن جنونهما خوفاً، يركلان باب المرآب الذي احتجزا فيه ويعدوان بين المنازل المحترقة في شارع جراند.

نحو السَّاعة الرابعة، يطلق مدفع قذَّاف «هاوتزر» أمريكي، على بعد ميلين، قذيفة موجهة على نحو غير صحيح. تسرع فوق جدران المدينة وتنفجر تجاه السُّور الشَّمالي لحصن ناسيونال، حيث احتجز ثلاثمئة وثمانين فرنسياً رغماً عنهم بأدنى تغطية ممكنة. قُتل تسعة منهم على الفور. واحد منهم كان لا يزال ممسكاً بأوراق لعبة البريدج التي كان يلعبها عندما ضربت القذيفة.

في العليّة

طوال السّنوات الأربع التي أمضتها ماري لور في سان مالو، حددت أجراس كنيسة «سان فانسان» الوقت. لكن الأجراس توقّفت الآن. هي لا تعرف كم مضى من الوقت على احتجازها في العليّة، أو حتى فيما إذا كان الوقت ليلاً أم نهاراً. الوقت شيء زلق: فرِّط به مرة ولسوف يفلت خيطه من بين يديك إلى الأبد.

يزداد ظمأها حدَّة، تفكِّر في أن تعضَّ ذراعها لتشرب السّائل الذي يجري هناك. تخرج علبتي الطعام من معطف عمها وتضع شفتيها على حافتيهما، لكلاهما مذاق الصَّفيح. محتوياتهما على مسافة ميليمترات فقط.

لا تجازفي، يقول صوت والدها: لا تجازفي بإحداث ضجة.

فقط واحدة، أبي. سوف أحتفظ بالأخرى. رحل الألماني. أكاد أكون واثقة من أنه رحل الآن.

لماذا لم يشب سلك التنبيه؟

لأنه قطع السّلك. أو نمتُ في أثناء رنين الجرس. أو لأي سبب من مجموعة أسباب أخرى.

لماذا قد يغادر في حين أن ما ينشده موجود هنا؟

من يعلم ما الذي ينشده؟

أنت تعلمين ما الذي يريده.

أنا جائعة جداً، أبي.

حاولي أن تفكري في شيء آخر.

يهدر غمر من ماء بارد عذب.

سوف تنجين يا عزيزتي.

كيف في وسعك أن تعرف؟

لأن الماسة في جيب معطفك، لأني تركتها هناك لتحميك.

كل ما فعلته هو تعريضي لمزيد من الخطر.

إذاً لماذا لم يقصف المنزل، لماذا لم يحترق؟

إنه صخرة، أبي. حصاة. هناك فقط حظ، سيئ أو جيد. حظ وفيزياء، هل تتذكر؟

أنت على قيد الحياة.

أنا على قيد الحياة فقط لأني لم أمت بعد.

لا تفتحي العلبة. سوف يسمعك، لن يتردد في قتلك.

كيف يمكنه قتلي إذا كان لا يمكن لي أن أموت؟

تتكرر الأسئلة مراراً وتكراراً، ينذر عقل ماري لور بالغليان. الآن تماماً وقفت على مقعد البيانو في آخر العلية وهي تمرر يديها على جهاز الإرسال العائد لإيتيين، تحاول أن تحيط علماً بمفاتيحه وموصلاته - هنا جهاز الحاكي، هنا مكبر الصَّوت، هنا واحد من أربعة أسلاك توصيل مربوطة إلى زوج من البطاريات - عندما تسمع شيئاً تحتها.

صوت.

بحذر شديد، تنزل عن المقعد وتضغط أذنها على الأرضية.

هو تحتها مباشرة. يتبوَّل في مرحاض الطابق السَّادس. يقطر جدولاً رفيعاً متقطعاً حزيناً ويتأوه كما لو أن العملية تعذبه. ينادي بين الآهات: «داس هويشين فيلت، فو بست دو، هويشين؟».

ثمّة خطب ما أصابه.

«داس هويشين فيهلت، فوبست دو هويشين؟».

لا جواب. مع من يتحدث؟

من مكان ما خلف المنزل يسمع خبط مدفع هاون بعيد، وصياح قنابل تندفع بسرعةٍ في الأعلى. تصغي إلى الألماني ينتقل من المرحاض نحو غرفة نومها. بتلك المشية العرجاء نفسها. يتمتم. مشوشاً. هويشين: ماذا تعني؟

تصر نوابض فراشها، قد تعرف ذلك الصوت أينما كان. كان يرقد في سريرها كل هذا الوقت؟ ستة أصوات مترددة واحد بعد الآخر، أعمق من مضادات الطائرات، أبعد أيضاً. مضادات بحرية. ثم يسمع صوت الطبول، الصُّنوج، أجراس من انفجارات، ترسم شبيكة قرمزية فوق السطح. ينتهي الهدوء المؤقت.

هاوية في أحشائها، صحراء في بلعومها، تخرج ماري لور إحدى العلبتين من معطفها. القرميدة والسكين في متناول يدها.

لا تفعلي.

إذا واصلت الإصغاء إليك، أبي، سوف أموت جوعاً والطعام بين يدي.

تظل غرفة نومها هادئة في الأسفل. تصل القذائف بأناة، تنطلق كل دورة بعد فاصل يمكن التنبؤ به، تخدش قطعاً مكافئاً قرمزياً طويلاً فوق السطح. تستغل صخبها لتفتح العلبة. إيييه تمضي القذيفة صارخة، دينغ

تقرع القرميدة على السكين، السكين على العلبة. انفجار رهيب بليد في مكان ما. قذيفة تتشظى، تنز في جدران عشرات المنازل.

إيييه دينغ. إيييه دينغ. مع كل ضربة صلاة. لا تدعه يسمع.

خمس ضربات عنيفة ويرشح السائل. مع الضربة السادسة تتمكن من فتح ربع دائرة وتثني الغطاء بشفرة السِّكين.

ترفعها وتشرب. باردة، مالحة: إنها فاصولياء. فاصولياء خضراء معلبة مطهوة. ماء الطهو لذيذ جداً، يبدو أن جسدها كله يمتد ليتشربه. تفرغ العلبة. صمتَ والدها في داخل رأسها.

الرؤوس

يمرر فرنر الهوائي عبر السَّقف المحطَّم ويصله بأنبوب مفتول. لا شيء. يجر زاحفاً على يديه وركبتيه سلك الهوائي حول محيط دائرة القبو، كما لو أنه يقيِّد فولكهايمر في الكرسي الذهبي. لا شيء. يطفئ الكشاف الخامد ويضغط السَّماعة على أذنه السَّليمة، ويغمض عينيه إزاء الظلمة، ويشغل جهاز المرسل المستقبل المرمَّم ويحرك الإبرة جيئةً وذهاباً على ملف التوليف، مكثفاً جميع حواسه في واحدة.

تشويش تشويش تشويش تشويش.

ربما هي مدفونة عميقاً جداً. ربما حطام الفندق يخلق ظلاً إلكترومغنطيسياً. ربما قطعة أساسية مكسورة في الراديو لم يتعرف إليها فرنر. أو ربما علماء الفوهرر المتفوقين هندسوا سلاحاً للقضاء على كل الأسلحة، وهذه الزاوية برمتها من أوروبا خربة مهشمة وفرنر وفولكهايمر هما الباقيان الوحيدان.

يخلع السَّماعات ويقطع الاتصال. انتهت المؤونة قبل زمن طويل، المطرات فرغت، والرسابة في قعر الجردل المليء بفراشي الدهان غير صالحة للشرب. تقيأ هو وفولكهايمر عدة مرات، وفرنر ليس واثقاً من أن في وسعه أن يأكل شيئاً بعد الآن.

البطارية في داخل الراديو فارغة تقريباً. ما إن تفرغ تماماً سوف يكون

لديهما البطارية الأميركية 11 فولت ذات القطة السوداء المطبوعة على جانبها. من ثم؟

ما هي كمية الأكسجين التي يبادلها جهاز التنفس عند شخص ما بثاني أوكسيد الكربون كل ساعة؟ كان هناك زمن عندما كان ليحلو لفرنر حل تلك الأحجية. الآن يجلس وقنبلتا فولكهايمر اليدويتان في حجره، يشعر باضمحلال آخر الاشياء السَّاطعة في داخله. يدير محور واحدة ومن ثم الثانية. قد يضرم فتيلهما فقط لينير هذا المكان، فقط ليرى ثانية.

انشغل فولكهايمر بتشغيل كشَّافه وتركيز شعاعه الضَّعيف في الزاوية القصيَّة، حيث تقف ثمانية أو تسعة من رؤوس الجص البيضاء على رفين، عدد منها مقلوب على جانبه. تبدو مثل رؤوس المانيكانات، عدا أنها مصممة بإتقان أكبر، ثلاثة بشوارب، اثنان صلع، واحد يرتدي قبعة جندي. حتى والضوء مطفأ، تتولى الرؤوس قوة غريبة في الظلمة: بيضاء ناصعة، ليس مرئية تماماً لكنها ليست مخفية كلياً، مغروسة في شبكيتي عيني فرنر، تكاد تتوهج في الظلمة.

صامت وساهر ولا يطرف.

خداع العقل.

وجوه، تشبح بنظرها.

يزحف نحو فولكهايمر في السَّواد: يجد عزاء في العثور على ركبة صديقه الضخمة في الظلمة. البندقية بجانبه. جثة بيرند في مكان ما في الخلف.

يقول فرنر: «هل سمعت يوماً القصص التي يروونها عنك؟».

– من؟

– الفتيان في شولبفورتا.

- سمعت بعضها.

- هل أعجبك؟ أن تكون العملاق؟ والجميع يفزع منك؟

- ليس مسلياً كثيراً أن تسأل عن طول قامتك طوال الوقت.

تنفجر قذيفة في مكان ما فوق سطح الأرض. في مكان ما في الخارج المدينة تحترق، البحر يتكسَّر، فواقع تضرب بأذرعها الخفيفة.

- كم هو طولك؟

يشخر فولكهايمر مرة، يضحك ضحكة أشبه بالنُّباح.

- هل تظن أن بيرند كان محقاً بشأن القنبلتين اليدويتين؟

«لا». يقول فولكهايمر ويأتي صوته متحفظاً: «قد تقتلانا».

- حتى لو بنينا نوعاً من الحواجز؟

- سوف نُسحق.

يحاول فرنر أن يميز الرؤوس عبر القبو في العتمة. إذا لم تكن القنابل اليدوية، ماذا إذاً؟ هل يؤمن فولكهايمر حقاً بأن شخصاً ما سوف يأتي وينقذهما؟ وأنهما يستحقان الإنقاذ؟

- إذاً سوف نكتفي بالانتظار؟

لا يجيب فولكهايمر.

- إلى متى؟

عندما تفرغ بطارية الراديو، يجب على البطارية الأميركية أن تشغل المرسل المستقبل ليوم آخر. أو يمكنه أن يوصل المصباح من كشاف فولكهايمر بها. سوف تعطيهما البطارية يوماً آخر من التشويش. أو يوماً آخر من الإرسال. لكنهما لن يحتاجا إلى الضوء لاستخدام البندقية.

هذيان

حافَّة أرجوانية تدور حول بصر فون رومبل. لا بد من أن شيئاً أصيب بسوء ما بسبب المورفين: ربما تناول الكثير، أو أن المرض استفحل بما فيه الكفاية ليفسد بصره.

رماد ينجرف عبر النافذة مثل الثلج، هل هو الفجر؟ الوهج في السَّماء قد يكون ضوءاً تبعثه النيران. ملاءات غارقة في العرق، بزته مبللة كما لو أنه كان يسبح في نومه. مذاق دم في فمه.

يزحف إلى طرف السَّرير وينظر نحو المجسَّم. لقد تفحَّص كل بوصة مربعة منه. حطم زاوية بعقب زجاجة نبيذ. الهياكل فيه مجوَّفة غالباً - القصر، الكاتدرائية، السُّوق - لكن لماذا يكلِّف نفسه عناء سحقها جميعاً بينما واحد منها مفقود، المنزل الذي هو في حاجة إليه تحديداً؟

خارجاً يبدو أن كل بناء آخر في المدينة المهجورة يحترق أو ينهار، لكن هنا أمامه العكس في المجسَّم: المدينة تصمد، لكن المنزل الذي يشغله غير موجود.

هل تكون الفتاة حملته معها عندما فرَّت؟ ممكن. لم يكن في حوزة العم عندما أرسلوه إلى حصن ناسيونال. تم تفتيشه جيداً، لم يحمل شيء سوى أوراقه الثبوتية - تثبَّت فون رومبل من ذلك.

في مكان ما جدار يتحطم، بناء يزن ألف كيلوغرام ينهار متحطماً.

أن يبقى المنزل صامداً في حين دمَّر عدد كبير من المنازل الأخرى، هو دليل كافٍ. لا بدَّ من أن يكون الحجر في الدَّاخل. ببساطة يجب أن يجده طالما هناك وقت. يثبته إلى قلبه وينتظر أن تدفع الإلهة يدها الملتهبة عبر مسطحاته وتحرق خلاياه المريضة. تحرق طريقه للخروج من هذه القلعة، ليخرج من هذا الحصار، ومن هذا المرض. سينجو. ببساطة عليه أن يجر نفسه لينهض من هذا السَّرير ويواصل البحث. اصنعه بانتظام أكبر. مهما استغرق من وقت. مزِّق المكان إرباً. ابدأ من المطبخ، مرة أخرى.

ماء

تسمع ماري لور أنين نوابض سريرها. تسمع الألماني يعرج خارجاً من غرفتها ويهبط الدَّرج. هل هو مغادر؟ استسلم؟

يبدأ المطر بالانهمار. تنقر آلاف القطرات الصَّغيرة على السَّطح. تقف ماري لور على أطراف أصابعها وتضغط أذنها على السَّقف تحت الألواح الإردوازية. تصغي إلى قطرات تدلف. ما كانت الصَّلاة؟ الصلاة التي تمتمتها السَّيدة مانِك يوم الباستيل عندما انفجرت الألعاب النارية؟

أيها الرب إلهنا نعمتك نار مطهرة.

كان عليها أن ترشد عقلها. تستعمل الإدراك والمنطق. كما قد يفعل والدها، كما قد يفعل البروفسور البحري العظيم بيير آروناكس في رواية جول فيرن. لا يعرف الألماني بأمر العليَّة. الحجر في جيبها، تملك علبة طعام واحدة. هذه مزايا.

المطر جيد أيضاً: سوف يخمد النيران. هل يمكنها أن تفوز ببعض منه لتشرب؟ تثقب فجوة في صخر السَّطح؟ وتستعملها بطريقة أخرى؟ ربما لتغطي على صخبها؟

تعلم بالضبط مكان الدلوين المطليين بالزنك: تماماً داخل باب غرفتها. يمكنها أن تصل إليهما، ربما تحمل واحداً معها أيضاً.

لا، سيكون حمله إلى الأعلى مستحيلاً. إنه ثقيل جداً، مثير للصخب،

كل ذلك الماء يتساقط في كل مكان. لكن يمكنها الذهاب إلى واحد منهما وتخفض وجهها فيه. يمكنها أن تملأ علبة الفاصولياء الفارغة.

مجرد التفكير في شفتيها على الماء - طرف أنفها يمس سطحه - يخلق حاجة بيولوجية ملحة تتجاوز أي شيء خبرته. في عقلها تسقط في بحيرة، الماء يملأ أذنيها وفمها، حنجرتها تنفتح. رشفة واحدة ويمكنها أن تفكر بصفاء أكبر. تنتظر أن يثير صوت والدها في رأسها اعتراضاً، لكن لا شيء يأتي.

تقدِّر المسافة نحو مقدمة الخزانة، إلى غرفة هنري، عبر السُّفرة، ونحو عتبة بابها بإحدى وعشرين خطوة تقريباً. تأخذ السِّكين والعلبة الفارغة عن الأرض وتدسهما في جيبها. تزحف نازلة درجات السلم السَّبع، وتظل مثبتة لوقت طويل إلى مؤخرة الخزانة. تصغي وتواصل الإصغاء. المنزل الخشبي الصغير ينتفخ على أضلاعها وهي جاثمة. داخل عليته الصَّغيرة، هل يوجد شبيهة مصغرة ماري لور وهي تنتظر، تصغي؟ هل تشعر تلك النسخة المصغرة منها بالظمأ نفسه؟ الصَّوت الوحيد هو دمدمة المطر وهو يحيل سان مالو إلى وحل.

قد تكون خدعة. ربما سمعها تفتح علبة الفاصولياء، نزل إلى الأسفل من دون أن يثير ضجة، وصعد بهدوء عائداً إلى الأعلى، ربما يقف عند الخزانة الكبيرة ومسدسه مسلول.

أيها الرب إلهنا نعمتك نار مطهرة.

تبسط يديها على ظهر الخزانة وتفتح اللوح. تنسحب القمصان عبر وجهها وتزحف عبرها. تضع يديها على أبواب الخزانة من الدَّاخل وتدفع أحدها فتفتحه.

ما من طلقات نارية. لا شيء. من النافذة التي بغير زجاج الآن، صوت

المطر وهو ينهمر على المنازل المحترقة، صوت الحصى تحركها الأمواج. تخطو ماري لور على أرض غرفة نوم جدها القديمة وتستحضره: فتى فضولي ذو شعر لماع تفوح منه رائحة البحر. إنه ممازح، حاضر البديهة، مفعم بالحيوية، يمسك إحدى يديها، بينما إيتيين يعثر على الأخرى، المنزل يصبح كما لو أنه قبل خمسين عاماً: والدا الفتيين المتأنقين يضحكان في الطابق السُّفلي، طاهية تقشِّر المحار في المطبخ، السَّيدة مانِك، خادمة شابة قادمة حديثاً من الريف، تغني على سيبة وهي تنفض الغبار عن الثريا...

أبي، أنت تملك مفاتيح كل شيء.

الفتيان يقودانها إلى القاعة. تمرُّ بالحمام. آثار رائحة الألماني عالقة في غرفتها: عطر يشبه رائحة الفانيليا. تحتها شيء عفن. لا يمكنها سماع شيء خلف المطر في الخارج، ونبضها ينبعث في صدغيها. تركع بصمت قدر الإمكان وتمرر يديها على طول أخاديد الأرضية. يبدو صوت أطراف أصابعها وهي تضرب على جانب الجردل، أعلى من ناقوس جرس كاتدرائية.

يهمهم المطر على السَّطح والجدران. يتقطَّر على النافذة التي بلا زجاج. تحيط بها من كل ناحية حصياتها وقواقعها. مجسَّم والدها. لحافها. في مكان ما هنا لابد أن يكون حذاؤها.

تخفض وجهها وتمس بشفتيها سطح المياه. يبدو لكل جرعة صوتٌ عالٍ كانفجار قنبلة. واحد ثلاثة خمسة، تتجرع تتنفس تتجرع تتنفس. رأسها كله داخل الجردل.

تنفس. موت. حلم.

هل يتحرك؟ هل هو في الطابق السُّفلي؟ هل هو عائد إلى الأعلى؟

تسعة أحد عشر ثلاثة عشر، لقد ارتوت. تتمدد أحشاؤها بالكامل،

تطوف، لقد شربت الكثير. تزلق العلبة داخل الجردل وتملأها. الآن لتتراجع من دون أن تصدر صوتاً. من دون أن ترتطم بجدار، الباب. من دون تعثر، من دون أن تريق الماء. تستدير وتبدأ بالزحف، العلبة الممتلئة بالماء في يسراها.

تصل ماري لور إلى عتبة باب غرفتها قبل أن تسمعه. هو على بعد ثلاثة أو أربعة طوابق نحو الأسفل، يفتش إحدى الغرف، تسمع ما يبدو مثل صندوق من «كراسي التحميل» ألقي على الأرضية. تقفز، تقعقع، وتتدحرج.

تمد يمناها، وهنا، تماماً داخل المدخل، تكتشف شيئاً كبيراً ومستطيلاً وقاسياً، مغطًّى بقماش. كتابها! الرواية! جالس هنا كما لو أن والدها وضعه لها. لا بد من أن الألماني قذفه عن سريرها. ترفعه بهدوء قدر الإمكان وتمسكه أمام معطف عمها.

هل يمكنها أن تنزل إلى الأسفل؟

هل يمكنها أن تتسلل مارة به وتخرج إلى الشّارع؟

لكن الماء الآن يملأ شعيراتها الدموية، محسناً دفق دمها، الآن تفكر بحدة أكبر. لا تريد أن تموت، لقد جازفت كثيراً جداً. حتى لو تمكنت من التسلل بأعجوبة دون أنه ينتبه الألماني، لا شيء يضمن أن الشوارع سوف تكون أكثر أماناً من المنزل.

تنزل إلى سفرة الدرج. إلى عتبة غرفة نوم جدها. تتلمس طريقها إلى الخزانة، تصعد عبر الأبواب المفتوحة، تغلقها بلطف من خلفها.

الروافد الخشبية

قنابل تتمايل في الأعلى، يرتجُّ القبو مثل قطارات شحن عابرة. يتخيَّل فرنر جنود المدفعية الأميركيين: مراقبون وأهداف متزنة على صخور أو مداسات دبابة أو درابزين فندق، يحسب ضباط الرماية سرعة الريح، درجة ارتفاع السبطانة، درجة حرارة الهواء، رجال الاتصال بأجهزة الاستماع المضغوطة إلى آذانهم، يحددون الأهداف.

ثلاث درجات إلى اليمين، كرر المدى. سكون، أصوات ضجرة توجِّه القصف.

ربما النوع نفسه من الأصوات التي يستعملها الله عندما ينادي الأرواح إليه.

من هذا الطريق، من فضلك.

فقط أرقام. رياضيات بحتة. عليك أن تروض نفسك على التفكير بتلك الطريقة. الأمر كذلك من جانبهم أيضاً.

يقول فولكهايمر بغتة: «كان جد والدي نشاراً في الفترة التي سبقت اختراع السفن البخارية، عندما كان كل شيء يبحر بالأشرعة».

في العتمة، لا يستطيع فرنر أن يكون واثقاً، لكنه يظن أن فولكهايمر واقفٌ، يمرر أطراف أصابعه على طول إحدى الروافد الثلاثة المتشظية

التي تسند السَّقف. ركبتاه مقوستان لتلائما ارتفاعه. مثل «أطلس» وهو على وشك أن ينزلق في رسمته.

يقول فولكهايمر: «في تلك الآونة، كانت أوروبا بجميع أرجائها في حاجة إلى الصواري لأسطولها البحري. لكن معظم البلاد كانت قد قطعت أشجارها الكبيرة. قال جدُّ والدي إن إنكلترا لم تملك شجرة واحدة جديرة بالقطع على الجزيرة برمتها. لذا كانت الصَّواري من أجل الأسطولين البريطاني والإسباني، والبرتغالي أيضاً، تستقدم من بروسيا، من الغابات حيث نشأت. عرف جدُّ والدي مكان تواجد جميع الأشجار السَّامقة. قد يتطلب قطع بعض من تلك الأشجار ما يبلغ مجموعهم خمسة رجال يعملون لمدة ثلاثة أيام. قال إن ضربات الفؤوس قد يكون أثرها بداية مثل أثر الإبرة على الفيل. قد تستهلك الجذوع الأكبر مئة نصل فأس قبل أن يصدر عنها صرير».

المدافع تصرخ، القبو يرتعد.

«قال جدُّ والدي إنه أحبَّ أن يتخيل الأشجار الكبيرة تنقل على مزالج خلف فرق من الخيول عبر أوروبا، عبر الأنهار، عبر البحر إلى بريطانيا، حيث تتم تعريتها ومعالجتها وترفع ثانية كصواري، حيث شهدت عقوداً من المعارك، منحت حياة أخرى، لتبحر على المحيطات العظيمة، إلى أن تسقط أخيراً وتموت ميتتها الثانية».

قنبلة أخرى تمضي في الأعلى، وفرنر يتخيل أنه يسمع خشب الروافد الضَّخمة فوقه يتشظَّى. كانت تلك الكتلة الفحمية سابقاً نباتاً أخضر، سرخساً أو قصباً عاش قبل مليون عام، أو ربما قبل مليوني عام، أو ربما مئة مليون. هل يمكنكم أن تتخيلوا مئة مليون عام؟

يقول فرنر:

- في مسقط رأسي، يقتلعون الأشجار. الأشجار التي تعود إلى ما قبل التاريخ.

- كنت مستميتاً كي أغادر.

- وأنا أيضاً.

- والآن؟

يتفسَّخ بيرند في الزاوية. تتحرك يوتا عبر العالم في مكان ما، تراقب ظلالاً تتفكك عن الليل، تشاهد عمال مناجم يعرجون في الفجر. كان كافياً عندما كان فرنر فتى، ألم يكن؟ عالم من زهور برية يتفتح عبر أشكال من أجزاء صدئة منسلخة. عالم من التوت وقشور الجزر وحكايات السَّيدة إلينا الخيالية. رائحة القطران الحادَّة، والقطارات التي تمر، والنحل يئز في صناديق الشّباك. وتر وسفد وسلك وصوت على الراديو يمنحه نولاً ليغزل عليه أحلامه.

جهاز الإرسال

آلة غريبة، صنعت قبل سنوات، للتحدث مع شبح، موضوعة على الطاولة قريبة جداً من المدخنة. تحتها زوج البطاريات البحرية. تزحف ماري لور نحو مقعد البيانو بحذر قدر المستطاع، وتجلس عليه بهدوء. شخص ما لا بد يملك جهاز راديو - فرقة الإطفائية، إذا بقيت واحدة، أو المقاومة، أو الأميركيون الذين يقصفون المدينة بالصواريخ. الألمان في حصونهم تحت الأرضية. ربما إيتيين نفسه. تحاول أن تتخيله محدباً في مكان ما، يدير بأصابعه قرص راديو متخيل. ربما يحسبها ميتة. ربما يحتاج فقط إلى أن يسمع بصيص أمل.

تمرر أصابعها على طول أحجار المدخنة، إلى أن تجد الرافعة التي ركَّبها عمها هناك. تضغط بكل ثقلها عليها، ويصدر الهوائي ضجة صرير خافتة فوق السَّطح، عندما ترتفع مناظيره.

صاخب جداً.

تنتظر. تعد حتى المئة. لا صوت ينبعث من الطَّابق الأرضي. تعثر أصابعها على مفتاحين تحت الطاولة: واحد لمكبر الصَّوت، والآخر لجهاز الإرسال، لا يمكنها تذكر أي مفتاح يخصُّ أي واحد منهما. تدير واحداً، ثم الآخر. تنقر صمامات كهربائية داخل جهاز الإرسال الكبير.

هل الصَّوت مرتفع جداً، أبي؟

ليس أعلى من صوت النسيم. صوت النيران الخافت.

تتبع خطوط الأسلاك إلى أن تتيقَّن من أنها تمسك بمكبر الصَّوت في يدها.

أن تغمض عينيك هو أمر لا يشبه العمى. يوجد تحت عالمك المكوَّن من السَّماوات والوجوه والمباني عالم أولي وقديم، مكان حيث تتفتت مستويات سطحية وأصوات تتمزق أسراباً عبر الهواء. في وسع ماري لور الجلوس في عليَّة مرتفعة فوق الشارع وتسمع حفيف الزنابق في مستنقعات تبعد مسافة ميلين. تسمع الأميركيين يعدون عبر الحقول، يوجهون مدافعهم الضَّخمة عند دخان سان مالو، تسمع عائلات تشهق حول مصابيح في الأقبية، غربان تثب من كومة إلى أخرى، ذباب يحط على الجثث في الخنادق، تسمع أشجار التَّمر الهندي ترتعش وطيور الزرياب تصرخ وعشب الكثبَّات الرملية يحترق، تشعر بقبضة الجرانيت الضَّخمة، تغوص عميقاً في قشرة الأرض، التي تقع عليها سان مالو، والمحيط يطبق عليها من الجهات الأربع، والجزر الخارجية ثابتة باطراد إزاء المد المدوِّم، تسمع أبقاراً تشرب من المعالف الحجرية، والدلافين ترتفع عبر ماء القنال الأخضر. تسمع عظام الحيتان الميتة تتحرك على بعد خمسة فراسخ نحو الأسفل، يقدِّم نخاعها من الطعام ما يكفي مدة قرن لمدن من المخلوقات التي سوف تعيش حياتها بأكملها ولن ترى يوماً فوتوناً أرسلته الشمس. تسمع حلزوناتها في الكهف تجر أجسادها على الصخور.

بدل أن أقرأها لك، ربما يمكنك أن تقرئيها لي؟

تفتح بيدها الأخرى الرواية في حجرها. تجد السُّطور بأصابعها. تقرِّب مكبر الصَّوت من شفتيها.

صوت

في صباح يومه الرابع محتجزاً تحت ما بقي من فندق النَّحل، يصغي فرنر إلى الراديو الذي تم إصلاحه، يدير مفتاح الضبط جيئة وذهاباً، عندما يسمع صوت فتاة مباشرة في أذنه السليمة: عند الثالثة صباحاً أيقظني صوت ضربة عنيفة. يفكِّر: إنه الجوع، الحمَّى، أنا أتخيل أموراً، عقلي يرغم التشويش على التآلف...

تقول: جلست في السَّرير وحاولت سماع ما يجري، لكن فجأة كنت مقذوفة في وسط الغرفة.

تتحدَّث بصوت منخفض، بفرنسية منطوقة على نحو مثالي، لكنتها أكثر نضارة من لكنة السَّيدة إلينا. يضغط سماعتي الرأس على أذنه...

تقول: من الواضح إن النوتيلوس اصطدمت بشيء ومن ثم مالت بزاوية حادة...

تدوِّر حرف الراء وتمط حرف السِّين. مع كل مقطع لفظي، يبدو أن الصَّوت يحفر أعمق قليلاً في دماغه. شابٌ، عالٍ، بالكاد أكثر من همس. إذا كان هذياناً، فليكن.

انقلب واحد من تلك الجبال الجليدية وضرب النوتيلوس عندما كانت تطوف تحت الماء. انزلق الجبل الجليدي حينها تحت بدنها ورفعها بقوة لا تقاوم في الماء الضحل...

يمكنه سماعها تبلل قمة فمها بلسانها. لكن من كان ليقول إننا في تلك اللحظة لم نكن لنصطدم بالجانب السفلي من الحاجز، وبالتالي ننسحق على نحو رهيب بين سطحين من الجليد؟

يعود التشويش ثانية، مهدداً بأن يغمرها، وهو يحاول يائساً أن يقاتله، هو طفل في عليته، يتشبث بحلم لا يريده أن يغادر، لكن يوتا تضع يداً على كتفه وتهمس موقظة إياه.

كنا عالقين في الماء، لكن ارتفع جدار جليدي لماع بعلو عشرة أمتار على كل جانب من النوتيلوس. فوق وتحت كان هناك الجدار نفسه.

تتوقف عن القراءة فجأة والتشويش يهدر. عندما تتحدث ثانية، أصبح صوتها هسهسة لجوجة. إنه هنا. إنه تحتي تماماً.

ثم ينقطع البث. يدير مفتاح الضبط، يحول النطاقات: لا شيء. يخلع السّماعة ويتحرك في عتمة تامة نحو مكان جلوس فولكهايمر ويختطف ما يظن أنها ذراعه. «سمعت شيئاً. من فضلك...».

لا يتحرك فولكهايمر، يبدو كما لو أنه قدَّ من خشب. يشدُّ فرنر بكل ما أوتي من قوة، لكنه ضئيل للغاية، ضعيف جداً، لا تكاد القوة تواتيه حتى تهجره.

«يكفي»، يأتي صوت فولكهايمر من العتمة: «لن تفيد في شيء». يجلس فرنر على الأرض. في مكان ما في الدَّمار فوقهما، تصدر قططٌ صوت عويل. تتضور جوعاً. مثله، مثل فولكهايمر.

وصف فتى في شوبلفورتا مرة لفرنر تجمعاً في نورمبرغ، قال:

محيط من الرايات والأعلام، جماهير من الفتيان يزدحمون في الأضواء، والفوهرر نفسه على مذبح يبعد مسافة نصف ميل، تنير أضواء كاشفة أعمدة من خلفه، الجو مشبع بالمعنى والغضب والاستقامة، هانز

شيلزر مفتون به، هربرت بومزيل مفتون به، كل فتى في شولبفورتا مفتون به، والشخص الوحيد في حياة فرنر الذي تمكن من رؤية كل تلك الصناعة المسرحية كانت أخته الصغرى. كيف؟ كيف فهمت يوتا أكثر بكثير حول كيفية عمل العالم؟ بينما هو لم يعرف إلا النذر اليسير؟

بلسانها. لكن من كان ليقول إننا في تلك اللحظة لم نكن لنصطدم بالجانب السفلي من الحاجز، وبالتالي ننسحق على نحو رهيب بين سطحين من الجليد؟

هو هنا. هو هنا تحتي تماماً.

افعل شيئاً. أنقذها.

لكن الله هو مجرد عين باردة بيضاء، ربع قمر متزن فوق الدُّخان، يطرف، يطرف، بينما تنسحق المدينة تدريجياً متحولة إلى غبار.

تسعة

أيار 1944

حافَّة العالم

يقرأ فولكهايمر على مسامع فرنر، في مؤخّرة الأوبل. تبدو الورقة التي كتبت يوتا عليها أكبر حجماً بقليل من منديل ورقي في كفيه الضّخمتين.

... أوه والسَّيد سيدلر المسؤول عن المناجم أرسل مكتوباً يهنئك فيه على نجاحاتك. يقول إن الناس يقدرون. هل هذا يعني أن في وسعك المجيء إلى البيت؟ طلب هانز بفيفيرنج مني أن أخبرك: «الرصاصة تخشى الشُّجاع». ولو أني أزعم أنها نصيحة سيئة. تشعر السَّيدة بتحسُّن في أسنانها، لكنها لا تستطيع أن تدخن، ما يجعلها غريبة الأطوار، هل أخبرتك أنها بدأت تدخن...

من فوق كتف فولكهايمر، عبر نافذة هيكل الشَّاحنة الخلفيَّة المكسورة، يشاهد فرنر طفلة ذات شعر أحمر في دثار مخملي تعوم على مسافة ستَّة أقدام أعلى الطريق. تمرُّ عبر الأشجار ولافتات الطريق، تدور حول المنعطفات، لا مفر منها مثل قمر.

يدير نيومان واحد سيَّارة الأوبل غرباً تدريجياً، ويتكوَّر فرنر تحت المقعد في المؤخرة ولساعات لا يأتِ بأي حركة، محزَّم بغطاء، رافضاً الشَّاي، اللحم المعلَّب، بينما تطارده الطفلة العائمة عبر الريف. فتاة ميتة

في السَّماء، فتاة ميتة من النَّافذة، فتاة ميتة على بعد ثلاث بوصات. عينان نديتان، وتلك العين الثالثة مكان فجوة الرصاصة، لا تطرف أبداً.

يثبون عبر سلسلة من بلدات صغيرة خضراء حيث تحدُّ أشجار مقطوعة الرأس قنوات خاملة. زوج من نسوة على الدَّراجات الهوائية تصعدان الطريق وتتثاءبان عند الشَّاحنة وهي تمر: شاحنة جهنمية أرسلت لتفسد بلدتهما.

«فرنسا». يقول بيرند.

تنجرف ظلال من أشجار الكرز في الأعلى، ملأى بالزهور. يفتح فرنر الباب الخلفي، ويدلي قدميه على المصد الخلفي، كعباه تماماً فوق الطريق المتدفق. يتدحرج حصان على ظهره في العشب، تزين السَّماء خمس سحب بيضاء.

يترجلون في بلدة تدعى «إيبرناي»، ويجلب صاحب الفندق نبيذاً وأفخاذ دجاج ومرق يتمكَّن فرنر من الاحتفاظ به في معدته. يتحدَّث النَّاس إلى الطاولات من حولهم باللغة التي همست له بها السَّيدة إلينا في طفولته. أرسل نيومان واحد للعثور على الوقود، ونيومان اثنان يشارك بيرند في نقاش عمَّا إذا استعملت أمعاء الأبقار كخلايا قابلة للانتفاخ في مناطيد الحرب الأولى أم لا، وثلاثة فتيان يعتمرون قبعات «البيريه» ينظرون من حول عضادة باب ويرمقون فولكهايمر بعيون واسعة. من خلفهم، تشكل ست زهرات من الأقحوان الأصفر في الغسق هيئة الفتاة الميتة، ثم تصبح زهوراً مرة أخرى.

يقول صاحب الفندق: «هل تودُّ المزيد؟».

لا يقدر فرنر على هزِّ رأسه. الآن تماماً هو متخوِّف من وضع يديه، خشية أن تعبرا مباشرة من خلال الطاولة.

يقودون طوال الليل ويتوقّفون فجراً عند نقطة تفتيش عند طرف بريتاني الشّمالي. من البعيد تشعُّ قلعة سان مالو المسوَّرة. تشكِّل السُّحب شرائط منتشرة باللونين الرَّمادي الفاتح والأزرق، والمحيط من تحتها، يفعل المثل.

يُبرز فولكهايمر أوراق أوامرهم إلى خفير. يخرج فرنر من الشّاحنة، من دون أن يطلب الإذن، وينزلق من فوق كاسر الأمواج المنخفض على الشّاطئ. يلتف عبر سلاسل من حواجز، ويتوجَّه نحو خط المد. يمتدُّ إلى يمينه خط من عقبات مضادَّة للغزو، لها شكل «السُّلاميات» في لعبة الأحجار الخمسة التي يلعبها الأطفال، منظومة مع سلك شائك، تمتد مسافة ميل على الأقل على حافَّة الشّاطئ.

لا يوجد آثار أقدام على الرمل. حصى وجذاذات من الحشائش منظومة في خطوط صدفية. ثلاث جزر خارجية تحمل حصوناً حجريةً منخفضة، تتوهَّج منارة خضراء على طرف رصيف الميناء. يبدو مناسباً بطريقة ما، أن يصل إلى حافَّة القارة، ألا يبقى أمامه سوى البحر المطروق. كما لو أنها نقطة النهاية التي كان فرنر يتقدَّم نحوها منذ أن غادر زولفرين.

يغمس يداً في الماء، ويضع أصابعه في فمه ليتذوَّق الملح. يصرخ شخص ما باسمه، لكن فرنر لا يلتفت، هو لن يرغب في شيء آخر أكثر من الوقوف هنا طوال الصَّباح ومشاهدة عباب الموج يتحرَّك تحت الضُّوء. إنهم يصرخون الآن، بيرند، ثم نيومان واحد، وأخيراً يلتفت فرنر ليراهم يلوحون، ويسير بحذر على الرمل عائداً عبر خطوط السلك الشائك نحو سيارة الأوبل.

دستة من الأشخاص يشاهدون. حراس، حفنة من أهل البلدة. كثير منهم أيديهم على أفواههم.

يصيح بيرند: «اخطُ بحذر، أيها الفتى! هناك ألغام! ألم تقرأ اللافتات؟».

يصعد فرنر إلى مؤخرة الشَّاحنة ويصالب ذراعيه.

«هل فقدته تماماً؟». يسأله نيومان اثنان.

يضغط الأشخاص القلة الذين يرونهم داخل المدينة القديمة، ظهورهم على الجدران، ليفسحوا الطريق لسيارة الأوبل البالية. يتوقف نيومان واحد عند منزل مؤلف من أربعة أدوار، مصاريع نوافذه زرقاء باهتة. يعلن: «مقر قيادة المنطقة». يمضي فولكهايمر إلى الداخل، ويعود مع عقيد يرتدي بزة القتال: معطف الدفاع الوطني وحزام عال وجزمة سوداء عالية السَّاقين. خلفه تماماً يأتي مساعدان.

«نحن نعتقد أنهم يبنون شبكة»، يقول أحد المساعدين: «الأرقام المشفَّرة متبوعة بإعلانات، ولادات وعمادات وخطوبات ووفيات».

«ثم هناك موسيقى، تقريباً في كل مرة موسيقى»، يقول الثاني: «لا نعرف ماذا تعني».

يجر العقيد إصبعين على طول خط فكه المثالي. يحدِّق فولكهايمر فيه، من ثمَّ في مرافقيه كما لو أنه يطمئن أطفالاً جزعين من أن ثمة ظلماً سيتم دفعه، يقول: «سوف نجدهم، لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً».

أرقام

يزور رينهولد فون رومبل طبيباً في نورمبرغ. يبلغه الطبيب إن الورم، في حنجرة الرقيب الأول، نما حتى بلغ أربعة سنتيمترات قطرياً. قياس الورم في المعي الصَّغير أكثر صعوبة.

يقول الطبيب: «ثلاثة أشهر، ربما أربعة».

بعد ساعة، يجلس فون رومبل إلى مأدبة عشاء. أربعة أشهر، مئة وعشرون مطلع شمس، مئة وعشرون مرَّة عليه أن يجر جسده الفاسد من السَّرير ويزرر بذلته الرسمية. يتحدث الضباط إلى الطاولة بغضب عن أرقام أخرى: ينسحب الجيشان الألمانيان الثَّامن والخامس شمالاً عبر إيطاليا، قد يكون الجيش العاشر محاصراً. قد يخسرون روما.

- كم عدد الرجال؟

- مئة ألف.

- كم عدد المركبات؟

- عشرون ألفاً.

قدمت مكعبات مملحة ومفلفلة من لحم الكبد، مغموسة في صلصة مرق اللحم أرجوانية اللون. عندما رفعت الأطباق، لم يكن فون رومبل قد مسَّها. مجموع ما بقي معه ثلاثة آلاف وأربعمئة مارك. وثلاث ماسات صغيرة يحفظها في مغلف داخل محفظته. ربما تزن كل واحدة قيراطاً.

تتحدث امرأة إلى الطاولة بحماس عن سباق كلاب الصَّيد، السُّرعة، الاندفاع الذي تشعر بها حينما تشاهده. يمد فون رومبل يده إلى مقبض فنجان قهوته المثني، يحاول أن يخفي الارتعاش. يمس نادل ذراعه: «اتصال من أجلك سيدي، من فرنسا».

يمشي فون رومبل مترنحاً عبر باب دوّار. يضع النادل هاتفاً على طاولة ويتراجع.

«الرقيب الأول؟ معك جين برينون». لا يستحضر الاسم شيئاً في ذاكرة فون رومبل.

– لدي معلومات عن صانع الأقفال. الذي سألت عنه السَّنة الماضية.

– لو بلان؟

– نعم، دانيل لو بلان. لكن فريبي، سيدي. هل تتذكر؟ لقد عرضت أن تساعده؟ قلت إذا عثرت على معلومات، قد تساعده؟

ثلاثة سُعاة، وُجد اثنان، بقيت أحجية واحدة أخيرة يجب حلها. يحلم فون رومبل بالإلهة كل ليلة تقريباً: شعر من لهب، أصابع من الجذور. جنون. حتى وهو يقف إلى الهاتف، ينفتل لبلاب حول عنقه، يصعد إلى أذنيه.

– نعم، نسيبكِ. ما الذي اكتشفته؟

– اتُّهم لو بلان بالتآمر، شيء يتعلق بقصر في بريتاني. أوقف في شهر كانون الثَّاني عام 1941 إثر وشاية من أحد السكان. وجدوا رسومات، مفاتيح عامة. التقطت له صوراً أيضاً وهو يأخذ قياسات في سان مالو.

– في معسكر؟

– لم أتمكَّن من معرفة ذلك. النظام دقيق إلى حدٍّ ما.

– ماذا عن المخبر؟

- شخص من سان مالو يدعى ليفيت، اسمه الأول كلود.

يفكِّر فون رومبل. الابنة الضَّريرة، الشَّقة في شارع دي باتريرش. مهجورة منذ شهر حزيران عام 1940 بينما يسدِّد متحف التَّاريخ الطبيعي الإيجار. أين لك أن تهرب، إذا كان عليك أن تهرب إلى مكان ما؟ إذا كنت تحمل شيئاً ثميناً؟ وفي صحبتك ابنة ضريرة؟ لماذا سان مالو إلا إذا كان يعيش هناك من تثق به؟

تقول جين برينيون: «هل ستساعد قريبي؟»

يقول فون رومبل: «شكراً جزيلاً لكِ»، ويعيد السَّماعة إلى مهدها.

أيار

تبدو الأيام الأخيرة من شهر أيار عام 1944 في سان مالو لماري لور شبيهة بآخر أيام شهر أيار عام 1940 في باريس: ضخمة وناتئة وعابقة بالرائحة. كما لو أن جميع الكائنات الحيَّة تهرع لتؤسس لها موطئ قدم قبل أن يصل طوفان ما. يفوح الهواء في الطريق إلى مخبز السَّيدة رويل برائحة الآس والماغنوليا والملِّيسة، تطفح دوالي الويستريا بالزهور، في كل مكان تتدلى قناطر وستائر وقلائد من الزهور.

تعد مصارف المياه: تجتاز واحداً وعشرين إلى الجزار، صوت خرطوم يبلل البلاط، عند الخامس والعشرين، هي عند المخبز. تضع قسيمة التموين على النُّضد. «رغيف خبز عادي، من فضلك».

«وكيف حال عمك؟». الكلمات متشابهة لكن صوت السَّيدة رويل مختلف، تكتنفه العاطفة.

– عمي بخير، شكراً لك.

تقدم السَّيدة رويل على فعل شيء لم يسبق لها أن أقدمت عليه: تمد يدها عبر النُّضد وتطوق وجه ماري لور براحتيها المكسوتين بالطحين.

– أنت طفلة مدهشة.

– هل تبكين يا سيدة؟ هل كل شيء على ما يرام؟

– كل شيء رائع ماري لور.

تنسحب اليدان، يأتيها الرغيف: ثقيلاً، دافئاً، أكبر من المعتاد.

- قولي لعمك إن السَّاعة أزفت. وإن للحوريات شعراً مصبوغاً.

- الحوريات يا سيدتي؟

- إنهنَّ قادمات عزيزتي. خلال أسبوع. مدي يديك.

عبر النضد تأتي ملفوفةٌ باردة، نديَّة، بحجم قذيفة مدفع. تتمكن ماري لور بصعوبة من وضعها في حقيبتها.

- شكراً لك سيدتي.

- الآن اذهبي إلى البيت.

- هل الطريق آمن أمامي؟

- مثل ماء يسيل من الصخر. لا شيء في طريقك. إنه يوم جميل. يوم للذكرى.

أزفت السَّاعة. شعر الحوريات مصبوغ. كان عمها يسمع شائعات عبر الراديو خاصته عن أنه في الجهة الأخرى من القنال، في إنجلترا، يتجمَّع أسطول ضخم، سفينة تلو أخرى تم الاستحواذ عليها - مراكب صيد وعبَّارات مزودة، مجهزة بالأسلحة: خمسة آلاف مركب، أحد عشر ألف طائرة، خمسون ألف عربة.

بدل أن تنعطف نحو اليسار عند التقاطع مع شارع ديستريه، باتجاه البيت، تنعطف إلى اليمين خمسين متراً نحو الأسوار، مئة أخرى تقريباً على طول قاعدة الجدران، تخرج من جيبها مفتاح هارولد بازان الحديدي، الشَّواطئ مغلقة منذ عدة أشهر، مزروعة بالألغام ومسوَّرة بسلك شائك، لكن هنا في وجار الكلب القديم، بعيداً عن مرأى الجميع، يمكن لماري لور أن تجلس بين حلزوناتها، وتحلم أنها في عقل عالم الأحياء العظيم آروناكس، ضيف الشَّرف والسَّجين على متن آلة الفضول العظيمة التي يملكها القبطان نيمو،

متحررة من الأمم والسياسة، تطوف عبر عجائب البحر الملونة. أوه، أن تكون حرة! أن تتمدد مرة أخرى في حديقة النباتات مع أبيها، أن تشعر بيديه على يديها، أن تسمع صوت ارتجاف بتلات التوليب في مهب الريح. لقد جعل منها مركز حياته الحار المتوقد، جعلها تشعر كما لو أن كل خطوة تخطوها ذات شأن.

ألا تزال هناك، أبي؟

هنَّ قادمات، عزيزتي. خلال الأسبوع.

صيد (مجدداً)

يبحثون ليل نهار. في سان مالو، دينار، سان سيرفان، سان فانسان. يقود نيومان واحد شاحنة الأوبل البالية برفق عبر شوارع ضيقة للغاية حتى أن جانبي الشَّاحنة يحتكان بالجدران. يمرون بمحل صغير لبيع الفطائر مكسورة نوافذه، ومخابز مغلقة، ومطاعم صغيرة فارغة، ومنحدرات التلال مكتظة بمجندين روس يصبون الإسمنت، وموسات ضخام الجثة تحملن الماء من الآبار، ولا يجدون بثاً إذاعياً من النوع الذي وصفه مساعدا العقيد. فرنر يمكنه استقبال إذاعة البي بي سي من الشَّمال ومحطات دعائية من الجنوب، أحياناً يتمكن من الوقوع على نقل عشوائي لشيفرة مورس. لكنه لا يسمع عن إعلانات ولادة أو زواج أو موت، ما من أرقام، ما من موسيقى.

الغرفة التي أعطيت لفرنر وبيرند في الطابق العلوي في فندقٍ مستولى عليه في المدينة ضمن الأسوار، أشبه بمكان لم يرغب ذلك الزمان منه بشيء: حلياتٌ رباعية من الجص عمرها ثلاثمئة عام وحروف استهلالية راحيَّة الشَّكل وأبواق لولبية من حبال من الفاكهة تزين السَّقف. ليلاً تتمشى فتاة فيينا الميتة عبر القاعات. لا تنظر إلى فرنر وهي تمر ببابه المفتوح، لكنه يعلم أنه هو من تطارده.

يقلِّب مدير الفندق كفيه، بينما يذرع فولكهايمر البهو. تزحف طائرات

عبر السَّماء، تبدو لفرنر بطيئة بما لا يصدَّق. كما لو أنه في أية لحظة سوف تتوقف واحدة منها وتسقط في البحر.

يسأل نيومان واحد:

- طائراتنا؟ أم طائراتهم؟

- إنها عالية جداً فلا يمكن تمييزها.

يذرع فرنر ممرات الطابق الأعلى. في الطابق العلوي، فيما قد تكون أجمل غرف الفندق، يقف في حوض استحمام مسدس الزوايا، ويمسح السُّخام عن نافذة بكعب راحته. يدوِّم عدد من البذار التي حملها الهواء في الريح، ثم تنزل في فجوة الظلال بين المنازل. فوقه، في الظلام، تتكور ملكة نحل بطول تسعة أقدام، بعيون مركبة وزغب ذهبي على بطنها، عبر السَّقف.

عزيزتي يوتا،

أعتذر لأني لم أكتب خلال تلك الأشهر الماضية. الحمَّى فارقتني تقريباً الآن، وعليك ألا تقلقي. كنت أشعر بصفاء ذهن حاد مؤخراً، وما أريد أن أكتب عنه اليوم هو البحر، إنه يحتوي على العديد من الألوان: الفضي فجراً، الأخضر ظهراً، الأزرق الداكن في المساء، أحياناً يبدو أحمر تقريباً. أو سوف يتحول إلى لون القطع المعدنية القديمة. الآن ظلال السُّحب تنجر عبره، وبقع من ضوء الشَّمس تمس كل مكان. خطوط بيضاء من نوارس تنسحب فوقه مثل حباب.

أظن إنه الأمر الأثير عندي، من بين كل ما سبق أن رأيته. أحياناً أضبط نفسي أحدِّق فيه وأنسى واجباتي. إنَّه يبدو كبيراً بما يكفي لاحتواء كل ما قد يشعر به أي شخص على الإطلاق.

سلامي إلى السَّيدة إلينا ومن بقي من الأطفال.

ضوء القمر

يعملون هذه الليلة في جزء من المدينة القديمة، قريب من الأسوار الجنوبية. ينهمر المطر برفق شديد حتى أنه يتعذر تمييزه عن الضَّباب. يجلس فرنر في مؤخرة الأوبل، يغلب النعاس فولكهايمر الجالس على المقعد خلفه، بيرند جالس على الحاجز يغطي نفسه بعباءة، ومعه الجهاز الأول. لم يفتح سماعته منذ ساعات، وهذا يعني أنه نائم. الضَّوء الوحيد يأتي من الفتيل الكهرماني داخل مقياس الإشارة مع فرنر.

الطيف الترددي هو تشويش برمته، من ثم هو ليس كذلك.

ترسل السَّيدة «لابا» رسالة تقول إن ابنتها حامل، يرسل السَّيد فيري محبته إلى ابن عمه في سان فانسان.

تقطعه هبَّة عظيمة من التشويش. الصَّوت مثل شيء في حلم من زمن مضى. ترفرف نصف دستة أخرى من كلمات عبر فرنر بتلك اللكنة البروتونية: البثّ التالي يوم الخميس السَّاعة الحادية عشرة. ستة وخمسون اثنان وسبعون شيء ما... من الظلمة تحضر إلى فرنر ذكرى مثل قطار بست عربات، تتطابق نوعية البث وفحوى الصَّوت بكل وجه من الوجوه مع برامج الرجل الفرنسي الذي اعتاد سماعه، من ثم يعزف بيانو ثلاث نوتات موسيقية مفردة، متبوعة بزوج منها، تعلو النغمات المتآلفة بهدوء، كل واحدة شمعة تتقدم في عمق غابة...

تعرف بشكل فوري. كما لو أنه كان يغرق لأطول مدة يستطيع تذكرها وشخص ما حمله إلى الأعلى ليتنفس.

خلف فرنر تماماً، يظلُّ جفنا فولكهايمر مغمضين. يمكنه أن يرى، من خلال الفاصل بين الهيكل ومقدمة السَّيارة، أكتاف كل من نيومان واحد واثنان الهامدة. يغطي فرنر المقياس بيده. تلتف الأغنية ويعلو صوتها، وينتظر أن يفتح بيرند مكبر الصوت، أن يقول إنه سمع.

لكن لا شيء يأتي. الجميع نيام. ومع ذلك، ألم يشع الهيكل الصَّغير الذي يجلس فيه هو وفولكهايمر بهجةً؟

يعزف البيانو الآن لحناً طويلاً مألوفاً، يعزف عازف البيانو سلالم موسيقية مختلفة بكل واحدة من يديه - ما يبدو مثل ثلاث أيدي، أربعة - التآلفات مثل لآلئ تزداد سماكتها باطِّراد على شاطئ، وفرنر يرى يوتا بعمر ست سنوات تنحني نحوه، تعجن السَّيدة إلينا خبزاً في الخلفية، في حجره راديو كريستالي، لم تتقطع حبال روحه بعد.

يتدفق البيانو عبر المقطع الختامي، من ثم يعود التشويش بقوة.

هل سمعوا؟ هل يمكنهم سماع قلبه يطرق الآن على أضلاعه؟ هناك المطر، ينهمر برفق بمحاذاة المنازل المرتفعة. هناك فولكهايمر، يرتكز ذقنه على صدره العريض للغاية. قال فريدريك ليس لدينا خيارات، لا نملك حيواتنا، لكن في النهاية كان فرنر هو من ادَّعى بعدم وجود خيارات، فرنر الذي شاهد فريدريك يرمي ماء الجردل عند قدميه - لن أفعل - فرنر الذي وقف مكتوف الأيدي عندما بدأت العواقب تتهاطل كالمطر.

فرنر الذي راقب فولكهايمر يتقدَّم بجهد في منزل بعد آخر، الكابوس الضَّاري نفسه يحدث مراراً وتكراراً.

يزيل سماعتي الرأس ويسير بحذر بحذاء فولكهايمر ليفتح الباب

الخلفي. يفتح فولكهايمر عيناً، ضخمة، ذهبية، مثل الأسد. يقول: «لا شيء؟».

يرفع فرنر بصره نحو المنازل الحجرية المتساوقة جداراً إلى جدار، طويلة وبعيدة، واجهاتها رطبة، نوافذها معتمة. ما من مصابيح في أي مكان. ما من هوائيات. ينهمر المطر بنعومة شديدة، تقريباً بلا صوت، لكنه بالنسبة إلى فرنر يهدر.

يلتفت. يقول: «لا شيء». لا شيء.

هوائي

تقيم سريّةً عسكرية مؤلفة من ثمانية جنود في فندق النحل بقيادة ملازم نمساوي من سلاح الدِّفاع الجوي. يسخِّن الطاهي دقيق الشُّوفان مع قديد لحم الخنزير في مطبخ الفندق، بينما يفكك السبعة الآخرين جدراناً في الطابق الرابع بمطارق ثقيلة. يمضغ فولكهايمر بتؤدة، يرفع بصره بين الحين والآخر ليتأمّل فرنر.

البثّ التالي يوم الخميس السَّاعة الحادية عشرة ليلاً.

سمع فرنر الصَّوت الذي كان الجميع ينتظرون سماعه، وما الذي صنعه؟ كذب. ارتكب خيانة عظمى. كم من الرجال قد يكونوا في خطر بسبب هذا؟ ومع ذلك عندما يتذكر فرنر سماع ذلك الصَّوت، عندما يتذكر تلك الأغنية تكتسح رأسه، يرتجف فرحاً.

نصف مساحة فرنسا الشَّمالية محترقة. تلتهم الشَّواطئ الرجال - أميركيين، كنديين، بريطانيين، ألماناً، روساً - وعلى مدى النورماندي، تدمِّر قاذفات قنابل ثقيلة بلدات ريفية. لكن هنا في سان مالو، تنمو حشائش الشَّاطئ طويلة وزرقاء اللون، لا يزال بحارة ألمان يشغِّلون المثاقب في المرفأ، ومدفعيون ما زالوا يخزنون الذخيرة الحربية في الأنفاق، تحت حصن لا سيتيه.

يستعمل النمساويون في فندق النَّحل رافعة لإنزال مدفع 88 مليميتراً

على متراس في الأسوار. ثبتوا المدفع إلى حامل على شكل صليب وغطوه بقماش مموَّه. يعمل طاقم عمل فولكهايمر ليلتين على التعاقب، وذاكرة فرنر تخونه.

ترسل السَّيدة «الابا» رسالة تقول إن ابنتها حامل.

إذاً كيف، أيها الأطفال، يبني الدِّماغ، وهو يعيش من دون بريق نور، من أجلنا، عالماً مفعماً بالضوء؟

إذا كان الرجل الفرنسي يستعمل جهاز الإرسال نفسه الذي استعمله عندما كان البث يصل حتى زولفرين، سوف يكون الهوائي كبيراً. وإلا سيكون هناك سلك يبلغ طوله مئات الياردات. وعلى كل حال: شيء ما مرتفع، لا بد من أن يكون مرئياً.

في الليلة الثالثة بعد سماع البثِّ الإذاعي - الخميس - يقف فرنر في المغطس السداسي تحت ملكة نحل. والمصاريع مفتوحة، يمكنه أن ينظر إلى يساره، نحو فوضى من سقوف إردوازية. تمر طيور «جلم الماء» بخفة على الأسوار، ردن من بخار حجبت برج الكنيسة.

كلما تأمَّل فرنر المدينة القديمة، تلفته المداخن. ضخمة ومكومة في صفوف من عشرينات وثلاثينات، على امتداد كل كتلة سكنية. حتى برلين ليس فيها مداخن مثل تلك.

بالتأكيد. لا بدَّ من أن الفرنسي يستخدم مدخنة.

يسير مسرعاً عبر البهو ويتمشى في شارع «دي فورجور»، ثم شارع «دو دينان». يتطلع في المصاريع، مجاري الميازيب، باحثاً عن أكبال محصورة بين القرميد، أي شيء قد يكشف عن جهاز الإرسال. يذرع الشَّوارع جيئة وذهاباً حتى يؤلمه عنقه. لقد مضى وقت طويل على خروجه. سوف يوبخ بقسوة. فولكهايمر الآن يشعر بخطب ما. لكن حينها، تماماً عند السَّاعة

الحادية عشرة، يراه فرنر، لا يبعد أكثر من مسافة كتلة سكنية واحدة عن المكان الذي ركنوا فيه السيارة إلا لماماً: هوائي يمتد على طول مدخنة. لا يتجاوز عرضه عرض عصا مكنسة.

يرتفع ربما اثنا عشر متراً، ومن ثم ينطوي كما لو بسحر ساحر، على شكل حرف T بسيط.

منزل مرتفع على حافَّة البحر. موقع جيد بصورة مدهشة للبث. من مستوى الشَّارع، لا يكاد يكون الهوائي مرئياً. يسمع صوت يوتا: أراهن أنه بثَّ هذه البرامج من قصر ضخم، بحجم هذه المستعمرة كاملة، مكان فيه ألف غرفة وألف خادم. المنزل مرتفع وضيِّق، في واجهته إحدى عشرة نافذة. مبقع بإشنيات برتقالية اللون، قاعدته مكسوة بالطحلب.

الرقم 4 في شارع فوبوريل.

افتحوا أعينكم، وانظروا ماذا يسعكم أن تروا بها قبل أن تنغلق إلى الأبد.

يسرع الخطى إلى الفندق، خافض الرأس، يداه في جيوبه.

كلود الضَّخم

ليفيت العطَّار مترهِّلٌ وسَّمين، يبالغ في تبجُّحه. وهو يتحدَّث، يكافح فون رومبل ليحافظ على توازنه، تمازج عدد كبير من العطور في هذا المتجر يفوق الاحتمال. خلال الأسبوع الماضي، كان عليه القيام بعدد من الرحلات إلى دستة من العقارات المختلفة على طول ساحل البروتوني، شاقاً طريقه نحو بيوت صيفية بحثاً عن لوحات ومنحوتات، إمَّا غير موجودة أو أنها لا تثير اهتمامه. فقط لتبرير وجوده هنا.

يقول العطار: «نعم، نعم»، ترفرف نظرته نحو شارة فون رومبل، منذ بضع سنوات ساعد السُّلطات على إلقاء القبض على زائر للمدينة كان يأخذ مقاسات المباني. هو أقدم على فعل ما رآه عملاً صائباً فقط.

– أين كان يعيش في أثناء تلك الشُّهور، هذا السَّيد لو بلان؟

ينظر العطَّار شزراً، يفكِّر بترو. عيناه اللتان تحيط بقزحية كل منهما حلقة زرقاء، تصرخان برسالة واحدة: أريد. أعطني. يفكِّر فون رومبل: كل تلك المخلوقات المعذَّبة، تكدح تحت ضغوط مختلفة. لكن فون رومبل هو المفترس هنا. لا ينبغي له إلا أن يتحلَّى بالصَّبر. وألا يعرف التعب إليه سبيلاً. يزيل العقبات واحدة تلو الأخرى.

عندما يلتفت بنية الذهاب، تتهاوى ثقة العطار بنفسه: «انتظر، انتظر، انتظر».

يبقي فون رومبل يداً على الباب: «أين أقام السَّيد لو بلان؟».

- مع عمِّه، رجل عديم الفائدة، إنه فاقد العقل كما يقال.

- أين؟

«هناك تماماً». يشير، «الرقم أربعة».

مخبز

يمرُّ يوم كامل قبل أن يتمكَّن فرنر من إيجاد فرصة للعودة. باب خشبي، ثم بوَّابة حديدية. زركشة زرقاء على النَّوافذ. في الصَّباح، الضَّباب كثيف جداً حتى أنه لا يستطيع رؤية خط السَّقف. يتشاغل بأوهام يستحيل تحققها: سوف يدعوه الفرنسي للدخول، سوف يشربان القهوة، يتحدثان عن البرامج القديمة، وربما يستقصيان مشكلة مهمة تجريبية كانت تشكل عليه لسنوات، ربما سوف يري فرنر جهاز الإرسال.

مضحك. إذا ما رنَّ فرنر الجرس، سوف يتخيل الرجل المسن أنه موقوف بتهمة الإرهاب، وأنه قد يقتل رمياً بالرصاص مكان وقوفه. الهوائي على المدخنة سبب كافٍ للإعدام.

يمكن لفرنر أن يخبط على الباب، يلقي القبض على الرجل المسن، وسيصبح بطلاً.

يبدأ الضَّباب بتشرب الضُّوء. في مكان ما يفتح أحدهم باباً ويغلقه ثانية. يتذكَّر فرنر كيف قد تكتب يوتا رسائلها في اضطراب وتخربش البروفسور، فرنسا على المغلَّف وتضعها في صندوق البريد في السَّاحة. متخيلاً صوتها قد يعثر على أذنه كما عثر صوته على أذنها. واحد من بين عشرة ملايين.

تمرَّن ذهنياً طوال الليل على اللغة الفرنسية: قبل الحرب. استمعت إليك عبر الراديو. سوف يبقي بندقيته على كتفه، يديه إلى جانبيه، سوف

يبدو صغيراً، قزماً، لا يشكل أي تهديد على الإطلاق. سوف يجفل الرجل العجوز، لكن خوفه سوف يكون طيِّعاً. سوف يصغي. لكن بينما يقف فرنر في الضباب المتلاشي ببطء في آخر شارع فوبوريل يتدرَّب على ما سوف يقول، ينفتح الباب الرئيس للمنزل رقم 4، وتخرج فتاة، وليس عالماً مسناً مرموقاً. فتاة نحيلة جميلة خرنوبية الشَّعر ذات وجه كثير النَّمش، تضع نظارة وترتدي فستاناً رمادياً، تحمل حقيبة على أحد كتفيها. تستدير إلى يسارها، مباشرة نحوه، فينقبض قلب فرنر في صدره.

الشَّارع ضيِّق جداً، سوف تضبطه وهو يحدِّق فيها. لكن رأسها يتحرك بطريقة غريبة، وجهها مائل جانبياً. يرى فرنر عصا التَّجول وعدستي نظارتها العاتمتين، ويدرك أنها عمياء.

تقرقع عصاها على طول الشَّارع المرصوف بالحصى. تبعد عشرين خطوة. لا يبدو أن أحداً يراقب، جميع السَّتائر مسدلة. خمس عشرة خطوة. جواربها ممزَّقة وحذاؤها واسع جداً وفستانها الصُّوفي مبرقش بالبقع. عشر خطوات، خمس. تمر بجانبه في متناول ذراعه، رأسها يعلو رأسه بقليل. يتبعها فرنر من دون تفكير وهو لا يفهم ما يفعله إلا بالكاد.

يرتعد طرف عصاها عند ارتطامه بالسَّواقي، حين عثوره على كل مصرف للمياه. تمشي مثل راقصة باليه في خفَّي الرقص، قدماها مفصَّلتان مثل يدين، زورق يرتحل برشاقة في الضَّباب. تلتفت يمنة، ثم يسرة، تجتاز نصف شارع وتدخل بأناقة من باب متجر مفتوح. كتب على لافتة مستطيلة أعلاه: مخبز.

يتوقَّف فرنر. يتبدد أعلاه الضَّباب مِزقاً صغيرة، ويتبدَّى أزرق داكناً صيفياً. تسقي امرأة الزهور، ومسافر عجوز في سترة فضفاضة يمشي مع كلب من نوع «البودل». يجلس رقيب أول ألماني على مقعد، شاحب اللون ومصاب بتضخُّم الغدَّة الدَّرقية، والظلال منحوتة تحت عينيه.

يخفض صحيفته، يحدِّق مباشرة في فرنر، ثم يرفع صحيفته ثانية. لماذا ترتعش يدا فرنر؟ لماذا لا يمكنه التقاط أنفاسه؟ تخرج الفتاة من المخبز، تخطو برشاقة على حجر الرَّصيف، وتتوجَّه على الفور نحوه. يقرفص الكلب ليتبوَّل على الحصى، والفتاة تنحرف برشاقة إلى جهة اليسار كي تتفاداه. تقترب من فرنر للمرة الثَّانية، شفتاها تتمتمان بصوت منخفض، تعدُّ لنفسها - اثنان ثلاثة أربعة - مقتربة كثيراً جداً حتى أنه يتمكَّن من أن يعد النَّمش على أنفها، يشمُّ رائحة رغيف الخبز في حقيبتها. تتقطَّر مليون قطرة صغيرة من الضَّباب على زغب فستانها الصُّوفي، وعلى طول شعرها المفتول، ويطوِّقها الضُّوء بلون فضِّي.

يقف ثابتاً في مكانه. يبدو له عنقها الشَّاحب الطويل، وهي تمر، هشاً بشكل لا يصدَّق.

لا تنتبه إليه، تبدو أنها لا تعرف شيئاً سوى الصَّباح. يفكِّر: هذا هو النَّقاء الذين كانوا دوماً يلقون علينا المواعظ عنه في شولبفورتا.

يضغط ظهره على جدار. طرف عصاها يكاد أن يلمس طرف جزمته. ثم مرت، يتمايل الفستان بخفة، تهيم العصا جيئة وذهاباً، ويراقبها تواصل صعود الشَّارع إلى أن يبتلعها الضباب.

كهف

تصيب مدفعية من كتيبة الدِّفاع الجوي، طائرة أميركية فتسقطها. تتحطم في البحر عند «باراميه»، وطيارها الأميركي يتقدم نحو الشَّاطئ ويقع في الأسر. يعتبرها إيتيين كارثة، لكن السَّيدة رويل تشع غبطة. تهمس وهي تناول ماري لور رغيفاً: «وسيم كنجم سينمائي. أراهن أنهم جميعاً يشبهونه».

تبتسم ماري لور. كل صباح الأمر نفسه: الأميركيون أقرب من أي وقت مضى، الألمان منهكون عند خطوط الالتحام. كل أصيل تقرأ ماري لور لإيتيين من الجزء الثاني من «عشرون ألف فرسخ»، كلاهما في منطقة جديدة الآن. يكتب البروفسور آروناكس: عشرة آلاف فرسخ في ثلاثة أشهر ونصف، إلى أين نحن ذاهبون الآن، وماذا خبأ المستقبل لنا؟

تضع ماري لور الرغيف في حقيبتها، تغادر المخبز، وتلتف نحو الأسوار إلى كهف هارولد بازان. تغلق البوابة، ترفع حاشية فستانها، وتخوض في البركة الضَّحلة، تصلي ألا تصطدم بأي مخلوق وهي تمشي.

يرتفع المدّ. تجد محار البرنقيل، وشقائق نعمان البحر ناعمة كالحرير، تضع أصابعها برفق قدر مستطاعها على حلزون الشَّركية. يتوقف عن الحركة في الحال، يشفط رأسه وقوائمه داخل القوقعة. ثم يستأنف، صولجانا قرنيه التوأم يتمددان، جارين قوقعته الوردية فوق مزلجة جسده.

ماذا تنشدين، أيتها الحلزونة الصَّغيرة؟ هل تعيشين فقط في اللحظة الراهنة، أو هل تقلقين، مثل البروفسور آروناكس، بشأن مستقبلك؟

عندما تجتاز الحلزونة البركة وتبدأ صعود الجدار البعيد، تلتقط ماري لور عصاها وتخرج بخفيها الكبيرين المشبعين بالماء. تخطو عبر البوابة، وفيما هي على وشك أن تقفلها من خلفها تسمع صوتاً ذكورياً يقول: «صباح الخير يا آنسة».

تتعثر، وتكاد تقع وعصاها تصدر قعقعة.

- ماذا يوجد في حقيبتك هناك؟

يتحدَّث بفرنسية جيدة، لكن تستطيع أن تعرف أنه ألماني. يسد الزقاق بجسده. تسيل قطرات الماء من حاشية فستانها، حذاؤها ينضح الماء، من كلا الجانبين تنهض جدران شفافة. تبقي قبضة يدها اليمنى مثبَّتة حول صارية البوابة المفتوحة.

«ما هذا الذي في الخلف هناك؟ مخبأ؟». يبدو صوته قريباً على نحو رهيب، لكن من الصَّعب أن تعرف على وجه الثِّقة في مكان مكتظ بالصَّدى. يمكنها أن تحس بنبض رغيف السَّيدة رويل على ظهرها مثل كائن حي. تأوي في داخله - على نحو مؤكد تقريباً - قصاصة ورقية مطوية. عليها أرقام سوف تنطق بحكم الإعدام. على عمها، السَّيدة رويل، عليهم جميعاً.

تقول: «عصاي».

- لقد تدحرجت خلفك، عزيزتي.

ينبسط الزقاق خلف الرجل، من ثم ستارة اللبلاب المتدلية، من ثم المدينة. مكان حيث يمكنها أن تصرخ فيسمع صراخها.

- هل يمكنني العبور يا سيد؟

- بالتأكيد.

لكن يبدو أنه لا يتحرك. تصدر البوابة صريراً خفيفاً.

- ماذا تريد يا سيد؟

يستحيل أن تمنع صوتها من الارتجاف. لو يسأل ثانية عن الحقيبة سوف ينفجر قلبها.

- ماذا تفعلين هنا؟

- ليس مسموحاً لنا ارتياد الشَّواطئ.

- لهذا تأتين إلى هنا؟

- لأجمع الحلزونات. يجب أن أتقدَّم، يا سيد. هل يمكنني من فضلك أن أستعيد عصاي؟

- لكنك لم تجمعي أية حلزونات، يا آنسة.

- هل يمكنني العبور؟

- أولاً أجيبي على سؤال يتعلَّق بوالدك.

«والدي؟». شيء ما بارد في داخلها ازداد برودة. «أبي سيكون هنا في أية لحظة».

يضحك الرجل، وصدى ضحكته يتردد بين الجدران.

- في أية لحظة تقولين؟ والدك الذي في سجن يبعد مسافة خمسمئة كيلومتر؟

خيوط الرعب تراق في صدرها. كان عليَّ أن أصغي، أبي. لم يتوجَّب عليَّ الخروج أبداً.

«هيا الآن، أيتها الصَّغيرة الكتومة»، يقول الرجل: «لا داع لهذا الذعر».

ويمكنها سماعه يمد يده نحوها، تشم عفونة في أنفاسه، تسمع ذهولاً في صوته، وشيء ما - أنملة؟ - تنفض رسغها وهي تركض مبتعدة وتغلق البوابة في وجهه.

يتزحلق، يستغرق وقتاً أطول مما تتوقع لينهض على قدميه. تدير ماري لور المفتاح في القفل، وتضعه في جيبها، وتجد عصاها وهي تتراجع في فسحة وجار الكلب المنخفضة. يطاردها صوت الرجل البائس حتى عندما يظل جسده على الجانب الآخر من البوابة المقفلة.

- يا آنسة، لقد جعلتني أوقع صحيفتي. أنا فقط رقيب أول متواضع جئت إلى هنا لأطرح سؤالاً. سؤالاً بسيطاً واحداً، ثم سوف أغادر.

المد يخرخر، الحلزونات تحتشد. هل القضبان المعدنية ضيقة عليه، فلا يمكنه أن يحشر نفسه خلالها؟ هل مفاصلها صلبة بما فيه الكفاية؟ تصلي أن تكون كذلك. جسامة السُّور تحتجزها في اتساعها. كل عشر ثوان تقريباً تتدفق طبقة جديدة من مياه البحر الباردة. تستطيع ماري لور سماع الرجل يذرع المكان في الخارج، واحد - وقفة - اثنان واحد - وقفة - اثنان، عرج مترنح. تحاول أن تتخيل كلاب الحراسة التي قال هارولد بازان إنها عاشت هنا لقرون: كلاب بحجم الخيول. كلاب هتكت بطات سيقان الرجال. تجثم على ركبتيها. هي الحلزونة الكبيرة، مدرَّعة، منيعة.

رهاب الخلاء

ثلاثون دقيقة. تحتاج ماري لور إلى إحدى وعشرين دقيقة، عدَّها إيتيين عدَّة مرات. مرة ثلاثة وعشرون. غالباً أقل. لم تزد عن ذلك أبداً.

واحد وثلاثون.

إنه مسير أربع دقائق إلى المخبز، أربع للذهاب وأربع للإياب، وفي مكان ما على الطريق تختفي لثلاث عشرة أو أربع عشرة دقيقة أخرى. يعلم أنها اعتادت الذهاب إلى البحر - تعود وتفوح منها رائحة الطحالب البحرية، حذاؤها مبلل، أكمامها مزينة بالإشنيات أو شمرة البحر أو الأعشاب التي تسميها السَّيدة مانِك «بيوكا». هو لا يعرف إلى أين تذهب بالضَّبط، لكن لطالما طمأن نفسه من أنها تعتني بنفسها، ومن أن فضولها يحميها، وأنها أكثر كفاءة منه بألف شكل.

اثنتان وثلاثون دقيقة. من نوافذ الطابق الخامس خاصته لا يمكنه أن يرى أحداً. ربما تكون قد تاهت، تكشط الجدران بأصابعها عند حافَّة البلدة، تنجرف مبتعدة أكثر مع مرور كل ثانية. قد تكون خطت أمام شاحنة، غرقت في بركة صغيرة، خطفها مرتزق دنيء. شخص ما يقد يكون اكتشف أمر الخبز، الأرقام، جهاز الإرسال.

مخبز يحترق.

يهرع إلى الطابق السُّفلي وينظر من باب المطبخ نحو الزقاق. قطَّة

نائمة. شبه منحرف من ضوء الشَّمس على جدار الواجهة الشَّرقي. هذا كله خطؤه.

يتنفَّس إيتيين بسرعة. عند الدقيقة الرابعة والثلاثين وفقاً لساعة يده، ينتعل حذاءه وقبَّعة كانت لوالده. يقف في البهو مستجمعاً قواه. مرَّت أربع وعشرين سنة تقريباً على آخر مرة خرج فيها، حاول أن ينظر مباشرة في عين أحدهم، أن يبدي ما قد يعتبر مظهراً طبيعياً. لكن الهجمات كانت بارعة، غير متنبأ بها، مدمِّرة، تسللت عليه مثل لصوص. أولاً شؤم رهيب قد يملأ الهواء. ثم أي ضوء، حتى عبر الأجفان المغمضة، يصبح ساطعاً بشكل مؤلم جداً. لم يتمكَّن من السَّير بسبب ارتعاد قدميه. مقلتان صغيرتان طرفتا نحوه من حصى الرصف. تحركت جثث في الظلال. عندما كانت السَّيدة مانِك لتساعده في الذَّهاب إلى البيت، كان ليزحف نحو زاوية سريره الأكثر ظلمة، ويضع الوسائد حول أذنيه. يستنزف كل طاقته في تجاهل نبضاته.

يطرق قلبه ببرودة شديدة في قفص بعيد. يفكِّر: صداع قادم، صداع رهيب للغاية.

عشرون دقَّة قلب. خمس وثلاثون دقيقة. يلوي المزلاج، يفتح البوابة. ويخطو نحو الخارج.

لا شيء

تحاول ماري لور أن تتذكَّر كل ما تعرفه عن قفل ومزلاج البوابة، كل شيء تحسسته بأصابعها، كل ما كان والدها ليقوله لها. انتظمت ذراع حديدية عبر ثلاث حلقات صدئة، قفل قديم مجوَّف ذو حدبة صدئة. هل يمكن لطلقة أن تكسره؟ ينادي الرجل بين الحين والآخر وهو يمرر حافَّة صحيفته على قضبان البوابة. «وصل في حزيران، لم يعتقل حتى كانون الثَّاني. ما الذي كان يفعله طوال ذلك الوقت؟ لماذا كان يقيس المباني؟».

تجثم قرب جدار الكهف، الحقيبة في حجرها. الماء يصل حتى ركبتيها: بارد، حتى في شهر تموز. هل يمكنه أن يراها؟ تفتح ماري لور حقيبتها بحذر، تفتح الرغيف المخفي في داخلها، وتفتش بأصابعها عن لفافة الورق. هناك، تعد حتى الثلاثة وتزلق القصاصة الورقية في فمها.

ينادي الألماني: «فقط أخبريني إذا ترك والدك معك أي شيء»، أو تحدَّث عن حمل شيء للمتحف حيث كان يعمل. ثم سوف أبتعد. لن أخبر أحداً عن هذا المكان، بحق بالله».

تتحلل الورقة إلى فتات بين أسنانها. عند قدميها، تهتم الحلزونات بعملها: تمضغ، تكسح، تنام. كان إيتيين قد علمها أن أفواهها تحتوي على ما يقارب ثلاثين سناً في كل صف، ثمانية صفوف من الأسنان، ألفان وخمسمئة سن لكل حلزون، ترعى، تخدش، تبشر. عالياً فوق الأسوار،

تحوم نوارس في السَّماء المفتوحة. بحق بالله؟ كم تستمر هذه اللحظات التي لا تطاق بالنسبة إلى الله؟ جزء من تريليون جزء من الثانية؟ حياة أي مخلوق نفسها هي شرارة سريعة الزوال في ظلمة لا يسبر لها غور. تلك هي حقيقة الله.

«كلفوني بالقيام بكل هذا العمل المضني». يقول الألماني: «الوحة لجان جوفونيه في «سان بريو»، ست لوحات لمونيه في المنطقة، بيضة «فابيرجيه» في منزل عزبة قرب «رين». لقد تعبت كثيراً. هل تعرفين كم بحثت؟».

لماذا لم يتمكَّن أبي من البقاء؟ ألم تكن هي أكثر الأمور أهمية؟ تبتلع مزق الورقة الصغيرة ثم تتأرجح قدماً على كعبيها. «لم يترك لي شيئاً». تتفاجأ من سماع نبرتها الغاضبة. «لا شيء! فقط مجسَّم أحمق لهذه المدينة ووعداً حنث به. فقط السَّيدة التي فارقت الحياة. فقط عمي الذي يخشى من نملة».

خارج البوابة، يصمت الألماني. يفكر في إجابتها، ربما شيء في غضبها يقنعه.

تنادي: «الآن صن عهدك وامض».

أربعون دقيقة

يفسح الضَّباب المكان لأشعة الشَّمس. إنها تهاجم حصى الرصف، المنازل، النَّوافذ. يذهب إيتيين إلى المخبز يتفصَّد عرقاً بارداً ويتقدَّم الطابور. يلوح وجه السَّيدة رويل، شاحباً كالقمر.

- إيتيين؟ لكن؟

يبصر بقعاً حمراء زاهية تظهر وتختفي.

- ماري لور...

- هي لم...؟

قبل أن يتمكَّن من هز رأسه، ترفع السَّيدة رويل النُّضد المعلَّق وترشده إلى الخارج، وتلفه بذراعها. تتمتم النساء في الطابور، تآمر أو وشاية أو كلاهما. تساعده السَّيدة رويل حتى شارع روبرت سوركوف. يبدو أن وجه ساعة إيتيين يتمدد. إحدى وأربعون دقيقة؟ بالكاد يمكنه أن يجري العملية الحسابية. تمسك يداها بكتفه.

- أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟

لسان شديد الجفاف، بلادة في التفكير.

- أحياناً... تزور... البحر. قبل أن تعود إلى البيت.

«لكن الشَّواطئ مقفلة. الأسوار أيضاً». تنظر من فوق رأسه، «لا بد من أن يكون شيئاً آخر».

يتريثان في وسط الشَّارع. في مكان ما مطرقة ترن. يفكِّر إيتيين غافلاً: الحرب، سوق يتاجر فيها بحيوات البشر مثل أي سلعة أخرى: الشوكولا أو الرصاص أو حرير المناطيد. هل استبدل كل تلك الأرقام بحياة ماري لور؟

«لا»، يهمس: «تذهب إلى البحر».

تهمس السَّيدة رويل: «إذا ما وجدوا الخبز سنموت جميعاً».

ينظر ثانية إلى ساعته، لكنها شمس تلهب شبكيتي عينيه.

جانب واحد من قديد الخنزير المملح يتلوَّى في واجهة الجزَّار الفارغة بخلاف ذلك، وثلاثة تلامذة يقفون على مقعد يراقبونه، ينتظرون أن يسقط، وتماماً عندما أصبح واثقاً من أن الصَّباح على وشك أن يتشظى، يرى إيتين في ذاكرته البوابة الصَّدئة التي تفضي إلى وجار الكلب المنهار تحت الأسوار. مكان اعتاد أن يلعب فيه مع أخيه هنري وهارولد بازان، مغارة صغير تدلف، حيث يمكن للفتى أن يصرخ ويحلم.

يجري إيتيين لو بلان النحيل كعصا، الشَّاحب شحوب المرمر، على طول شارع «دو دينان»، تتبعه السَّيدة رويل، زوجة الفرَّان: أضعف مجموعة إنقاذ سبق أن اجتمعت على الإطلاق. ترن أجراس الكاتدرائية واحد اثنان ثلاثة أربعة، حتى الدَّقة الثامنة، يجري إيتيين في شارع «دو بوير» ويصل إلى قاعدة الأسوار المنعرجة قليلاً، يطوف على دروب شبابه، سائراً بالغريزة، يلتفت نحو اليمين، يمر عبر ستارة اللبلاب المتمايلة، وقدماً خلف البوابة المقفلة نفسها، في الكهف، ترتعش مبللة حتى فخذيها، سليمة تماماً، تجثم ماري لور وبقايا رغيف خبز في حجرها. «لقد أتيت»، تقول عندما تفتح له ويمسك وجهها بيديه: «لقد أتيت».

الفتاة

يفكر فرنر فيها، شاء أم أبى. فتاة تحمل عصا، فتاة ترتدي فستاناً رمادياً، فتاة قدَّت من الضَّباب. توحي تشابكات شعرها وجرأة خطوتها بأنها تنتمي إلى عالم آخر. تتخذ من حناياه لها مسكناً، شبيهة حية يتحدى بها الفتاة النمساوية الميتة التي تطارده كل ليلة.

من تكون؟ ابنة المذيع الفرنسي؟ حفيدته؟ لماذا يضعها في خطرٍ كهذا؟

فولكهايمر يبقيهم خارجاً في الحقل، يهيمون في القرى على طول نهر الرانس. يبدو مؤكداً أن هذا البث الإذاعي سوف يلام على أمر ما، وفرنر سوف يكتشف أمره. يفكِّر في العقيد، في فكه المثالي، وبنطاله المتوهج، يفكر في الرقيب الأول الشَّاحب، ينظر نحوه من فوق الصَّحيفة. هل يعرفون الآن؟ هل يعرف فولكهايمر؟ ما الذي يمكن أن ينقذه الآن؟ في ليالٍ، حدق هو ويوتا من نافذة عليَّة بيت الأطفال وصليا أن يفيض الجليد من القنوات ليجتاز الحقول ويغلِّف المنازل البالغة الصِّغر، يحطم الآليات، ويفترش كل شيء، فيصحوان في الصباح ليجدا كل ما عرفاه قد اختفى، هذا النوع من الأعاجيب الذي يحتاج إليه الآن.

في الأول من شهر آب، يأتي ملازم إلى فولكهايمر. يقول إن الطلب على الرجال على الجبهات ساحق. أي شخص ليس ضرورياً للدفاع عن سان مالو يجب أن يذهب. يحتاج على الأقل إلى اثنين. ينظر فولكهايمر

إليهم، كل واحد بدوره. بيرند مسن جداً، فرنر الوحيد الذي يمكنه إصلاح المعدات.

نيومان واحد. نيومان اثنان.

بعد ساعة، الاثنان جالسان في مؤخرة ناقلة جنود وبندقيتاهما بين ركبهما. حدث تغيير عظيم في سحنة نيومان اثنان، كما لو أنه لا ينظر إلى رفاقه السَّابقين، بل نحو ساعاته الأخيرة على الأرض. كما لو أنه على وشك أن يركب عربة سوداء عند زاوية خمس وأربعين درجة، نزولاً إلى الهاوية.

يرفع نيومان واحد يداً ثابتة. فمه جامد الملامح، لكن في التغضنات عند زاويتي عينيه، يستطيع فرنر أن يرى اليأس.

«في نهاية الأمر»، يتمتم فولكهايمر عندما تندفع الشَّاحنة مبتعدة: «لن ينجو أي منا من هذا».

تلك الليلة، يقود فولكهايمر الأوبل شرقاً على طول الطريق البحري نحو كانكال، وبيرند يأخذ الجهاز الأول إلى ربوة في حقل، وفرنر يشغِّل الثَّاني من مؤخرة الشَّاحنة، وفولكهايمر يمكث مطوياً في مقعد السَّائق، ركبتاه الضَّخمتان محشورتان تجاه العجلة. نيران - ربما سفن - تحترق في البحر بعيداً، والنجوم ترتجف في كواكبها. يعرف فرنر أن الفرنسي سوف يبث ثانية عند السَّاعة الثانية واثنتي عشرة دقيقة صباحاً، وسوف يتوجب على فرنر إطفاء الجهاز، أو التظاهر بأنه لا يسمع سوى التشويش. سوف يغطي عداد الإشارة براحة يده، ويحتفظ بوجهه هامداً تماماً.

منزل صغير

يقول إتيين إنه لم ينبغِ له أبداً أن يسمح لها بأن تتصرف من تلقاء نفسها. لم ينبغِ له أبداً أن يعرِّضها لمثل هذا الخطر. يقول إنه لم يعد في وسعها الخروج. في الحقيقة، ماري لور مرتاحة. الألماني يطاردها: في الكوابيس، إنه عنكبوت يزحف على علو ثلاثة أمتار، يطقطق ببراثنه ويهمس سؤال بسيط واحد في أذنها.

- ماذا عن الأرغفة يا عمي؟

- سأذهب أنا. كان عليَّ الذهاب منذ البداية.

في صباح يومي الرابع والخامس من شهر آب، يقف إيتيين عند الباب الرئيس يهمس لنفسه، ثم يدفع البوابة ويخرج. بعد وقت قصير، يرن الجرس تحت طاولة الطابق الثالث ويعود ويجر قفلي الباب ويقف في البهو يتنفس كما لو أنه اجتاز تحدياً مكوناً من ألف مهلكة.

عدا عن الخبز، ليس لديهم ما يؤكل تقريباً. بازلاء جافَّة. شعير. مسحوق الحليب المجفَّف. آخر بضع علب من خضراوات السَّيدة مانِك. تعدو أفكار ماري لور مثل كلاب بوليسية على الأسئلة نفسها. أولاً رجلا الشُّرطة منذ سنتين: يا آنسة. هل أشار إلى شيء ما على وجه الخصوص؟ ثم هذا الرقيب الأول الأعرج بصوته الخامد: فقط أخبريني إذا ترك والدك معك أي شيء، أو تحدَّث عن حمل شيء للمتحف حيث كان يعمل.

أبي غادر. السَّيدة مانِك غادرت. تتذكر أصوات جيرانهم في باريس عندما فقدت بصرها: كما لو أنهما أصيبا بلعنة.

تحاول أن تنسى الخوف، الجوع، الأسئلة. يجب أن تعيش كالحلزونات، لحظة بلحظة، ستتمتراً فستتمتراً. لكن في أصيل السَّادس من شهر آب، تقرأ السُّطور التالية لإيتيين على الأريكة في مكتبه: هل كان حقيقة أن القبطان نيمو لم يترك أبداً الغواصة؟ غالباً لم أره لأسابيع متواصلة. ما الذي كان يفعله في ذلك الوقت؟ هل كان ممكناً أنه كان ينفذ مهمَّة سريَّة أجهلها تماماً؟

تغلق الكتاب فجأة. يقول إتيين: «ألا تريدين أن تعرفي إذا كانوا سيفلتون هذه المرة؟». لكن ماري لور تستذكر الرسالة الثالثة الغريبة من والدها، آخر ما تلقته من رسائل.

أتذكرين أعياد ميلادك؟ كيف كان هناك دوماً شيئان على الطاولة عندما تستيقظين؟ أنا آسف لأن الأمر انتهى على هذا الشَّكل. إذا ما رغبت يوماً في أن تفهمي، انظري داخل منزل إيتيين، داخل المنزل. أعرف أنك ستفعلين الأمر الصَّائب. ولو أني أتمنى لو أن الهدية كانت أفضل.

يا آنسة. هل أشار إلى شيء ما على وجه الخصوص؟

كان يملك الكثير من المفاتيح في المتحف.

هل يمكننا أن ننظر إلى أي شيء جلبه إلى هنا معه؟

إنه ليس جهاز الإرسال. إيتيين مخطئ. ليس الراديو ما كان الألماني مهتماً به. بل شيء آخر، شيء اعتقد فقط أنها وحدها قد تعرف بأمره. وسمع ما أراد سماعه. أجابت عن سؤاله الوحيد في آخر الأمر.

فقط مجسّم أحمق لهذه المدينة.

ولهذا السبب ابتعد.

انظري داخل منزل إيتيين.

يسأل إيتيين: «ما الخطب؟».

داخل المنزل.

تعلن: «أريد أن أستريح»، وتتسلق الدَّرج زاحفة درجتين في كل مرة، تغلق باب غرفة نومها، وتدفع أصابعها في مجسم المدينة. ثمانمئة وخمسة وستون مبنى. هنا، قرب زاوية، ينتظر المنزل الضيق المرتفع ذو الرقم 4 شارع فوبوريل. تزحف أصابعها على الواجهة، تجد تجويفاً في الباب الرئيس. تضغط نحو الداخل، وينزلق المنزل نحو الخارج والأعلى. عندما تهزه، لا تسمع شيئاً. لكن المنازل لا تصدر أي ضجة عندما نهزها، أليس كذلك؟

حتى مع ارتجاف أصابعها لا يستغرق ماري لور وقتاً طويلاً لحلها. أطوي المدخنة تسعين درجة، ازلقي ألواح السَّطح واحد اثنان ثلاثة.

باب رابع، وخامس، وهكذا حتى تصلي إلى الباب الثَّالث عشر، باب صغير مقفل لا يزيد حجمه عن فردة حذاء.

سأل الأطفال: إذاً كيف تعرف أنه موجود هناك حقاً؟

عليك أن تصدق القصَّة.

تقلب المنزل الصَّغير رأساً على عقب. ينزل حجر على شكل إجاصة في راحتها.

أرقام

تدمّر قنابل الحلفاء محطّة القطار. يعطّل الألمان تجهيزات المرفأ. تنزلق طائرات دخولاً وخروجاً من السُّحب. يسمع إيتيين أن الجرحى الألمان يصلون بأعداد كبيرة إلى سان سيرفان، وأن الأميركيين استولوا على «مون سان ميشيل»، فقط على بعد خمسة وعشرين ميلاً، وأن التحرير لا يعدو أن يكون مسألة أيام. يذهب إلى المخبز في الوقت نفسه الذي كانت فيه السّيدة رويل تفتح الباب. ترافقه إلى الداخل. «يريدون مواقع المدفعيات المضادة للطائرات. إحداثيات، هل يمكنك تدبر الأمر؟».

يتأوه إيتيين: «لدي ماري لور. لماذا ليس أنت يا سيدة؟».

- أنا لا أفهم الخرائط، إيتيين. دقائق، ثوانٍ، توافقات الميل الزاوي... أنت تعرف هذه الأمور. كل ما عليك فعله هو أن تجدها، وتبث الإحداثيات.

- سيتوجب عليّ أن أمشي حاملاً بوصلة ومفكرة. ما من طريقة أخرى لصنعها. سوف يطلقون عليّ الرصاص.

- إن حصولهم على مواقع المدافع بدقّة لأمر أساسي. فكّر كيف يمكن أن تنقذ حياة الكثيرين. وسوف يتوجّب عليك أن تفعلها الليلة. يدور حديث عن أنهم في الغد سوف يعتقلون جميع الرجال في المدينة ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والستين. وأنهم سوف يتفحصون وثائق

الجميع، وسوف يُحتجز كل رجل في عمر القتال، وكل شخص يشتبه في مشاركته في المقاومة، في حصن ناسيونال.

المخبز يترنّح، لقد وقع في شباك العنكبوت، إنها تتلوى حول رسغيه وفخذيه، تطقطق مثل ورق يحترق عندما يتحرك. كل ثانية يزداد تورطاً. يرن الجرس المربوط إلى باب المخبز، وشخص يدخل. ينغلق وجه السَّيدة رويل مثل مقدمة خوذة فارس تصلصل.

يومئ.

«جيد»، تقولها ويدسّ الرغيف تحت ذراعه.

بحر اللهب

إن له مئات السُّطوح. تلتقطه مراراً وتكراراً لتعيد وضعه في الحال، كما لو أنه يحرق أصابعها. توقيف والدها، اختفاء هارولد بازان، وفاة السَّيدة مانِك - هل يمكن أن تكون هذه الصخرة قد تسببت بكل هذا الأسى؟ تسمع الصَّوت الصَّافر، العابق برائحة النبيذ، صوت الدكتور جيفار العجوز: ملكات رقصن طوال الليل وهنَّ يرتدينه. اندلعت حروب بسببه.

قد يعيش مالك هذا الحجر إلى الأبد، لكن طالما هو يحتفظ به، قد تنهال المصائب على كل هؤلاء الذين يحبهم، الواحد بعد الآخر، مطراً لا نهاية له.

الأشياء مجرد أشياء، والقصص هي قصص فقط.

بالتأكيد هذه الحصاة هي ما يبتغيه الألماني. كان يجب عليها أن تفتح المصاريع وترميه على الشارع. تعطيه لشخص آخر، أي شخص. تتسلل من المنزل وتقذفه في البحر.

يصعد إيتيين السُّلم إلى العلية. يمكنها سماعه يعبر ألواح الأرضية فوقها ويدير جهاز الإرسال. تضع الحجر في جيبها وتلتقط المنزل المصغر وتعبر القاعة. لكن قبل أن تذهب نحو الخزانة، تتوقف. لا بد من أن والدها آمن بكونه حقيقياً. وإلا لماذا يشيد صندوق الأحجية المتقن؟ لماذا يتركه

في سان مالو، إن لم يكن خوفاً من مصادرته خلال رحلة العودة؟ وإلا لماذا يتركها خلفه؟

لا بد على الأقل أن يبدو مثل ماسة زرقاء تستحق عشرين مليون فرنك. حقيقي بما فيه الكفاية ليقنع أبي. وإذا بدا حقيقياً، ما الذي سيفعله عمها عندما تريه إياه؟ لو تخبره أن عليهم رميه في المحيط؟

يمكنها سماع صوت الفتى في المتحف: متى كانت آخر مرة رأيت فيها شخصاً يرمي خمساً من برج إيفل في البحر؟»

من قد يرغب في المشاركة بمحض اختياره في ذلك؟ واللعنة؟ إذا كانت اللعنة حقيقية؟ وأعطته إياه؟

لكن اللعنات ليست حقيقية، الأرض مكونة من الماغما وقشرة قارية ومحيط. جاذبية وزمن. أليست كذلك؟ تغلق قبضتها، وتدخل غرفتها، وتضع الحجر داخل مجسّم المنزل. تعيد زلق ألواح السطح الثلاثة إلى مكانها. تلوي المدخنة تسعين درجة. تدس المنزل في جيبها.

•

يثور مد عال عظيم بعد منتصف الليل، تتكسر الأمواج الهائلة على قواعد الأسوار، البحر أخضر ومشبع بالهواء ومتشابك مع أطواف عارمة من زبد مضاء بنور القمر. تخرج ماري لور من أحلامها على صوت إيتيين ينقر على باب غرفة نومها.

– أنا خارج.

– كم السّاعة؟

– الفجر تقريباً. سأعود بعد ساعة.

– لماذا عليك الذهاب؟

– من الأفضل ألا تعرفي.

- ماذا عن حظر التَّجوال؟

- «سأسرع». عم والدها. الذي لم يكن أبداً سريعاً خلال السَّنوات الأربع التي عرفته فيها.

- ماذا لو بدأ القصف؟

- يكاد الفجر يطلع ماري، يجب أن أذهب قبل بزوغ الضوء.

- هل سيضربون أي منزل يا عمي؟ متى يأتون؟

- لن يضربوا أي منزل.

- هل ستنتهي سريعاً؟

- سريعاً مثل سنونو. ارتاحي أنت يا ماري لور، وعندما تستيقظين سأكون قد عدت، سترين.

- هل يمكنني أن أقرأ لك قليلاً؟ الآن بما أني مستيقظة؟ نحن نكاد نبلغ النهاية.

- عندما أعود، سنقرأ. سننهي الكتاب معاً.

تحاول أن تريح عقلها، وأن تبطئ أنفاسها. تحاول ألا تفكر في المنزل الصَّغير الآن تحت وسادتها والثقل الرهيب في داخله.

«إيتيين». تهمس ماري لور: «هل شعرت يوماً بالأسف لأننا أتينا إلى هنا؟ لأني رميت في حضنك، وأنت والسَّيدة مانِك ووجبت عليكما رعايتي؟ هل أحسستَ يوماً كما لو أني جلبت لحياتك لعنة ما؟».

يقول من دون تردد. يعصر يدها بكلتا يديه: «ماري لور، أنت أفضل ما حدث في حياتي على الإطلاق».

يبدو أن شيئاً ما يفيض في الصَّمت، مد، هدير كاسر. لكن حسب إيتيين أنه يردد للمرة الثانية: «ارتاحي، وعندما تستيقظين سأكون قد عدت».

وتعد خطواته وهو يهبط الدرج.

القبض على إيتيين لو بلان

بغرابة، يشعر إيتيين بالارتياح عندما يخرج، يحس بأنه قوي. هو مسرور لأن السَّيدة رويل كلَّفته بهذه المهمة الأخيرة. لقد بثَّ حتى الآن إحداثيات موقع أحد مدافع سلاح الدِّفاع الجوي: مدفع على رف من سور بجوار «فندق النحل». يتوجَّب عليه فقط أن يحصل على اتجاهات اثنين آخرين. يعثر على نقطتين معروفتين - سوف يختار برج الكاتدرائية والجزيرة الخارجية المسماة «لو بوتي بيه» - ثم يحسب موقع النقطة الثالثة المجهولة. مثلث بسيط. شيء آخر غير الأشباح يمكن لعقله الانشغال به.

ينعطف نحو شارع «ديستريه»، يلتف من خلف الكليَّة، ويتوجَّه نحو الزقاق خلف مستشفى «أوتيل ديو». تبدو ساقاه فتيتين، وقدماه خفيفتين. لا يوجد أحد بالقرب. في مكان ما تنفرج الشَّمس ببطء من خلف الضَّباب. المدينة، قبل بزوغ الفجر، دافئة وذكيَّة الرائحة وناعسة، والمنازل على كلا الجانبين تكاد تبدو لا مادية. للحظة تراءى له أنه يعبر ممراً في عربة قطار عريضة، جميع المسافرين الآخرين نائمين، ينزلق القطار عبر الظلمة نحو مدينة يحتشد فيها الضوء: ممرات مقنطرة متوهِّجة، أبراج نيِّرة، ألعاب نارية تتصاعد.

عندما يقترب من زاوية الأسوار المحصَّنة المعتمة، يعرج رجل في بذلة رسمية نحوه من الظلمة.

السابع من شهر آب عام 1944

تستيقظ ماري لور على ارتجاجات مدافع ثقيلة تطلق النَّار. تعبر سفرة الدَّرج وتفتح الخزانة، وتمد طرف عصاها عبر القمصان المعلقة، وتنقر ثلاث مرات على الجدار الخلفي الزائف. لا شيء. ثم تنزل إلى الطابق الخامس وتقرع على باب إيتيين. سريره فارغ وبارد. هو ليس في الطابق الثَّاني، ولا في المطبخ. المسمار بجانب الباب حيث كانت السَّيدة مانِك تعلِّق حلقة المفتاح فارغ. حذاؤه غير موجود.

سأعود بعد ساعة.

تكبح ذعرها. من المهم ألا تتخيل الأسوأ. في البهو، تتفحَّص سلك التنبيه: سليم. ثم تمزق طرفاً من رغيف الخبز الذي جلبته البارحة من عند السَّيدة رويل، وتمضغه وهي واقفة في المطبخ. عاد الماء - بأعجوبة - لذا تملأ الجردلين المطليين بالزنك وتحملهما إلى الأعلى وتضعهما في زاوية غرفة نومها، وتفكِّر للحظة، وتصعد إلى الطابق الثَّالث وتملأ المغطس حتى حافته.

ثم تفتح روايتها. غرس القبطان نيمو علمه في القطب الجنوبي، لكن إن لم يحرك سريعاً الغواصة شمالاً، سوف يعلقون في الجليد. الاعتدال الربيعي قد مر للتو، يواجهون ستة أشهر من ليل عديم الرحمة.

تعد ماري لور الفصول التي بقيت. تسعة. ترغب في أن تواصل القراءة،

لكنهما يسافران على متن الغواصة معاً، هي وإيتيين، وحالما يعود سوف يستأنفان. في أية لحظة.

تفحص ثانية المنزل الصَّغير تحت وسادتها، وتقاوم غواية إخراج الحجر، وبدلاً من ذلك تعيد المنزل داخل مجسَّم المدينة عند قدم السَّرير. من النَّافذة، تهدر شاحنة. نوارس تمر، تنهق كالحمير، وفي البعيد المدافع تهبد ثانية، وقعقعة الشَّاحنة تتبدد، وتحاول ماري لور التركيز على إعادة قراءة فصل سابق في الرواية: دعي النقاط البارزة تشكِّل حروفاً، الحروف كلمات، الكلمات عالماً.

في الأصيل، يرتعش سلك التنبيه، ويرنُّ الجرس المخفي تحت طاولة الطابق الثَّالث رنَّة واحدة. في العليَّة التي ترتفع عالياً فوقها، رنَّة مكتومة مطابقة. ترفع ماري لور أصابعها عن الصَّفحة، مفكِّرة: أخيراً. لكن عندما تنزل الدَّرج وتضع يدها على قفل الباب وتنادي: «من هناك؟». لا تسمع صوت إيتيين الهادئ، بل صوت العطار كلود ليفيت المداهن.

- دعيني أدخل، من فضلك.

حتى عبر الباب يمكنها أن تشم رائحته، نعناع، مسك، ألديهايد. تحت ذلك: عرق وخوف.

تزيح مزلاجي الباب وتفتحه بشكل موارب. يتكلم عبر البوابة المفتوحة جزئياً:

- يجب أن تأتي معي.

- أنا أنتظر عمي.

- لقد تحدَّثت مع عمك.

- تحدَّثت معه؟ أين؟

يمكنها سماع السَّيد ليفيت يطقطع أصابعه واحدة تلو الأخرى. رئتاه

تكدحان داخل صدره. «لو كان في وسعك أن تري يا آنسة، لكنت رأيت أوامر الإخلاء. لقد أقفلوا بوابات المدينة».

لا تجيب.

- إنهم يحتجزون جميع الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين السّادسة عشرة والسّتين. قيل لهم أن يتجمعوا عند برج القصر. ثم سوف يسيّرون إلى حصن ناسيونال عند المد المنخفض. ليكن الله معهم.

يبدو كل شيء في شارع فوبوريل هادئاً. طيور السنونو تتهافت مارة بالمنازل، وحمامتان تتناقران على مزراب عال. يمر درّاج مصدراً صوت قرقعة. ثم هدوء. هل حقاً أقفلوا بوابات المدينة؟ هل تحدث هذا الرجل حقاً مع إيتيين؟

- سوف تذهب معهم، يا سيد ليفيت؟

- لا أزمع على فعل ذلك. يجب أن تحصلي على ملاذ في الحال.

يشهق السّيد ليفيت. «أو إلى الأقبية تحت كنيسة نوتردام عند «روكابي». حيث أرسلت زوجتي. هذا ما طلب مني عمّك أن أفعله. اتركي قطعاً كل شيء خلفك، وتعالي معي الآن».

- لماذا؟

- عمُّك يعرف السَّبب. الجميع يعرفون. المكان ليس آمناً هنا. تعالي معي.

- لكنك قلت إن بوابات المدينة مقفلة.

- نعم، صحيح يا فتاة، وكفاك أسئلة الآن. أنت لست في أمان، وأنا جئت للمساعدة.

- يقول العم إن قبونا آمن. يقول إذا صمد لخمسمئة سنة، سيصمد بضع ليال أخرى.

ينظف العطار حنجرته. تتخيله يمط عنقه العريض لينظر داخل المنزل، المعطف على الحامل، فتات الخبز على طاولة المطبخ. الجميع يتفحص ليرى ما يملكه الجميع. لا يمكن أن يكون عمها قد طلب من العطّار أن يصحبها إلى ملجأ - متى تحدّث إيتيين آخر مرة إلى كلود ليفيت؟ تفكر ثانية في المجسّم في الأعلى، الحجر في داخله. تسمع صوت الدُّكتور جيفار: ذلك أن شيئاً متناهياً في الصِّغر يمكن أن يكون فائق الجمال. يساوي الكثير.

- المنازل تحترق في «باراميه»، يا آنسة. إنهم يخرقون السُّفن لإغراقها عند المرفأ، يقصفون الكاتدرائية، وما من ماء في المستشفى. الأطباء يغسلون أيديهم بالنبيذ، النبيذ!

ترتعد حافات صوت السَّيد ليفيت. تتذكَّر قول السَّيدة مانِك مرة، إن كل مرة تم التبليغ فيها عن سرقة في البلدة، كان السَّيد ليفيت ليذهب إلى النوم ومحفظة جيبه محشوَّة بين ردفيه.

تقول ماري لور: «سأبقى».

- يا إلهي! يا فتاة، هل عليَّ أن أجبرك؟

تتذكَّر الألماني وهو يذرع المكان خارج بوابة هارولد بازان، طرف صحيفته يخشخش القضبان، وتغلق الباب قليلاً. أحدهم كلَّف العطار بهذه المهمة. «بالتأكيد»، تقول: «عمِّي وأنا لسنا الوحيدين اللذين ننام تحت سقف بيتنا الليلة».

تبذل قصارى جهدها كي تبدو هادئة. رائحة السَّيد ليفيت طاغية.

«يا آنسة»، يقول متضرعاً: «تعقَّلي. تعالي معي واتركي كل شيء خلفك».

«يمكنك التَّحدث مع عمِّي عند عودته». وتقفل الباب.

يمكنها سماعه واقفاً هناك. يحلل الجدوى والتكلفة. ثم يستدير ويتراجع في الشَّارع، جاراً خوفه مثل عربة من خلفه. تنحني ماري لور بجانب طاولة القاعة، وتعثر على الخيط وتعيد تثبيت سلك التنبيه. ماذا يكون قد رأى؟ معطفاً، نصف رغيف خبز؟ سيكون إيتيين مسروراً. خارج نافذة المطبخ، تتهافت طيور السنونو على الحشرات، وخيوط شبكة عنكبوت تلتقط الضُّوء وتتلألأ للحظة ثم تختفي.

وأيضاً: ماذا لو كان العطار يقول الحقيقة؟

يعتم ضوء النهار حتى يصبح ذهبياً. تشرع بضع جداجد في القبو بالغناء بإيقاع: كري - كري. مساء في آب، وماري لور ترفع جواربها البالية، وتدخل إلى المطبخ، وتمزق قطعة أخرى كبيرة من رغيف السَّيدة رويل.

مناشير

قبل حلول الظَّلام، يقدِّم النمساويون كلى الخنزير مع حبَّات الطماطم، على أواني الفندق الصِّينية، نحلة فضية وحيدة محفورة على حافَّة كل طبق. يجلس الجميع على أكياس رمل أو صناديق الذخيرة، ويبرند يغفو على طبقه، وفولكهايمر يتحدث في الزاوية مع الملازم عن الراديو في القبو، وحول محيط الغرفة يمضغ النمساويون بثبات تحت خوذاتهم الفولاذية. رجال نشطون محنَّكون. رجال واثقون من أهدافهم.

بعدما أنهى فرنر تناول طعامه، يدخل جناح الطَّابق العلوي ويقف في المغطس السُّداسي. يدفع المصراع برفق فينفتح بضعة سنتيمترات. هواء المساء منحة مباركة. تحت النافذة، على واحد من الآثار المحصنة على واجهة الفندق البحرية، وضع مدفع الـ88 الكبير. خلف المدفع، خلف فتحات الجدران، تهبط الأسوار مسافة أربعين قدماً نحو أعمدة الأمواج المتكسِّرة الخضراء والبيضاء. المدينة إلى يساره، رمادية وكثيفة. بعيداً نحو الشَّرق، يظهر وهج أحمر من معركة بعيدة عن مرمى النَّظر. الأميركيون حصروهم إزاء البحر.

يبدو لفرنر أن حداً غير مرئي يتأرجح في المسافة الفاصلة بين ما حدث فعلاً وبين ما سيحدث، المعلوم على جانب والمجهول على الجانب الآخر. يفكر في الفتاة التي قد تكون في المدينة خلفه، وقد لا تكون.

يتصورها تمرر عصاها على طول السّواقي. تواجه العالم بعينيها العقيمتين، شعرها الجامح، وجهها المشرق.

على الأقل حمى أسرار منزلها، على الأقل حافظ على سلامتها.

أوامر جديدة، ممضاة من قبل قائد الحامية العسكرية بنفسه، ألصقت على الأبواب وبسطات السُّوق وأعمدة الإنارة. لا يسمح لأي شخص أن يحاول مغادرة المدينة القديمة. لا يسمح لأحد أن يمشي في الشّوارع من دون إذن خاص.

فقط قبل أن يغلق فرنر المصراع، تخترق طيارة الغسق. يصدر من بطنها سرب من بياض يزداد حجماً ببطء.

طيور؟

السّرب ينفصل، يتبدد: إنها أوراق. آلاف الصّفحات. تندفع على منحدر السّطح، تنزلق بخفة عبر الحواجز، تعلق مسطحة في دوّامات مديّة على الشّاطئ.

ينزل فرنر إلى البهو، حيث يرفع نمساوي واحدة نحو الضوء.

يقول: «إنها بالفرنسية»، يأخذها فرنر. الحبر جديد للغاية يلطخ أصابعه.

رسالة عاجلة إلى أهالي هذه البلدة، ارحلوا في الحال إلى أرض عراء.

عشرة

12 آب 1944

مدفون

تقرأ ثانية: من يستطيع أن يحسب أقل وقت يتطلبه خروجنا؟ لعلنا لا نختنق قبل أن تبلغ النوتيلس السَّطح؟ هل كان مقدراً أن نفنى في هذا القبر من الجليد جنباً إلى جنب مع كل هؤلاء الذين على السَّطح؟ بدت الحالة رهيبة. لكن الجميع واجهها في الحال، وعقد العزم على تأدية واجبه حتى النهاية...

فرنر يصغي. يبحر الطاقم عبر الجبال الجليدية التي علقت فيها غواصتهم، إنها تطوف شمالاً على طول ساحل أميركا الجنوبية، تمر بمصب الأمازون، ليطاردها حبَّار ضخم في الأطلسي. تتوقف مروحة الدَّفع عن العمل، يخرج القبطان نيمو من مقصورته لأول مرة منذ أسابيع، يبدو مكتئباً.

يجر فرنر نفسه على الأرضية، حاملاً الراديو بيد، وساحباً البطارية باليد الأخرى. يجتاز القبو إلى أن يجد فولكهايمر جالساً على الكرسي الذهبي. يضع البطارية أرضاً ويمرر يده على ذراع الرجل الضَّخم حتى كتفه. يعثر على رأسه الضَّخم. يثبت سماعتي الرأس على أذني فولكهايمر.

«هل يمكنك سماعها»، يقول فرنر: «إنها قصَّة غريبة وجميلة، أتمنَّى لو أنك تستطيع أن تفهم اللغة الفرنسية. حبَّار ضخم أودع منقاره الضَّخم في مروحة دفع الغوَّاصة، والآن قال القبطان إن عليهم الصُّعود إلى السَّطح ليقاتلوا الوحوش يداً بيد».

يسحب فولكهايمر نفساً بطيئاً. لا يتحرك.

- إنها تستعمل جهاز الإرسال الذي كان يفترض بنا العثور عليه. وجدته. قبل أسابيع. قالوا إنها كانت شبكة إرهابية، لكنهما كانا مجرد رجل مسن وفتاة.

لا يقول فولكهايمر شيئاً.

- أنت عرفت منذ البداية، أليس كذلك؟ عن أني عرفت؟

لا بد من أن فولكهايمر ليس قادراً على سماع فرنر عبر السَّماعات.

- إنها تقول باستمرار: «ساعدني». تتضرع لوالدها، وعمها. وتقول: «إنه هنا. سوف يقتلني».

ترتعد أنّة عبر الحطام فوقهما، وفي الظلمة، يحس فرنر كما لو أنه عالق داخل غوَّاصة النوتيلس، على عمق عشرين متراً، بينما تسوط بدنها مجسَّات دستة من وحوش «الكراكن» الغاضبة. هو يعلم أن جهاز الإرسال لا بد من أن يكون في مكان مرتفع في المنزل. قريباً من القصف.

يقول: «لقد أنقذتها فقط لأسمعها تموت».

لا يبدي فولكهايمر أي علامة تدل على الفهم. رحل أو صمم على الرحيل: هل هناك فرق كبير؟ يستعيد فرنر السماعات ويجلس في الغبار بجانب البطارية.

تقرأ: كافح نائب الربان بشراسة الوحوش الأخرى، كانت تتسلق جوانب النوتيلس. كان أفراد الطاقم يضربون بفؤوسهم. نيد، كونسيل، وأنا أيضاً، طعنّا أجسادها الناعمة بأسلحتنا. ملأت رائحة مسك عنيفة الهواء.

حصن ناسيونال

استعطف إيتيين سجّانيه، حارس الحصن، عشرات من رفاقه السُّجناء.

- ابنة أخي، حفيدة أخي، إنها كفيفة، إنها وحيدة...

قال لهم إنه يبلغ من العمر ثلاثة وستين عاماً، وليس ستين، كما ادَّعوا، وإن أوراقه صودرت ظلماً، وإنه ليس إرهابياً، ترنَّح أمام الرقيب المسؤول وتعثَّر عبر بعض العبارات بالألمانية التي تمكَّن من حبكها معاً - «يجب أن تساعدني!» «ابنة أخي هناك!» - لكن الرقيب هزَّ كتفيه كما فعل الجميع، وعاد بنظره إلى المدينة المحترقة، عبر المياه كما لو ليقول: ماذا يمكن لأي شخص أن يفعل في مواجهة ذلك؟

ثم القصف الأميركي الطائش يضرب الحصن، والجرحى يعوون في قبو الذخائر الحربية، والموتى دفنوا تحت صخور تماماً فوق خط المد، وإيتيين توقَّف عن الكلام.

ينخفض المد، ثم يرتفع. استنزف إيتيين كل ما يملك من طاقة كي يهدئ الصَّخب في رأسه. أحياناً كاد يقنع نفسه أن في وسعه أن يرى من خلال هياكل القصور المحترقة، المواجهة للبحر، عند زاوية شمال غرب المدينة، حتى سطح منزله. كاد يقنع نفسه، أنه لا يزال صامداً، لكن حينئذٍ يختفي ثانية خلف حُجب الدُّخان.

ما من وسادة، ما من غطاء. مرحاض المعسكر مروِّع، يأتي الطعام في

مواعيد غير منتظمة، تحمله من القلعة زوجة الحارس، مجتازة مسافة ربع ميل من الصُّخور عند المد المنخفض، بينما تُقصف المدينة بالقذائف من خلفها. لم يكن هناك كمية كافية منه قط. يسلي إيتيين نفسه بتخيلات عن الهرب. يتسلل من فوق جدار، يسبح بضع مئات من الأمتار، يجر نفسه عبر كاسر الأمواج. يفر عبر الشَّاطئ الملغوم من دون تغطية، نحو واحدة من البوابات المقفلة. عبث.

هنا يرى السُّجناء القنابل تنفجر في المدينة، قبل أن يسمعوها. في أثناء الحرب الأخيرة، عرف إيتيين جنود مدفعية تمكنوا من النظر بواسطة مناظير الميدان، وميزوا الضَّرر الذي تسببت به قذائفهم من خلال الألوان المقذوفة عالياً في السَّماء. الرمادي كان حجراً. البني كان تراباً. الزهري كان لحماً بشرياً.

يغمض عينيه. يتذكر ساعات على ضوء المصباح في محل السَّيد هيبرار لبيع الكتب، يصغي إلى أول راديو سمعه على الإطلاق. يتذكَّر التسلق إلى جوقة الكاتدرائية ليصغي إلى صوت هنري عندما ارتفع نحو السَّقف. يتذكر المطاعم الضَّيقة بنوافذها المرصَّصة، وألواحها الخشبية المزينة بالكتان المطوي، حيث اصطحبهما والداهما لتناول العشاء، وفيلَّات القراصنة بأفاريز مزينة، وأعمدة دورية، وقطعاً معدنية ذهبية ثبتت داخل الجدران، واجهات محال صانعي الأسلحة وربابنة السُّفن والصَّيارفة وأصحاب النُّزل، الرسوم الجدارية التي اعتاد هنري أن يخدشها على أحجار الأسوار، أرغب بشدة في مغادرة هذا المكان، اللعنة على هذا المكان! يتذكَّر منزل عائلة لو بلان، منزله! مرتفع وضيق والدَّرج يلتف على محوره مثل صدفة حلزون وقفت باستقامة، حيث تسلل شبح أخيه بين الحين والآخر بين الجدران، حيث عاشت السَّيدة مانِك وفارقت الحياة، حيث تمكَّن ليس منذ عهد بعيد من الجلوس على أريكة مع ماري

لور وتظاهرا بأنهما يحلقان فوق براكين هاواي، فوق غابات البيرو الغائمة، حيث جلست منذ أسبوع فقط مصالبة ساقيها على الأرضية وقرأت له عن مصيدة لؤلؤ على ساحل جزيرة سيلان، القبطان نيمو وآروناكس في بدل الغوص، نيد لاند الكندي العفوي على وشك أن يقذف رمحه في خاصرة قرش... كله يحترق، كل ذكرى صنعها.

فوق حصن ناسيونال، يصبح الفجر صافياً على نحو مُهلك وعميق. درب التَّبانة نهر مضمحل. ينظر نحو النيران. يفكِّر: الكون مليء بالوقود.

كلمات القبطان نيمو الأخيرة

بحلول ظهر اليوم الثَّاني عشر من شهر آب، أنهت ماري لور قراءة سبعة من الفصول التسعة الأخيرة عبر مكبر الصَّوت. حرَّر القبطان نيمو سفينته من الحبَّار الضَّخم فقط ليحدِّق في عين الإعصار. بعد صفحات، دكَّ فرقاطةً تعجُّ بالرجال، يمر عبر بدنها، يكتب فيرن، مثل إبرة صانع الأشرعة عبر القماش. الآن يعزف القبطان مرثيَّة حزينة مرعبة على أرغنِّه، بينما ترقد غواصة النوتيلُس في عباب البحر المقفر. بقيت ثلاث صفحات. إذا ما كانت ماري لور قد واست أحداً ببثها القصَّة، إذا جثم عمها في قبو شديد الرطوبة بصحبة مئة رجل، مستمعاً إليها - إذا ما استلقى ثلاثة أميركيين في حقول الليل وهم ينظفون أسلحتهم، وجالوا عبر سلالم الغواصة المعتمة معها، فهذا أمرٌ ليس في وسعها أن تعرفه.

لكنها مسرورة لأنها اقتربت من النهاية.

في الطابق السُّفلي صرخ الألماني مرتين محبطاً، ثم صمت. تفكِّر: لم لا، فقط أنزلق عبر خزانة الثِّياب وأناوله المنزل الصَّغير وأعرف إذا ما كان سيصفح عني؟ أولاً سوف تنتهي. ثم سوف تقرر.

ثانية تفتح المنزل المصغَّر وتقلب الحجر في راحة يدها. ما الذي قد يحدث إذا ألغت الربَّة اللعنة؟ هل ستتوقف النيران، هل ستتعافى الأرض، هل ستعود الحمائم إلى عتبات النوافذ؟ هل سيعود أبي؟

املئي رئتيك. اخفقي بقلبك. تبقي السِّكين بالقرب منها. أطراف أصابع تضغط على سطور الرواية. وجد صائد الحيتان الكندي نيد لاند منفذاً للهرب.

يقول للبروفسور آروناكس: «البحر سيئ والريح تعصف بقوة...».

- أنا معك نيد.

- لكن دعني أخبرك، إذا ألقي القبض علينا، سوف أدافع عن نفسي، حتى إذا مت بنتيجة ذلك.

- سنموت معاً، يا صديقي نيد.

تدير ماري لور جهاز الإرسال. تفكِّر في الحلزونات الكبيرة في وجار هارولد بازان، عشرة آلاف واحدة، كيف تلتصق، كيف تجر نفسها على لوالب قواقعها، كيف، وهي متوارية في ذلك الكهف، لا تستطيع النوارس الدخول لتحملها نحو السَّماء وترميها على الصخور لتكسرها.

زائر

يشرب فون رومبل من زجاجة نبيذ ملوث بعفن الفلين، وجدها في المطبخ. أربعة أيام في هذا المنزل، وكم من الأخطاء قد اقترف! ربما كان بحر اللهب في متحف باريس طوال الوقت - عالم المعادن بابتسامته البلهاء ومساعد المدير يضحك وهو ينسلُّ خلسة، مخدوعاً، مغرراً به، ومستدرجاً. أو ربما خانه العطار، وأخذ الماسة من الفتاة بعد أن أبعدها. أو ربما خرجت ليفيت بها من المدينة وهي تحمله في حقيبتها المهلهلة، أو ربما دسَّه الرجل المسن في مؤخرته وهو يتبرَّزه الآن، عشرون مليون فرنك في كومة من البراز!

أو ربما لم يكن الحجر حقيقياً على الإطلاق. ربما كانت القصة بمجملها خديعة، كلها.

كان متيقناً للغاية. متيقناً من أنه وجد النقطة المخفيَّة، وأنه حلَّ الأحجية. متيقِّناً من أن الحجر يمكن أن ينقذه. الفتاة لم تعرف، الرجل المسن أقصي عن المشهد - كان كل شيء معداً بإحكام. ما هو الأكيد الآن؟ فقط المرض الفتَّاك ينتشر داخل جسده، فقط الفساد يصيب كل خلية. في أذنيه يأتي صوت والده: أنت فقط تخوض التجربة.

شخص ما يناديه بالألمانية: «هل من أحد هناك؟».

- والدي؟

- أنت هناك!

فون رومبل يصغي. أصوات تزداد اقتراباً عبر الدُّخان. يزحف إلى النافذة. يضع خوذته على رأسه. يقحم رأسه فوق العتبة المحطمة.

يرفع عريف ألماني من كتيبة المشاة بصره من الشَّارع.

- سيدي؟ لم أتوقع... هل المنزل فارغ، سيدي؟

- فارغ، نعم. إلى أين أنت متجه أيها العريف؟

- قلعة لا سيتيه، سيدي. نحن ننسحب. نترك كل شيء. نحن لا نزال نسيطر على القصر ومعقل هولاندا. جميع الأفراد الآخرين يتراجعون.

يثبت فون رومبل ذقنه على العتبة، يحس كما لو أن رأسه قد ينفصل عن عنقه، ويتهاوى لينفجر على الشَّارع.

يقول العريف: «ستكون البلدة برمتها ضمن خط القصف».

- ما هي المدة؟

- ستكون هناك هدنة غداً. ظهراً، كما يقولون. لإخراج المدنيين. ثم يستأنفون الهجوم.

يقول فون رومبل: «نحن نسلِّم المدينة؟».

تنفجر قنبلة في مكان قريب، وصدى الانفجار يتردد بين المنازل المهدمة، والجندي في الشَّارع يربت بيده على خوذته. قطع حجرية تنزلق على الرصيف.

ينادي: «أنت مع أي وحدة أيها الرقيب الأول؟».

«واصل عملك، أيها العريف. أنا كدت أنتهي هنا».

حكم أخير

لا يأتي فولكهايمر بأي حركة. انتهى السَّائل في قعر دلو الطلاء، بصرف النظر عن كونه ساماً. لكم من الوقت لم يسمع فرنر شيئاً من الفتاة، على أي تردد؟ ساعة؟ أكثر؟ تقرأ عن الغواصة وقد ابتلعتها دوامة، أمواج أعلى من المنازل، الغواصة واقفة على طرف، تتصدع أضلاعها الفولاذية، من ثم تقرأ ما افترض أنه آخر سطر من الكتاب: «وهكذا، على ذلك السُّؤال الذي طرح منذ ستة آلاف عام في سِفر الجامعة: «بعيدٌ ما كان بعيداً، والعميق العميق، من يجده؟» لرجلين الآن فقط الحق بالإجابة: القبطان نيمو، وأنا».

ثم أطفئ جهاز الإرسال والظلمة المطبقة طوقته. في هذه الأيام الفائتة - كم كان عددها؟ - بدا كما لو أن الجوع كان ذراعاً في داخله، تقتحم فجوة صدره، وتبلغ عظام كتفه، ثم أسفل نحو حوضه. تحتك بعظامه. اليوم، مع ذلك، أو هذه الليلة؟ يتضاءل الجوع تدريجياً مثل لهب لم يبق له وقود. خلو وامتلاء، في النهاية، بطريقة ما، سيَّان.

يطرف فرنر عالياً ليرى الفتاة النِّمساوية في ردائها، تنزل من السَّقف كما لو أنها ليست سوى ظل. تحمل كيساً ورقياً مليئاً بالخضار الذَّابلة، وتجلس وسط الحطام. تدوِّم من حولها سحابة من النحل.

لا يمكنه أن يرى شيئاً، لكن يمكنه أن يراها.

تعدُّ على أصابعها. تقول: لنتعثر في الطابور، للعمل ببطء شديد.

للجدال على الخبز. لتتأخر طويلاً جداً في مرحاض المعسكر. للنحيب. لأنها لا تنظِّم أشياءها وفقاً للبروتوكول.

إنه هراء بالتأكيد، ومع ذلك يعلق شيء في داخله، حقيقة ما لا يريد أن يسمح لنفسه باستيعابها، وفيما هي تتحدث، تشيخ، يغطي رأسها شعر فضي اللون، تبلى ياقتها، تصبح امرأة طاعنة في السِّن - إدراكه لمن تكون يحوم عند حافَّة وعيه.

الشكوى من الصُّداع.

للغناء.

للتحدث ليلاً في سريرها.

لنسيان يوم مولدها في أثناء اجتماع المساء.

لإفراغ حمولة الشحنة ببطء شديد.

لعدم إدارتها مفاتيحها بطريقة صحيحة.

للتلكؤ عن إعلام الحارس.

للنهوض من السَّرير في وقت متأخر جداً.

السَّيدة شفارتزينبرغر - هي من تكون. اليهودية في مصعد فريدريك.

تستنفد أصابعها وهي تعد.

لإغماضها عينيها عندما تتم مخاطبتها.

لاكتناز قشور الأرغفة.

لمحاولة دخول المتنزه.

لامتلاك يدين ملتهبتين.

لطلب سيجارة.

للقصور في المخيلة وبسبب الظلمة، يبدو كما لو أن فرنر قد وصل إلى

الحضيض، كما لو أنه كان يدوِّم أعمق طوال هذا الوقت، مثل النوتيلس وقد ابتلعتها الدوَّامة البحرية، كما يهبط والده في الحفر: غطسة باتجاه واحد من زولفرين عبوراً بشولبفورتا، عبوراً بأهوال روسيا وأوكرانيا، عبوراً بالأم والابنة في فيينا، يصبح طموحه وخزيه واحداً والأمر نفسه، إلى الحضيض في القبو على حافَّة القارة حيث ينشد الشَّبح بالترهات - تمشي السَّيدة شفارتزينبرغر نحوه، محولة نفسها وهي تقترب، من امرأة إلى فتاة - يعود شعرها أحمر ثانية، تنصقل بشرتها، فتاة بعمر سبع سنوات تضغط وجهها على وجهه، وفي وسط جبهتها يمكنه أن يرى فجوة أكثر سواداً من السَّواد الذي يحيط به، في الحضيض الذي منه تنصبُّ مدينة مظلمة تعجُّ بالأرواح، عشرة آلاف، خمسمئة ألف، كل تلك الوجوه تحدِّق من الأزقة، من النوافذ، من المتنزهات المحترقة، ويسمع قصفاً.

برقاً.

مدفعية.

الفتاة تتبخر.

تتزلزل الأرض. تهتز الأعضاء في داخل جسده. الروافد الخشبية تئن. ثم دلف الغبار البطيء وأنفاس فولكهايمر السطحية المهزومة على بعد متر واحد عنه.

موسيقى #1

في وقت ما بعد منتصف ليل الواحد والثلاثين من شهر آب، بعد بقائها على قيد الحياة في عليَّة عمها طيلة خمسة أيام، تمسك ماري لور أسطوانة بيدها اليسرى، بينما تمرر أصابع يدها اليمنى برفق عبر أثلامها، مستعيدة الأغنية بكاملها في رأسها. كل ارتفاع وهبوط. ثم تدرج الأسطوانة على مكوك جهاز الحاكي الكهربائي العائد لإيتيين.

من دون ماء ليوم ونصف، من دون طعام ليومين، تفوح العلية برائحة الحرارة والغبار والحجز وبولها في قدر الحلاقة في الزاوية.

سنموت معاً نيد، يا صديقي.

يبدو أن الحصار لن ينتهي قط. الأبنية تتهدم في الشَّوارع، المدينة تتشظى، لكن ما زال هذا المنزل الوحيد صامداً.

تخرج العلبة المغلقة من جيب معطف عمها، وتضعها وسط أرض العليَّة. احتفظت بها لوقت طويل. ربما لأنها تمثل صلة أخيرة مع السَّيدة مانِك. ربما لأنه إذا فتحتها ووجدتها فاسدة، قد تقتلها الحسرة.

تضع العلبة والقرميدة تحت مقعد البيانو، حيث تعرف أن في وسعها العثور عليها ثانية. ثم تتحقَّق من الأسطوانة على المكوك. تخفض الذِّراع، تضع الإبرة عند الحافَّة الخارجية. تعثر على مفتاح مكبر الصوت بيسراها، وعلى مفتاح جهاز الإرسال بيمناها.

سوف ترفع الصَّوت حتى أقصى حدٍّ ممكن. إذا كان الألماني في المنزل، سوف يسمع. سيسمع موسيقى بيانو تنزح من الطوابق العليا ويميل برأسه، من ثمَّ سوف يطوف الطابق السَّادس مثل شيطان يسيل لعابه. أخيراً سيضع أذنه على أبواب الخزانة، حيث سيكون الصَّوت أعلى مع ذلك.

كم يوجد من متاهات في هذا العالم! أغصان الأشجار، تخاريم الجذور، مصفوفات البلورات، شوارع أعاد والدها ابتكارها في مجسَّماته. متاهات في العُقيدات على قواقع المحار، وفي نسيج لحاء الدِّلب وداخل عظام العقبان المجوَّفة. كان إيتيين ليقول: ليس هناك ما يفوق الدماغ البشري تعقيداً، هو ربما أكثر الأشياء تعقيداً في الوجود، كيلوغرام واحد رطب تدوِّم الأكوان ضمنه.

تضع مكبر الصَّوت في سماعة جهاز الحاكي جرسية الشَّكل، تدير مشغِّل الأسطوانات، ويأخذ اللوح بالدَّوران. تطقطق العلبة. في عقلها، تمشي على درب في حديقة النَّباتات، الهواء ذهبي، الريح خضراء، تنجرف أصابع الصَّفصاف الطويلة عبر أكتافها، والدها الذي يتقدمها يمد يداً، ينتظر.

يبدأ البيانو بالعزف.

تمدُّ ماري لور يدها تحت المقعد وتتناول السِّكين. تزحف على طول الأرضية نحو قمَّة السُّلم ذي الدَّرجات السَّبع وتجلس مدليَّة قدميها والماسة داخل المنزل في جيبها والسكين في قبضتها.

تقول: «تعال ونَل مني».

موسيقى #2

ينام كلُّ شيء تحت النجوم فوق المدينة. جنود المدفعية، راهبات في سرداب تحت الكاتدرائية، أطفال في أقبية القراصنة القدماء، ينامون في أحضان أمّهات نائمات. ينام الطبيب في الطابق السُّفلي من مستشفى «أوتيل ديو». جرحى ألمان في الأنفاق تحت حصن لا سيتيه. ينام إيتيين خلف جدران حصن ناسيونال، كل شيء ينام ما عدا الحلزونات، تصعد الصُّخور، والجرذان، تعدو بين الركام.

ينام فرنر أيضاً في فجوة تحت أنقاض فندق النَّحل. فقط فولكهايمر مستيقظ. يجلس وجهاز الراديو الكبير في حضنه حيث وضعه فرنر والبطارية المضمحلة بين قدميه وتشويش يهمس في كلتا أذنيه، ليس لأنه يعتقد أنه سوف يسمع أي شيء، لكن لأن فرنر ترك السماعتين هنا. لأنه لا يملك الإرادة لنزعهما. لأنه أقنع نفسه قبل ساعات أن الرؤوس المصنوعة من الجبس، في الجانب الآخر من القبو، سوف تقتله إذا أتى بحركة.

على الرغم من استحالة الأمر، يندمج التَّشويش متحولاً إلى موسيقى.

تنفتح عينا فولكهايمر على اتساعها. تصفّي الظلمة كي تحصل على جميع فوتونات الضُّوء الشَّاردة. بيانو وحيد يصعد السَّلالم الموسيقية. ثم يهبط مجدداً. يصغي إلى النَّغمات والسَّكتات فيما بينها، من ثم يجد نفسه يقود خيولاً عبر غابة عند الفجر، يخوض مجهداً في الثلج خلف

جده الأكبر، الذي يمشي ومنشار ملقى على كتفيه العريضين، يصدر الثلج صريراً تحت النِّعال والحوافر، تهمس جميع الأشجار فوقهما وتصرصر. يصلان إلى حافَّة البركة المتجمِّدة، حيث يساوي طول أشجار الصَّنوبر ارتفاع كاتدرائية. يخرُّ جدُّه الأكبر على ركبتيه مثل تائب، يثبت المنشار في أخدود في اللحاء، ويبدأ بالقطع.

يقف فولكهايمر. يعثر على ساق فرنر في الظلمة، يضع السَّماعتين على أذني فرنر.

يقول: «اسمع، اسمع اسمع...».

يستيقظ فرنر. تعوم نغمات في موجات صغيرة شفَّافة. «ضوء القمر[1]». كلير: فتاة في منتهى الشفافية يمكنك أن ترى على الفور من خلالها.

يقول فولكهايمر: «صل الضُّوء بالبطارية».

– لماذا؟

– افعل ذلك.

حتى قبل أن تتوقف الأغنية عن العزف، يفصل فرنر الراديو عن البطارية، يفك براغي الحلقة والمصباح من الكشَّاف الخامد، ويصلهما مع سلكي التوصيل، ويلقي عليهما دائرة من الضُّوء. عند الزاوية الخلفية للقبو، يجرُّ فولكهايمر من الحطام كتلاً بنائية وقطعاً خشبية وأجزاء متناثرة من جدار، متوقفاً بين الحين والآخر فقط لينحني على ركبتيه ويلتقط أنفاسه. يكومها ويصنع منها حاجزاً. ثم يسحب فرنر خلف هذا الملجأ المرتجل، يفك براغي قاعدة قنبلة موقوتة ويقتلع حبل السحب ليشعل فتيل الثَّواني الخمس. يضع فرنر يداً على خوذته، ويرمي فولكهايمر القنبلة نحو المكان حيث كان يوجد الدَّرج.

(1) Clair de Lune.

موسيقى #3

كانت ابنتا فون رومبل رضيعتين صغيرتين بديتين عكرتي المزاج، ألم تكونا كذلك؟ كانتا دوماً ترميان خشاخيشهما أو مصّاصتيهما المطاطيتين وتتشابكان في الأغطية، لماذا أنتما عذبتان للغاية يا ملاكيَّ الصَّغيرتين؟ لكنهما كبرتا! على الرغم من طول غيابه. وهما قد تغنيان، لا سيما فيرونيكا. ربما ما كانتا لتصبحان شهيرتين، لكن يمكنهما الغناء جيداً بما يكفي لإسعاد أب. قد تنتعلان جزمتيهما الكبيرتين المصنوعتين من اللباد وتلك الفساتين الرهيبة عديمة الشَّكل، التي خاطتها والدتهما، زهور الربيع والأقحوان مطرزة على طول الياقات، وتشبكان أيديهما خلف ظهريهما، وتندفعان بغناء كلمات كانتا أصغر من أن تفهماها.

تجمَّع رجال من أجلي
كما يتجمَّع العثُّ حول اللهب،
وإذا ما احترقت أجنحتها،
أعرف أني لست أنا السَّبب.

يشاهد فون رومبل فيرونكا، فيما قد يكون ذكرى أو حلم، التي تستيقظ من النوم باكراً، راكعة على أرضية غرفة ماري لور في الظلمة التي تسبق انبلاج الفجر، وتسير دميةً في قميص نوم أبيض اللون بجانب أخرى في بذلة رمادية في شوارع المدينة المصغَّرة. ثم تستدير يسرة، ثم يمنة، إلى

أن تصلا درج الكاتدرائية، حيث تنتظرهما دمية ثالثة، متّشحة بالسّواد، وترفع إحدى ذراعيها. زواج أو أضحية، لا يمكنه القول. ثم تغنّي فيرونيكا برقّة بالغة حتى أنه لا يستطيع سماع الكلمات، فقط اللحن، أقل شبهاً بالأصوات البشرية وأكثر شبهاً بأنغام البيانو، والدُّمى ترقص، تتمايل، من قدم إلى أخرى.

تتوقّف الموسيقى، وفيرونكا تختفي. ينهض. المجسّم عند قدم السّرير ينزف دماً وأمامه وقت طويل كي يعود إلى وضعه السّابق. في مكان ما فوقه، يبدأ صوت فتي بالتّحدث بالفرنسية عن الفحم.

خارجاً

لجزء من الثَّانية، يتمزَّق المكان حول فرنر إلى نصفين، كما لو أن آخر جزيئات الأوكسجين قد اقتلعت منه. ثم تندفع شظايا الحجارة والخشب والمعادن، ترنُّ على خوذته، تئز في الجدار من خلفهما، وينهار المتراس حول فولكهايمر، وفي كل مكان في الظلمة، تتشتت أشياء وتتزلق، ولا يمكنه العثور على هواء للتنفس. لكن الانفجار أحدث بعض التبدلات المعمارية في توزع حطام المبنى. وهناك طقطقات متبوعة بشلالات متعددة في الظلمة. عندما يتوقَّف فرنر عن السُّعال ويدفع الحطام عن صدره، يجد فولكهايمر محدقاً في فجوة واحدة جُزَّت من ضوء أرجواني.

سماء. سماء ليلية.

يقطع شعاع من ضوء النجوم الغبار، ويسقط على امتداد حافَّة هضبة من الحطام على الأرضية. يستنشقه فرنر لحظةً. ثم يستحثه فولكهايمر على التراجع، ويصعد حتى منتصف الدَّرج المدمَّر، ويبدأ بالضَّرب على حافات الفجوة بقطعة من فولاذ. تصدر قطعة الحديد رنة وتنجرح يداه، لحيته النامية منذ ستة أيام، تتوهج بيضاء بالغبار، لكن فرنر يمكنه أن يرى أن فولكهايمر يتقدَّم سريعاً: تصبح فضة الضُّوء وتداً بنفسجياً، أعرض من يدي فرنر كلتيهما.

بضربة إضافية، يتمكَّن فولكهايمر من تدمير رقعة كبيرة من الأنقاض،

يتحطم الكثير منها على خوذته وكتفيه، من ثم، تصبح المسألة ببساطة عبارة عن كشط وتسلُّق. يحشر جذعه عبر الفجوة، تحف أكتافه بالحافات، تتمزق سترته، وركاه ينحرفان، من ثم يعبر. يمد يده لفرنر، حقيبته، والبندقية، ويسحبهم جميعاً إلى الأعلى. يركعان في قمة ما كان سابقاً زقاقاً. يتدلى ضوء النجوم فوق كل شيء. لا يستطيع فرنر رؤية القمر. يقلب فولكهايمر راحتيه النازفتين كما لو ليمسك بالهواء، ليدعه يتسرب في جلده مثل مياه المطر.

جداران فقط من جدران الفندق لا يزالان صامدين، مقترنين عند الزاوية، شذرات من الجبس متصلة مع الجدار الداخلي. خلفهما، تكشف المنازل عن محتوياتها لليل. يظل السُّور خلف الفندق صامداً، ولو أن الكثير من فتحاته على طول القمة قد تحطمت. على الجانب الآخر لا يسمع صوت البحر إلا بالكاد. كل شيء آخر هو حطام وصمت. ضوء النجوم يهطل على كل برجٍ محصَّن. كم عدد الرجال الذين يتحللون في أكوام الحجر أمامهم؟ تسعة. ربما أكثر.

يتوجهان نحو مأوى من الأسوار، كلاهما يترنحان كالسُّكارى. عندما يصلان إلى الجدار، يطرف فولكهايمر نحو فرنر. ثم نحو الليل. وجهه أبيض مغبرٌّ للغاية ويبدو مثل تمثال ضخم مصنوع من مسحوق البودرة. خمس كتل سكنية نحو الجنوب، هل لا تزال الفتاة تشغِّل أسطوانتها؟

يقول فولكهايمر: «خذ البندقية. اذهب».

- وأنت؟

- طعام.

يفرك فرنر عينيه تجاه تألق ضوء النجوم. لا يحس بالجوع، كما لو أنه خلَّص نفسه إلى الأبد من كدر تناول الطعام.

- لكن هل سوف...؟

يقول فولكهايمر ثانية: «اذهب».

ينظر فرنر إليه مرة أخيرة: سترته الممزقة وفكه الكبير. رقة يديه الكبيرتين. ماذا يمكن أن تكون.

هل عرف؟ منذ البداية؟

ينتقل فرنر محتمياً من ملجأ إلى آخر. في يسراه حقيبته المصنوعة من الخيش، البندقيَّة في يمناه. لديه خمس طلقات. في عقله يسمع الفتاة تهمس: هو هنا. سوف يقتلني. إلى الغرب توجد وهدة من الحطام، يزحف فوق القرميد وأسلاك وقطع من صخر السَّقف، الكثير منها لا تزال ساخنة، الشَّوارع فيما يبدو مقفرة، ومع ذلك لا يستطيع أن يعرف إذا ما كان أحد يراقبه من خلف نوافذ محطمة، ألمان أو فرنسيون أو أميركيون أو بريطانيون. ربما هو في منتصف منظار قنَّاص موجَّه نحوه في هذه الثانية بالذات.

فردة حذاء نسائي. زخرفة خشبية لطاهٍ يمسك بلوح مكتوب عليه بالطباشير حساء اليوم. لفافات متشابكة كبيرة من سلك شائك. في كل مكان تنتشر روائح الجثث.

جاثماً في حمى ما كان متجراً لبيع التذكارات للسياح - عدد من الأطباق التذكارية في مناصبها، مطبوع على حافَّة كل واحد اسم مختلف ومرتبة بحسب الأحرف الأبجدية - يجد فرنر نفسه في المدينة. حلاق للسَّيدات في الجهة الأخرى من الشَّارع. بنك من دون نوافذ. حصان ميت، مرفق إلى عربته. هنا وهناك مبنى سليم يقف من دون زجاج نوافذه، آثار مزركشة من الدخان ارتفعت من نوافذها مثل ظلال اللبلاب المتهتِّك.

ما هو الضوء الذي يشع في الليل! لم يعرف. النَّهار سوف يعميه.

يلتفت فرنر يمنة نحو ما يعتقد أنه شارع «ديستريه». لا يزال المنزل رقم 4 في شارع فوبوريل صامداً. جميع نوافذ واجهته محطمة، لكن الجدران بالكاد محترقة، يتدلى اثنان من صناديق الزهور الخشبية.

هو تحتي تماماً.

قالوا إن ما أحتاج إليه كان: اليقين. الهدف. الوضوح. القائد العسكري باستيان، ذو الصدر الجؤجؤي[1]، ومشية العجائز قال إنهم سينتزعون منه التردد.

نحن وابل من الرصاص، نحن القذائف. نحن حدُّ السيف.

من هو الأضعف؟

(1) تشوه صدري يُميز من خلال قَصّ بارز. (م).

خزانة

يترنَّح فون رومبل أمام خزانة الملابس الضَّخمة. يحدِّق في الثِّياب القديمة في داخلها. صدارات، سراويل مقلَّمة، قمصان قطنية رقيقة لاكها العثّ بياقات طويلة وأكمام طويلة مضحكة. ثياب فتيان، عمرها عشرات السِّنين.

ما هذه الغرفة؟ المرايا الكبيرة على أبواب الخزانة مبقعة بالأسود بفعل مرور الزمن، جزمة جلدية قديمة موضوعة تحت مكتب صغير، وعصا مكنسة تتدلى من وتد. على المكتب صورة فوتوغرافية لفتى يرتدي بنطالاً قصيراً على الشَّاطئ ساعة الغروب.

خلف النافذة المكسورة يرخي ليل ساكن أسداله. رماد يدوِّم في ضوء النجوم. الصَّوت الراشح عبر السَّقف يكرر نفسه... الدِّماغ محتجز في ظلمة تامَّة، بالتأكيد، أيها الأطفال... ومع ذلك فإن العالم الذي يبنيه... انخفاض في حدَّة الصَّوت وتشوه كما عندما تفرغ البطاريات، الدَّرس يتباطأ كما لو أن الشَّاب منهك، من ثم يتوقف.

قلب يعدو، رأس يُخفق، شمعة في يد، ومسدس في الأخرى، يستدير فون رومبل ثانية نحو الخزانة. كبيرة بما فيه الكفاية فلا يمكنه تسلقها. كيف حُمل مثل هذا الشَّيء الضَّخم إلى الطابق السَّادس؟

يقرب الشَّمعة ليرى، في ظلال القمصان المعلقة، ما فاته في التفتيش

السَّابق: ممرات عبر الغبار. صنعت من أصابع أو ركب أو كلاهما. يكز بماسورة مسدسه الملابس. كم يبلغ عمقها؟

ينحني تماماً في الداخل، وفيما هو يفعل ذلك، يسمع صوت رنين جرسين يجلجلان أعلى وأسفل. الصَّوت يجعله ينتفض متراجعاً، ويخبط رأسه بقمة الخزانة، والشمعة تقع، وفون رومبل يحط على ظهره.

يشاهد الشَّمعة تتدحرج، لهبها موجَّه نحو الأعلى. لماذا؟ أي قانون غريب يستدعي أن يتجه لهب فتيل شمعة دوماً نحو السَّماء؟

خمسة أيام في هذا المنزل وما من ماسة، يكاد الألمان يخسرون المرفأ الأخير الذي يسيطرون عليه في بريتاني، الجدار الأطلسي معه. لقد عاش وقتاً أطول من أبعد موعد تكهن به الطبيب. والآن قرع جرسين صغيرين؟ هل هكذا يأتي الموت؟

تتدحرج الشَّمعة برفق. نحو النافذة. نحو الستائر. في الأسفل باب المنزل ينفتح. شخص ما يخطو إلى الداخل.

رفاق

يتناثر حطام آنية فخارية في البهو - يستحيل ألا يصدر ضجيجاً وهو يدخل. مطبخ يعج بالأنقاض ينتظر في آخر الممر. دهليز قتَّمته أكوام الرماد. كرسي مقلوب. الدرج أمامه. إلا إذا تحركت في الدقائق القليلة الأخيرة، فسوف تكون في أعلى المنزل قريبة من جهاز الإرسال.

ينطلق فرنر، البندقية في كلتا يديه، حقيبة على كتفه. عند كل فسحة درج يضبب سخام مندفع رؤيته. بقع تنفتح وتنغلق عند قدميه. كتب رميت على بيت الدَّرج، جنباً إلى جنب مع أوراق، حبال، زجاجات، وما قد يكون قطعاً من منازل صغيرة عتيقة. الطابق الثَّاني الثَّالث الرابع الخامس: كانت حال جميعها متماثلة. لم يكن يدرك مقدار الصَّخب الذي يثيره، أو حتى إذا ما كان ذلك يهم.

يبدو أن الدرج ينتهي عند الطابق السَّادس. تحيط ثلاثة أبواب مواربة بفسحة الدَّرج: واحد إلى اليسار، واحد أمامه مباشرة، وواحد إلى اليمين. يذهب إلى جهة اليمين، بندقيته مرفوعة، يتوقع وهج سبطانات بنادق، فكا شيطان ينفتحان. عوضاً عن ذلك، تضيء نافذة مكسورة سريراً محني الظهر. فستان فتاة معلق في خزانة كبيرة. مئات من أشياء بالغة الصِّغر - حصى؟ - تصطف على ألواح القاعدة. جردلان موضوعان في زاوية، مليئان حتى منتصفهما بما قد يكون ماء.

هل تأخر كثيراً؟ يسند بندقية فولكهايمر على السَّرير ويرفع جردلاً ويشرب مرة، مرتين.

من النافذة، بعيداً خلف بناء مجاور، خلف الأسوار، يظهر ضوء مركب وحيد، ويختفي فيما يعلو وينخفض على العباب البعيد.

يقول صوت من خلفه: «آه».

يلتفت فرنر. أمامه يترنح ضابط ألماني في حلة الميدان. الأشرطة الخمسة والماسات الثلاث التي تشير إلى رتبة الرقيب الأول. شاحب ومكدوم، ضامر حدَّ العجز، يسير نحو السَّرير. ينصبُّ جانب حنجرته الأيمن بغرابة من فوق ياقته الضيقة.

يقول: «لا أنصح بمزج المورفين مع نبيذ البوجوليه». يخفق وريد على جانب جبهة الرجل قليلاً.

«لقد رأيتك»، يقول فرنر، «أمام المخبز. مع صحيفة».

«وأنت، أيها الجندي الصَّغير. رأيتك». في ابتسامته يميز فرنر افتراض أنهما نسيبان، رفيقان. شريكان في جريمة. وأن كل واحد جاء إلى هذا المنزل ينشد الأمر نفسه.

خلف الرقيب الأول، في الجهة الأخرى من القاعة، غير قابل للتصديق: لهب نار. ستارة تحترق في الغرفة المقابلة تماماً لفسحة الدَّرج. يلعق اللهب السَّقف الآن. يمرر الرقيب الأول إصبعاً تحت ياقته الضيقة ويشدها. وجهه شاحب، يصر على أسنانه بشكل جنوني. يجلس على السَّرير. يلمع ضوء النجوم على ماسورة مسدسه.

عند قدم السَّرير، يمكن لفرنر أن يميز طاولة منخفضة احتشدت عليها منازل خشبية لتشكل مدينة. هل هي سان مالو؟ تومض عيناه من المجسَّم نحو اللهب في الجهة الأخرى من القاعة، نحو بندقية فولكهايمر المسندة

على السَّرير. ينحني الضابط قدماً ويلوح فوق المدينة المنمنمة مثل وجه غرغول[1] ملتاع.

بدأت لوالب من دخان أسود تتسلل نحو القاعة. «السِّتارة، سيدي. إنها تحترق».

«سوف يبدأ وقف إطلاق النار عند الظهر، أو هذا ما يقال»، يقول فون رومبل بصوت أجوف: «ما من داعٍ للعجلة. هناك وفرة من الوقت». يمرر أصابع إحدى يديه في مجسم شارع. «نريد الأمر نفسه، أنت وأنا، أيها الجندي. لكن واحد منا فقط يمكنه الحصول عليه. وأنا فقط أعرف مكانه. ما يسبب مشكلة لك. هل هو هنا أم هنا أم هناك أم هناك؟». يفرك يديه معاً، ثم يستلقي على السَّرير. يصوِّب مسدَّسه نحو السقف. «هل هو هناك في الأعلى؟».

في الغرفة خلف سفرة الدرج، تنسلخ الستارة المحترقة عن حاملها. ربما سوف تخرج. يفكر فرن: ربما ستخرج من تلقاء نفسها.

يفكر فرنر في الرجال عند أزهار عباد الشمس ومئة سواهم: كل واحد منهم يتمدد ميتاً في كوخه أو شاحنته أو ملجئه، وعلى وجهه نظرة شخص التقط نغمة أغنية مألوفة. تغضن بين العينين، ارتخاء في الفم، نظرة قالت: بهذه السرعة؟ لكن ألا يحدث للجميع بسرعة غير متوقعة؟

ضوء النار يتلاعب في الجهة الأخرى من القاعة. لا يزال الرقيب الأول على ظهره يمسك المسدس بكلتا يديه ويفتح ويغلق مغلاق المسدس. يقول ويومئ نحو الجردل في يدي فرنر: «اشرب المزيد، يمكنني أن أرى كم أنت ظمآن. أنا لم أتبول فيه، أقسم لك».

---

(1) حيوان أسطوري تم تصويره في منحوتات عدة وبالأخص على الجدران الخارجية لعدد من كنائس العصور الوسطى. (م).

يضع فرنر الجردل. ينهض الرقيب الأول ويميل برأسه جيئة وذهاباً كما لو أنه يحل عقدة في عنقه. ثم يوجه سلاحه نحو صدر فرنر. من أول القاعة، في اتجاه الستارة المحترقة، تنبعث قعقعة مكتومة، شيء يثب على سلم ويضرب الأرضية، يتشتت انتباه الرقيب الأول نحو الضجة، وماسورة مسدسه تنخفض.

يندفع فرنر بقوة نحو بندقية فولكهايمر. كل حياتك تنتظر، ثم تأتي اللحظة، هل أنت مستعد؟

تزامن اللحظات

تصفق قرميدة على الأرضية. تتوقف الأصوات. يمكنها سماع شجار ثم تأتي الطلقة مثل ثغرة من ضوء قرمزي: ثوران كراكاتوا. يتمزق المنزل.

تنزلق وتقع ماري لور على السلم وتضغط أذنها على المؤخرة الزائفة للخزانة. وقع أقدام مسرعة عبر فسحة الدرج تدخل غرفة هنري. هناك رذاذ وأزيز، وتشم رائحة دخان وبخار.

يصبح وقع الأقدام متردداً، إنه مختلف عن وقع أقدام الرقيب الأول. أخف. خطو، توقف. فتح أبواب الخزانة. تفكير. محاولة فهم.

يمكنها سماع صوت حفيف خفيف وهي تمرر أصابعها على خلفية الخزانة. تحكم قبضتها على مقبض السّكين.

على مسافة ثلاث كتل سكنية شرقاً، يطرف فرانك فولكهايمر وهو يجلس في شقة مدمرة عند تقاطع شارعي دي لورييه وتيفينار، يأكل من علبة بطاطا حلوة بأصابعه. عبر مصبِّ النهر، تحت أربع أقدام من الإسمنت، يمسك مساعد سترة قائد الحامية عندما يدخل العقيد ذراعه عبر أحد الكمين ثم ذراعه الثانية في الكم الثاني. في اللحظة نفسها، بالضَّبط، كشاف أميركي بعمر التاسعة عشرة يصعد جانب التلة نحو القلاع الصغيرة، يتوقف ويلتفت ويمد ذراعاً للجندي الذي خلفه، بينما يعقد إيتيين لو بلان العزم، وعظم خده مضغوط على بلاط الغرانيت في حصن ناسيونال، أنه إذا

تمكن هو وماري لور من البقاء على قيد الحياة خلال كل ما يحدث، سوف يدعها تختار مكاناً على خط الاستواء وسوف يذهبان، يحجزان تذكرة، يركبان سفينة، يطيران بطيارة، إلى أن يقفا معاً في غابة ممطرة محاطة بالزهور التي لم يسبق لهما أن اشتما شذاها أبداً، يصغيان إلى طيور لم يسبق لهما أن سمعا تغريدها أبداً. بعيداً عن حصن ناسيونال مسافة ثلاثمئة ميل، توقظ زوجة رينهولد فون رومبل ابنتيها للذهاب إلى القداس، وتتأمل المظهر الحسن لجارها الذي عاد من الحرب مبتور القدم. وكل ذلك ليس ببعيد عنها، تنام يوتا بفينغ في ظلال حجرة نوم الفتيات اللازوردية، وتحلم بضوء يزداد كثافة، ويستقر عبر حقل مثل ثلج، وكل ذلك ليس ببعيد عن يوتا، يرفع الفوهرر كأس حليب دافئ (لكنه غير مغلي أبداً) إلى شفتيه، على طبقه شريحة من خبز أولدنبرُغ الأسمر، وتفاحة كاملة بجانبها، فطوره اليومي، بينما في وادٍ في ضواحي كييف، يفرك سجينان أيديهما بالرمل لأنها أصبحت زلقة، من ثم يرفعان النقّالة ثانية بينما يحرك أحد رجال وحدات السوندركوماندو[1] النّار تحتهم بقضيب فولاذي، يرفرف طائر ذعرة من حجر لوحي إلى آخر في ساحة في برلين، باحثاً عن حلزونات ليأكلها، وعند مدرسة «نابولا» في شولبفورتا، يصطف مئة وتسعة عشر طالباً في عمر الثانية عشرة والثالثة عشرة، في طابور خلف شاحنة في انتظار تسليمهم الألغام المضادة للدبابات، يزن كل واحد منها ثلاثين رطلاً، فتيان في غضون سنة واحدة تقريباً تقطعت بهم السبل وسط الزحف الروسي، المدرسة نفسها أصبحت معزولة مثل جزيرة. سوف يمنحون صندوقاً من آخر ما تبقى من شوكولا الرايخ المرة، وخوذ عسكرية أنقذت من الجنود القتلى، ومن ثم فهذا النتاج الأخير من شبان الأمة سوف يهبون والشوكولا

---

(1) وحدات عمل خاصة كانت تُشكل من سجناء مخيمات الموت النازية.(م).

تذوب في أحشائهم وخوذ عريضة للغاية تنوس على رؤوسهم الحليقة، وستون راجمة الصواريخ (بانزيرفاوست) في أيديهم في نوبة عبثية أخيرة للدفاع عن جسر لم يعد من اللازم الدفاع عنه، بينما تتقدم دبابات الجيش الروسي الأبيض ت 34 مقعقعة ومدمدمة نحوهم لتدمرهم جميعاً، حتى آخر طفل. في سان مالو، ومع رعشة على الجانب الآخر من الخزانة - يسمع فرنر صوت تنفس ماري لور، تسمع ماري لور الصَّوت الذي يصدره فرنر وهو يحك الخشب بثلاثة أظافر، صوت لا يختلف عن صوت تسجيل يدور تحت سطح إبرة، تفصل بين وجهيهما مسافة ذراع.

يقول بالفرنسية: «أنت هنا؟».

هل أنت هنا؟

إنه شبح. إنه من عالم آخر. إنه أبي، السَّيدة مانِك، إيتيين، إنه كل واحد تركها يعود أخيراً. ينادي عبر اللوح: «أنا لن أقتلك، أنا أسمعك عبر الراديو ولهذا أتيت». يتوقف، يحاول أن يترجم. «الأغنية، ضوء القمر؟» تكاد تبتسم.

جميعنا نأتي إلى الوجود خلية وحيدة، أصغر من ذرة غبار. أكثر صغراً. تنقسم، تتضاعف. جمع وطرح. مادة تنتقل من يد إلى أخرى، ذرات تعوم دخولاً وخروجاً، جزيئات تدور على محور، بروتينات تقترن، ترسل خلايا الميتوكوندريات (متقدِّرات) أوامر الأكسدة، ننشأ مثل دفق كهربائي مجهري. الرئتين، الدماغ، القلب. بعد أربعين أسبوعاً، تندفع ست بلايين خليَّة عبر قناة الولادة عند والدتنا، ونصرخ. ثم يشرع العالم بتقريعنا.

تفتح ماري لور باب الخزانة. يمسك فرنر بيدها ويساعدها على الخروج. تعثر قدمها على أرض غرفة جدِّها.

«حذائي»، تقول: «لم أتمكَّن من إيجاد حذائي».

العلبة الثَّانية

تجلس الفتاة ساكنة جداً في الزَّاوية، وتلف معطفها حول ركبتيها. أسلوبها في ثني كعبيها على مؤخرتها. ارتعاش أصابعها عبر الفراغ من حولها. يتمنى أن لا ينسى أبداً أياً منها.

تدوي مدافع جهة الشَّرق: قصف وقصف مضاد على القلعة ومنها مجدداً.

يحل عليه الإرهاق. يقول بالفرنسية: «سوف يكون هناك.. هدنة. عند الظُّهر. لذا يمكن للناس الخروج من المدينة. يمكنني إخراجك».

- وأنت تعرف أن هذا حقيقي؟

«لا. لا أعرف». بصمتٍ. يتفحَّص سرواله، معطفه المغبر. بذلته الرسمية تجعله شريكاً في كل شيء تكرهه هذه الفتاة. يقول: «هناك ماء»، ويعبر إلى الغرفة الأخرى في الطابق السَّادس، دون النظر إلى جثَّة فون رومبل في سريرها ويجلب الجردل الثَّاني. يختفي رأسها كله في فوَّهته، وذراعاها الأشبه بالعصي تعانقان جانبيه وهي تتجرع منه.

يقول: «أنت شجاعة جداً».

تخفض الجردل: «ما اسمك؟».

يخبرها. تقول: «عندما فقدت بصري، يا فرنر، قال الناس إني شجاعة.

عندما غادر والدي، قال الناس إني شجاعة. لكنها ليست شجاعة، لم يكن لدي خيار. أستيقظ وأعيش حياتي. ألا تفعل أنت المثل؟».

- لم أفعل لسنين طويلة. لكن اليوم. اليوم ربما فعلت.

رفعت نظارتها، ومقلتاها تبدوان كما لو أنهما مليئتان بالحليب، لكن بغرابة لا تفقدانه رباطة شأجه. يتذكر عبارة من عبارات السَّيدة إلينا: قبحٌ جميل.

- في أي يوم نحن؟

ينظر من حوله. ستائر محروقة وسخام مذرًى عبر السَّقف، وورق مقوًّى يتقشر عن النافذة، ويرشح عبره أول خيوط ضوء ما قبل الفجر الشاحب.

- لا أعرف. إنه الصَّباح.

تزعق قذيفة فوق المنزل. يفكِّر: أريد فقط أن أجلس هنا معها لألف ساعة. لكن القذيفة تنفجر في مكان ما والمنزل يصدر صريراً، يقول فرنر: «كان هناك رجل يستعمل جهاز الإرسال الذي تملكينه. كان يبث دروساً عن العلوم. عندما كنت فتى. كنت أصغي إليها مع أختي».

- ذلك كان صوت جدي. هل سمعته؟

- مرات كثيرة. لقد أحببناها.

تتوهَّج النافذة. يتغلغل ضوء الفجر الرملي المتواني في الغرفة. كل شيء زائل ومؤلم، كلُّ شيء مؤقَّت. أن تكون هنا، في هذه الغرفة، عالياً في هذا المنزل، خارج القبو، معها: إنه أشبه بدواء.

تقول:

- في وسعي أن أكل خنزيراً.

- ماذا؟

- في وسعي أن آكل خنزيراً كاملاً.

يبتسم.

- يمكنني أن آكل بقرة كاملة.

- المرأة التي كانت تعيش هنا، مدبِّرة المنزل، حضَّرت أروع عجَّة في العالم.

يقول، أو يأمل بالقول: «عندما كنت صغيراً، كنا، أختي وأنا، نقطف التُّوت بجوار نهر الرور. كنا لنجد حبات توت بحجم إبهامينا».

تزحف الفتاة داخل الخزانة وتصعد سلماً وتعود وهي تحمل علبة صغيرة مفلولة.

- هل يمكنك أن ترى ما هذه؟

- ما من لصاقة.

- لا أعتقد أنه كان عليها لصاقة.

- هل هذا طعام؟

- لنفتحها ونعرف.

بضربة واحدة من القرميدة، يثقب العلبة برأس السِّكين. في الحال يستطيع أن يشمه: العطر حلو للغاية، حلو بشكل شنيع، حتى يكاد يغمى عليه. ماهي الكلمة؟ خوخ. الخوخ.

تنحني الفتاة إلى الأمام، يبدو أن النَّمش يزهر عبر خديها وهي تستنشق.

«سوف نتقاسمها»، تقول: «من أجل ما فعلته».

يدق السكين للمرة الثانية، ليقطع المعدن، ويرفع الغطاء.

يقول: «بحذر»، ويمررها لها. تغمس إصبعين فيها وتغرف شيئاً زلقاً ناعماً رطباً. ثم يفعل المثل. تلك الخوخة الأولى تنزلق في حلقه مثل نشوة. شمس مشرقة في فمه.

يأكلان. يشربان الشَّراب. ثم يمرران أصابعهما حول العلبة من الداخل.

طيور أميركا

منزل مليء بالأعاجيب! تريه جهاز الإرسال في العليَّة: البطارياتان المزدوجتان، الحاكي العتيق الطِّراز، الهوائي الذي يدار يدوياً وآلياً ويمكن رفعه وخفضه على طول المدخنة، بمنظومة بارعة من الروافع. وأيضاً أسطوانة فونوغراف تقول إن صوت جدِّها مسجَّل عليها. دروس علمية للأطفال. والكتب! الطوابق السُّفلية مكسوَّة بها - بيكيريل، لافوازييه، فيشر - عمر من المطالعة. كيف سيكون الأمر في البقاء عشر سنوات في هذا المنزل المرتفع الضَّيق، منعزلاً عن العالم، تدرس أسراره وتقرأ مجلداته وتنظر إلى هذه الفتاة.

«هل تظنين»، يسأل: «أن القبطان نيمو نجا من الدَّوامة؟».

تجلس ماري لور على سفرة درج الطابق الخامس في معطفها العريض كما لو أنها تنتظر قطاراً.

«لا». تجيب: «نعم. لا أعرف. أفترض أن هذه هي الفكرة، لا؟ أن يجعلنا نتساءل؟». تميل برأسها. «كان مجنوناً. ومع ذلك لم أتمنَّ له الموت».

في الركن مكتب عمها، وسط فوضى الكتب، يجد نسخة من كتاب «طيور أميركا». طبعة ثانية، ليست بحجم الكتاب الذي رآه في غرفة

جلوس فريدريك، لكن مبهرة مع ذلك: أربعمئة وخمس وثلاثين صورة محفورة. يحملها نحو السُّفرة.

- هل أراكِ عمك هذا؟

- ما هو؟

- طيور. طير بعد طير بعد طير.

في الخارج، تحلّق القنابل جيئة وذهاباً.

تقول: «يجب أن ننزل إلى طوابق المنزل السفلية».

لكن للحظة لا يتحركان.

حجل كاليفورنيا.

طائر الأطيش الشَّائع.

طائر بجع الفرقاطة.

لا يزال في وسع فرنر رؤية فريدريك راكعاً إلى نافذته، أنفه على الزُّجاج. طائر صغير رمادي يثبُ في غصون الأشجار. لا يبدو بالشيء الكثير، أليس كذلك؟

- هل يمكنني أن أحتفظ بصفحة من هذا؟

- لم لا، سوف نغادر قريباً، أليس كذلك؟ متى سيكون خروجنا آمناً؟

- عند الظهر.

- كيف يمكن لنا أن نعرف أن الوقت قد حان؟

- عندما يتوقفون عن القصف.

تأتي الطائرات بالعشرات. يرتعش فرنر بشكل متعذِّر ضبطه. تقوده ماري لور إلى الطابق الأول، حيث تبلغ سماكة الرماد والسُّخام نصف بوصة تغطي كل شيء، ويزيح أثاثاً مقلوباً من الطريق، ويفتح باب القبو

وينزلان. في مكان ما في الأعلى، تطلق ثلاثون قاذفة حمولتها المتفجِّرة، وفرنر وماري لور يشعران بأن الصَّخر يهتز، يسمعان أصوات الانفجارات في الجهة الأخرى من النهر.

هل يمكنه أن يبقي هذا مستمراً بمعجزة ما؟ هل يمكنهما أن يختفيا هنا حتى انتهاء الحرب؟ حتى تنهي الجيوش سيرها جيئة وذهاباً فوق رأسيهما، حتى لا يكون واجباً عليهما سوى فتح الباب وإزاحة بعض الأحجار جانباً والمنزل قد صار أنقاضاً بجانب البحر؟ إلى أن يمكنه أن يمسك أصابعها في راحتيه ويقودها خارجاً إلى الشَّمس المشرقة؟ قد يمشي إلى أي مكان كي يتحقق، يحمل أي شيء، في غضون سنة أو ثلاث سنوات أو عشر، لن يظل الحال على حاله بين فرنسا وألمانيا، يمكن أن يغادرا المنزل ويمشيان إلى مطعم للسياح ويطلبان وجبة بسيطة معاً ويأكلان في صمت، النوع المريح من الصَّمت الذي يفترض أن يتقاسمه عاشقان.

تسأل ماري لور بصوت رقيق: «هل تعلم لماذا كان هنا؟ ذلك الرجل في الطابق الأعلى؟».

«بسبب الراديو؟». حتى وهو يجيبها يبقى السؤال في داخله.

تقول: «ربما، ربما لهذا السبب».

بعد دقيقة يغطان في النوم.

هدنة

ينسكب ضوء صيفي مغبر عبر الباب القبو الأرضي المفتوح. ربما يكون الوقت الآن قد تجاوز الظهيرة. ما من إطلاق مدافع. لبضع دقات قلب، يراقبها فرنر وهي نائمة.

ثم يسرعان. لا يستطيع العثور على الحذاء الذي تسأل عنه، لكنه يجد خفاً رجالياً في خزانة، ويساعدها على انتعاله. فوق بذلته الرسمية يرتدي واحداً من سراويل إيتيين من قماش التويد، وقميص أكمامه طويلة للغاية. لو وجدهما الألمان، سوف يتحدث فقط بالفرنسية، ويقول إنه يساعدها على مغادرة المدينة. إذا صادفا أميركيين سوف يقول إنه ينسحب.

«سوف يكون هناك نقطة تجمُّع في مكان ما»، يقول: «حيث يجمعون اللاجئين»، ولو أنه ليس واثقاً من أنه يقول ذلك على نحو صحيح. يجد غطاء وسادة أبيض في خزانة مقلوبة ويدسه في جيب معطفها.

- عندما يحين الوقت ارفعي هذا عالياً قدر ما تستطيعين.

- سأحاول. وعصاي؟

- هنا.

يسرعان عبر البهو، غير عارفين ما الذي ينتظرهما على الجانب الآخر من الباب على وجه اليقين. يتذكَّر قاعة الرقص الدافئة للغاية من امتحان

القبول قبل أربع سنوات: سلَّم مسند إلى الجدار، علم قرمزي بدائرته البيضاء وصليب أسود تحتها. تخطو قدماً، تقفز.

في الخارج، تربض جبال من الركام في كل مكان. مداخن منتصبة وقرميدها مكشوف للضوء. دخان يفترش السَّماء. يعرف أن القذائف كانت تأتي من الشَّرق، ومنذ ستة أيام وصل الأميركيون تقريباً إلى «باراميه»، لذا يقود ماري لور في ذلك الاتجاه.

في أي لحظة سوف يكونان على مرأى إما من الأميركيين أو من قبل جيشه، وسوف يتوجَّب عليهما التَّصرف. عمل، التحاق، اعتراف، موت. من مكان ما ينبعث لظى النيران: صوت زهور مجففة تتفتت في قبضة. ما من أصوات أخرى، ما من سيارات، ما من طائرات، ما من فرقعة مدفع بعيد أو عويل رجال جرحى أو نباح كلاب. يمسك يدها ليساعدها على اجتياز الركام. ما من قذائف تسقط، وما من بنادق تصر، والضُّوء خافت يتخلله الرماد.

يفكِّر: يوتا، لقد أصغيت أخيراً.

على امتداد كتلتين سكنيتين لا يريان أحداً. ربما فولكهايمر يأكل – هذا ما يودُّ فرنر أن يتخيله، فولكهايمر الضَّخم يأكل لوحده إلى طاولة صغيرة تشرف على البحر.

– الهدوء شديد.

صوتها مثل نافذة مشرقة صافية من سماء. وجهها مليء بالنمش.

يفكِّر: لا أريد أن أدعك تذهبين.

– هل يراقبوننا؟

– لا أعرف. لا أظن ذلك.

على بعد كتلة سكنية يرى حركة: ثلاث نساء يحملن حزماً.

تشد ماري لور كمَّه:

- ما هذا الشَّارع في الجهة الأخرى؟

- شارع دي لوربيه.

تقول: «تعال». تسير وعصاها تقرع جيئة وذهاباً في يمناها. يستديران يمنة ويسرة، مروراً بشجرة كستناء مثل عود أسنان متفحم ضخم مقحم في الأرض، ثم بغرابين ينقران شيئاً لا يمكن التَّعرف إليه، حتى وصلا إلى قاعدة الأسوار. تتدلى عرائش اللبلاب المتسلِّقة من ممر مقنطر فوق زقاق ضيق. إلى أقصى يمينه يمكن لفرنر أن يرى امرأة ترتدي فستاناً أزرق من الحرير الرقيق، تجر حقيبة كبيرة متخمة على حجر الرصيف. يتبعها فتى يرتدي بنطالاً مقاسه صغير، على رأسه قبعة «بيريه» ملقاة إلى الخلف، وسترة براقة.

- هؤلاء مدنيون يغادرون، يا آنسة. هل أناديهم؟

- سأحتاج فقط إلى لحظة.

تقوده ويوغلان في عمق الزُّقاق. ينصبُّ هواء عذب محيطي منفلت عبر فجوة لا يمكنه رؤيتها في الجدار: الهواء يخفق معها.

يصلان عند نهاية الزقاق إلى بوابة ضيقة. تمد يدها داخل معطفها وتخرج مفتاحاً.

- هل المد عالي؟

عبر البوابة لا يمكنه أن يرى سوى مكان منخفض، محدد بشباك حديدي على الجانب القصي.

- يوجد ماء هناك. علينا أن نسرع.

لكنها الآن تجتاز البوابة وتنزل إلى الكهف بحذائها الواسع، تتحرك بثقة، ممررة أصابعها على طول الجدران كما لو أنهم أصدقاء قدامى

اعتقدت أنها لن تلتقيهم ثانية. يدفع المد موجة صغيرة منخفضة عبر البركة، تغمر قصبتي ساقيها وتبلل حاشية فستانها. تخرج من معطفها شيئاً خشبياً صغيراً وتضعه في الماء. تتحدث برفق، يتردد صوتها: «عليك أن تخبرني، هل هو في المحيط؟ يجب أن يكون في المحيط».

– إنه فيه. يجب أن نذهب، يا آنسة.

– هل أنت متيقن من أنه في الماء؟

– نعم.

تخرج مقطوعة الأنفاس. تدفعه عبر البوابة وتقفلها من خلفهما. يناولها عصاها. ثم يتجهان نحو الزقاق، يصدر حذاؤها صوت امتصاص وهي تسير. يخرجان عبر اللبلاب المتدلي. يستديران جهة اليسار. وأمامهما مباشرة يوجد سيل متقطع من أشخاص يعبرون تقاطعاً: امرأة، طفل، رجلان يحملان ثالثاً على نقّالة، الثلاثة في أفواههم سجائر.

تعود الظلمة إلى عيني فرنر، ويحس بأنه خائر القوى. قريباً جداً سوف تنهار ساقاه. قطة تجلس في الطريق تلعق قدمها وتملّسها فوق أذنيها وتراقبه. يفكر بعمال المناجم المسنين المحطمين الذين رآهم في زولفرين، جالسين إمّا على كراسٍ أو على صناديق، لا يتحركون لساعات، ينتظرون الموت. في نظر رجال مثل هؤلاء، الوقت لا ينتهي، برميل شاهدوه ينزح ببطء. يفكّر: عندما تحمل حقاً بركة صغيرة متوهجة في يديك، عليك أن تستنزف كل طاقتك كي تحميها. تحارب من أجلها. تكافح بجد كي لا تسفح نقطة واحدة.

يقول بفرنسية واضحة قدر مستطاعه: «الآن، هاكِ غطاء الوسادة. مرري يدك على طول ذلك الجدار. هل يمكنك أن تلمسيه؟ سوف تبلغين تقاطعاً، واصلي التقدم على الفور. يبدو الشّارع فارغاً في الغالب. أبقي غطاء الوسادة عالياً أمامك هكذا، هل تفهمين؟».

تلتفت نحوه وتقضم شفتها السُّفلى. «سوف يطلقون النَّار».

- ليس وأنت تحملين ذلك العلم الأبيض. لن يطلقوا النار على فتاة. هناك آخرون يمشون أمامك. اتبعي هذا الجدار.

يضع يدها عليه للمرة الثانية.

- أسرعي. تذكري كيس الوسادة.

- وأنت؟

- سأذهب في الاتجاه الآخر.

تدير وجهها نحو وجهه، ولو أنها لا تستطيع أن تراه، يشعر بأنه لا يستطيع احتمال نظرتها.

- ألست قادماً معي؟

- سيكون في صالحك إلا يراك أحد بصحبتي.

- لكن كيف سأجدك ثانية؟

- لا أعرف.

تمد يدها نحو يده، تضع شيئاً في راحته، وتغلق يده. «وداعاً فرنر».

- وداعاً ماري لور.

ثم تذهب. كل بضع خطوات، ترتطم عصاها بحجر مسكور في الشَّارع، وتستغرق وقتاً كي تلتف من حوله. خطوة خطوة وقفة. خطوة خطوة ثانية. عصاها تتفحص، يتمايل هدب فستانها المبلل، غطاء الوسادة الأبيض مرفوع عالياً. لا يبعد نظره حتى تعبر التقاطع، وتواصل السَّير من بعده، وتتوارى عن نظره.

ينتظر أن يسمع أصواتاً. طلقات.

سوف يساعدونها. لا بد من أن يفعلوا. عندما يفتح يده، هناك مفتاح حديدي صغير في راحته.

شوكولا

تجد السَّيدة رويل ماري لور ذلك المساء في مدرسة مستولى عليها. تمسك بيدها بإحكام. لدى موظفي الشُّؤون المدنية أكوام من الشُّوكولا الألمانية المصادرة، موضوعة في صناديق مستطيلة الشَّكل، وتأكل ماري لور والسَّيدة رويل منها كمية لا تحصى.

يستولي الأميركيون على القصر في الصَّباح، وعلى آخر مدفع مضاد للطائرات، ويحررون السُّجناء المحتجزين في حصن ناسيونال. تسحب السَّيدة رويل إيتيين من طابور الإجراءات، ويلف ماري لور في ذراعيه. يصمد العقيد في حصنه تحت الأرض في الجهة الأخرى من النهر لثلاثة أيام أخرى، إلى أن ترمي طائرة أميركية تسمَّى «البرق» صهريجاً من النَّابالم عبر فتحة هوائية، عملية نادرة الحدوث، وبعد خمس دقائق، ترتفع ملاءة بيضاء على عمود، وينتهي حصار سان مالو. تزيل فرق المسح العسكرية كل ما يستطيعون العثور عليه من أجهزة حارقة، ويدخل مصورون فوتوغرافيون مجندون مع مناصبهم ثلاثية القوائم، ويعود عدد قليل من المواطنين من المزارع والحقول والأقبية لينساقوا عبر الشَّوارع المدمرة. في اليوم الخامس والعشرين من شهر آب، سُمح للسيدة رويل بالعودة إلى المدينة لتتفحص حال المخبز، لكن إيتيين وماري لور يسافران في اتجاه آخر، نحو «رين»، حيث يحجزان غرفة في فندق يدعى «يونيفرس»، يأخذ

كل واحد منهما حماماً ساخناً يمتد ساعتين. في زجاج النافذة عند هبوط الظَّلام، يشاهد صورتها المنعكسة وهي تتلمَّس طريقها إلى السَّرير. يداها تضغطان على وجهها، ثم تتقوضان.

يقول: «سنذهب إلى باريس، لم أذهب يوماً إلى هناك. يمكنك أن تريني إياها».

ضوء

وقع فرنر في الأسر في منطقة تبعد مسافة ميل جنوب سان مالو، على يد ثلاثة مقاتلين من المقاومة الفرنسية يرتدون ملابس عادية، يطوفون الشَّوارع في شاحنة لنقل البضائع. للوهلة الأولى يعتقدون أنهم أنقذوا رجلاً مسناً ضئيلاً أشيب. ثم يسمعون لكنته، ويلاحظون القميص الألماني تحت القميص العتيق، ويقررون أنهم قبضوا على جاسوس، صيد خرافي. ثم يدركون حداثة سن فرنر. يسلمونه إلى موظف أميركي في فندق مستولى عليه حوِّل إلى مركز لنزع السِّلاح. في البداية، يجزع فرنر من أنهم يقودونه إلى الطابق السُّفلي - من فضلكم، ليس حفرة أخرى - لكنه اقتيد إلى الطابق الثَّالث، حيث كان مترجم منهك يعمل على تسجيل السجناء الألمان منذ شهر، يدون اسمه ورتبته، ثم يطرح بضعة أسئلة يحفظها عن ظهر قلب، بينما ينقب الموظف في حقيبة فرنر ويعيدها إليه.

يقول فرنر بالفرنسية: «فتاة، هل رأيت...؟». لكن المترجم يكتفي بالابتسام بتكلف، ويقول للموظف شيئاً بالإنكليزية، كما لو أن كل جندي ألماني قابله سأل عن فتاة.

اقتيد إلى ساحة مسوَّرة بسلك شائك، حيث يجلس ثمانية أو تسعة رجال ألمان آخرين بجزمهم عالية السَّاق يحملون قراب ماء بالية، أحدهم

متشح بثياب امرأة، على ما يبدو حاول الهرب فيها. اثنان ضباط الصَّف وثلاثة جنود، وما من فولكهايمر.

ليلاً يقدمون الحساء في مرجل، ويتجرع أربع حصص من الطعام بوساطة كوب من الصَّفيح. بعد خمس دقائق، يتقيأ في الزاوية. يتقيأ الحساء في الصَّباح أيضاً. تطوف أفواج من السُّحب السَّماء. لا تميز أذنه اليسرى أي صوت. يقلب في ذاكرته صوراً لماري لور - يديها، شعرها - حتى وهو يخشى من أن التركيز عليها مطولاً يعني أن يجازف بإتلافها. في اليوم التالي لتوقيفه، سُيِّر شرقاً مع مجموعة مؤلَّفة من عشرين شخصاً آخرين، لينضموا إلى مجموعة أكبر تم احتجازهم في عنبر. عبر الأبواب المفتوحة، لا يمكنه أن يرى سان مالو، لكنه يسمع الطائرات، بالمئات، وبساط كبير من الدُّخان يعلق فوق الأفق ليل نهار. يحاول طبيبان أن يقدِّما لفرنر أطباقاً من العصيدة، لكنه سوف يتقيأها. لم يكن قادراً على إبقاء شيء في معدته منذ أن تناول الخوخ.

ربما الحمَّى تعود، ربما سمَّمه الوحل الذي شربوه في قبو الفندق، ربما جسده ينهار. يعرف أنه إذا لم يأكل، سوف يموت. لكن عندما يأكل، يحس كما لو أنه سوف يفارق الحياة.

يزحفون من العنبر إلى «دينان». معظم السُّجناء من الفتية أو الكهول، بقايا الرفقة المحطمة. يحملون عباءات، حقائب، صناديق، بعض الأحمال حقائب ملونة بألوان زاهية لا يعلم أحد من أين حصلوا عليها. بينهم رجلان قاتلا جنباً إلى جنب، لكن معظمهم غرباء، وكل ما رأوه هي أمور يتمنون نسيانها. هناك دوماً الإحساس بمد يرتفع من خلفهم، يحتشد حاملاً معه غضباً بطيئاً وانتقامياً.

يمشي في السروال الصوفي الذي يعود لعم ماري لور، يحمل على كتفه حقيبته. يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً. كل حياته، عبارة عن رفاقه

في المدرسة، الراديو، قادته الذين حدثوه عن المستقبل. ومع ذلك ما الذي بقي من المستقبل؟ الطريق أمامه فارغة، وسطور أفكاره كلها تميل إلى الدَّاخل: يرى ماري لور تختفي في الشَّارع، وعصاها مثل رماد يتطاير من نار، وشعور بالتوق يتحطم داخل ضلوعه.

في اليوم الأول من شهر أيلول، لا يستطيع فرنر النُّهوض على قدميه عند استيقاظه. يساعده اثنان من رفاقه في الذَّهاب إلى دورة المياه والعودة، ثم يمددانه على العشب. يضيء شاب كندي يرتدي خوذة طبية كشافاً صغيراً في عيني فرنر، ويحمله إلى شاحنة، حيث يساق مسافة ما ليوضع في خيمة ملأى بالرجال المحتضرين. تحقن ممرضة سائلاً في ذراعه. وعدة ملاعق من محلول في فمه.

طوال أسبوع يعيش في ضوء غريب مخضرّ تحت قماش تلك الخيمة الهائلة، يمسك بإحكام حقيبته بإحدى يديه، والزوايا القاسية للمنزل الصغير الخشبي مثبَّتة في الأخرى. عندما امتلك القوَّة، عبث به. يطوي المدخنة، يزلق ألواح السَّطح الثلاثة، ينظر في الدَّاخل. مشيدٌ ببراعة فائقة.

يومياً، من على يمينه ويساره، تهرب روح أخرى إلى السَّماء، ويبدو له كما لو أنه يستطيع سماع موسيقى بعيدة، كما لو أن باباً مغلقاً يفصله عن راديو ضخم قديم، ويمكنه السَّماع فقط بوضع أذنه السَّليمة على سريره النقال، مع أن صوت الموسيقى منخفض، وتمر لحظات لا يكون فيها متأكداً من وجودها على الإطلاق.

فرنر واثق من أن هناك شيئاً ليغضبه، لكنه لا يستطيع أن يعرف ماهيته.

لا يأكل». تقول ممرضة بالإنكليزية.

«حمَّى؟». يقول رجل بإشارة مسعف.

«مرتفعة».

هناك عدد آخر من الكلمات. ثمَّ الأرقام. يرى في الحلم، سماء ليلي متألقة صافية، كل القنوات متجمِّدة، وفوانيس منازل عمَّال المناجم متَّقدة، المزارعين يتزلجون بين الحقول. يرى غوَّاصة نائمة في أعماق الأطلسي المعتمة، يوتا تضغط وجهها على كوَّة، وتتنفس على الزُّجاج. هو يتوقَّع إلى حدٍّ ما أن يرى يد فولكهايمر الضَّخمة تظهر، تساعده على النهوض، وترميه في شاحنة الأوبل.

وماري لور؟ هل لا يزال في وسعها أن تحس بضغط يده على وترات يديها، كما يمكنه أن يحس بضغط يدها؟

ينهض ذات ليلة. في الأسرة من حوله هناك عدد من المرضى أو الجرحى. تتدفَّق ريح أيلولية دافئة من جهة الريف فتتموَّج جدران الخيمة.

يدور رأس فرنر قليلاً على محور عنقه. الريح شديدة وتزداد قوَّة، وزوايا الخيمة تنضغط على حبالها المثبَّتة، وحيث ترتفع الطيَّات عند الطرفين، يمكنه أن يرى أشجاراً تقفز وتتمايل. كل شيء يصدر حفيفاً. يغلق فرنر سحَّاب دفتره القديم، والمنزل الصَّغير في حقيبة عدَّته، الرجل الذي إلى جانبه يتمتم بأسئلة لذات نفسه، وبقية الرفقة المحطمين نائمون. حتى إحساس فرنر بالظَّمأ تلاشى. لا يحس إلا بالاندفاع الجامد القاسي لضوء القمر، عندما يضرب الخيمة فوقه ويتشتت. في الخارج، عبر طيات الخيمة المفتوحة، تندفع سحب فوق قمم الأشجار. نحو ألمانيا، نحو الوطن.

فضِّي وأزرق، فضِّي وأزرق.

تتساقط طبقات ورقية على صفوف الأسرة، وتدبُّ الحياة في صدر فرنر. يرى السَّيدة إلينا راكعة بجانب موقد الفحم تطمر النَّار. أطفال في أسرتهم. يوتا صغيرة ترقد في مهدها. والده يضيء مصباحاً، يدخل مصعداً ويختفي.

صوت فولكهايمر: ماذا يمكن لك أن تكون؟

يبدو أن جسد فرنر أصبح عديم الوزن تحت غطائه، وخلف أبواب الخيمة الخافقة، تتراقص الأشجار، والسُّحب تواصل مسيرتها الضخمة المائجة، ويلوح عن حافَّة السَّرير أولاً بإحدى ساقيه، من ثم الأخرى.

يقول رجل بجانبه: «إرنست. إرنست».

لكن ما من إرنست، الرجال في الأسرة لا يجيبون، الجندي الأمريكي عند باب الخيمة نائم. يمرُّ به فرنر نحو العشب.

الريح تهب عبر قميصه الداخلي. إنه طائرة ورقية، بالون.

صنع مرة هو ويوتا مركباً شراعياً صغيراً من بقايا الخشب، وحملاه إلى النهر. طلت يوتا المركب باللونين القرمزي الزَّاهي والأخضر، ووضعته على الماء بطريقة عظيمة. لكن المركب تراخى حالما احتواه التَّيار. عام مع مجرى النهر، بعيداً عن متناولهم، والماء الأسود السَّاكن ابتلعه. طرفت يوتا نحو فرنر بعينين نديتين، تشد خيوط العُرى البالية في سترتها.

قال لها: «لا بأس، نادراً ما تنجح الأمور من أول محاولة. سوف نصنع واحداً آخر، واحداً أفضل».

هل فعلا؟ يأمل أن يكونا قد فعلا. يبدو أنه يتذكر مركباً صغيراً – مركباً صالحاً للإبحار – ينساب على نهر. أبحر حول منحنى وتركهما خلفه. ألم يفعل؟

يشعُّ ضوء القمر ويتماوج، تندفع السُّحب المنكسرة فوق الأشجار. تتطاير أوراق في كلِّ مكان. لكنَّ ضوء القمر لا تهزه الريح، يمر عبر السُّحب، عبر الهواء، فيما يبدو لفرنر، مثل أشعة بطيئة هادئة على نحو متعذِّر. تتدلى عبر العشب المتثني.

لماذا لا تحرك الريح الضُّوء؟ عبر الحقل، يراقب أميركي فتىً يغادر

خيمة المرضى، ويسير إزاء الخلفية التي تشكلها الأشجار. ينهض. يرفع يده.

«قف». ينادي.

«قف». ينادي بالألمانية.

لكن فرنر قد عبر حافَّة الحقل، حيث يخطو على نابض لغم أرضي زرعه هناك جيشه قبل ثلاثة شهور، ويختفي في نافورة من التراب.

أحد عشر

1945

برلين

في شهر كانون الثَّاني من عام 1945، نُقلت السَّيدة إلينا مع آخر أربع فتيات من منزل الأطفال - التوأم، هانا وسوزان جيرليتز، كلاوديا فورتسر، ويوتا بفينغ البالغة من العمر خمسة عشر عاماً - من إيسن إلى برلين للعمل في مصنع لقطع الغيار.

طوال عشر ساعات يومياً، لستة أيام في الأسبوع، يعملن على تفكيك مكابس معدنية ضخمة، وتكويم الحديد الصَّالح للاستعمال في صناديق، ليحمَّل على عربات قطار. فك البراغي، نشر، جر. معظم الأيام تعمل السَّيدة إلينا بحرص، ترتدي سترة تزلج ممزقة عثرت عليها، تتمتم لذات نفسها بالفرنسية أو تغني أغنياتٍ من الطفولة.

يقمنَ فوق شركة للطباعة مهجورة منذ شهر. كومت مئات من الصناديق المليئة بقواميس تحتوي على أخطاء في الطباعة في الممرات، والفتيات تحرقها صفحة صفحة في موقد كبير.

صفحة البارحة كلمة شكر، صوت شكر، شكر، عروض السَّلام.

صفحة اليوم اتحاد المرأة، جمعية المرأة، السيدة الرئيس، حق الاقتراع للمرأة.

للوجبات يتناولن الكرنب والشَّعير في مقصف المصنع ظهراً، صفوف لا نهائية في المساء. زبدة مقطعة قطعاً صغيرة: ثلاث مرات في الأسبوع،

تحصل كل واحدة على مربع بحجم مكعب سكر. يجلبن الماء من صنبور على مسافة شارعين. لا تملك الأمهات ملابس تلائم الأطفال الرضع، ما من عربات، وفقط النزر اليسير من حليب الأبقار.

تمزق بعضهن ملاءات الأسرة لتستعملنها كحفاضات، بعضهن يجدن صحفاً تطوى على شكل مثلثات وتثبت بين ساقي الطفل.

نصف الفتيات العاملات في المصنع -على الأقل- أميّات، لذا تقرأ يوتا لهن الرسائل التي تصل من الأصدقاء، أو الإخوة، أو الآباء على الجبهة. أحياناً تكتب ردوداً لهن: وهل تتذكر عندما أكلنا الفستق، وعندما أكلنا الليمون المثلج الذي له شكل زهور؟ وعندما قلت...

طوال فصل الربيع تتساقط القذائف، كل ليلة، وهدفها الوحيد فيما يبدو هو إحراق المدينة عن بكرة أبيها. معظم الليالي تسرع الفتيات إلى آخر الشّارع ويدخلن ملجأ ضيقاً ولا يستطعن النوم بسبب صوت تحطم الحجارة.

مرة كل حين، في أثناء المسير نحو المصنع يرين جثثاً، مومياوات تحولت إلى رماد، أناس احترقوا حتى لم يعد ممكناً التعرف إليهم. مرات أخرى، لا تحمل الجثث أي علامات على الإصابة، وهذا ما يملأ يوتا بالرعب: أناس يبدون كما لو أنهم على وشك النهوض والسير إلى العمل مع البقية.

لكنهم لا يستيقظون.

ترى مرة صفاً من ثلاثة أطفال على بطونهم، حقائب على ظهورهم. أول ما يتبادر إلى ذهنها: استيقظوا، اذهبوا إلى المدرسة. ثم تفكّر: ربما قد يكون هناك طعام في تلك الحقائب.

تكف كلاوديا فورتسر عن الكلام. طوال النهار تمر ولا تنبس بكلمة.

تنفد المواد من المصنع. تدور شائعات عن أنه لم يعد هناك أحد مسؤول بعد الآن، وأن النحاس والزنك والستانلس ستيل الذين كن يكدحن لجمعها، حُمّلت على عربات القطار وتُركت في المحطات من أجل لا أحد.

البريد يتوقّف. في أواخر شهر آذار، أقفل مصنع قطع الغيار، السَّيدة إلينا والفتيات أرسلن للعمل لصالح شركة مدنيَّة لتنظيف الشَّوارع بعد القصف. رفعن كتلاً بنائية محطمة، جرفن الغبار وشظايا الزجاج عبر مصافي. تسمع يوتا عن فتية في عمر السَّادسة عشرة والسَّابعة عشرة، خائفين، مشتاقين إلى بيوتهم، بنظرات مرتجفة، يظهرون عند عتبات أمهاتهم فقط ليتم جرهم من العليات بعد يومين ليقتلوا في الشوارع بتهمة الفرار من التجنيد. تعود إليها صور من طفولتها - تركب في عربة خلف أخيها، يتلقفان القمامة. يبحثان عن شيء يتلألأ في المستنقع.

تهمس بصوت مسموع: «فرنر».

في الخريف، في زولفرين، تلقَّت رسالتين تعلنان موته. أشارت كل واحدة منهما إلى مكان دفن مختلف. لا فروسنيه، شيربورغ - كان عليها البحث عنهما. إنهما بلدتان فرنسيتان. أحياناً، في الأحلام، تقف معه على طاولة مبعثر عليها تروس وأحزمة ومحركات. يقول: «أنا أصنع شيئاً. أنا أعمل عليه». لكنه لا يستمر.

بحلول شهر نيسان، لا تتحدث النساء إلا عن الروس والأمور التي سوف يقدمون على فعلها، الثأر الذي سوف يسعون إلى نيله. يقلن: «برابرة، تتار، روس، متوحشون، خنازير. الخنازير في ستراسبورغ. الغيلان في الضواحي».

تنام هانا، سوزان، كلاوديا، ويوتا على الأرض متشابكات. هل من خير بقي في هذا الحصن المهجور الأخير؟ القليل. تأتي يوتا إلى البيت ذات أصيل، مكسوة بالغبار، لتكتشف أن كلاوديا فورستر الضَّخمة عثرت

مصادفة على صندوق ورقي من المخبز مختوم بشريط ذهبي. تظهر لطخٌ من الدُّهن عبر الورق المقوَّى. تحدِّق الفتيات فيه معاً. مثل شيء من العالم غير المنهار.

في داخله خمس عشرة قطعة حلوى، تفصل فيما بينها مربَّعات من الورق المشمَّع ومحشوَّة بمربى الفريز. تجلس الفتيات الأربع والسَّيدة إلينا في شقتهنَّ المشبعة بالماء، ينهمر مطر ربيعي على المدينة، يسيل الرماد كله من الدَّمار، تسترق الجرذان جميعها النَّظر من الكهوف التي صنعها القرميد المتساقط، وتتناول كل واحدة منهنَّ ثلاث قطع من الحلوى البائتة، لا تحتفظ واحدة منهن بشيء لوقت لاحق، يغطي مسحوق السُّكر أنوفهن، الهلام بين أسنانهن، دوار يعلو ويومض في دمهن.

استطاعت كلاوديا متحجرة القلب، شبيهة البقر، تحقيق معجزة: كهذه أن تكون طيبة القلب إلى درجة مقاسمتهن الحلوى.

من بقي من نساء شابات اكتسين بالأسمال جميعهنَّ، ينكمشن خوفاً في الأقبية. تسمع يوتا أن الجدات يدهنَّ الحفيدات بالبراز، يقصصن شعورهن بسكاكين الخبز، يفعلن أي شيء لجعلهن منفِّرات للروس.

تسمع أن الأمهات يغرقن بناتهن.

تسمع أن في وسعك أن تشم رائحة الدم عليهم من على بعد ميل.

تقول السَّيدة إلينا: «لن يطول الأمر كثيراً بعد الآن». راحتا يديها ممدودتان أمام الموقد و الماء يأبى أن يغلي.

يأتي الروس إليهن في أحد أيام شهر أيار الصَّافية. ثلاثة فقط، يأتون في تلك المرة الوحيدة. يقتحمون شركة الطباعة في الأسفل، يبحثون عن المشروب، لكنهم لا يجدون شيئاً، وسرعان ما يحدثون فجوات في الجدران. صرير ورعدة، رصاصة تصوب نحو مطبعة قديمة مفككة،

وفي شقة الطابق الأعلى تجلس السَّيدة إلينا في سترتها الفرائية المخططة، ونسخة للجيب من الكتاب المقدس، مغلق عليها سحاب محفظتها، تمسك أيدي الفتيات وتمتم صلاة صامتة.

تسمح يوتا لنفسها أن تصدق أنهم لن يصعدوا الدَّرج. لعدَّة دقائق لا يفعلون. إلى أن يفعلوا، ويخبطون بجزمهم طوال الطريق إلى الأعلى.

تقول السَّيدة إلينا للفتيات: «الْزمنَ الهدوء». هانا وسوزان وكلاوديا ويوتا - لا يتجاوز عمر أي واحدة منهن ستة عشر عاماً. صوت السَّيدة إلينا منخفض ومنكمش، لكنه لا يبدو خائفاً، مخيباً ربما. «الزمنَ الهدوء ولن يطلقوا الرصاص. سأحرص على الذَّهاب أولاً. بعد ذلك سيكونون أكثر لطفاً».

تعقد يوتا يديها خلف رأسها وتمنعهما من الارتعاش، تبدو كلاوديا بكماء صماء.

تقول السَّيدة إلينا: «وأغمضن عيونكن».

هانا تنتحب.

«أريد أن أراهم». تقول يوتا.

- لا تغمضيهما إذاً.

يتوقَّف وقع الأقدام عند قمَّة الدَّرج. يدخل الروس الحجرة الصَّغيرة، ويسمعون مقابض مماسح تركل على نحو ثمل، وصندوقاً مليئاً بالقواميس يرمى على الدَّرج محدثاً صوتاً مكتوماً، من ثمَّ شخص يجلجل بالمقبض. واحد يقول شيئاً لآخر، والعضادة تتكسر والبابُ ينفتح بعنف.

أحدهم ضابط. اثنان لا يمكن أن يتجاوز عمرهما سبعة عشر عاماً. جميعهم قذرون إلى درجة تستعصي على الفهم، لكن في مكان ما، في السَّاعات التي سبقت، تركوا لأنفسهم حرية التعطر بعطر نسائي. تفوح من

الفتيَين على وجه الخصوص رائحة سُميَّة. يبدوان إلى حدٍّ ما مثل تلميذي مدرسة خجولين، ومن ناحية أخرى مختلين، لم يبقَ لهما في الحياة سوى ساعة واحدة. حزام الأول ليس سوى حبل وهو نحيل للغاية، ليس عليه أن يحله ليزلق سرواله. يطلق الثَّاني ضحكة: غريبة مشوشة، كما لو أنه لا يصدق تماماً أنه يمكن للألمان أن يأتوا إلى بلاده ويخلفوا مدينة مثل هذه وراءهم. يجلس الضابط عند الباب وساقاه ممدودتان أمامه ويسترق النظر نحو الشَّارع. تصرخ هانا لنصف ثانية لكن سرعان ما تكتمها بيدها.

تقود السَّيدة إلينا الفتيَين إلى الغرفة الثانية. لا تصدر إلا صخباً وحيداً: كحَّة، كما لو أن شيئاً عالقاً في حلقها.

تذهب كلاوديا بعدها. لا يندُّ عنها سوى النحيب.

لا تسمح يوتا لنفسها بإصدار صوت واحد. كلُّ شيء منظم على نحو غريب. يذهب الضابط أخيراً، يجرب كل واحدة منهن بدورها، ويقول كلمات مفردة وهو يعتلي يوتا، عيناه مفتوحتان لكنه لا يرى. ليس واضحاً من وجهه المبرح المضغوط إذا كانت الكلمات تحبباً أو إهانة. تحت الكولونيا، تفوح منه رائحة أشبه برائحة حصان. بعد سنوات، سوف تسمع يوتا الكلمات التي قالها تتردد في ذاكرتها - كيريل، بافل، افانازي، فالنتين - وسوف تقرر أنها كانت أسماء جنود قتلى. لكن ربما كانت مخطئة.

قبل أن يغادر الروس، يطلق الأصغر سناً النَّار من سلاحه على السَّقف مرتين، فيمطر الجص برفق على يوتا، وفي الصَّدى المتردد عالياً، يمكنها سماع صوت سوزان على الأرض بجانبها، لا تنتحب، لكن بالكاد تتنفس بهدوء شديد، وهي تصغي إلى الصَّوت الذي يصدره الضَّابط وهو يرتدي ثيابه. ثم يخرج الرجال الثَّلاثة إلى الشَّارع، والسَّيدة إلينا تغلق سترتها الفرائية، حافية القدمين، تفرك ذراعها اليسرى بيدها اليمنى كما لو أنها تحاول أن تدفئ ذلك الجزء الصغير من نفسها.

باريس

يستأجر إيتيين الشَّقة ذاتها في شارع دي باتريَرش، حيث نشأت ماري لور. يشتري الصُّحف يومياً ليتفحَّص قوائم السُّجناء المطلق سراحهم، ويصغي باستمرار إلى أحد الراديوهات الثَّلاثة. ديغول هذا، شمال أفريقيا ذاك، هتلر، روزفلت، دانزيج، براتسلافا، كل هذه الأسماء، ما من واحد منها اسم والدها.

يمشيان كل صباح إلى محطة قطار «أوسترليتز» لينتظرا. تجلجل ساعة المحطة الكبيرة بزحف عديم الشَّفقة للثواني، وماري لور تجلس بجانب عمها وتصغي إلى البؤساء المهزولين الذين يترجلون متثاقلين من القطارات.

يرى إيتيين جنوداً، التجاويف في خدودهم مثل فناجين مقلوبة. بعمر ثلاثين عاماً يبدون في الثمانين. رجال في بذل رثّة يضمون أيديهم على قمة رؤوسهم، ليرفعوا قبعات لم تعد هناك. تستنتج ماري لور ما يسعها من أصوات أحذيتهم: هؤلاء صغار الحجم، هؤلاء يزنون طناً، هؤلاء بالكاد موجودون على الإطلاق.

في المساءات تقرأ، بينما إيتيين يجري الاتصالات الهاتفية، التماسات لسلطات إعادة التوطين، ويكتب الرسائل. تجد أنها لا تستطيع النوم إلا ساعتين أو ثلاث ساعات. توقظها كل مرة قذائف متخيلة.

يقول إيتيين الذي اعتاد أن يرقد على الأرض بجانبها «إنها مجرد حافلات».

أو: «إنها الطيور فقط».

أو: «إنه لا شيء ماري لور».

معظم الأيام، ينتظر معهم عالم الرخويات الدكتور جيفار المسن الزَّياق، عند بوابة أوسترليتز، جالساً باستقامة ولحيته وربطة عنقه، تفوح منه رائحة إكليل الجبل، النَّعناع، النَّبيذ. يناديها لوريت، يتحدث عن مدى افتقاده لها، وكم فكَّر فيها كل يوم، وكيف أنه برؤيتها الآن يزداد إيمانه صلابة بأن الخير هو الذي سيسود في النهاية.

تجلس وكتفها مضغوط على كتف إيتيين، أو كتف الدكتور جيفار. قد يكون أبي في أي مكان. قد يكون تماماً ذلك الصَّوت الذي يقترب الآن. وقع الأقدام تلك التي إلى يمينها. قد يكون في قبو، في خندق، على بعد ألف ميل، ربما يكون مضى وقت طويل على وفاته.

تدخل المتحف ممسكة بذراع إيتيين لتتحدث مع موظفين مختلفين، يتذكرها الكثير منهم. يشرح المدير شخصياً أنهم يبذلون أقصى جهودهم في البحث عن والدها، وأنهم سوف يواصلون مساعدتها في السكن والتعليم. لا أحد يأتي على ذكر بحر اللهب.

الربيع يتبدَّى، بيانات تغمر موجات الأثير. برلين تستسلم، جورينج تستسلم، انفرط عقد لغز النَّازية العظيم. تتشكل الاستعراضات بشكل عفوي. يهمس الآخرون الذين ينتظرون عند بوابة أوسترليتز أنه لن يعود سوى واحد من كل مئة. وأنهم شديدو الهزال، حتى أن في وسعك أن تمسك بعنق كل واحد منهم بين إبهامك وسبابتك. وأنهم عندما يخلعون قمصانهم يمكنك أن ترى رئاتهم تتحرك في داخل صدورهم.

كل لقمة طعام تتناولها خيانة.

ويمكنها القول إنه حتى هؤلاء الذين عادوا، عادوا مختلفين، أكبر سناً مما يجب أن يكونوا. كما لو أنهم كانوا في كوكب آخر حيث السَّنوات تمر بسرعة أكبر.

«هناك احتمال»، يقول إيتيين: «أننا لن نعرف أبداً ما الذي حصل. علينا أن نكون مستعدين لذلك».

تسمع ماري لور صوت السَّيدة مانِك: يجب ألا تكفي عن الإيمان.

ينتظران طوال فصل الصَّيف، إيتيين دوماً إلى جانب، والدكتور جيفار غالباً على الجانب الآخر، من ثم ذات ظهيرة في شهر آب، تقود ماري لور عمها والدكتور جيفار على درج طويل، نحو ضوء الشَّمس، وتسأل إذا كان الطريق آمناً لعبورها. يقولان إنه كذلك، فتقودهما على طول رصيف الميناء، عبر بوابات حديقة النباتات. على طول الدروب المفروشة بالحصى يهتف فتيان. يعزف شخص ما ليس ببعيد على الساكسفون، تتوقف بجانب تعريشة زاخرة بطنين النحل. تبدو السماء عالية وبعيدة. في مكان ما، يحاول أحدهم أن يجد طريقة للحد من لوعة الفقد، لكن ماري لور لا تستطيع، ليس بعد، الحقيقة هي أنها فتاة عاجزة لا بيت لها ولا أهل.

«ماذا الآن؟»، يسأل إيتيين: «طعام الغذاء؟».

«مدرسة»، تقول: «أريد أن أذهب إلى المدرسة».

اثنا عشر

1974

فولكهايمر

يمتلك طابق فرانك فولكهايمر الثَّالث -غير المزوَّد بمصعد في ضواحي بفورتزهايم في ألمانيا- ثلاث نوافذ. تحتل المشهد لوحة إعلانات، منصوبة على إفريز المبنى في الجهة الأخرى من الزُّقاق، يلمع سطحها مسافة ثلاث ياردات خلف الزجاج. مطبوع عليها لحوم مصنَّعة، لحوم باردة بطول قامته، حمراء وزهرية اللون، رمادية عند حافاتها، مزينة بغصينات البقدونس بحجم شجيرات. ليلاً تغمر أضواء لوحة الإعلانات الأربعة الكهربائية الكئيبة شقته في وهج منعكس غريب.

إنه في الواحدة والخمسين من العمر.

ينهمر مطر نيسان مائلاً عبر أضواء لوحة الإعلانات الكاشفة، وتلفاز فولكهايمر يومض أزرق وينحني كعادته عندما يمر عبر المدخل بين مطبخه والغرفة الرئيسة. ما من أطفال، ما من حيوانات أليفة، ما من نباتات منزلية، بضعة كتب على الرفوف. فقط طاولة للعب الورق، فرشة، وكرسي مفرد بمساند أمام التلفاز حيث يجلس الآن، في حجره علبة صفيح تحتوي كعكاً بالزبدة. يأكلها واحدة تلو أخرى، بداية جميع الأقراص التي على شكل زهور، ثم تلك التي على شكل كعك البريتزل المملح، وأخيراً تلك التي لها شكل ورقة البرسيم.

على التلفاز، حصان أسود يساعد رجلاً عالقاً تحت شجرة ساقطة.

يعمل فولكهايمر في تركيب وإصلاح هوائيات التلفاز على السُّطوح. يرتدي كل صباح بذلة مؤلفة من قطعة واحدة زرقاء اللون، باهتة في المكان الذي تضغط فيه على كتفيه العريضين، قصيرة للغاية حول الكاحلين، ويسير إلى العمل متنعلاً جزمة كبيرة سوداء. لأنه يمتلك القوة الكافية لنقل السَّلالم الكبيرة القابلة للتمديد بنفسه، وربما أيضاً لأنه لا يتحدَّث إلا فيما ندر، فإنه يلبي معظم النداءات وحيداً. يتصل الناس بالمكتب الفرعي هاتفياً ليطلبوا تركيب الهوائيات، أو ليشتكوا من ضعف الإشارة، تشويش، طيور زرازير تعشش على الهوائيات، ويخرج فولكهايمر. يصل سلكاً مقطوعاً أو يكز عش طائر، أو يرفع هوائياً على الدعامات.

في الأيام العاصفة شديدة البرودة فقط، تبدو بفورتزهايم مثل وطن. يروق لفولكهايمر أن يشعر بالهواء ينزلق تحت ياقة بذلته، يحب رؤية الضوء النقي من هبوب الرياح، التلال البعيدة المكسوة بالثَّلج، أشجار البلدة (كلها زرعت في سنوات ما بعد الحرب، كلها متساوية في العمر) تتوهج بالجليد. في أصائل الشِّتاء يتنقل بين الهوائيات مثل بحار عبر حبال السَّفينة. في الضوء الأزرق المتأخر، يمكنه مشاهدة الناس في الشَّوارع في الأسفل، يسرعون إلى بيوتهم، وأحياناً تحوم نوارس بالقرب منه، بيضاء بعكس الظلمة. ثقل الأدوات الصَّغير الآمن على طول حزامه، رائحة المطر المتقطع، ولمعان السُّحب الكريستالي عند الغسق: تلك هي الأوقات الوحيدة التي يشعر فيها فولكهايمر بالاكتمال على نحو هامشي.

لكن في معظم الأيام، لا سيَّما تلك الدافئة منها، تنهكه الحياة، حركة المرور المتفاقمة والرسومات الجدارية وسياسة الشَّركة، الجميع يتذمر من العلاوات، الأرباح، العمل الإضافي. أحياناً في حرارة الصَّيف المتوانية، قبل وقت طويل من بزوغ الفجر، يخطو فولكهايمر في الوهج القاسي لأضواء لوحة الإعلانات، ويشعر بأن وحدته أشبه بمرض. يرى

مصفوفات طويلة من أشجار التَّنوب تتأرجح في عاصفة، يسمع تأوهات أخشاب لبِّها الصُّلبة. يرى أرض بيت طفولته الترابية، وخيوط الفجر الآتية عبر الصَّنوبريات. في أوقات أخرى تطارده عيون الرجال المحتضرين، ويقتلهم جميعاً مرة أخرى. رجل ميت في وودج، رجل ميت في لوبلين، رجل ميت في رادوم. رجل ميت في كراكوف.

مطر على النَّوافذ، مطر على السَّطح. قبل أن يأوي إلى السَّرير، يهبط فولكهايمر ثلاث دفعات من الأدراج إلى الردهة ليتفحَّص بريده. لم يتفحص بريده منذ ما يزيد عن أسبوع، وبين نشرتين إعلانيتين وشيك الراتب وفاتورة كهرباء واحدة، يوجد طرد صغير من منظمة للمحاربين القدماء تتخذ من برلين الغربية مقراً لها. يحمل البريد إلى الطابق الأعلى ويفتح الطرد.

ثلاث مواد مختلفة تمَّ تصويرها إزاء الخلفية البيضاء نفسها، بطاقات مرقَّمة بعناية ملصقة على جانب كل واحدة منها.

14 - 6962. حقيبة عدَّة لجندي مصنوعة من الخيش، رمادية مع حزامين مبطنين.

14 - 6963. مجسَّم منزل صغير مصنوع من الخشب محطَّم جزئياً.

14 - 6964. دفتر مستطيل الشَّكل ذو غلاف ناعم وكلمة واحدة مكتوبة على واجهته: أسئلة.

لا يتعرف إلى المنزل، ويمكن أن تكون الحقيبة لأي جندي، لكنه يعرف الدفتر في الحال: ف. ب. كُتب بقلم حبر على الركن السُّفلي. يضع فولكهايمر إصبعين على الصُّورة كما لو أنه قد يتمكن بذلك من انتزاع الدفتر وتقليب صفحاته.

كان مجرد فتى. كلهم كانوا كذلك. حتى الأضخم من بينهم.

تشرح الرسالة أنَّ المنظمة تحاول إرسال الممتلكات إلى أقرب أفراد عائلات الجنود الموتى الذين فقدت أسماؤهم. وتقول إنهم يعتقدون أنه هو في هذه الحالة، الرقيب فرانك فولكهايمر، الذي خدم برتبة ملازم وكان مسؤولاً عن وحدة كان مالك هذه الحقيبة أحد أفرادها، حقيبة استردها أسير حرب ينتمي إلى جيش الولايات المتحدة في معسكر اعتقال في بيرنيه، فرنسا، في العام 1944.

هل يعرف لمن كانت تعود هذه الحاجيات؟

يضع الصُّور الفوتوغرافية على الطاولة، ويقف ويداه الكبيرتان إلى جانبيه. يسمع محاور عجلات تهتز، مواسير عوادم تدمدم، مطر على قماش الخيش، سحب من الناموس تزنّ. مسير الأحذية العسكرية وصراخ فتية بملء حناجرهم.

تشويش، ثم المدافع.

لكن هل كان أخلاقياً تركه خارجاً على ذلك الشكل؟ حتى بعد موته؟

ماذا يمكن لك أن تكون.

كان صغيراً. كان شعره أبيض وأذناه بارزتين. زرر ياقة سترته حول رقبته عندما كان يشعر بالبرد ومد يديه داخل الأكمام. يعرف فولكهايمر إلى من تعود هذه الممتلكات.

يوتا

تدرِّس «يوتا ويتيه» علم الجبر لطلاب المرحلة الثانوية في إيسن: الأعداد الصَّحيحة، الاحتمالات، القطع المكافئ. ترتدي كلَّ يوم الملابس ذاتها: بنطالاً واسعاً أسود مع قميص من النَّايلون - بيج، فحمي، أو أزرق باهت، بالتناوب. بين الحين والآخر القميص الأصفر الفاتح، إذا كانت تحس بأنها غير مقيدة. بشرتها حليبية اللون، وشعرها ظل على حاله، أبيض بياض الورق.

زوج يوتا، ألبرت، محاسب أصلع بطيء الحركة، لطيف، شغفه الكبير هو تسيير قطارات مصغَّرة في القبو. لفترة طويلة اعتقدت يوتا أنها لن تتمكن من الحَبَل، من ثم حدث ذات يوم، عندما كانت في السَّابعة والثلاثين من عمرها. ابنهما ماكس، في السَّادسة من عمره، مولع بالوحل، الكلاب، وأسئلة لا يملك أحد إجابة عليها. في الآونة الأخيرة، يحب ماكس، أكثر ما يحب، أن يصنع تصاميم معقدة من الطائرات الورقية. يعود إلى البيت من المدرسة، يجثو على أرض المطبخ، ويشكل طائرة بعد أخرى بتفان عازم ومخيف تقريباً، يقيم قمم أجنحة، ذيول، أنوف مختلفة، غالباً يبدو أنه يحب تطبيقها العملي، تحويل شيء مسطح إلى شيء يمكنه الطيران.

في أصيل يوم خميس في بداية شهر حزيران، السَّنة الدراسية على وشك الانتهاء، وهم في المسبح العمومي. تحجب السَّماء سحب رمادية

اللون، أطفال يصرخون في الجهة قليلة العمق، والأهالي يتحدثون أو يقرؤون مجلات أو يغفون في كراسيهم، وكل شيء عادي. يقف ألبرت عند نضد الوجبات الخفيفة في لباس السِّباحة، ومنشفته الصَّغيرة مثنية على ظهره العريض، ويفكِّر ملياً في أي نوع من الآيس كريم سوف يختار.

يسبح ماكس بشكل أخرق، يحرك إحدى ذراعيه إلى الأمام ثم الأخرى، دورياً يرفع بصره ليتأكد من أن أمه تراقبه. عندما ينتهي، يلفُّ نفسه بمنشفة، ويصعد للجلوس على الكرسي بجانبها. ماكس مكتنز وقصير وأذناه بارزتان، تلمع قطرات ماء صغيرة في أهدابه. غسق يرشح عبر الظلمة، وبرد خفيف يتقطَّر في الهواء، وواحدة تلو الأخرى، تغادر العائلات ذاهبة إلى بيوتها سيراً على الأقدام، أو على متن الدراجات الهوائية، أو بركوب الحافلات. ينتزع ماكس البسكويت من صندوق الورق المقوَّى ويمضغه بصوت مسموع.

يقول: «أحب بسكويت "لايبنيتز زوو"، أمي».

– أعرف ماكس.

يقودهم ألبرت إلى البيت في سيارتهم الصغيرة (ن سْ و برينز 4)، يخشخش جهاز تغيير السرعة، وتخرج يوتا كدسة من أوراق امتحانات نهاية الفصل من حقيبتها المدرسية، وتصححها إلى طاولة المطبخ. يضع ألبرت الماء على النار لتحضير النودلز، ويقلي البصل. يسحب ماكس ورقة فارغة عن طاولة الرسم ويبدأ بطيها.

يسمع طرق على الباب الأمامي، ثلاث مرات.

لأسباب لا تفهمها يوتا تماماً، تدوي نبضات قلبها في أذنيها. يحوم طرف قلمها على الصَّفحة. إنه فقط شخص ما عند الباب – جار أو صديق أو فتاة صغيرة، آنا، تسكن في الشَّارع نفسه، تجلس أحياناً في الطابق الأعلى

مع ماكس وتعطيه أحياناً توجيهات عن أفضل طريقة لبناء بلدات متقنة من كتل بلاستيكية. لكن هذا الطرق لا يبدو شبيهاً بطرق آنا.

يقفز ماكس نحو الباب، الطائرة في يده.

- من الطارق عزيزي؟

ماكس لا يجيب، وهذا يعني أنه شخص لا يعرفه. تعبر نحو القاعة، وهناك يقف عملاق في إطار بابها.

يصالب ماكس ذراعيه، مفتوناً ومعجباً. طائرته على الأرض عند قدميه. يخلع العملاق قبعته. يلمع رأسه الضَّخم. «السَّيدة ويتيه؟». يرتدي سترة رياضية فضية بحجم خيمة، وبقع حمراء كستنائية اللون على الجانبين، السَّحاب مغلق حتى حنجرته. يقدم بحذر شديد حقيبة من الخيش الخشن الناصل اللون.

المتنمرون في السَّاحة. هانز وهيربرت. ضخامته بمفردها تستحضرهم جميعاً. تفكِّر: وصل هذا الرجل إلى أبواب أخرى ولم يكلف نفسه عناء القرع.

- نعم؟

- كان اسمك قبل الزواج بفينغ؟

حتى قبل أن تومئ، قبل أن يقول: «لدي شيء من أجلك»، قبل أن تدعوه للدخول عبر الباب الشَّبكي، تعرف أن هذا سوف يكون متعلقاً بفرنر.

يهسهس بنطال العملاق المصنوع من النايلون وهو يتبعها عبر القاعة. يجفل ألبرت عندما يرفع بصره عن الموقد لكنه يكتفي بالقول: «مرحباً» و«انتبه لرأسك»، ويلوح بملعقة الطهو عندما يتفادى العملاق وصلة الإنارة.

عندما يعرض عليه تناول العشاء يوافق العملاق. يبعد ألبرت الطاولة

عن الجدار ويضع كرسياً رابعاً. في كرسيه الخشبي، يذكر فولكهايمر يوتا بصورة من أحد كتب ماكس المصورة: فيل محشور في مقعد طائرة. حقيبة عدة الجندي التي جلبها موضوعة على طاولة القاعة.

تبدأ المحادثة ببطء.

وصل قبل عدة ساعات على متن القطار.

جاء سيراً على الأقدام إلى هنا من المحطة.

لا يحتاج إلى النبيذ، شكراً لك.

يأكل ماكس بسرعة، ألبرت ببطء. تدسُّ يوتا يديها تحت فخذيها لتخفي ارتعاشهما.

«ما إن حصلوا على العنوان»، يقول فولكهايمر، «حتى سألت عن إمكانية إيصالها بنفسي. تضمنت رسالة، أترين؟» يخرج ورقة مطوية من جيبه.

في الخارج، سيارات تمر، طيور النمنمة تغرد بصوت مرتعش.

جزء من يوتا لا يرغب في أخذ الرسالة. لا يريد أن تسمع ما جاء هذا الرجل الضَّخم ليقوله مجتازاً طريقاً طويلاً. مرت أسابيع عندما لم تكن يوتا تسمح لنفسها بأن تفكر في الحرب، في السَّيدة إلينا، في الأشهر الأخيرة المريعة في برلين. الآن يمكنها شراء لحم الخنزير سبعة أيام في الأسبوع. الآن، إذا بدا المنزل بارداً يكفي أن تفتل قرصاً في المطبخ. لا تريد أن تكون واحدة من تلك النسوة في منتصف العمر اللاتي لا يفكرن في شيء سوى في قصصهن المؤلمة. تنظر أحياناً في عيون زملائها المسنين، وتتساءل ما الذي فعلوه عند انقطاع الكهرباء، عندما لم يكن هناك شموع، عندما دلف المطر من السَّقف. ما الذي رأوه. نادراً فقط تسمح لنفسها أن تفكر في فرنر. بطرق عدة، ذكرياتها عن أخيها تصبح أشياء يجب إبعادها. مدرِّسة

رياضيات في هلمولتز - جيمنازيوم في عام 1974 لا تستحضر أخاً درس في المعهد السياسي الوطني للتربية في شولبفورتا.

يقول ألبرت: «في الشَّرق إذن؟»

يقول فولكهايمر: «كنت معه في المدرسة، ثم في أرض المعركة. كنا في روسيا. بولندا، أوكرانيا، النمسا. ثم فرنسا أيضاً». يطحن ماكس قطع التفاحة ويقول: كم يبلغ طول قامتك؟».

تقول يوتا: «ماكس».

يبتسم فولكهايمر.

يقول ألبرت: «كان ذكياً جداً، صحيح؟ شقيق يوتا؟».

يقول فولكهايمر: «جداً».

يعرض ألبرت حصَّة أخرى من الطعام، يقدم الملح والنبيذ ثانية. ألبرت أصغر من يوتا، وخلال الحرب، جرى بين الملاجئ من الغارات الجوية في هامبورغ مثل ساعٍ. كان يبلغ من العمر تسع سنوات عام 1945، لا يزال طفلاً.

يقول فولكهايمر: «آخر مكان رأيته فيه كانت بلدة على السَّاحل الشَّمالي لفرنسا تدعى سان مالو».

تنبت من تربة ذاكرة يوتا الخصبة عبارة: ما أريد أن أكتب عنه اليوم هو البحر.

- أمضينا هناك شهراً. أظن أنه ربما يكون وقع في الحب.

تجلس يوتا باستقامة في كرسيها. إن اللغة تبدو عاجزة بشكل واضح، إلى حدٍّ مربك. بلدة في السَّاحل الشَّمالي لفرنسا؟ حُب؟ لن يشفى شيء في هذا المطبخ. بعض الأحزان لا يمكن تجاوزها أبداً.

يبتعد فولكهايمر عن الطاولة: «لم أكن أنوي أن أكدرك». يمشي حولهم، فيبدون مثل الأقزام.

يقول ألبرت: «لا بأس، ماكس، هل يمكنك أن تأخذ ضيفنا إلى الفناء؟ سوف أقدِّم بعض الكعك».

يزلق ماكس الباب الزجاجي لفولكهايمر، ويعبره محنياً. تضع يوتا الأطباق في المجلى. يعتريها تعب شديد على نحو مباغت. هي فقط تريد أن يغادر الرجل الضخم وأن يأخذ الحقيبة معه. هي فقط تريد أن يغمرها مد من الحياة العادية ويغطي كل شيء ثانية.

يمسُّ ألبرت مرفقها: «هل أنت بخير؟».

لا تومئ يوتا أو تهز رأسها، لكن ببطء تمرر يداً على حاجبيها.

- أحبك يوتا.

عندما تتطلع من النافذة، ترى فولكهايمر راكعاً على الإسمنت بجانب ماكس. يضع ماكس ورقتين، وعلى الرغم من أنها لا تستطيع أن تسمعهما، يمكنها أن ترى الرجل الضَّخم يتلو على ماكس مجموعة خطوات. يراقب ماكس باهتمام، يقلب الصَّفحة عندما يقلبها فولكهايمر، يطابق طياته، يبلل إصبعاً، ويمرره على طول ثنية.

وسرعان ما يكون لدى كل واحد منهما طيارة عريضة الجناحين مع ذيل طويل متشعِّب. تبحر طائرة فولكهايمر بأناقة عبر الباحة، تطير من فورها حقاً، وتصطدم بالسِّياج بخطمها أولاً. يصفق ماكس. يركع ماكس على الفناء في الغسق، يتفحَّص طيارته متحققاً من زاوية أجنحتها. يركع فولكهايمر بجانبه، يومئ، بصبر.

تقول يوتا: «أحبك أيضاً».

حقيبة الجندي

رحل فولكهايمر. الحقيبة تنتظر على طاولة الردهة. لا يمكنها النَّظر إليها إلا بصعوبة.

تساعد يوتا ماكس على ارتداء ملابس النوم، وتقبله متمنية له ليلة سعيدة. تنظف أسنانها، متفادية النَّظر إلى نفسها في المرآة، وتعود إلى الطَّابق السُّفلي، وتقف ناظرة عبر نافذة الباب الأمامي. في القبو، يسيِّر ألبرت قطاراته عبر عالمه المطلي بدقة، تحت النَّفق، فوق جسره المتحرك الكهربائي، الصَّوت خافت هنا في الأعلى، لكنه قاسٍ، صوت يتغلغل في خشب المنزل.

تحمل يوتا الحقيبة إلى المكتب في غرفة نومها، وتضعها على الأرض وتصحح عدداً آخر من أوراق امتحانات طلابها. ثم عدداً آخر. يمكنها سماع صوت القطارات تتوقف، ثم تستأنف دندنتها الرتيبة.

تحاول أن تصحح امتحاناً ثالثاً، لكن لا تستطيع التركيز، الأرقام تنجرف عبر الصَّفحات، وتتجمع في الأسفل في أكوام غامضة. تضع الحقيبة في حجرها.

عندما ذهبت هي وألبرت في بداية زواجهما في رحلات عمل، كانت يوتا تستيقظ في ساعات ما قبل الفجر وتتذكر تلك الليالي الأولى بعد مغادرة فرنر إلى شولبفورتا وتحس مرة أخرى بألم غيابه القاسي.

ينفتح سحّاب الحقيبة بسهولة على الرغم من أنه طاعن في القدم. في الدّاخل مغلّف سميك وطرد مغطى بصحيفة. عندما تفضُّ الصحيفة، تجد مجسّم منزل، مرتفع وضيق، لا يفوق حجمه حجم قبضتها.

يحتوي المغلّف على الدّفتر الذي أرسلته إليه قبل أربعين عاماً. كتاب أسئلته. تلك الأحرف المتصلة الصّغيرة المثنية، كل حرف يميل قليلاً نحو الأعلى. رسومات، مخططات، صفحات من قوائم.

شيء يبدو مثل خلّاط مزود بدوّاسات دراجة هوائية.

محرك لطائرة مصغرة.

لماذا لدى بعض الأسماك شاربان؟

هل صحيح أن القطط تكتئب عندما تنطفئ الشُّموع؟

لماذا لا تموت جميع الأسماك عندما يضرب البرق البحر؟

بعد ثلاث صفحات كان عليها أن تغلق الدفتر. تتقلب ذكريات خارجة من رأسها وتسقط على الأرض. سرير فرنر في العلية، الجدار فوقها محجوب بلوحات رسمت فيها مدناً متخيلة. صندوق الإسعافات الأولية والراديو والسّلك الممدود من النافذة وعبر الإفريز. في الطّابق الأرضي، تسير القطارات عبر مخطط ألبرت المكون من ثلاث طبقات، وفي الغرفة المجاورة يشنُّ ابنها معارك في نومه، شفاه تتمتم، أجفان تنطوي، ويوتا تريد من الأرقام أن تعود وتعثر على أماكنها على أوراق امتحانات طلابها. تعيد فتح الدفتر.

لماذا تثبت عقدة الأنشوطة؟

إذا أمسكت خمس قطط بخمسة جرذان في خمس دقائق، كم عدد القطط المطلوب للإمساك بمئة جرذ في مئة دقيقة؟

لماذا يرفرف العلم في الريح بدلاً من أن يقف باستقامة؟

تجد مغلفاً قديماً مختوماً مدسوساً بين الصَّفحتين الأخيرتين، كُتب «إلى فريدريك» في المقدمة. فريدريك: شريك فرنر في المنامة الذي اعتاد أن يكتب عنه، الفتى الذي أحبَّ الطيور.

يرى ما لا يراه الآخرون.

ما الذي فعلته الحرب بالحالمين؟

عندما يصعد ألبرت أخيراً، تبقي رأسها خفيضاً وتتظاهر بأنها تصحح الأوراق. يخلع ثيابه ويئن قليلاً وهو يأوي إلى السَّرير، ويطفئ مصباحه، يتمنى لها ليلة سعيدة، وهي لا تزال جالسة.

سان مالو

أنهت يوتا التصحيح، وماكس في عطلة مدرسية، وعلاوة على أنه يذهب إلى المسبح كل يوم، يضجر والده بالألغاز، يصنع ثلاثمئة طائرة من تلك الطائرات التي علّمه العملاق كيفية صنعها، ألن يكون جيداً من أجله أن يزور بلداً آخر، ويتعلّم بعض الفرنسية، ويرى المحيط؟ تطرح تلك الأسئلة على ألبرت لكن كلاهما يعرف أنها هي من ينبغي لها أن تمنح الإذن. أن تذهب بنفسها، وأن تأخذ ابنهما.

في السادس والعشرين من شهر حزيران، قبل بزوغ الفجر بساعة، يحضّر ألبرت ست شطائر من لحم الخنزير ويلفها في صفيحة. ثم يقود يوتا وماكس إلى المحطة في سيارة البرينز 4 ويقبلها على شفتيها، وتركب القطار واضعة دفتر فرنر والمنزل المصغر في محفظتها.

تستغرق الرحلة قرابة اليوم. عند وصولهما إلى «رين»، كانت الشّمس قد نزلت فوق خط الأفق، وتنبعث رائحة سماد دافئ من النوافذ المفتوحة، وتخفق صفوف من أشجار مقطوعة القمّة. تتبع نوارسُ وغربانٌ بأعداد متساوية جراراً عبر ما يخلفه من غبار. يأكل ماكس شطيرة ثانية من لحم الخنزير ويعيد قراءة كتاب مصوّر، وصفائح من زهور صفراء تتوهج في الحقول، ويوتا تتساءل إذا ما نبتت أي منها فوق عظام أخيها.

قبل حلول الظلام، يصعد رجل على متن القطار، متأنق، ذو ساق

صناعية. يجلس بجانبها ويشعل سيجارة. تقبض يوتا على حقيبتها بين ركبتيها، هي واثقة من أنه من مصابي الحرب، وأنه سوف يحاول التحدث إليها، وأن فرنسيتها الضَّعيفة سوف تخونها. أو أن ماكس سوف يقول شيئاً. أو أن في وسع الرجل أن يعرف.

ربما تنبي رائحتها عن كونها ألمانية.

سوف يقول: لقد فعلت هذا بي.

من فضلك، ليس في حضرة ابني.

لكن القطار يبدأ بالتحرك مهتزاً، والرجل ينهي سيجارته ويبتسم لها ابتسامة غافلة، وفي الحال يغط في النوم.

تقلب مجسم المنزل بين أصابعها، يصلان إلى سان مالو نحو منتصف الليل، وسائق سيارة الأجرة يتوقف بهما عند فندق في ساحة «شاتوبريان». يقبل الموظف النقود التي صرفها ألبرت لها، وماكس يستند على وركها شبه نائم، تخشى كثيراً التَّحدث بفرنسيتها، حتى أنها تنام جائعة.

في الصَّباح يجذبها ماكس عبر فجوة في الجدران القديمة، وخارجاً نحو الشَّاطئ. يجري على الرمل بسرعة كبيرة، ثم يتوقَّف ويحدِّق في الأسوار المرتفعة فوقه، كما لو أنه يتخيَّل راياتٍ ومدافعَ وأقواساً قروسطية امتدت على طول المتاريس.

لا تستطيع يوتا أن تزيح عينيها عن المحيط. إنه أخضر زمردي وكبير بشكل يتعذَّر إدراكه. يميل شراع وحيد أبيض مبتعداً عن المرفأ. يظهر زوج من مراكب الصَّيد على الأفق ويختفيان بين الأمواج.

أحياناً أضبط نفسي أحدِّق فيه وأنسى واجباتي. إنَّه يبدو كبيراً بما يكفي لاحتواء كل ما قد يشعر به أي شخص على الإطلاق.

يدفعان قطعة نقدية كي يصعدا برج القصر. يقول ماكس: «هيا» ويصعد

الأدراج الضيقة المتمعّجة، ويوتا تنطلق من خلفه، كل ربع دورة تظهر نافذة ضيقة من سماء زرقاء، في الواقع، ماكس يجرها على الدرج.

من القمّة، يشاهدان هيئات السُّياح الصغيرة، يتنزهون مروراً بواجهات المتاجر. كانت قد قرأت عن الحصار، وأمعنت النَّظر في صور للبلدة القديمة قبل الحرب. لكن الآن، وهي تتطلع عبر المنازل الكبيرة المهيبة، مئات الأسطح، لا تستطيع أن ترى أثاراً للقصف أو الحفر أو المباني المدمرة. تبدو البلدة كما لو أنها استبدلت كلياً.

يطلبان فطائر «الجاليت» لوجبة الغداء. تتوقع تحديقاً ما، لكن لا أحد يلتفت ولو أدنى التفاتة. يبدو النَّادل أنه لا يعرف ولا يهتم لكونها ألمانية. في الأصيل، تقود ماكس عبر قوس عال على الجانب القصي من المدينة يدعى «بورت دو دينان». يعبران رصيف الميناء ويصعدان إلى رأس بحري موائم عبر مصبٍّ نهر على الجانب الآخر من المدينة القديمة. في داخل المتنزه يوجد أطلال حصن نمت فيها الأعشاب الضَّارة بكثرة. يتوقف ماكس عند كل الحواف الشَّاهقة على طول الممر ويرمي الحصى في البحر.

يصادفان كل مئة خطوة على طول الدَّرب، متراساً فولاذياً كبيراً يمكن لجندي أن يسدد نيران مدفعيته نحو أي شخص يحاول احتلال التلة. بعض من هذه القلاع الصَّغيرة مندَّبة كثيراً بالاعتداءات حتى أنها لا تستطيع أن تتخيل إلا بالكاد وابل النيران والسُّرعة ورعب القذائف المرسلة عليها. قدم فولاذية تبدو كما لو أنها قد تحولت إلى زبدة دافئة وحفرت بأصابع طفل.

كيف كان يبدو التواجد هنا.

الآن المكان يعج بأكياس رقائق البطاطا، أعقاب السَّجائر، أوراق التغليف. ترفرف أعلام أميركية وفرنسية من قمة تلة عند مركز المتنزه.

لافتات تقول: هنا تحصَّن الألمان في أنفاق تحت أرضية ليقاتلوا حتى الرمق الأخير.

يعبر ثلاثة مراهقين ضاحكين ويراقبهم ماكس باهتمام شديد. على جدار إسمنتي مليء بالندوب ومبقع بالإشنيات ثبتت لوحة حجرية صغيرة: هنا قتل «باي جاستون مارسيل» عن عمر 18 سنة، قضى نحبه من أجل فرنسا في الحادي عشر من شهر آب عام 1944. تجلس بوتا على الأرض. البحر ثقيل ورصاصي. ما من لوحات للألمان الذين قضوا نحبهم هنا.

•

لماذا أتت؟ ما الإجابات التي تأمل بالعثور عليها؟ في صباح يومهما الثاني، يجلسان في ساحة «شاتوبريان» في الجهة المقابلة للمتحف التَّاريخي، حيث مقاعد ثابتة مقابل أحواض زهور مطوَّقة بأنصاف حلقات معدنية تصل حتى ارتفاع قصبة السَّاق. تحت السَّقائف، يستعرض سياح ستراً مخططة بالأبيض والأزرق، ورسوماً مائية مؤطرة لسفن القراصنة. أب يغني وهو يلف ابنة بذراعه. يرفع ماكس بصره عن كتابه ويقول:

- أمي، ما الشَّيء الذي يدور حول العالم لكنه يبقى في زاوية؟

- لا أعرف ماكس.

- طابع بريدي.

يبتسم لها.

تقول: «سأعود».

الرجل خلف نضد المتحف ملتحٍ، ربما في الخمسين من عمره. عجوز بما يكفي لأن يتذكر. تفتح محفظتها وتفضُّ غلاف المنزل الخشبي المحطم جزئياً، وتقول بأحسن فرنسية ممكنة: «كان هذا في حوزة أخي. أعتقد أنه وجده هنا. في أثناء الحرب».

يهزُّ الرجل رأسه، وتعيد المنزل إلى محفظتها. ثم يطلب رؤيته ثانية. تضع المجسَّم تحت المصباح وتقلبه فيكون بابه الأمامي الغائر بمواجهته.

يقول أخيراً: «نعم». يومئ لها أن تنتظر في الخارج، وبعد لحظة يقفل الباب خلفه، ويقودها وماكس عبر الشَّوارع الضيِّقة والمتحدِّرة. بعد عدد ليس بقليل من المنعطفات يمنة ويسرة، يقفون أمام المنزل. نظير حقيقي للمنزل الصَّغير الذي يدوِّره ماكس الآن في يديه.

«المنزل رقم 4 شارع فوبوريل». يقول الرجل: «منزل عائلة لوبلان، تم إعادة تقسيمه إلى شقق للاصطياف منذ سنوات».

الإشنيات تلطِّخ الحجر، معادن راشحة خلَّفت زركشة مخرَّمة من البقع، أصص زهور تزيِّن النَّوافذ، تزدهر فيها نبتات الجيرانيوم. هل يمكن أن يكون فرنر قد صنع المجسَّم؟ اشتراه؟

تقول: «هل كان هناك فتاة؟ هل تعرف عن الفتاة؟».

– نعم كان هناك فتاة كفيفة البصر أقامت في هذا المنزل خلال الحرب. روت أمي قصصاً عنها. رحلت حالما انتهت الحرب.

تومض نقاط خضراء ومضات سريعة متتالية عبر بصر يوتا، تشعر كما لو أنها كانت تحدِّق نحو الشَّمس.

يشدُّها ماكس من رسغها: «أمي، أمي».

تقول مرتبكة بالفرنسية:

– أي سبب قد يكون أوصل مصغر هذا المنزل إلى حوزة أخي؟

– ربما الفتاة التي أقامت هنا قد تعرف؟ في وسعي أن أجد لكِ عنوانها.

«أمِّي، أمِّي انظري». يقول ماكس،ثم يدفعها بشدَّة ليجذب انتباهها. تنظر أسفل. «أظن أن هذا المنزل الصَّغير ينفتح. أظن أن هناك طريقة لفتحه».

مختبر

تدير ماري لور لوبلان مختبراً صغيراً في متحف التّاريخ الطبيعي في باريس، وقد أسهمت بجهود مهمة في بحوث ودراسات علمية عن الرّخويات: دراسة علمية عن الأساس المنطقي التّطوري للطيّات في أصداف جوزة الطِّيب الإسفنجية في غرب إفريقيا، وورقة بحثيّة غالباً ما يتمّ الاستشهاد بها عن الازدواجية الجنسية عند الحلزونيات الكاريبية. كانت قد سمّت نوعين جديدين من الحيوانات الرّخويّة. وفي أثناء تحضيرها لنيل شهادة الدكتوراه، سافرت إلى بورا بورا وبيميني، خاضت على الحيّدات البحرية في قبّعة شمسيّة مع جردل للجمع وحصدت الحلزونات من ثلاث قارات.

ماري لور ليست جامعة، كما كان حال الدكتور جيفار، مكدّساً يتطلع دوماً إلى توزيع سريع لجداول نظام، عائلة، جنس، أنواع، ونويعات. تحب أن تكون بين المخلوقات الحيّة، سواء على الحيدات البحرية أو في أحواضها. أن تجد الحلزونات تزحف على طول الصُّخور، تلك الكائنات الصّغيرة الرطبة تصفّي الكالسيوم من الماء، وتغزله في أحلام قشيبة على ظهورها - هذا كافٍ. أكثر من كافٍ.

سافرت هي وإيتيين كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ذهبا إلى سردينيا واسكتلندا، وركبا السّطح العلوي لحافلة مطار لندن عندما مرّت بخفّة

تحت الأشجار. اشترى جهازي راديو ترانزستور جميلين، فارق الحياة برفق في حوض الاستحمام، عن عمر ناهز الثانية والثمانين، وأورثها مالاً وفيراً.

بالرغم من استئجار محقِّق، وإنفاق آلاف الفرنكات، والبحث الدقيق في أكداس من الوثائق الألمانية، ماري لور وإيتيين، لم يستطيعا يوماً معرفة ما حدث بالضبط لوالدها. أثبت لهما أنه كان معتقلاً في معسكر عمل دعي «بريتينو» عام 1942. وكان هناك سجل كتبه طبيب عسكري في مركز احتجاز فرعي في كاسل، ألمانيا، عن أن دانيل لوبلان أصيب بالإنفلونزا في الربع الأول من عام 1943. ذلك كل ما لديهم.

لا تزال ماري لور مقيمة في الشَّقة التي نشأت فيها، لا تزال تسير إلى المتحف. أحبَّت مرتين. الأول كان عالماً زائراً لم يعد يوماً، والثَّاني كان كندياً يدعى جون، نثر أشياء في كل غرفة دخلها - ربطات عنق، عملات معدنية، جوارب، نعناع لتطييب رائحة الفم - التقيا في الدراسات العليا، انطلق من مخبر إلى آخر بفضول مذهل لكن بدأب ضئيل. أحب تيارات المحيط والعمارة وكتب تشارلز ديكنز، وتنوعه جعلها تشعر بمحدوديتها، متخصصة بعمق زائد. عندما حملت ماري لور، انفصلا بسلام من دون توهُّج.

ابنتهما هيلين، في التاسعة عشرة من عمرها الآن. قصيرة الشَّعر، قصيرة القامة، عازفة كمان طموحة. رزينة، كما ينحو أبناء المكفوفين لأن يكونوا. تعيش هيلين مع أمها، لكن ثلاثتهم - جون، ماري لور، وهيلين - يتناولون طعام الغداء معاً كل يوم جمعة.

كان من الصَّعب أن تعيش في بداية الأربعينيات في فرنسا من دون أن تكون الحرب المحور الذي تتخذ منه بقية حياتك سبيلاً لولبياً. ماري لور لا تزال حتى الآن غير قادرة على انتعال الأحذية الواسعة للغاية، أو تشم

رائحة اللفت المسلوق، من دون أن يعتريها النُّفور. ولا يمكنها أن تستمع إلى قوائم الأسماء. قوائم بأسماء لاعبي فرق كرة القدم، اقتباسات في خواتم الصُّحف، مقدمات في اجتماعات الكلية - تبدو لها دوماً أثراً باقياً من قوائم السِّجن التي لم تحتوِ يوماً على اسم والدها.

هي لا تزال تعد مصارف المياه: ثمانية وثلاثون في الطريق إلى البيت من مختبرها. تنمو زهور على شرفتها الصَّغيرة المسيجة بالحديد المطاوع، وفي الصَّيف يمكنها تخمين الوقت في أثناء النهار من تلمُّس بتلات زهرة الربيع عندما تتفتح في المساء، ومعرفة عرض كل واحدة منها. عندما تخرج هيلين مع أصدقائها وتصبح الشَّقة شديدة الهدوء، تمشي ماري لور إلى الحانة ذاتها: «لو فيلاج مونج»، تماماً عند حديقة النباتات، وتطلب بطاً مشوياً على شرف الدكتور جيفار.

هل هي سعيدة؟ هي سعيدة لأجزاء من كل يوم. على سبيل المثال، عندما تقف تحت شجرة، تصغي إلى الأوراق تتذبذب في الريح، أو عندما تفتح طرداً من جامع وتندفع رائحة المحيط القديمة من الأصداف. عندما تتذكر قراءة جول فيرن لهيلين، وهيلين تغطُّ في النوم بجانبها، الوزن الثقيل الحار لرأس الفتاة على أضلاعها.

مع ذلك هناك ساعات، عندما تتأخر هيلين، ويثقل القلق كاهل ماري لور، وتتكئ على طاولة المختبر وتصبح واعية لجميع الغرف الأخرى في المتحف من حولها، الخزائن ملأى بالضَّفادع المحفوظة وثعابين الماء والديدان، الصَّناديق ملأى بالبراغيث المثبتة وأوراق السَّرخس المضغوطة، الأقبية ملأى بالعظام، ويساورها شعور مفاجئ بأنها تعمل في ضريح، وأن الأقسام مقابر منظمة، وأن كل هؤلاء الناس - العلماء والحراس والخفراء - يشغلون صالات عرض الموتى.

لكن مثل هذه اللحظات قليلة ومتباعدة. في مختبرها، ستة أحواض

أسماك تحتوي على مياه بحرية تبقبق على نحو مطمئن، على الجدار الخلفي تستند ثلاث خزائن تحتوي كل واحدة على أربعمئة درج، أنقذت قبل سنوات من مكتب الدكتور جيفار. كل خريف، تدرس صفاً لطلاب جامعيين، وطلابها يأتون ويذهبون، تفوح منهم رائحة اللحم المملح، أو ماء الكولونيا، أو البنزين من دراجاتهم البخارية، وتود أن تسألهم عن حياتهم، أن تتساءل عن المغامرات التي عاشوها، أي رغبات، أي حماقات سرية يحملون في قلوبهم.

ذات مساء يوم أربعاء من شهر تموز، يقرع مساعدها بهدوء على باب المختبر المفتوح. أحواض تبقبق ومرشّحات تدندن وسخانات أحواض الأسماك تطقطق عند اشتغالها أو توقفها عن العمل. يقول إن هناك امرأة ترغب في رؤيتها. تبقي ماري لور كلتي يديها على مفاتيح آلتها الكاتبة بطريقة بريل.

– جامعة؟

– لا أظن ذلك، دكتورة. تقول إنها حصلت على عنوانك من متحف في بريتاني.

أول علائم الدُّوار.

– معها فتى. هما ينتظران في آخر القاعة. هل أخبرها أن تأتي غداً؟

– كيف يبدو شكلها؟

«شعرها أبيض» ينحني أقرب إليها ويقول: «ليست أنيقة الملبس. بشرتها مثل الدَّجاج. تقول إنها تود أن تراكِ بشأن مجسَّم منزل؟».

في مكان ما خلفها تسمع ماري لور الصَّوت الرنان لعشرة آلاف مفتاح ترتعش على عشرة آلاف وتد.

– دكتورة لو بلان؟

الغرفة مالت. خلال لحظة سوف تزلق الحافَّة.

زائرة

تقول ماري لور: «تعلمتِ الفرنسية عندما كنت طفلة» ولو أنها لا تعرف على وجه اليقين درجة إتقانها.

- نعم. هذا ابني، ماكس.

«نهارك سعيد». يتمتم ماكس بالألمانية. يده دافئة وصغيرة.

تقول ماري لور: «هو لم يتعلم الفرنسية في صغره»، وكلاهما تضحكان للحظة قبل أن تصمتا.

تقول المرأة: «جلبت شيئاً...» تعرف ماري لور أنه مجسَّم المنزل على الرغم من أنه مغلف بالصَّحيفة، يبدو كما لو أن هذه المرأة رمت نواة مذوَّبة من ذاكرة في يديها. تقف لكن بصعوبة.

تقول لمساعدها: «فرنسيس، هل في وسعك أن تري ماكس شيئاً في المتحف للحظة؟ ربما الخنافس؟».

- بالتأكيد، سيدتي.

تقول المرأة شيئاً لابنها بالألمانية.

يقول فرنسيس: «هل أغلق الباب؟».

- من فضلك.

قفل المزلاج يطقطق. تستطيع ماري لور سماع الأحواض تبقبق،

والمرأة تتنفس، و أصوات الأغطية المطاطية على قوائم المقعد تحتها وهي تتحرك. تعثر بأصابعها على الشُّقوق على جوانب المنزل، منحدر سطحه. كم حملته.

تقول: «والدي صنع هذا».

- هل تعرفين كيف حصل عليه أخي؟

كل شيء يدوِّم عبر الفراغ، يلف حول الغرفة، ثم يصعد عائداً إلى عقل ماري لور. الفتى. المجسَّم. هل فتحه؟ تضع المنزل فجأة كما لو أنه حار للغاية.

لا بد من أن المرأة، يوتا، تراقبها من كثب. تقول كما لو أنها تطلب المعذرة: «هل أخذه منك؟».

تفكر ماري لور: مع مرور الوقت، الأحداث التي تبدو مشوشة، إما تزداد تشوشاً، أو تستقر تدريجياً في المكان. أنقذ الفتى حياتها ثلاث مرات: مرة بعدم فضح إيتيين عندما كان عليه أن يفعل، ومرة بالتخلص من ذلك الرقيب. وثالثة بمساعدتها على الخروج من المدينة.

تقول: «لا».

تقول يوتا وهي تصل إلى حدود ما تعرفه من اللغة الفرنسية: «في تلك الآونة، لم يكن أمراً بالغ السُّهولة أن يكون الإنسان خيِّراً».

- أمضيت معه يوماً. أقل من يوم.

- كم كان عمرك؟

- ستة عشر عاماً في أثناء الحصار. وأنت؟

- خمسة عشر. في نهايته.

- جميعنا كبرنا قبل الأوان. هل...؟

تقول يوتا: «لا».

بالتأكيد. في المرويات بعد الحرب، كان جميع أبطال المقاومة نماذج قوية مفعمة بالحيوية، تمكنوا من صنع مدافع رشاشة من مشابك الورق. والألمان، إما رفعوا رؤوسهم الشقر الإلهية من خلال بوبيات المركبات الحربية المفتوحة ليشاهدوا المدن المحطمة تتداعى أمامهم، أو كانوا مضطربي العقول، معذِّبين جنسياً ليهوديات جميلات. إلى أي فئة انتمى الفتى؟ لقد كان حضوره باهتاً إلى حد بعيد. كان مثل التواجد مع ريشة في الغرفة. لكن روحه افترَّت عن لطف أصيل، ألم تفعل؟

كنا، أختي وأنا، نقطف التُّوت بجوار نهر الرور.

تقول: «كانت يداه أصغر من يدي». تنظف المرأة حنجرتها، «كان قصير القامة بالنسبة إلى عمره، دوماً. لكنه اعتنى بي. كان من الصَّعب عليه ألا يفعل ما كان منتظراً منه. هل قلت هذا كما يجب؟».

- تماماً.

الحوض يقبق. الحلزونات تأكل. لا تستطيع ماري لور أن تخمِّن حجم الآلام التي تحملتها هذه المرأة. والمنزل المصغَّر؟ هل عاد فرنر أدراجه إلى الكهف ليسترده؟ هل ترك الحجر بداخله؟

- قال إنكما كنتما تستمعان إلى برامج عم والدي الإذاعية، وإنكما تمكنتما من الاستماع إليها جميعاً في ألمانيا.

- عم والدك؟

الآن ماري لور تتساءل أي ذكريات تزحف على المرأة الجالسة قبالتها. كانت على وشك أن تقول المزيد عندما توقف وقع أقدام في القاعة عند باب المختبر. يقول ماكس شيئاً مبهماً بالفرنسية. يضحك فرنسيس ويقول: «لا، لا، وراء تعني من خلفنا، ليس وراء بمعنى مؤخرة».

تقول يوتا: «أنا آسفة».

تضحك ماري لور: «إنها غفلة أطفالنا التي تنقذنا».

ينفتح الباب ويقول فرنسيس: «هل كل شيء بخير سيدتي؟».

- نعم فرنسيس، يمكنك الذهاب.

تقول يوتا وتعيد مقعدها تحت طاولة المختبر: «سوف نذهب أيضاً، أردت أن تأخذي المنزل الصغير. أن يكون معك أفضل من أن يكون في حوزتي».

تبقي ماري لور يديها منبسطتين على طاولة المختبر. تتخيل أماً وابنها يتقدَّمان نحو الباب، يد صغيرة مطوية في يد كبيرة، وتشعر بغصَّة.

«انتظري»، تقول: «عندما باع عم والدي المنزل، بعد الحرب، عاد إلى سان مالو وأنقذ التسجيل الوحيد الباقي لجدي، كان يتحدث عن القمر».

- أتذكَّر. والضوء؟ على الوجه الآخر؟

الأرض التي تصدر صريراً، الأحواض المتعكِّرة. حلزونات تنزلق على الزجاج. منزل صغير على الطَّاولة بين يديها.

- اتركي عنوانك مع فرنسيس. التسجيل قديم جداً، لكني سوف أرسله إليك. قد يعجب به ماكس.

طائرة ورقية

«وفرنسيس قال إن هناك اثنان وأربعون ألف درج من النباتات المجففة، وأراني منقار حبّار عملاق وزحّافة بحرية...». ينسحق الحصى تحت أحذيتهما واضطرت يوتا إلى أن تستند على شجرة.

- أمي؟

تنحرف أضواء باتجاهها. ثم تبتعد. «أنا متعبة، ماكس. هذا كل ما في الأمر».

تبسط الخريطة السّياحية وتحاول أن تتعرف إلى طريق العودة إلى الفندق. بضع سيارات في الخارج، وتقريباً كل نافذة يمران بها مضاءة بالضوء الأزرق لشاشات التلفاز. تفكر: إن غياب الجثث كلها، هو ما يسمح لنا بالنسيان. إنه أديم الأرض الذي يُحكم عزلها.

في المصعد، يضغط ماكس الرقم 6 ويمضيان نحو الأعلى. الممر المفروش بالسجاد المفضي إلى غرفتهما. نهر من لون أحمر داكن يتقاطع مع أشباه منحرفات ذهبية اللون. يتناول ماكس المفتاح، ويتلمس القفل ثم يفتح الباب.

- هل أريتِ السَّيدة كيف انفتح المنزل يا أمي؟

- أظن أنها تعرف سلفاً.

تشغِّل يوتا التلفاز وتخلع حذاءها. يفتح ماكس أبواب الشُّرفة ويصنع طائرة من أوراق الفندق. تذكرها نصف كتلة باريس المرئية بالمدن التي رسمتها عندما كانت صغيرة: مئة منزل، ألف نافذة، سرب طيور يدور. على التلفاز، يهرع لاعبون يرتدون الأزرق على طول ملعب يبعد مسافة ألفي ميل. النتيجة ثلاثة مقابل اثنين. لكن الحارس سقط، وأحد لاعبي خط الوسط مسَّ الكرة تماماً بما يكفي حتى تتدحرج ببطء نحو خط الهدف. لا أحد هناك ليركلها بعيداً. تلتقط يوتا الهاتف بجانب السَّرير وتدق تسعة أرقام وماكس يطير الطائرة فوق الشَّارع. تحلق مسافة عدة أقدام وتعلق للحظة، ومن ثم يقول صوت زوجها: «مرحباً».

المفتاح

تجلس في مختبرها تتلمس أصداف «الدوزينيا» واحدة تلو الأخرى في الدُّرج الخاص بها. تومض ذكريات ومضات سريعة متتالية: ملمس ساق بنطال والدها وهي تتشبث به. براغيث الرمل تنزلق بخفة حول ركبتيها. غواصة القبطان نيمو تتذبذب مع لحنه الحزين المفجع عندما عامت عبر السَّواد.

تهزُّ المنزل الصَّغير، ولو أنها تعرف أنه لن يفشي بسره. عاد أدراجه من أجله. حمله، مات معه. أي نوع من الفتيان كان؟ تتذكر كيف جلس وقلَّب صفحات كتاب إيتيين ذاك.

قال: طيور. طائر بعد طائر بعد طائر.

ترى نفسها تنسحب من المدينة المحترقة، تجر غطاء وسادة أبيض. ما أن أصبحت غير مرئية، يلتفت ويعود عبر بوابة هارولد بازان. السُّور متراس متفتت ضخم فوقه. البحر يستقر على الجانب القصي من الكهف. تراه يحلُّ أحجية المنزل الصَّغير. ربما يرمي الماسة في البركة بين آلاف الحلزونات. ثم يغلق صندوق الأحجية ويقفل البوابة ويهرول مبتعداً.

أو يعيد الحجر إلى المنزل.

أو يزلقه في جيبه.

يهمس الدكتور جيفار من ذاكرتها: ذلك أن شيئاً متناهياً في الصِّغر

يمكن أن يكون فائق الجمال. يساوي الكثير. فقط البشر ذوو الإرادة القوية يمكن أن يترفعوا عن مشاعر مثل تلك.

تلوي المدخنة تسعين درجة. تدور بسلاسة كما لو أن والدها شيَّدها للتو. عندما تحاول أن تزلق أول ألواح السَّطح الخشبية الثلاث، تجد أنه يعلق. لكنها تتمكن بطرف قلم من رفع الألواح واحد اثنان ثلاثة. يقع شيء في راحة يدها.

مفتاح حديدي.

بحر اللهب

تأتي من أقبية العالم الذائبة، على عمق مئتي ميل تحت الأرض، بلورة ضمن سلسلة بلورات أخرى. كربون نقي، كل ذرَّة متصلة بأربع جيران بأبعاد متساوية، متماسكة تماماً، ثُمانية الأسطح، لا يشقُّ لها غبار في الصَّلابة. الآن هي قديمة: لا يسبر لها غور كذلك. تنصرم دهور كثيرة العدد. الأرض تنزاح، تهتز، تتمدد. سنة، يوم، ساعة، دفق عظيم صاعد من الماغما يجمع عرقاً من البلورات ويقوده إلى السَّطح، ميل محترق بعد آخر، تبرد داخل صخر الكمبرليت الدَّخيل المدخِّن، وهناك تنتظر. قرناً بعد آخر. مطر، ريح، أميال مكعبة من الجليد. قطعة الحصى تصبح صخرة صغيرة، الصخور تصبح أحجاراً، الجليد ينحسر، بحيرة تتشكل، ومجرات من محار المياه العذبة تخفق أصدافها المليون عند الشَّمس وتنغلق وتموت والبحيرة ترشح بعيداً. نصبٌ من أشجار من قبل التاريخ تنهض وتسقط وتنهض ثانية على التوالي. حتى سنة أخرى، يوم آخر، ساعة أخرى، عندما تقتلع عاصفة حجراً غريباً من واد ضيق وترسله في تيار مصلصل من الرواسب النهرية، حيث يلقى أخيراً، ذات مساء، اهتمام أمير يعرف ما الذي يبحث عنه.

قطع وانصقل، ليتنفس، يمر بين أيدي الرجال.

ساعة أخرى، يوم آخر، سنة أخرى. كتلة من الفحم لا يتجاوز حجمها حبَّة كستناء. تغطيها الإشنيات، زيَّنتها القواقع. زحفت فوقها الحلزونات. تتقلب بين الحصى.

فريدريك

يقيم مع أمه في ضواحي برلين الغربية. شقتهما هي الوسطى في مبنى مكوّن من ثلاث شقق. تطل نافذتها الوحيدة على أشجار الصَّمغ الحلو، ساحة انتظار سيارات واسعة، لا تستعمل إلا بالكاد، تخص المركز التجاري، وطريق سريع من خلفها.

يجلس فريدريك على الشُّرفة الخلفية معظم الأيام ويشاهد الريح تدفع أكياساً بلاستيكية ملقاة عبر السَّاحة. أحياناً تدوِّم عالياً في الهواء وترفرف في حلقات غير متنبأ بها، قبل أن تعلق على الأغصان أو تتوارى عن النظر. يرسم لوالبَ بقلم الرصاص، نازعات السُّدادات الفلينية، مشوشة، داكنة. سوف يغطي صفحة الورق باثنين أو ثلاثة، ثم يقلبها ويرسم على الجانب الآخر. تحتوي الشَّقة على أكوام منها: آلاف على النُّضد، في الأدراج، على حوض المرحاض. اعتادت أمه التخلص من الأوراق عندما لا يكون فريدريك منتبهاً، لكنها استسلمت مؤخراً.

اعتادت أن تقول لأصدقاء: «ذلك الفتى مثل مصنع»، وتبتسم ابتسامة يائسة قصدت منها أن تبدو شجاعة.

يأتي بعض الأصدقاء الآن. البعض غادروا.

ذات يوم أربعاء - لكن ماذا تعني أيام الأربعاء بالنسبة إلى فريدريك؟ - تدخل أمه حاملة البريد وتقول: «هناك رسالة لك».

في العقود التي مرت بعد الحرب، كانت غريزتها تقودها إلى الاختفاء. أن تخفي نفسها، وما حدث لابنها. لم تكن الأرملة الوحيدة التي تشعر كما لو أنها كانت شريكة في جريمة لا يصح ذكرها. داخل المغلف الكبير رسالة ومغلف أصغر. الرسالة مرسلة من امرأة في إيسن تروي طريق المغلف الأصغر من أخيها إلى أسير أمريكي في معسكر حربي في فرنسا، إلى إدارة مستودع عسكري في نيوجرسي، إلى منظمة المحاربين القدماء في برلين الغربية. ثم إلى رقيب سابق، ثم إلى المرأة التي تكتب الرسالة.

فرنر. لا يزال في وسعها تصور الفتى: شعر أبيض، أيدٍ خجولة، ابتسامة عذبة. صديق فريدريك الوحيد. تقول بصوت مرتفع: «كان قصيراً جداً».

والدة فريدريك تريه المغلف غير المفتوح - لونه البني الداكن، مغضّن، وقديم، اسمه مكتوب بأحرف صغيرة متصلة - لكنه لا يبدي اهتماماً. تتركه على النضد مع هبوط الغسق، وتكيل كوباً من الأرز وتضعه ليغلي، تضيء كل المصابيح بالإضافة إلى الإضاءة العلوية كما تفعل دوماً، ليس لترى، لكن لأنها وحيدة، لأن الشُّقق على كلا الجانبين فارغة، ولأن المصابيح تمنحها شعوراً كما لو أنها تنتظر أحداً. تسلق له الخضار. تضع الملعقة في فم فريدريك ويهمهم وهو يبلع: هو سعيد. تمسح ذقنه وتضع صفحة من الورق أمامه ويأخذ قلمه ويبدأ بالرسم.

تملأ المغسلة بماء الصَّابون. ثم تفتح المغلَّف. في الدَّاخل صورة مطوية بالألوان لطائرين. طائر الذُّعرة المائي. ذكر ٦. أنثى 2. طائران على ساق لفت هندي. تحدق في المغلف بحثاً عن مكتوب، شرح، لكن لا تجد شيئاً. يوم اشترت ذلك الكتاب لفريدي: استغرق بائع الكتب وقتاً طويلاً في لفه. لم تفهم مصدر جاذبيته لكنها عرفت أن ابنها قد يحبه.

قال الأطباء إن فريدريك لا يتذكر شيئاً، وإن دماغه لا يقوم إلا بالوظائف الأساسية، لكن هناك لحظات تثير استغرابها. تبسط التغضنات

قدر ما تستطيع وتقرب المصباح الأرضي وتضع الصورة المطبوعة أمام ابنها. يميل برأسه وتحاول إقناع نفسها أنه يتفحصها. لكن عينيه رماديتان وغائرتان وضحلتان، وبعد لحظة يعود إلى لوالبه.

بعد أن تنهي غسيل الأطباق، تقود فريدريك إلى الخارج نحو الفناء العالي، كما جرت العادة، حيث يجلس ومريلته لا تزال حول عنقه، يحدِّق في غياهب النسيان. سوف تحاول ثانية أن تعرض عليه صورة الطائر غداً.

إنه الخريف، وزرازير تحلق في أسراب كبيرة خافقة فوق المدينة. أحياناً تفكر أنه يزداد نشاطاً عندما يراها، يسمع كل تلك الأجنحة تندفع وتندفع. وهي جالسة، تتطلع عبر صف الأشجار، نحو ساحة انتظار السيارات الكبيرة الفارغة، تنجرف هيئة معتمة عبر هالة مصباح شارع. تختفي من ثم تعاود الظهور، وفجأة وبصمت تحط على السِّياج على مسافة تقل عن ستة أقدام.

إنها بومة. كبيرة بحجم طفل. تدور عنقها وتطرف بعينيها الصَّفراوين، وفي رأسها تهدر فكرة واحدة: لقد أتيتِ من أجلي.

يجلس فريدريك باستقامة.

تسمع البومة شيئاً. تلبث هناك، تصغي بشدة كما لم ترَ في حياتها شيئاً يصغي. يحدِّق فريدريك ويواصل التَّحديق.

ثم تذهب: تخفق بجناحيها ثلاثاً مسموعة ويبتلعها الظَّلام.

تهمس: «رأيتها؟ هل رأيتها فريدي؟».

يواصل التحديق في الظلال. لكن ليس هناك سوى الأكياس البلاستيكية تحف في الأغصان فوقهما وعشرات الكرات من أضواء اصطناعية تتوهج في الخلف في ساحة انتظار السيارات.

يقول فريدريك:

- أمي؟ أمي؟

- أنا هنا فريدي.

تضع يدها على ركبته. تنغلق أصابعه حول ذراعي الكرسي. يتصلب جسده برمته. تبرز عروق في عنقه.

- فريدريك؟ ما الأمر؟

ينظر إليها. عيناه لا تطرفان: «ماذا نفعل، أمي؟».

- أوه فريدي. نحن فقط جالسان. نحن نجلس ونرنو إلى الليل».

ثلاث عشرة

2014

تعيش لتشهد مطلع القرن الجديد. لا تزال على قيد الحياة. إنه صباح يوم سبت في بداية شهر آذار، وحفيدها ميشيل يصحبها من شقتها، ويسير معها عبر حديقة النباتات. يومض صقيع في الهواء، وماري لور تمشي بتثاقل، عصاها أمامها وشعرها الخفيف يهب جانبياً وظلال الأشجار العارية تنجرف نحو الأعلى عندما تتخيل قطعاناً من قناديل البحر من نوع «رجل الحرب البرتغالي» تنجرف، جارة مجسَّاتها الطويلة من خلفها.

اعتلت طبقات رقيقة من الجليد قمم برك صغيرة في الدروب المفروشة بالحصى. كلما تعثر على البعض بعصاها، تتوقف وتنحني وتحاول أن ترفع الطبقة الرقيقة من دون أن تكسرها. كما لو أنها ترفع عدسة إلى عينها. ثم تعيدها بتأنٍّ.

الفتى صبور، لا يمسك بمرفقها، إلا عندما يشعر بحاجتها إلى ذلك.

يتجهان نحو متاهة الأسيجة في الزاوية الشَّمال غربية من الحدائق. يبدأ الدرب الذي يسيران عليه بالارتقاء، يتلوى بثبات نحو اليسار. صعود، وقفة، التقط أنفاسك. صعود ثانية. عندما يصلان إلى شرفة المراقبة القديمة الحديدية عند القمة، يقودها إلى مقعدها الضيق ويجلسان.

ما من أحد آخر هنا: إما أن البرد قارس، أو الوقت مبكر جداً، أو كلاهما. تصغي إلى صوت الريح تنخل عبر تخاريم تاج الشُّرفة، وجدران المتاهة ثابتة من حولهما، باريس تدمدم في الأسفل، الخرخرة الناعسة لصباح السَّبت.

- سوف تبلغ الثانية عشرة من عمرك السَّبت القادم، أليس كذلك يا ميشيل؟

- أخيراً.

- أنت مستعجل على بلوغ الثانية عشرة؟

- تقول أمي إنه يمكنني قيادة الدراجة الآلية عندما أبلغ الثانية عشرة.

«آه»، تضحك ماري لور: «دراجة آلية».

تحت أظافرها، يصنع الجليد بلايين من الأكاليل المتناهية في الصِّغر، والتيجان على شرائح المقعد الخشبية، شبيكة من التعقيد المذهل.

يضغط ميشيل على جانبها ويصبح هادئاً للغاية. فقط يداه تتحركان. تسمع نقرات صغيرة، ضغط على أزرار.

- ماذا تلعب؟

- أمراء الحرب.

- تلعب ضد الحاسوب؟

- ضدَّ جاك.

- أين هو جاك؟

يظل انتباه الفتى على اللعبة. لا يهم أين يكون جاك: جاك في داخل اللعبة. تجلس وعصاها تنثني على الحصى والفتى ينقر على أزراره في اضطراب متقطِّع.

يهتف بعد حين: «آه!» وتصدر اللعبة عدة زقزقات عازمة.

- هل أنت بخير؟

«لقد قتلني». يعود الانتباه إلى صوت ميشيل، يرفع بصره ثانية. «جاك، أعني أنا ميت».

- في اللعبة؟

- نعم. لكني أستطيع دوماً أن أبدأ من جديد.

تحتهما تجرف الريح الجليد عن الأشجار. تركز شعورها على الشَّمس التي تلمس ظاهر يديها. على دفء حفيدها بجانبها.

- جدتي؟ هل تمنيت شيئاً كهدية في عيد ميلادك الثاني عشر؟

- نعم. كتاب لجول فيرن.

- الكتاب نفسه التي تقرأه أمي لي؟ هل حصلت عليه؟

- نعم. نوعاً ما.

- كان هناك الكثير من أسماء الأسماك المعقدة في ذلك الكتاب (تضحك) ومرجان ورخويات أيضاً.

- لا سيما رخويات. إنه صباح جميل، جدتي، أليس كذلك؟

- جميل جداً.

يسير الناس في دروب الحدائق في الأسفل، والريح تترنَّم في الأسيجة، حفيف أشجار الأرز العتيقة الكبيرة عند مدخل المتاهة. تتخيل ماري لور الموجات الإلكترومغناطيسية تجوب آلة ميشيل دخولاً وخروجاً، تلتف من حولهما، تماماً كما اعتاد إيتيين أن يشرح، غير أن عدد المرات التي تجتاز فيها الهواء تفوق بألف مرة عددها في عهده، ربما بمليون مرة. سيول جارفة من محادثات نصيَّة، مدٌّ من محادثات عبر الهاتف الخلوي، من برامج تلفزيونية، من بريد إلكتروني، شبكات رحيبة من الألياف والأسلاك تضافرت فوق المدينة وتحتها، تخترق المباني، تلتف بين المرسلات في أنفاق المترو، بين الهوائيات فوق المباني، من أعمدة الإنارة وفيها مرسلات خلوية، إعلانات تجارية لكارفور وايفيان، وحلويات جاهزة للخبز تومض في الفضاء، وتعود إلى الأرض ثانية، أنا سوف أكون متأخراً أو - ربما علينا أن

نحجز؟ وانتِق أفوكادو و - ماذا قال؟ وعشرة آلاف أفتقدك، وخمسين ألف أحبك، رسائل كراهية ورسائل تذكير بمواعيد وتحديثات السُّوق، إعلانات المجوهرات، وإعلانات القهوة، إعلانات الأثاث، ترفرف غير مرئية فوق أحياء باريس، فوق ساحات المعارك والقبور، فوق منطقة الآردن، فوق نهر الراين، فوق بلجيكا والدنمارك، فوق المناظر الطبيعية المندَّبة، المتبدلة أبداً، التي ندعوها بالدُّول. وهل يصعب كثيراً أن تصدق أن الأرواح قد تسافر أيضاً على تلك الدروب؟ وأن والدها وإيتيين والسَّيدة مانِك والفتى الألماني الذي يدعى فرنر بفينغ، قد يندفعون في السَّماء أسراباً، مثل طائر البلشون الأبيض، مثل النوارس، مثل الزرازير؟ وأن مكوكات الأرواح العظيمة المحلقة في الأرجاء، بهتت، لكنها مسموعة لو أصغت من مسافة قريبة بما فيه الكفاية؟ يحلقون فوق المداخن، يركبون الأرصفة، ينزلقون عبر سترتك وقميصك وعظام صدرك ورئتيك، ويخرجون من الجانب الآخر، الهواء مكتبة وسجل لكل حياة عيشت، لكل عبارة قيلت، لكل كلمة بثت، لا يزال صداها يتردد من خلاله.

تفكَّر: في كل ساعة، يخرج من العالم واحد ممن كانت لهم الحرب ذكرى.

نهض ثانية في العشب، في الزهور، في الأغاني.

يمسك ميشيل بذراعها ويعودان على الدَّرب نفسه، عبر البوابة نحو شارع كوفييه. تمر بمصرف، مصرفين، ثلاثة مصارف أربعة خمسة، وعندما يصلان إلى المبنى الذي تقيم فيه تقول: «يمكنك أن تتركني هنا، ميشيل. هل يمكنك أن تعود بنفسك؟».

- بالتَّأكيد.

- إلى الأسبوع القادم إذاً.

يقبلها قبلة على كل خد: «إلى الأسبوع القادم، جدتي».

تصغي حتى يتبدَّد صوت خطواته، عندما لا يتناهى إلى سمعها سوى زفرات السَّيارات، ودمدمة القطارات، وأصوات الجميع يغذُّون السَّير في البرد.

شكر

أنا مدين بتوجيه الشكر إلى الأكاديمية الأمريكية في روما، إلى Idaho Commission on the Arts، وإلى مؤسسة John Simon Guggenheim Memorial. شكراً لفرنس جيفارد، الذي أحضرني إلى سان مالو لأول مرة. شكراً لبنكي أوريان و كلير ريهال لحماستهم وثقتهم. وشكراً بشكل خاص لـ نان غراهام، التي انتظرت عقداً وأعطت هذا الكتاب قلبها وقلمها والكثير من وقتها.

فضل إضافي إلى كتاب جاك لوسيرا: «ثم كان هناك ضوء»، وكتاب كورزيو مالابارته: «مكسور» وكتاب ميشيل تورنيه: «الغول». إلى كورت كونلي، الذي أبقى الدفق مستمراً من المواد المنسقة إلى صندوق بريدي. إلى أوائل القراء هال وجاك إيستمان ومات كروسبي وجيسيكا ساكس، ميغان تويدي، جون سيلفرمان، ستيف سميث، ستيفاني نيلن، كريس دور، ديك دور، ميشيل موريوملس، كارا واتسون، تيشستون ناب، ميغ ستوري، وإميلي فورلاند. وخاصة لأمي، مارلين دور،التي كانت دكتور جيفارد، وجول فيرن الخاصين بي.

أكبر شكراً إلى أوين وهنري، اللذين عاشا مع هذا الكتاب كل حياتهما، وإلى شونا، لولاها لما وجد هذا، وعليها يعتمد كل هذا.

أنثوني دور

روائي وكاتب قصة أمريكي. ولد سنة 1973.

صدر له إلى الآن 5 كتب، حاز على عدة جوائز أدبية، منها جائزة بوليتزر عن فئة الأعمال الخيالية 2015 لروايته «كل الضوء الذي لا يمكننا رؤيته».

أماني لازار

مترجمة سورية من مدينة حمص.

خريجة كلية الحقوق في جامعة دمشق.

صدر لها عدة ترجمات منها:

«اسأل الغبار» تأليف: جون فانتي. «أسرار» تأليف: كنوت هامسن. «جنوب بلا شمال» تأليف: تشارلز بوكوفسكي.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



منذ أن فقدت الطفلة الباريسية ماري لور بصرها وهي تعيش عالمها الخاص، إما بين صفحات الكتب التي يجلبها والدها لها، أو في أروقة المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي حيث يعمل. مسحورة بعجائب المتحف والقصص الخيالية التي تسمعها عن مقتنياته، ولاسيما الجوهرة الغامضة: بحر اللهب. تمضي أيامها مع والدها بروتينها المعتاد، إلى أن تبدأ الحرب لتجبرهما على الهرب بعيداً حاملين سراً خطيراً.

على الجانب الأخر من الحرب، في ميتم في مدينة ألمانية صغيرة، يقضي مراهق ألماني أيامه مع أخته الصغيرة مفتونين بسحر الراديو وقدرته على نقل أخبار وحكايات من بلاد بعيدة. يمضي فرنر خلف هوسه ليصبح خبيراً في تركيب وتصليح الراديوهات، إلى أن تطلبه الحرب فيلتحق بقوات الهندسة في الجيش الإلماني.

عبر قصتهما يحكي أنثوني دور في روايته الساحرة عن الخير الذي قد نراه على الرغم من بشاعة الحرب، وعن ما تفعله الحرب بالحالمين.



منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund





ISBN 978-9933-540-54-8
9 789933 540548